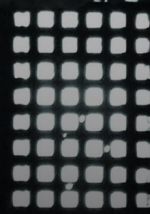


FYODOR DOSTOEVSKY

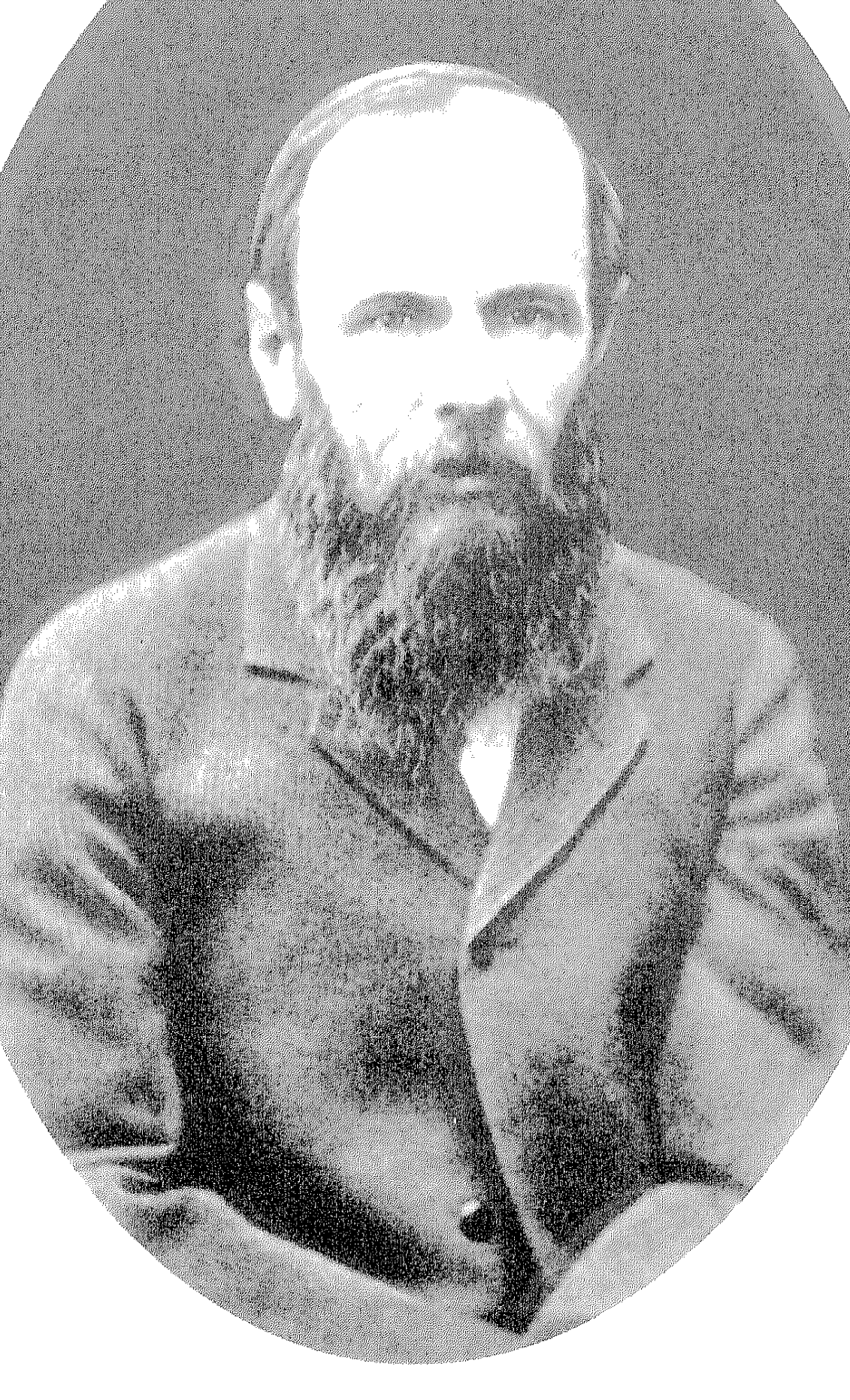
دوستويفسكي



Notes from the  
House of the Dead



ذكريات من منزل الأموات



دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

# جميع الحقوق محفوظة

« ذكريات من منزل الأموات »

ZAPISKI IZ MERTVAGO DOMA

نشرت في مجلة « العالم الروسى » • فأما  
المقدمة والفصل الأول ففي شهر أيلول  
(سبتمبر) ١٨٦٠ ؛ وأما الفصول ١ ، ٣ ، ٧ ،  
وهى الفصول المدرجة تحت عنوان « منزل  
الأموات » و « الشاعر الأولى » ففي شهر كانون  
الثانى (يناير) ١٨٦١ ، وفى شهر نيسان (ابريل)  
١٨٦١ استؤنف نشر « ذكريات من منزل  
الأموات » فى مجلة « الزمان » •

# تقديم

يضم هذا المجلد من أعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة عملا واحدا هو « ذكريات من منزل الأموات » . والحق أن ترجمة عنوان الكتاب على هذا النحو ليست دقيقة كل الدقة ، فإن دوستويفسكى يحدثنا في هذا الكتاب عن « منزل ميت » يدفن فيه البشر أحياء » .

## ذكريات من منزل الأموات

١٨٦٠ - ١٨٦١

لقد لقي هذا الكتاب اقبالا شديدا وأصاب نجاحا عظيما . وقد نشر في ظروف مواتية كما قال أحد معاصريه ، فإن روحا من التسامح والتساهل كانت تسيطر عندئذ على الرقابة ، فظهرت كتب ما كان يتخيل أحد أن تظهر قبل بضع سنين . لقد أحدثت « ذكريات منزل الأموات » أثرا كبيرا في النفوس ، فرأى القراء والنقاد في كاتبها « دانتي » جديدا هبط الى « جحيم » رهيب ، لا سيما وأن هذا الجحيم موجود في الواقع لا في خيال الشاعر وحده . ان هذه الأوصاف الواقعية المرة الكاوية التي تصور عالما لم يكن يعرفه القراء قبل ذلك ، عالم هذا الخليط من السجناء ، عالم الأشغال الشاقة التي يقدمون بعثها ، والمهن التي يتعاطونها ، والتسلية التي يسرون بها عن أنفسهم ، والمستشفى الكريه الذين يعالجون فيه ، ولا سيما العقوبات الجسمية الرهيبة التي تنزل فيهم ، هذه الأوصاف التي يقدمها كاتب موهوب عاش هو نفسه في هذا الجحيم ، قد أثرت في نفوس القراء تأثيرا كبيرا ، وهزتها هزا قويا . حتى الاسكندر الثاني كانت تهطل دموعه على صفحات هذا الكتاب .

ومن الشائق مع ذلك أن نذكر أن رئيس لجنة الرقابة بالعاصمة قد أعتقد أن عليه أن يعترض على نشر الفصل الثاني . وهذه هي الحججة التي تعلق بها : « أليس من الجائز أن يذهب الظن بالبسطاء من القراء الى أن العمل الانساني العظيم الذي تقوم به الحكومة في السجون هو تخفيف للعقاب المخصص لجرائم خطيرة جدا ؟ » . وقد أعد دوستويفسكى عندئذ مذكرة يشرح فيها أن افتقاد الحرية سنين طويلة هو أقصى عقوبة ولكن دوستويفسكى لم تنتهياً له فرصة نشر هذه المذكرة . وفي اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني ( نوفمبر ) عام ١٨٦٠ أذنت الادارة المركزية للرقابة بنشر « ذكريات من منزل الأموات » صارفة النظر عن آراء اللجنة ، مشترطة شرطاً واحداً هو أن تحذف من الكتاب « بعض التعابير التي تعوزها الحشمة » .

ان دوستويفسكى قد بدأ تدوين انطباعاته في سجن أومسك نفسه ، وظلت المذكرات التي دونها نخبأة زمناً طويلاً لدى أحد موظفي المستشفى . ثم عمل دوستويفسكى في كتابة هذه المذكرات بمدينة سيميبيالاتنسك . ولكنه لم يستطع أن ينجز هذا العمل الا حين عودته الى العاصمة . ان هذا الكتاب الذي يفيض بذكريات مروعة رهيبه انما هو ثمرة تجربة شخصية . ان دوستويفسكى يتحدث عما عاناه هو نفسه في السجن . ولئن نسب هذه المذكرات الى رجل سماه الكسندر جوربانتشيكوف ، فان هذا الترمويه لم ينطلي على أحد .

ان الانطباعات الاولى التي يشعر بها دوستويفسكى فظيعة : افتقاد الحرية ، الحياة المشتركة مع قتلة ولصوص . فهذا دوستويفسكى يقول في رسالة له : « كانت المصاحبة المستمرة الدائمة للآخرين تفعل في نفسي فعل السم ، وما تأملت من شيء خلال تلك السنوات الاربع كما تأملت من ذلك العذاب الذي لا يطاق » والشيء الذي كان يشق على نفسه خاصة هو تلك العداوة الشديدة التي كان يشعر بها نحو السجناء لأنه ينتمي الى طبقة السادة الذين يضطهدون أبناء الشعب ملاكين أو ضباطاً أو موظفين . لقد شعر دوستويفسكى في السجن بعزلة رهيبه ، لا سيما وأن القلة القليلة من السجناء الذين كانوا قبل سجنهم ينتمون الى طبقة النبلاء ، لم يشعر نحوها دوستويفسكى بشيء من المودة ولم يجذبه اليها شيء من العاطفة . وهو ينظر الى رفاقه في السجن ، فلا يرى في أول الأمر الا

رجالا غلاظا أفظاظا ليس فيهم أثر من خجل ولا يخالج ضمائرهم شيء من ندم ، وانما هم فجرة مستهترون متأهبون في كل لحظة للتشاجر والتشاتم والسكر وسرقة بعضهم بعضا . بل انه ليرى طباعا كريمة كأنها تجسد الشر المطلق . فمن هؤلاء قاطع الطرق الرهيب أورلوف الذى كان يقتل الصغار والشيوخ بهدوء وبرود ، وكان ينعم بارادة جبارة فهو يحتقر كل عقاب ويحتمل أى قصاص . ومنهم أيضا ذلك التترى جازين الذى يملك قوة خارقة ، ويشعر من يراه أنه أشبه بعنكبوت ضخمة عملاق . لقد كان جازين، فيما قيل، يجد لذة عظيمة في ذبح الأطفال الصغار، في قتلهم بعد أن يمتلىء تلذذا بافزاعهم . ومنهم أيضا رئيس عصاة قطاع الطرق كورينف ، الوحش الكاسر الذى كان لا يشعر بشيء الا الرغبات الجسمية والشهوات الحسية والظمأ الى المباحج، ومنهم أخيرا ٠٠٠٠ ف (أرستوف) ، السيد المنحل الفاجر العاهر المستهتر الذى لا يتورع عن شيء والذى يقول عنه دوستويفسكى انه فى تشووهه الروحى أشبه بكازيمودو فى تشووهه الجسمى . وهنا يطرح دوستويفسكى هذا السؤال : ما هى الجريمة ؟ وما هو قدر الانسان الذى تجاوز الحدود المحرمة ؟ ويمضى دوستويفسكى يهبط الى الأغوار العميقة من النفس الانسانية ويسبر كل ما فى طبيعة الانسان من أعماق لا يسيطر عليها العقل ولا يدركها العقل . ويدرس دوستويفسكى نفسية الجلاد فينتهى الى هذه النتيجة ، وهى أن خير الناس يمكن أن يقسو قلبه بتأثير العادة فاذا هو يصبح حيوانا كاسرا ، وان الدم والسطو يسكران فيولدان التوحش والشذوذ والفساد ، حتى ليؤكد دوستويفسكى أن بذور الغرائز البهيمية موجودة فى جميع معاصريه من الناس تقريبا .

غير أن هذه المشاعر التشاؤمية لا تتغلب على دوستويفسكى . لقد أخذ يميز بين الأشرار والأخيار شيئا بعد شيء ، وأخذ يجد بين السجناء رجالا يمكن أن تفهم جرائمهم بل يمكن أن تعذر من وجهة نظر الأخلاق . هذا آكيم آكيمتش الضابط الصغير الذى أمر باطلاق النار على أمير قوقازى متمرد دون أن يحاكمه وفقا للأصول : انه رجل هادى وقور شريف جاد ؛ وهذا باكلوشين المرح الذى قتل منافسه فى الحب دون أن يريد ذلك تقريبا ، لأنه لم يكن ينوى فى أول الأمر الا أن يروعه بمسدسه ، وهذا نورا الطيب البسيط الساذج الذى حكم بالسجن بتهمة السطو والنهب : انه انسان متدين شريف يلقبه السجناء « نورا الأسد » وهذا على اللطيف الوديع الحجول الذى يشبه أن يكون خفره كخفر العذارى : لقد انضم الى

اخونه في أعمال السلب لا عن ميل الى ذلك، بل لأنه لا يجرو أن يعارضهم .  
 وهذا شيخ ستارودوب المؤمن الذي أشعل النار في الكنيسة الأرثوذكسية  
 وقرر ان يتعذب في سبيل الدين : انه رجل شهم يحترمة اسجناء  
 ويجلونهم . وهذا أوريب المولع بالتهريب ولعا شديدا لا يملك أن يغالبه :  
 انه انسان على جانب عظيم من الشرف والاستقامة والهدوء والوداعة  
 واللطف ، وهذا هو الشاب الوسيم سيرودكين الذي لم يستطع أن يتحمل  
 عبء الخدمة العسكرية فاذا هو بعد ان يحاول الانتحار يقتل رئيسه  
 الضابط لا لشيء الا « أن يغير مصيره » ، وهذا بتروف الذي ضربه رئيسه  
 الكولونيل مارا فاذا هو يقتله ذات مرة في سورة من غضب ، وهذا لوقا  
 الذي اعتقل بتهمة التشرد فلما سمع الميجر يقول له : « أنا قيصر ، أنا  
 الله » لم يطق أن يسمع هذا الكلام فاذا هو يقتل الميجر . هؤلاء في اكثر  
 الأحيان رجال أخرجتهم عن طورهم قسوة مضطهديهم ودفعتهم الى الجريمة  
 دفعا . فواحد ، كما يقول دوستويفسكي ، قد قتل طاغية فاجرا لينقذ  
 شرف خطيبته أو أخته أو بنته ، وواحد هو قن هارب لعله كان يوشك أن  
 يموت جوعا ، قتل واحدا من رجال الشرطة الذين يطاردونه دفاعا عن  
 حريته وعن حياته . ليس المجرمون في كثير من الأحيان الا ضحايا الظروف  
 الاجتماعية التي تحيط بهم ، وليست الجريمة التي يقتترفونها الا مصيبة  
 تنزل عليهم وشقاء يحل فيهم ، فما أصدق غريزة الشعب حين يعطف  
 عليهم ويطلق عليهم اسم « الأشقياء » ! لقد تأثر دوستويفسكي تأثرا  
 عميقا بهذا العطف : ما كان أعظم تأثره بالصدقات التي كان أبناء الشعب  
 يجودون بها على السجناء في سحاء أيام الأعياد ! وما كان أعظم تأثره  
 بحنان ناستاسيا ايفانوفنا المرأة الفقيرة التي كانت تفعل كل شيء في  
 سبيل تخفيف آلام السجناء! وقد لاحظ دوستويفسكي أن أكثر السجناء  
 متدينون ، وأنهم يصلون، وأنهم يتوقون الى رحمة الله ، ويطلبون غفرانه،  
 فاذا هو يقول : ان في كل مكان أشراا ! فمن يدري ؟ قد لا يكون هؤلاء  
 السجناء سرا من غيرهم ، قد لا يكونون أسوأ من أولئك الذين يعيشون  
 خارج الأسوار ! كان دوستويفسكي لا يرى في رفاقه أول الأمر الا وحوشا  
 مفترسة ، ثم اذا هو يرى جوانب الخير في نفوسهم شيئا بعد شيء ، حتى  
 لتتكشف له في بعض الأحيان على حين فجأة ، لدى واحد منهم ، عواطف  
 غنية ومودة قوية وقدرة على الفهم والتعاطف ومشاركة الآخرين آلامهم ،  
 فلا يكاد « يصدق عينيه ولا أذنيه » ! انه حين دنا من هؤلاء المنبوذين



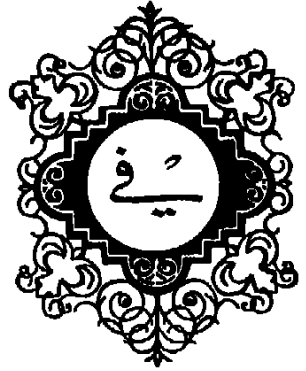
والتصق بهم أصبح لا يخشى أن يقول « ان أبرز سمة وأوضح سمة في شعبنا انما هي شعوره بالعدالة وظمؤه الى العدالة ، فمتى نزعنا القشرة الظاهرة الفظة ، وأنعمت النظر فى البذور الثاوية فى الاعماق رأيت فى هذا الشعب مزايا لم تخطر لك على بال! » حتى أن دوستويفسكى يهتف قائلا قبل خروجه من السجن ، حين أصبح له بين السجناء كثير من الأصدقاء والرفاق الطيبين : نعم يجب أن نعترف بالحقيقة : لقد كان هؤلاء الرجال يملكون كنوزا رائعة . . ولعلمهم كانوا بين أبناء شعبنا أعظمهم مواهب وأكثرهم طاقات لكن ملكاتهم الممتازة قد هلكت الى غير رجعة . فمن المذنب ؟ ان مشكلة الذنب والجريمة والعقاب تحتل مكانا كبيرا فى أعمال دوستويفسكى الذى عانى هذه المشكلة معاناة شخصية أكثر مما عاناها أى كاتب ، حتى لنراه يقول بعد خروجه من السجن بزمن طويل : « لطالما باركت القدر الذى وهب لى أن أعانى هذه التجربة . لقد كان لهذه السنين الأربع التى قضيتها فى السجن فضل كبير على . ان نفسى وايمانى وفكرى ، ان ذلك كله قد تبدل تبديلا عظيما بفضل هذه التجربة » . لقد جعله السجن مؤمنا . لقد رد اليه السجن ايمانه بالله وايمانه بالشعب الروسى ، حتى لقد كتب يقول : ان الانسان ، أثناء الحشرات التى يحسها فى سجن الأشغال الشاقة ، يرتوى بالايمان كما يرتوى العشب اليابس بماء المطر . انه يجد الايمان أخيرا لأن الايمان يظهر فى ساعات الشقاء أقوى وضوحا وأشد سطوعا . وكتب يقول أيضا : « لعل الاله العلى التقدير قد شاء أن يرسلنى الى هناك حتى أتعلم جوهر الأشياء فأنقل علمى الى غيرى وأبلغه الناس » . ان ايمانه قد صفاه العذاب ونقاها . لقد استمد دوستويفسكى من الألم حنانا وشفقة على البشر الذين تردوا فى الخطيئة والشقاء فأصبحوا أحوج الى الحب من الأبرياء والسعداء ! ان روحا مسيحية تترقرق فى الكتاب كله . وذلك ما جعل تولستوى يتحمس له أشد التحمس فيكتب سنة ١٨٨٠ الى ستراخوف قائلا : « كنت أشعر فى هذه الأيام بضيق شديد فتناولت كتاب «ذكريات منزل الأموات» فأعدت قراءته . كنت قد نسيت كثيرا منه ، فلما أعدت

قراءته ، أيقنت أن ليس في الأدب الجديد كله كتاب واحد يفوقه ، حتى  
ولا كتب بوشكين ! ليست النبيرة هي الشيء الرائع فيه ، بل وجهة النظر  
التي يشتمل عليها : انه صادق طبيعي مسيحي . انه كتاب يعلم الدين .  
فاذا رأيت دوستويفسكى فقل له انى أحبه » .

وقد كان لهذا الكتاب أثر سياسى أيضا ففى شهر حزيران «يونيه»  
من عام ١٨٦٢ ، بعد نشر الفصول التى تصف العقوبات الرهيبة كتب  
الجنرال الأمير نيكولا أورلوف رسالة الى الامبراطور يرجوه فيها الغاء  
العقاب الجسدى الذى وصفه دوستويفسكى فى كتابه وصفا حيا قويا .  
وشكلت لجنة خاصة لحل هذه المسألة فكان هنالك تياران متعارضان أحدهما  
يقول بابقاء هذه العقوبات والثانى ينادى بالغاءها ، وتغلب التيار الثانى  
أخيرا فصدر قانون ١٧ نيسان ( ابريل ) ١٨٦٣ الذى يلغى هذه العقوبة  
الرهيبة الغاء تاما .

الجزء الأول

# مدحسل



وسط السهوب أو الجبال أو الغابات الوعرة من المناطق النائية بسبيريا يلتقى المرء من حين الى حين بمدن صغيرة سكانها ألف أو ألفان ، مبنية كلها بالخشب ، دميمة كل الدمامة ، لها كنيسة ،

الأولى في وسط المدينة ، والثانية في المقبرة . فإذا أردنا أن نصفها موجزين قلنا انها أكثر شبيهاً بقرية في ضواحي موسكو منها بالمدينة بمعنى كلمة المدينة . وهى على وجه العموم مزودة بعدد وافر من رجال الشرطة وجباة المال وغيرهم من الموظفين المرؤوسين . ولئن كان البرد شديداً في سبيريا فإن خدمة الحكومة هناك رابحة مجزية الى أبعد الحدود . ان السكان أناس بسطاء لا تعصف برؤوسهم الأفكار الليبرالية ، ولهم عادات قديمة رسّخها الزمن . والموظفون الذين يمكن أن نسميهم بالطبقة النبيلة في سبيريا هم اما أناس من البلاد نفسها أى سيريون متأصلون ، واما أناس وافدون من روسيا . فأما هؤلاء الوافدون من روسيا فهم قادمون من العواصم رأساً يحدوهم المرتب الضخم والمعونة الكبيرة التى يُعطَوْنَها نفقات سفر ، كما تحدوهم آمال أخرى تتعلق بالمستقبل ولا تقل عن الراتب اغراءً . فالذين يعرفون كيف يحلون مشكلة الحياة يمكنون في سبيريا دائماً على وجه التقريب ويستقرون فيها الى الأبد ، ذلك أن الثمرات الوفيرة اللذيذة التى يجنونها بعد ذلك تعوضهم عن خسارتهم خير تعويض . أما الآخرون ، وهم أناس خفاف لا يعرفون كيف يحلون هذه

المشكلة فانهم ما يلبثون أن يسأموا ويضجروا ثم هم يتساءلون على حسرة وأسف : لماذا ارتكبوا حماقة المجيء الى هذه البقاع النائية ؟ وهم يسلمون السنين الثلاثة ، وهى الفترة المحدودة لاقامتهم ، متذمرين متلملمين قد نفذ صبرهم ، حتى اذا تصرمت المدة التمسوا العودة ورجعوا الى بلادهم وهم يقدحون فى سيريا ويهزؤون بها ويسخرون منها . ألا انهم لمخطئون ، فان سيريا بلاد هناة وغبطة لا من جهة الخدمة العامة وحدها بل من جهات كثيرة أيضا . المناخ فيها رائع ، والتجار أثرياء مضيفون ، والميسورون من أهلها كثير . أما صباياها فأشبه بورود متفتحة ، وأخلاقهن لا غبار عليها ، والطرائد تجرى فى شوارعها وترتمى على الصياد ارتساءً ، والناس يشربون فيها الشمبانيا وافرة غزيرة ، والكافيار مدهش ، والفلاحون يحصدون من الغلال فى بعض الأحيان أضعاف ما بذروا خمس عشرة مرة . صفوة القول : انها أرض مباركة ، وانما ينبغى الانتفاع بها والاستفادة منها وما أيسر ذلك !

فى مدينة من تلك المدن الصغيرة - البهيجة الراضية عن نفسها كل الرضى - التى ترك أهلها فى نفسى ذكرى لا تمحى - انما التقيت بمنفى من المنفيين اسمه الكسندر بتروفتش جورياتشيكوف ، وهو من سراة الملاكين فى روسيا . وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية \* ، لأنه قتل زوجته . فبعد أن قضى مدة الحكم - وهى عشرة سنين من الأشغال الشاقة - مكث فى مدينة ك . . . \* الصغيرة هذه ، هادىء البال لا يفطن الى وجوده أحد ، مستوطنا من المستوطنين . والحق أنه كان مسجلا فى قرية من القرى المجاورة ، ولكنه كان يعيش فى مدينة ك . . . حيث كان يستطيع أن يجنى رزقه من اعطاء دروس خاصة للأطفال . ان المرء كثيرا ما يلتقى فى سيريا بمنفيين يعملون فى التعليم . والناس لا يحتقرونهم ، لأنهم يعلمون اللغة الفرنسية ، وهى ضرورية للحياة جدا ، وما كان لأحد

من سكان هذه الأماكن القاصية من سيريا أن يعرف شيئاً منها لولاهم • وقد رأيت ألكسندر بتروفتش أول مرة في منزل موظف من الموظفين اسمه ايفان ايفانتش جفوزديكوف ، وهو شيخ محترم وقور مضياف له ثلاث بنات يعدن بأجمل الآمال • فكان الكسندر بتروفتش يعطيهم دروساً في اللغة الفرنسية أربع مرات في الأسبوع ، ويتقاضى أجره عن كل درس أربع كوبكات فضة • وقد لفت نظري مظهره • انه رجل شديد الشحوب ، شديد النحول ، ما يزال شاباً (فهو في نحو الخامسة والثلاثين من عمره) ، قصير واهن ، يعنى بنظافة ملبسه كل العناية ، ويرتدى الزى الأوروبى • اذا تحدثت اليه اتبه الى كلامك اتبهاها شديدا ، وأصغى الى كل قول من أقوالك مهذبا غاية التهذيب ، وقد بدا في وجهه التفكير كأنك تطرح عليه مشكلة أو كأنك تريد أن تنتزع منه سراً • حتى اذا أجاب كان جوابه واضحا موجزا ، ولكنه يزن كل كلمة من كلماته ، ويبلغ من ذلك أن من يستمع اليه يشعر بشيء من الحرج دون أن يعرف سبب هذا الحرج ، ويشعر بشيء من الضيق والبرم ، ويسعده بعد ذلك أن تنتهى المحادثة بينه وبينه • وقد سألت عنه ايفان ايفانتش فأعلمنى أن جورياتشيكوف رجل لا غيار على سلوكه ، ولولا ذلك لما عهد اليه ، هو ايفان ايفانتش ، بتعليم بناته ؛ ولكنه يكره البشر كرهاً شديدا وينفر من مخالطة الناس نفورا قويا ، ويظل مبتعداً عن الآخرين ؛ وأنه عدا ذلك على حظ كبير من سعة الثقافة ، فهو كثير القراءة والمطالعة ، ولا يتكلم الا قليلاً ، ولا يفتح قلبه لأحد فى حديث •

وكان بعضهم يؤكد أن الرجل مجنون ، ولكن دون أن يرى فى ذلك آفة كبيرة خطيرة ، لذلك كان خيار القوم فى المدينة على استعداد لأن يداروا الكسندر بتروفتش ، لأنه يمكن أن يكون نافعا لهم كثيرا ، كأن يتولى عنهم كتابة العرائض وما الى ذلك • وكان يُعتقد أن له فى

روسيا أقرباء من ذوى المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ، وربما كان بينهم أناس يحتلون مناصب كبرى ؛ ولكن لم يكن مجهولا أن الرجل قد قطع كل علاقاته منذ نفيه ، فأساء بذلك الى نفسه على وجه الاجمال . وكان جميع الناس يعرفون قصته ، ويعلمون أنه قتل زوجته بدافع الغيرة بعد سنة من زواجه ، وانه سلّم نفسه للقضاء من تلقاء ذاته ، فكان ذلك من الأسباب التى دعت الى تخفيف الحكم عليه تخفيفا كبيرا . والناس ينظرون الى هذا النوع من الجرائم نظرتهم الى مصائب حلّت بالمجرم نفسه ، فهو يستحق الشفقة والرحمة . ومع ذلك كان هذا الانسان الشاذ يصرُّ على الابتعاد عن الناس اصرارا شديدا ، ولا يخرج الا لاعطاء الدروس التى يعهد بها اليه .

لم ألتفت اليه فى أول الأمر أى التفات . ولكنه أثار اهتمامى بعد ذلك دون أن أعرف لهذا سببا : انه أشبه بلغز . أما التحدث معه فأمر مستحيل اطلاقا . صحيح أنه كان يجيب عن جميع الأسئلة التى ألقيتها عليه ، ولكن متى انتهى من اجابته لم أجرؤ أن ألقى عليه مزيدا من الأسئلة . وكان بعد أحاديث من هذا النوع يبدو فى وجهه عذاب وألم وتعب وارهاق . أذكر اننى فى ليلة جميلة من ليلالى الصيف خرجت معه من عند ايفان ايفاتشس . فخطر ببالى فجأة أن أدعوه الى بيتى لتدخين سيجارة . فما كان أشد الذعر الذى ارتسم على وجهه حينذاك ! اننى لا أستطيع أن أصف لكم ذلك الذعر . . . لقد اضطرب اضطراباً شديداً ، وتمتم بوضع كلمات مفككة لا ترابط بينها ولا اتساق فيها ، ثم اذا هو يرشقى بنظرة غاضبة حائرة على حين فجأة ، ويلوذ بالفرار عائداً أدراجه . وقد أدهشنى هذا . وصار يبدو منذ ذلك الحين كمن يشعر بنوع من الرعب متى رآنى ، ولكننى لم أياس . . . كان فيه شيء يشدنى اليه شداً . . . وبعد شهر دخلت على جورياتشيكوف من تلقاء نفسى ، دون أى عذر

أُتعلل به ، دون أية حجة أتتحتها • واضح أن فعلتى هذه كانت حماقة شديدة ، وأنها كانت خالية من حسن الأدب ورهافة الذوق • كان الرجل يقطن فى طرف من أطراف المدينة ، عند امرأة عجوز من الطبقة البورجوازية لها ابنة مصدورة • وكان لابنتها هذه ابنة غير شرعية فى العاشرة من عمرها ، وهى صبية بارعة الجمال ، شديدة المرح والفرح • فلما دخلت كان ألكسندر بتروفتش جالساً قربها يعلمها القراءة ؛ حتى اذا رآنى اضطرب اضطراباً شديداً كأننى فاجأته متلبساً بجرم مشهود ، فنهض طائش اللب على حين فجأة ، ونظر الىّ مشدوهاً مبهوتاً الى أقصى الحدود • وجلسنا أخيراً ، فكان يتابع كل نظرة من نظراتى ، كأنه يرتاب فىّ ويتصور أن لى نية خفية أضمرها ؛ فأدركت أن الرجل شديد الشك ، كثير الريب ، سيء الظن ، قوى الحذر ، كان ينظر الىّ حانقاً معتاضاً ، ويوشك أن يسألنى : « هلاً انصرفت ؟ » •

حدثته عن مدينتنا الصغيرة ، وعن الأبناء الرائجة ، فكان يصمت لا يقول شيئاً ، أو كان يتسهم ابتسامة صفراء سيئة • وأدركت أنه كان يجهل كل الجهل ما يجرى فى مدينتنا ، وأنه لا يحرص على أن يعرف من ذلك شيئاً البتة • وحدثته بعدئذ عن مقاطعتنا وعن حاجاتها ، فكان يصفى الى كلامى صامتاً ، محدقاً الىّ بهيئة تبلغ من الغرابة أننى لم ألبث أن خجلت أنا نفسى من هذا الحديث ؛ حتى لقد كدت أغضبه حين قدمت اليه كتباً وجرائد كانت قد وصلتتى فى آخر بريد ولم أفضّها بعد • لقد نظر اليها فى أول الأمر نظرة شرهة ، ولكنه سرعان ما غير رأيه فرفض أن يتناول ما قدمته اليه ، معتذراً عن ذلك بضيق الوقت وقلة الفراغ • واستأذنته أخيراً بالانصراف ، فأحسست وأنا أخرج من عنده أن حملاً ثقيلاً قد سقط عن كاهلى • وآلمنى أن أكون قد ضايقت انساناً لا همّ له الا أن ينأى عن جميع الناس • لكن ما وقع فقد وقع • وكنت قد لاحظت

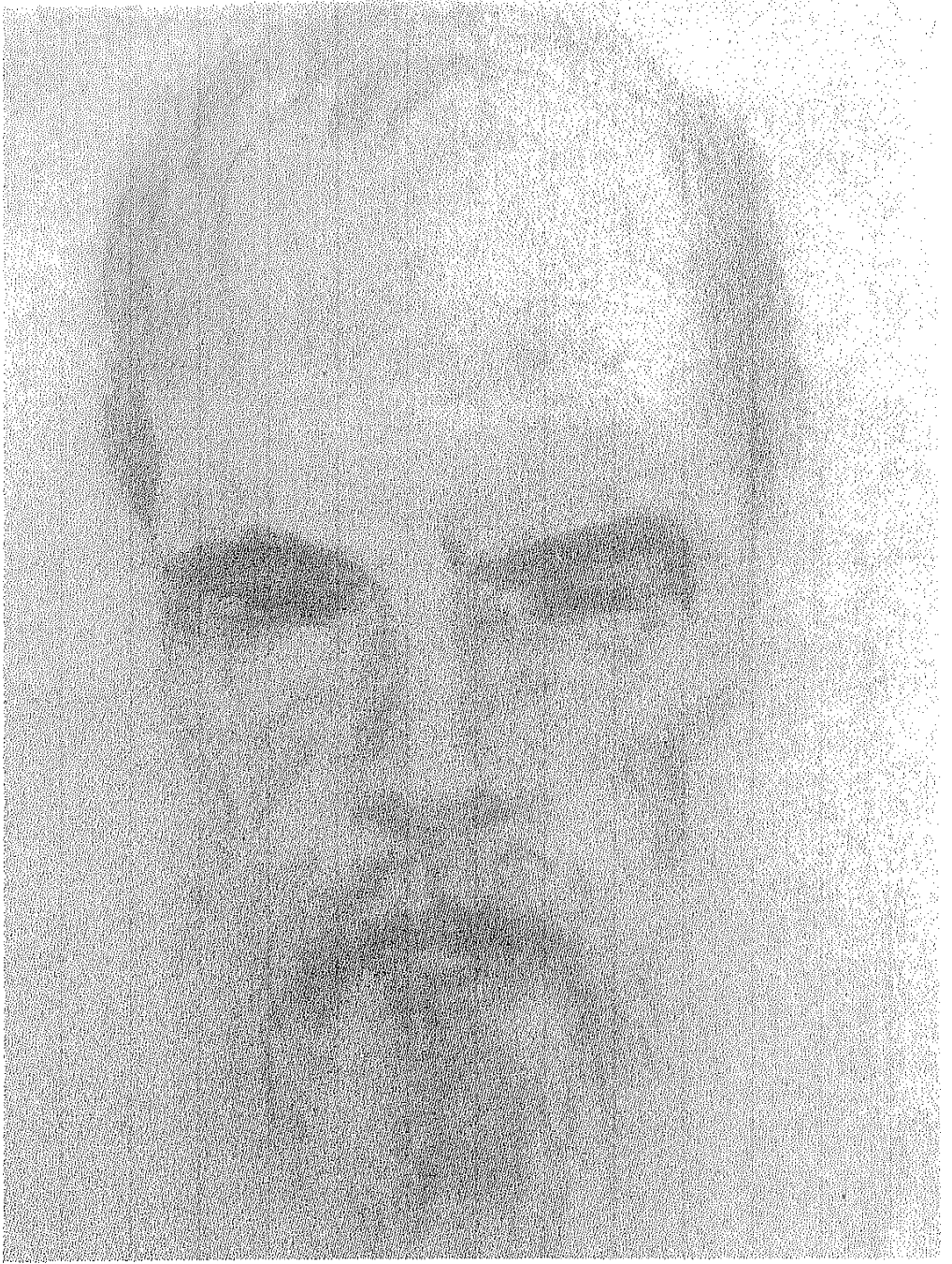


أنه لا يملك الا عددا قليلاً جداً من الكتب ، فليس صحيحاً اذن ما كان يُقال من أنه قرأ كثيراً . غير أنني قد اتفق لي أن مررت أمام نوافذه بالعربة مرتين في ساعة متأخرة جداً من الليل ، فرأيت في بيته ضوءاً . فلماذا كان يسهر اذن حتى الصبح ؟ أترأه كان يكتب ؟ واذا كان يكتب ، فماذا كان يكتب ؟

وغبت عن مدينتنا قرابة ثلاثة أشهر . فلما عدت في الشتاء علمت أن ألكسندر بتروفتش قد مات ، وأنه لم يقبل حتى أن يستدعى أثناء مرضه طبيياً . وكان الناس قد نسوه أو كادوا . وكان بيته خالياً . وسرعان ما تعرفت بصاحبة البيت التي كان يسكن عندها ، عسى أن أعرف منها شيئاً عما كان يعمله جارها ، وعسى أن أعرف هل كان يكتب شيئاً ! فما كدت أنقدها عشرين كوبكا حتى جاءتني بسلة ملاءى أوراقاً تركها المتوفى ، واعترفت لي بأنها قد استعملت دفترين منها في اشعال النار . والمرأة عجوز متجهمه الوجه عابسة الهيئة صموت لا تتكلم ، فلا أنا استطعت أن أنتزع منها شيئاً ذا بال ، ولا هي استطاعت أن تقول لي شيئاً عن الرجل الذي كان يقطن في بيتها . ولكنها روت لي أنه كان لا يكاد يعمل شيئاً ، فهو يظل أشهراً برمتها لا يفتح كتاباً ولا يتناول قلماً ؛ وأنه كان في مقابل ذلك يقضى الليل كله متجولاً في غرفته جيئةً وذهاباً ، غارقاً في تأملاته ذاهلاً عما حوله ، حتى لقد كان يتكلم بصوت عالٍ في بعض الأحيان ؛ وذكرت لي أنه كان يحب حفيدتها كاتيا حباً كثيراً ، ولا سيما منذ عرف اسمها ؛ وكان يكره أن يزوره أحد ، ولا يخرج الا لاعطاء الدروس التي كان يعهد اليه بها : حتى أنه كان ينظر الى صاحبة البيت نظرة شذراء اذا هي جاءت ترتب غرفته بعض الترتيب مرة كل أسبوع ؛ وخلال السنين الثلاث التي قضاها مقيماً عندها لم يكذب يتجه اليها بكلام يوماً . سألت كاتيا هل تتذكر شيئاً عن معلّمها ، فنظرت الى صامتة ، ثم

التفتت الى جهة الحائط وأخذت تبكى • اذن لقد استطاع هذا الرجل أن يجعل أحداً يحبه •

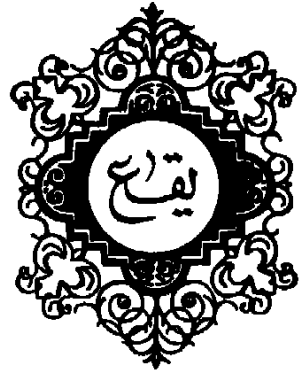
مضيت بالأوراق ، وسلخت يومى كله فى فحصها • كان أكثرها لا قيمة له البتة ، فهو تمارين للتلاميذ • وعثرت أخيراً على دفتر سميك بعض السمك ، قد ملئت صفحاته بكتابة دقيقة صغيرة ، ولكنه غير مكتمل ، ولعل صاحبه قد نسيه • انه قصة السنين العشرة التى كان ألكسندر بتروفتش قد قضاها فى سجن الأشغال الشاقة ، وهى قصة مفككة مجزأة لا تماسك فيها ولا تكامل ••• تتخللها هنا وهناك حكاية قصيرة أو ذكريات غريبة رهيبة ينفضها صاحبها نفصاً يشبه أن يكون تشنجاً ، ويتزعمها من نفسه انتزاعاً يوشك أن يكون اقتطاعاً • وقد أعدت قراءة هذه الأجزاء المنثورة ، فأخذت أتساءل : ترى ألم يكتبها كاتبها فى لحظات من جنون ؟ على أن هذه المذكرات التى يسجلها محكوم بالأشغال الشاقة ، والتى يجعل عنوانها فى موضع من مواضع قصته « ذكريات من منزل الأموات » ، بدت لى غير خالية من الطرافة • انها تكشف عن عالم جديد كل الجدة ، عالم مجهول الى ذلك الحين ••• وأغراني ما فى بعض وقائعها من غرابة ، وأغرتنى ملاحظات خاصة عن هذا العالم الساقط الذى يصفه الرجل ، فكنت أقرأ فى لذة وشوق ••• قد أكون على خطأ : ولكننى أنشر بعض فصول هذه القصة ، تاركاً للقراء أن يحكموا عليها •



دوستويفسكى

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

## منزل الموتي



سجنتنا في آخر المدينة وراء الأسوار • فإذا نظرت  
من خلال شقوق السياج ، آملاً أن ترى شيئاً ،  
فلن يقع بصرك الا على ركن صغير من السماء ،  
وعلى متراس من تراب تغطيه أعشاب السهوب ،  
ويتجول عليه الحراس ذاهبين آيين ليل نهار ؛ فتقول لنفسك عندئذ ان  
سنين كثيرة ستقضى ، وانك من خلال شق هذا السياج نفسه ستظل ترى  
هذا المتراس نفسه ، وهؤلاء الحرس أنفسهم ، وهذا الركن الصغير نفسه  
من السماء ، لا السماء التي تقوم فوق السجن ، بل سماء أخرى بعيدة •  
تصوروا فناءً كبيراً طوله مائتا قدم ، وعرضه مائة وخمسون ، يحيط به  
سياج سداسي الاضلاع على غير انتظام ، مؤلف من أوتاد غرست في الأرض  
عميقة : تلکم هي تخوم السجن الخارجية • وفي جهة من السياج بُني  
باب كبير قوى مغلق دائماً ، لا ينقطع عن حراسته عدد من الموظفين ، ولا  
يُفتح الا حين يخرج السجناء للعمل • ف وراء هذا الباب يوجد الضياء وتوجد  
الحرية ••• ووراءه يعيش أناس طلقاء ••• والناس في داخل السياج  
يتصورون ذلك العالم الرائع العجيب حلماً من الأحلام ، أو حكاية من  
الخرافات ••• أما عالمنا نحن فليس من ذلك العالم في شيء ••• انه عالم  
خاص جداً ، لأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء • هو عالم له عاداته ، وله  
زيه ، وله قوانينه ••• وكل ما فيه خاص • انه منزل « ميت حي » معاً ،

الحياة فيه لا شبيه لها ، والأحياء فيه ليس لهم نظراء • ان هذا الركن هو  
الذي أحاول أن أصفه •

إذا دخلت السياج رأيت بضع مبان • وفي كل جهة من جهات فناءٍ  
واسع جداً يمتد مبنيان من خشب قد بنيا من جذوع الأشجار طبقة واحدة:  
تلکم هي ثكنات السجناء ، فيها يحتجزون بعد أن يقسموا عدة فئات • وفي  
آخر الفناء يرى مبنى آخر هو المطبخ قد قُسم جناحين • وبعد المطبخ مبنى  
آخر يتخذ كهفاً للمثونة ومرآباً للعربات ومخزناً للغلال في آن واحد •  
اما وسط الفناء ، فهو عاري كل العري ، يشبه أن يكون ميداناً واسعاً •  
وهناك انما يصطف السجناء ، فيجري تفقدهم وتتم مناداتهم ثلاث مرات  
في اليوم : صباحاً وظهراً ومساءً ، وعدة مرات أثناء النهار أيضاً اذا كان  
الجنود الحرس ريبين غير بارعين في العد • وحول ذلك ، بين السياج  
والمباني ، تبقى مساحة خالية واسعة يحب بعض السجناء الذين يكرهون  
صحبة البشر ويتصفون بمزاج قائم وطبع مظلم أن يتزهوا حين لا يعملون:  
يجترونها تلك خواطرهم الحبيبة الى قلوبهم الأثيرة في نفوسهم بمنأى عن  
الناس وبمنجى من الأنتظار • كنت اذا صادفتهم أثناء هذه النزعات التي  
يقومون بها أحب أن أنظر الى وجوههم الحزينة المتغضنة ، وأن أحزر  
ما يدور في رموسهم من أفكار • كان أحب شيء الى أحد هؤلاء السجناء  
مثلاً أن يشغل نفسه بعداً أوتاد السياج التي يبلغ عددها ألفاً وخمسمائة  
وتدأ • لقد عدّها جميعاً ، وحفظها على ظهر القلب • وكان كل وتد من  
هذه الأوتاد يمثل في نظره يوماً من أيام الاعتقال ، فهو يسقط من الحساب  
في كل يوم من الأيام وتدأ ، فيستطيع بهذه الطريقة أن يعرف على وجه  
الدقة عدد الأيام التي بقي عليه أن يقضيها في السجن • وما كان أصدق  
سعادته حين يأتي على آخر وتد من أوتاد أحد أضلاع السياج السداسي !  
وكان عليه مع ذلك أن ينتظر سنين طويلة قبل أن يُطلق سراحه • غير أن

الانسان يتعلم الصبر فى السجن • لقد شهدت فى ذات يوم اطلاق سراح واحد من المسجونين قضى مدة الحكم ، فأخذ يودّع رفاقه • كان قد قضى فى السجن عشرين عاما من الأشغال الشاقة • لقد رآه عدد من السجناء يدخل السجن شاباً ، غير عابىء بشيء ، غير مبالٍ شيئاً ، لا يفكر لا فى الجريمة التى ارتكبها ولا فى العقوبة التى وقعت عليه : وهو الآن شيخ أشيب الشعر ، حزين الوجه ، عابس الأسارير • لقد طاف على نكناتنا الست صامتا ، فكان كلما دخل واحدة منها ، صلتى أمام صورة العذراء ، وحيثاً رفاقه تحيةً عميقة ، راجياً منهم أن لا يحفظوا عنه ذكرى سيئة • وأذكر أيضاً أن قد نودى أحد السجناء فى ذات مساء ، وهو رجل كان فى الماضى فلاحاً سبيرياً غنياً ، وقد أبلغ قبل ذلك بستة أشهر أن زوجته تزوجت غيره ، فأحزنه ذلك كثيراً ، وها هى ذى تأتى فى هذا المساء لتعطيه صدقة • لقد تحدثنا دقيقتين ، وبكيا كلاهما ، ثم افترقا الى غير لقاء بعد الآن ••• ورأيت وجه هذا السجن حين عاد الى الثكنة ••• حقاً ان الانسان يتعلم هنا كيف يعود احتمال كل شيء •••

ومتى بدأ الشفق أدخلونا الى الثكنات نُسجن فيها الليل كله • ولقد كان يؤلمنى ويحزنتنى دائماً أن أترك الفناء الى الثكنة • تصوروا غرفة طويلة منخفضة خانقة ، تضيئها شموع لا تكاد تنيرها ، وتشيع فى جوها رائحة ثقيلة تبعث على الغثيان • لا أستطيع أن أفهم الآن كيف عشت فى هذه الثكنة عشر أعوام كاملة • وكان سريرى فى الثكنة ثلاثة ألواح من خشب ، وذلك هو المكان الوحيد الذى كنت أستطيع التصرف فيه والتمتع به • كان يُحشر فى كل غرفة أكثر من ثلاثين رجلاً • وفى فصل الشتاء كانوا يجسسوننا فى ساعة مبكرة ، فكان لا بد من انتظار أربع ساعات حتى ينام جميع السجناء ، أما قبل ذلك فصخب كبير ، وضجة شديدة ، وقهقهات وشتائم وصليل سلاسل وأبخرة فاسدة ودخان كثيف ، وفوضى

رءوس مخلوقة وجباه متعضنة وثياب خلقة . . . وما الى ذلك من أمور تثير  
الاشمئزاز وتبعث على التقزز . . . نعم ان الانسان حيوان طويل العمر !  
ويمكن أن نعرفه بقولنا : الانسان كائن قادر على أن يتعود كل شيء ،  
ولعل هذا خير تعريف يمكن أن يعرف به الانسان •

كان عددنا مائتين وخمسين سجيناً • وذلك عدد لا يكاد يتغير ، فما  
ان يكمل أحد مدة سجنه حتى يصل سجناء آخرون • وكان بين السجناء  
من يلقي حتفه في السجن أيضاً • والسجناء من جميع أنواع البشر •  
وأغلب الظن أن كل حكومة من حكومات روسيا ، أن كل اقليم من أقاليم  
روسيا ، قد أرسل الى هذا السجن من يمثله • وكان بين السجناء أجانب ،  
بل وكان منهم رجال جاءوا من جبال القفقاس • وكان هذا العالم كله  
يُقسَم فئات مختلفة ، تبعاً لضخامة الجريمة ومدة العقاب • وكان لجميع  
الجرائم أناس يمثلونها بين هؤلاء السجناء • ويتألف أكثر سكان السجن  
من محكومين بالأشغال الشاقة من الفئة المدنية ( أى من « كبار المحكومين »  
على حد تعبير السجناء ) ، فهم مجرمون جرّءوا من جميع حقوقهم المدنية ،  
وهم أعضاء أديانهم المجتمع ، ولفظهم ، ووسم جباههم بالحديد المحمى  
وسمّاً يشهد الى الأبد بالجريمة التي قارفوها • وهم يودعون السجن مدة  
تراوح بين ثمانى سنين واثنتى عشرة سنة ، حتى اذا انقضت مدة العقوبة  
أرسلوا الى أحد أقاليم سيبيريا مستوطنين • أما فئة المجرمين العسكريين  
فانهم لا يُجرءون من حقوقهم المدنية - ذلك ما كان متبعاً فى الكتائب  
العسكرية ذات النظام الروسى - ولا يرسلون الى السجن الا مدة  
قصيرة بعض القصر • فمتى انقضت هذه المدة عادوا الى المكان الذى جاءوا  
منه ، وأدخلوا جنوداً فى الفرق العسكرية على حدود سيبيريا • ان كثيراً  
من هؤلاء كانوا يرجعون الينا بسبب ارتكابهم جرائم خطيرة ، ولكنهم  
لا يسجنون فى هذه المرة عدداً قليلاً من السنين ، بل يسجنون عشرين

سنة في أقل تقدير ، وهم يشكلون عندئذ فئة يطلق عليها اسم «المؤبدين» .  
 ومع ذلك لم يكن « المؤبدون » مجردين من حقوقهم . وكان ثمة فئة  
 اخرى كبيرة العدد يطلق عليها اسم « القسم الخاص » ، وهى تتالف من  
 اسوا المجرمين نوعاً وأشدهم خطراً ، فهم اناس مدمنون على الاجرام  
 عريقون فيه ؛ وكان يُرسل الى هذا القسم الخاص محكومون من جميع  
 البلاد الروسية . وكان هؤلاء يعدون أنفسهم مؤبدين ، لأن نهاية المدة التى  
 يجب أن يقضوها فى السجن غير معينة . وكان القانون يقضى بأن يعهد  
 اليهم بأشغال مضاعفة مثنى وثلاث . وهم يقون فى السجن خارج سيريا  
 الى ان يُشرع فى سيريا بأعمال شاقة تبلغ غاية الارهاق . كان هؤلاء  
 يقولون للسجناء الآخرين « أتم هنا الى أجل معلوم ، أما نحن فباقون الى  
 اخر الحياة . » . وقد علمت فيما بعد أن هذا القسم قد ألغى ، وأن  
 المحكومين العسكريين قد أبعثوا أيضاً ، وأنشئت لهم فرقة ذات نظام  
 خاص . وطبعى أن ادارة السجن قد تبدلت كذلك ، فأنا أصف  
 الآن اذن تقاليد عهد قديم ، وأموراً ألغيت منذ زمان طويل . . . .

نعم ، منذ زمان طويل . . . . حتى ليخيّل الىّ أن ذلك كله كان  
 حلماً من الأحلام . اننى أتذكر الآن يوم دخولى الى السجن فى مساء من  
 أماسى شهر كانون الأول عند هبوط الليل . كان السجناء عائدين فى تلك  
 الساعة من أشغالهم وكان الموظفون يهيئونهم للتفقد . فتح لى عريف ذو  
 شاربين طويلين باب هذا المنزل الغريب العجيب الذى سلخت فيه من عمرى  
 ذلك العدد كله من السنين ، وقاسيت فيه من الشدائد وكابدت من  
 الانفعالات ما لم يكن فى وسعى حتى أن أتصوره على وجه التقريب لولا  
 أن قاسيته وكابدته فعلاً . هل كان فى وسعى مثلاً أن أتخيل العذاب  
 الرهيب الذى يعانیه المرء حين لا يستطيع أن يخلو الى نفسه دقيقة واحدة  
 خلال عشرة سنين؟ نعم . . . اننى لم أستطع أن أخلو الى نفسى مرة واحدة



قط ••• سواء أثناء العمل تحت الحراسة ، أو في الثكنة مع مائتي «رفيق»  
••• ولكن كان عليّ أن أعود هذا •••

كان بين السجناء أناس ارتكبوا جريمة قتل عن طيش وخفة ، وكان  
بينهم أناس احترفوا القتل احترافاً ؛ كان بينهم قطاع طرف وقادة قطاع  
طرق وكان بينهم مجرد لصوص أتقنوا صناعة العثور على مالٍ في جيب  
أحد المارّة ، أو اختطاف أى شيء من فوق مائدة ؛ وكان بينهم أناس  
لا يستطيع المرء أن يقول لماذا ولا كيف أُدخلوا السجن • وكان لكل  
سجين من السجناء قصته المضطربة المهمة الثقيلة الشاقة الاليمة كغداة ليلة  
سكر • والسجناء على وجه العموم لا يتكلمون عن ماضيهم الا قليلاً جداً ،  
فانهم لا يحبون أن يقصوا هذا الماضي ، حتى أنهم يحاولون أن لا يفكروا  
فيه • وقد عرفت بين رفاقي في القيد الذي يشدنا معاً قتلةً يبلغون من شدة  
المرح وقلّة الاكتراث أن المرء يستطيع أن يراهن على أن ضميرهم لم  
يعرف الندامة في يوم من الأيام • ولكن كان بين رفاقي أيضاً أناس  
عابسون صموتون لا يكادون يتكلمون • وكان يندر أن يقص أحد حكايته ،  
لأن حب الاستطلاع هذا لم يكن رائجاً ولا مألوفاً بل نستطيع أن نقول انه  
لم يكن مقبولاً • ومع ذلك كان يتفق من حين الى حين أن يروى سجين  
لسجين قصته من فراغ الوقت وقلّة العمل ، فيصغى الثاني للكلام الأول بغير  
اكتراث ؛ والحق أنه ما كان لأحد أن يدهش جاره بما يقصه عليه أو  
يرويه له • « أتظننا نحن جهلة ؟ » : تلكم هي العبارة التي كان السجناء  
يقولونها ساخرين معترزين ! أذكر أن واحداً من قطاع الطرق سكر يوماً  
( وكان يمكن أن يسكر السجناء في بعض الأحيان ) فروى كيف قتل  
طفلاً في الخامسة من عمره ، ثم قطعته ارباً ارباً : اجتذبه في أول الأمر  
بلعبة ثم مضى به الى مخزن من مخازن المئونة فمزقه هنالك أشلاء • فاذا  
بالثكنة كلها ، وكانت من قبل تضحك لأمازيح الرجل ، تطلق عندئذ

صرخة واحدة ، فاضطر الرجل أن يصمت • ولئن قاطعه السجناء وحالوا  
شینه وبين اتمام حديثه ، فما ذلك لان القصة قد أثارت استياءهم أو بعثت  
الاستهجان والاستنكار ، بل لأنه ليس مقبولاً أن يتحدث المرء فى « هذا » •  
ويجب ان أذكر هنا أن السجناء كانوا على درجة من التعليم • كان نصفهم  
- ان لم يكن اكثر من نصفهم - يعرف القراءة والكتابة • اين يمكنك أن  
تقع ، فى روسيا ، بين أى طائفة من الناس عددها مائتان وخمسون رجلاً ،  
على نصف يعرف القراءة والكتابة ؟ وقد سمعت بعد ذلك من يقول ان  
التعليم يفسد أخلاق الناس ، وسمعت من يستدل على ذلك بهذه الوقائع  
نفسها • الا ان هذا الحكم لخطا : فان التعليم لا شأن له قط بهذا السقوط  
الأخلاقى • يجب أن نسلّم مع ذلك بأن التعليم ينمى روح العزيمة ،  
ويقوى ارادة التصميم لدى الشعب ، وما ذلك بعيب • وكان لكل فئة من  
الفئات أو لكل قسم من الأقسام زى خاص به : فهذه فئة يرتدى أفرادها  
صدره من جوخ ، لونها بين البنى والرمادى ، وسروالاً أحد ساقيه بنى  
والثانى رمادى • فى ذات يوم ، بينما كنا فى الشغل ، جاءت بنت صغيرة  
تبيع « سميطاً » مصنوعاً من الدقيق الأبيض ، فنظرت الى طويلاً ، ثم  
انفجرت ضاحكة وصاحت قائلة : « هه ••• ما أبشع منظرهم ! انهم  
لا يملكون حتى ما يكفى لصنع ملابسهم من جوخ بنى أو من جوخ  
رمادى •• » • وكان ثمة فئة أخرى يرتدى أفرادها صدره من جوخ رمادى ،  
لكن أكمامها بنية • وكانت الرعوس تحلق أيضا على صور مختلفة ، فتارة  
تُحلق الجمجمة طولاً من القذال الى الجبين ، وتارة تُحلق عرّضاً من  
الأذن الى الأذن •

ان بين أفراد هذه الأسرة من التشابه الواضح البارز ما يتيح للمرء  
أن يميّزها من أول نظرة : فحتى الشخصيات المرموقة بينهم ، الشخصيات  
التي تسيطر على سائر السجناء دون أن تريد ذلك ، تحاول أن لا تشذ عن

الآخرين ، وانما تتبنى ما يتبنون وتسلك كما يسلكون • ويمكن أن نقول ان جميع السجناء - باستثناء عدد قليل يتمتع بمرح شديد ويحظى لذلك باحتقار الآخرين - كانوا عابسي الوجوه ، مقطعين ، كالحين ، حسودين ، مغرورين غرورا رهيبا ، مدّعين ، سريعى التأذى ، شديدى التمسك بالامور الشكلية • والفضيلة العليا فى نظرهم هى ان لا يدهش أحدهم من شيء ، لذلك كانوا يعنون أشد العناية باصطناع مظهر الرصانه والرزانه. ولكن كثيرا ما يحل محل مظهر التعالى ، بسرعة كومض البرق ، صغار واضح وجبن جلى • ومع ذلك كان بينهم رجال أقوياء أشداء حقا ، وكان هؤلاء ينطلقون على سجيتهم وطبيعتهم مخلصين صادقين ••• ولكن الشيء الغريب هو أنهم فى أغلب الأحيان على جانب كبير من الخيلاء توشك من فرطها أن تكون مرضاً • كانت الخيلاء فى المحل الأول دائماً • أما أكثر السجناء فكانت أخلاقهم منحطة حقيرة ، لذلك كانت النمائم والوشايات والسمايات تنهمر انهمار المطر الهتون ••• كانت حياتنا جحيماً لا يطاق •• ولكن ما كان لأحد أن يجرؤ على رفع صوته بالشكوى من أنظمة السجن الداخلية ، ولا من العادات المألوفة المقبولة • فكان السجناء يخضعون لهذه الأنظمة وهذه العادات صاغرين ، شاءوا أم أبوا. وكان هنالك أشخاص ذوو طباع شرسة ومراس صعب، فهؤلاء لا يخضعون الا بعد لآى ، ولكنهم يخضعون على كل حال • ان السجناء الذى كانوا قبل دخولهم السجن قد تجاوزوا كل الحدود ، ودفعهم غرورهم الطائش الالهوج الى ارتكاب جرائم رهيبه على غير شعور منهم ، كما لو كانوا فى حالة هذيان أو جنون ، فروّعوا مدناً بأسرها ، ان هؤلاء أنفسهم ما يلبث نظام السجن أن يروّضهم ••• فتلين قناتهم ، وتهدأ طباعهم بعض الهدوء. والقادم « الجديد » الذى يحاول أن يشد ، سرعان ما يلاحظ أنه لن يدهش هنا أحداً ، فاذا هو يخضع شيئاً بعد شيء ، ويتلام مع الجو العام ،

ويصطنع وقاراً شخصياً يكاد يصطنعه كل سجين ، تماماً كما لو كان اسم  
السجين عنوان شرف ولقباً من ألقاب المجد . ثم انك لا تلاحظ أية علامة  
من علامات الخجل ، أو أية امارة من امارات الندامة ، ولكن نوعاً من  
الخشوع الخارجى الذى يشبه أن يكون خضوعاً رسمياً ، هو الذى يتحكم  
بمستقبل السلوك . «نحن أناس مضيّعون ، لم نعرف كيف نعيش احراراً .  
فعلينا الآن أن نجتاز الشارع الأخضر \* ، وأن نعد صفوفه ونعيد عدّها .»  
« لم تشأ أن تطيع أباك وامك ، فعليك الآن أن تطيع جلد الحمار . » ؛  
« أبيت أن تطرّز ، فكسير الآن الحجارة . » . كذلك كانوا يقولون ،  
وكذلك كانوا يرددون ، على سبيل الموعظة بالأقوال المأثورة والامثال  
المضروبة ، دون أن يأخذوا هذه الاقوال مأخذ الجِد رغم ذلك ، فما كانت  
الا كلمات يطلقونها فى الهواء . . . . وهى اعترف واحد منهم بأنه أتم ؟  
ابدا ! . . . انه ليكفى أن يحاول غريب - لا سجين - أن يعيب على أحد  
السجناء جريمته أو أن يهينه حتى تنطلق الشتائم والمسبات هنا وهناك الى  
غير نهاية ! وما كان أحذق هؤلاء السجناء فى صنع المسبات والشتائم  
مرهفةً لطيفة ! . . . ان فى سبابهم وشتائمهم لرقّة ودقه . . . انهم فى  
هذا المجال فنانون ! . . . الشتيمة علم حقاً . . . انهم لا يحاولون أن  
يجرحوا الخصم باللفظ الصريح بل بالمعنى الخفى الذى تشتمل عليه  
عبارة يشيع فى داخلها السم . وكانت مشاجراتهم التى لا تنقطع تساهم  
كثيراً فى تطوير هذا الفن الخاص ، وفى تحقيق النمو والتقدم له .

ولما كانوا لا يعملون الا فى ظل التهديد بالعصا ، فلقد كانوا كسالى  
فاسدين ساقطين . والذين لم يكونوا قد فسدوا قبل وصولهم السجن ،  
فانهم ما يلبثون أن يفسدوا فيه . وكانوا غرباء بعضهم عن بعض ، قد  
جمعتهم الظروف على غير ارادة منهم . كانوا يقولون : « لقد أبلى الشيطان  
ثلاثة أزواج من الأحذية حتى استطاع أن يجمعنا . » . وكانت المكائد

والدسائس والوشايات والنمائم والسعايات والحسد والمشاجرات ، كان ذلك كله يحتل المقام الأول فى حياة الجحيم تلك التى نعيشها • ما من لسان بذى بقادر على أن يصمد لهؤلاء القتلة الذين تهمُّ الشتيمة أن تخرج من أفواههم فى كل لحظة •

كان بينهم ، كما سبق أن قلت ، رجال أقوياء الارادة ، صلاب العود، شديدي البأس ، شجعان القلب ، تعودوا كيف يسيطرون على أنفسهم وكيف يتحكمون بسلوكهم • لقد كان الآخرون يهابون هؤلاء ويقدرونهم ويحترمونهاهم على غير ارادة منهم ؛ وكان هؤلاء رغم حرصهم الشديد على سمعتهم يحاولون أن لا يسيطروا على أحد وأن لا يفرضوا أنفسهم على أحد ، وأن لا يحاصروا أحداً ، وكانوا لا يتهاثرون ولا يتشاجرون ولا يتشاتمون بغير داع الى مهاجرة أو مشاجرة أو مشاتمة • كان سلوكهم سلوكاً رضيعاً سليماً كريماً من جميع النواحي • كانوا يتميزون بالعقل والتبصر والحكمة ، وكانوا طيِّعين دائماً على وجه الاجمال ، لا عن تقييد بمبدأ ولا عن شعور بواجب ، بل على أساس اتفاق صامت بينهم وبين ادارة السجن ، اتفاق يدركون هم ما يعود عليهم به من مزايا، وما يجلبه لهم من منافع • ومع ذلك كانوا يعاملون فى حذر • أذكر أن سجيناً شجاعاً قوى البأس معروفاً بما يتصف به من ميول تشبه ميول الوحوش الكاسرة ، استدعى فى ذات يوم ليجلد • كان ذلك أثناء الصيف • ولم يكن أحد يعمل • وكان الضابط الذى هو الرئيس المباشر للسجن قد وصل الى مقر الحرس الموجود قرب الباب الكبير ليشهد تنفيذ العقوبة بنفسه • كان هذا الضابط ، وهو برتبة ميجر ، بلية السجناء العظمى\* ، قد جعلهم يرتعدون أمامه خوفاً وذعراً • كان يبلغ من القسوة حداً يفقده صوابه ويضيع له رشده • كان ينزل عليهم نزول الصاعقة ، على حد تعبيرهم • غير أن نظرتة التى لا تقل حدةً عن نظرة الفهد هى التى كانت ترعبهم خاصة • كان

يستحيل اخفاء شيء عنه • كان يرى دون أن ينظر ان صح التعبير • كان اذا دخل السجن عرف على الفور ماذا يجري فى اقصى الطرف الآخر من السور • لذلك كان السجناء يطلقون عليه اسم « صاحب الاعين الثماني » • وكان أسلوبه فى المعاملة سيئاً ، فهو لا يزيد على أن يثير الحق والغضب فى نفوس هؤلاء الناس الذين لا يعوزهم خلق ولا غيظ • ولولا الضابط النقيب ، الذى كان انسانا حسن التهذيب واسع الصدر عاقلاً يهدى روع الميجر ويطامن اندفاعاته ويمنع نزواته اذن لحدث ذلك الميجر كثيراً من الأذى ولأوقع كثيراً من المصائب ولسبب كثيراً من الآلام بسوء ادارته • وانى لأتساءل كيف أمكن أن يحال على التقاعد سليماً لم يمسه أذى ؛ والحق أنه صرف من الخدمة بعد صدور حكم فى حقه •

امتقع لون السجين حين نودى • كان فى العادة يرقد على الأرض شجاعاً لا ينطق بكلمة واحدة ، حتى اذا فرغوا من جلده بالسوط نهض ينفض جسمه • كان يتحمل هذا التعذيب بهدوء كفيلسوف • صحیح أنهم كانوا لا يعاقبونه الا لذنوب قارفة ، ولا يوقعون فيه العقوبة الا بكثير من الحذر والاحتياط • ولكنه كان يعد نفسه فى هذه المرة بريئاً • لذلك امتقع فى هذه المرة لون وجهه ، واستطاع وهو يدنو من جنود الحرس فى رفق وهدوء أن يخفى فى كمه سكيناً من السكاكين التى يستعملها الحذايون • يجب أن نذكر مع ذلك أنه كان محظوراً حظراً مطلقاً على السجناء أن يملكوا آلات قاطعة ، كالسكاكين والخناجر والمدى وما الى ذلك • وكان يجري من أجل ذلك تفتيش يقوم به المفتشون قياماً دقيقاً على حين غرة أحياناً كثيرة • وكانت مخالفة هذا النظام من أنظمة السجن تنزل فى المخالف عقوبات شديدة قاسية • ولكن لما كان من الصعب أن يُنزع من مجرم ما يريد اخفائه ، ولما كان السجن من جهة أخرى لا يخلو من آلات قاطعة حتماً ، فان هذه الآلات القاطعة لم تغب من السجن فى

يوم من الأيام فاذا أمكنت مصادرة بعض هذه الآلات القاطعة ، لم يلبث السجناء أن يحصلوا على آلات قاطعة جديدة تحل محل تلك التي تمت مصادرتها • اندفع السجناء نحو السياج خافقي القلوب ليشهدوا من خلال الشقوق ما سيحدث • كانوا يعرفون أن بتروف سيرفض في هذه المرة أن يعنو للجلد ، وأن نهاية الميجر قد أذفت • ولكن الميجر قد ركب عربته في اللحظة الحاسمة وانصرف عاهداً بتنفيذ العقوبة الى ضابط مرءوس • قال السجناء فيما بعد : « ان الله هو أنجاه ! » • أما بتروف فقد تحمل القصاص هادئاً ، ذلك أن غضبه قد تطامن منذ انصراف الميجر • ان السجناء يخضع ويطيع الى درجة ما ، غير أن هنالك حدوداً ما ينبغي تجاوزها • لا شيء أدعى الى الدهشة والعجب من تلك الانفجارات الغريبة التي تظهر لدى السجناء في بعض الأحيان اندفاعاً وعصياناً وتمرداً • وما أكثر ما نرى رجلاً ظل خلال سنين عدة يتحمل أقسى العقوبات ثم اذا هو يثور ويعصى ويتمرد لسبب تافه ، لأمرٍ لا قيمة له البتة ••• حتى ليتمكن أن يقال عنه عندئذ انه قد جنَّ ••• وذلك ما يقال على كل حال •••

سبق أن قلت انني لم ألاحظ خلال عدة سنين أية علامة من علامات الندامة ، ولا أيسر أثر من آثار الأسف للجريمة المرتكبة ، وان أكثر السجناء كانوا في قرارة نفوسهم يعتقدون أن من حقهم أن يفعلوا ما يحلو لهم ••• ولا شك أن للكبر والغرور والقدوة السيئة والتباهي والتواضع الكاذب شأناً في ذلك • ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم على كل حال أنه سبر قرارة هذه القلوب التي استسلمت للضياح ، فوجدها موصدةً دون كل ضياء؟! ••• على أنني كان في وسعي خلال هذا العدد كله من السنين أن ألتقط أية ايماءة ، ولو كانت عابرة خاطفة ، تدل على شيء من أسف أو ندامة أو عذاب ضمير • وذلك ما لم ألاحظ منه شيئاً والحق يقال • ليس في وسع الانسان أن يحكم على الجريمة وفقاً لآراء جاهزة ، وفلسفة

الانسان فى الحكم على الجريمة أعقد قليلاً مما قد تتوهم • ومن الثابت المحقق أنه لا السجون ولا المعتقلات ولا نظام الأشغال الشاقة ، لا شىء من هذا كله بقادر على اصلاح المجرم • ان هذه العقوبات لا تزيد على أن تنزل فيه قصاصاً ، وأن تقى المجتمع من الجرائم التى قد يقارفها • وليس من شأن الاحتجاز والأشغال المرهقة الا أن تقاوم الكره والبغض والحقد لدى هؤلاء الناس ، والا أن تزيد ظمأهم الى الملمات المحرمة ، والا أن تولد فيهم مزيداً من الاستخفاف والاستهتار • واننى من جهة أخرى لعلى يقين من أن نظام الزنزانة المنفردة لا يحقق الا هدفاً ظاهراً خداعاً ، فهو يجرّد المجرم من كل قوته وكل طاقته ، وهو يثير الحفيظة فى روحه ويضعف نفسه ويروّعها ، ثم يخرج لنا من ذلك كله مومياء جافة شبه مجنونة ، يقدمها الينا مثلاً على الصلاح الذى تحقق فى نفس المجرم ، وعلى الندامة التى شعر بها • ان المجرم الذى تمرد على المجتمع يكره المجتمع ويعد نفسه دائماً على حق : فالمجتمع هو المخطيء فى نظره ، أما هو فليس بمخطيء • ثم انه قد عوقب ، لذلك يرى أنه قد أصبح بريئاً • دعك من اختلاف آراء الناس بعضهم مع بعض فى شأن الجريمة : ان هناك جرائم يعترف كل انسان فى كل مكان وزمان ، وتعترف جميع القوانين والأنظمة والشرائع بأنها جرائم لا جدال فيها ، وبأنها ستظل تعد جرائم ما ظل الانسان انساناً • واننى لم يتح لى أن أسمع الا فى السجن قصصاً عن أشد الجرائم غرابة وهولاً يرويها صاحبها ضاحكاً ضحكاً يشبه أن يكون ضحك طفل ، ولا يكاد يحاول أن يكظم ضحكه • لن أنسى مدى الحياة قصة ابن قتل أباه\* ، وكان قبل ذلك ضابطاً وكان من طبقة النبلاء • لقد كان هذا الابن مصدر شقاء أبيه • كان ابناً شاذاً ما فى ذلك شك • وكان الأب يحاول جاهداً أن يصدّه عن سلوكه السيء باسداء النصيح اليه عسى أن يوقيه من الانزلاق الى الهاوية التى كان ينحدر اليها ، فلم يجده ذلك



شيئاً • واذ كان الابن مثقلاً بالديون ، وكان يتصور أن أباه يملك عدا  
المزرعة مالاً يخبئه ، فقد قتل أباه بغية أن يؤول اليه الميراث بمزيد من  
السرعة • ولم تكتشف الجريمة الا بعد انقضاء شهر على ارتكابها • وفي  
أثناء ذلك الشهر استمر القاتل على فجوره واستهتاره بعد أن أبلغ القضاء  
اختفاء أبيه • وأخيراً استطاعت الشرطة ، أثناء غياب الابن ، أن تكتشف  
جثة القتيل الشيخ في قناة تغطيها الأشجار • وكان الرأس الأسيب مفصولاً  
عن الجذع ، مسنداً الى الجسم العارى كل العرى ، وقد وضع القاتل تحت  
الرأس وسادة من قليل السخريه والهزء • لم يعترف الشاب بشيء : ولكنه  
جرّد من رتبته العسكرية ، وانتزعت منه امتيازات النبالة ، وأرسل الى  
سجن الأشغال الشاقة يقضى فيه عشرين عاماً • فكيف كان هذا الشاب  
طوال المدة التي عرفته فيها ؟ لقد كان دائماً مشرق المزاج لا يبالي شيئاً  
ولا يحفل بشيء ••• لم ألق في حياتي شاباً في مثل طيشه وقلة  
تبصره ، رغم أنه لم يكن غنياً قط ••• ولم ألاحظ فيه شيئاً من الافراط  
في القسوة • وكان السجناء الآخرون يحتقرونه ، لا بسبب جريمته ،  
فما كان أحد يأتي على ذكرها أو يناقش فيها ، بل لأنه لم يكن على شيء  
من الرصانة والوقار • وهذا هو يمتدح في ذات يوم ماتتصف به أسرته  
من قوة الجسم وتمام العافية بالوراثة ، فيقول : « انظروا الى أبي مثلاً :  
انه الى يوم موته لم يمرض قط ! » • ان مثل هذا التبلد الحيواني في  
الاحساس يبدو أمراً مستحيلاً حين يبلغ مثل هذه الدرجة الرهيبة : انه  
شيء شاذ الى أبعد حدود الشذوذ • فلا بد أن يكون ثمرة آفة عضوية ،  
لا بد أن يكون ثمرة تشوه جسمي وروحي لم يعرفه العلم حتى أيامنا  
هذه ، ولا يمكن أن يكون الامر أمر جنوح أو اجرام فحسب • ولم  
أصدق طبعاً أن ترتكب جريمة تبلغ هذا المبلغ من الوحشية ، غير أن  
أناساً من المدينة التي كان يقطنها الشاب ، كانوا يعرفون جميع تفاصيل

قصته فرووها لي ؛ وكانت الوقائع من الوضوح بحيث يستحيل رفض التصديق والاعتناع بصحة وقوع الجريمة •

وقد سمعه السجناء ذات مرة يصيح أثناء نومه : « اقبض عليه ! اقبض عليه ! اقطع رأسه ، اقطع رأسه ، رأسه ! ••• »

وكان جميع السجناء تقريبا يحلمون بصوت عال ، أو يهذنون أثناء النوم • وكانت ألفاظ الشتم والسب وأسماء الخناجر والفتوس تتردد في أحلامهم أكثر الأحيان • وكانوا يقولون : « نحن أناس مخربون ، ليس لنا أحشاء ، لذلك نصرخ في الليل • • »

ولم تكن الأشغال الشاقة في قلعنا عملا بل الزاما : كان السجناء يقومون بمهمتهم أو يعملون عددا من الساعات يحدده القانون ، ثم يعودون الى السجن • • وكانوا يكرهون هذا العمل الذي يُجبرون على القيام به اجبارا ، فلولا أن كل سجين من السجناء كان يشغل وقته بعمل شخصي يقبل عليه من تلقاء نفسه ويهب له كل ذكائه ، اذن لاستحال عليه أن يطبق احتمال السجن • وكيف يمكن لهؤلاء الناس الذين يتصفون جميعا بطبيعة قاسية ، والذين عاشوا حياة عريضة وما يزالون يريدون أن يعيشوا ، والذين جمعتهم الظروف على غير ارادة منهم ، بعد أن نبذهم المجتمع ، كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يعيشوا حياة سليمة طبيعية ؟

ان الكسل وحده ينمى ويعزز لدى السجناء أشد الغرائز الاجرامية عتوا ، حتى تلك التي ما كان لهم أن تخطر ببالهم في يوم من الأيام •

ان الانسان لا يستطيع أن يحيا بلا عمل ، ولا يستطيع أن يحيا بدون تملك طبيعي مشروع • فاذا لم تتوفر هذه الشروط انحلت أخلاقه وفسدت طباعه وانقلب وحشا كاسرا • لذلك كان لكل سجين ، بحكم

ضرورة طبيعته وبحكم غريزة حب البقاء ، كان لكل سجين عندنا مهنة يتعاطاها وعمل يقوم به • وكانت أيام الصيف الطويلة تنقضى كلها تقريبا في الأعمال المفروضة ؛ وكانت ليالى الصيف القصيرة لا تكاد تكفى للنوم • وليس الأمر كذلك فى الشتاء • كان النظام يوجب أن يجلس السجناء فى الثكنات متى هبط الليل • فما عساهم يصنعون أثناء الليالى الطويلة الحزينة غير أن ينصرفوا الى عمل من الأعمال ؟ لذلك كانت كل ثكنة من الثكنات تتخذ فى ليالى الشتاء مظهر ورشه كبيرة رغم أن ذلك ممنوع محظور ! والحق أن العمل نفسه لم يكن ممنوعا أو محظورا ، ولكن المنوع والمحظور انما هو اقتناء آلات أو أدوات ••• وهل يمكن العمل بغير آلات أو أدوات ! ••• كان السجناء يعملون اذن خفية فى السر ••• ويظهر أن ادارة السجن كانت تغمض أعينها عن هذا • وكان كثير من السجناء يصلون الى السجن وهم لا يعرفون ماذا يصنعون بأصابعهم العشرة ، فاذا هم يأخذون يتعلمون من رفاقهم مهنة من المهن ، حتى اذا أطلق سراحهم خرجوا من السجن عمالاً مهرة • كان بينهم حذاءون واسكافيون وخياطون ونحاتون وقفالون ونقاشون • حتى لقد كان بينهم يهودى اسمه اشعيا بومشتاين كان يعمل صائغا ومرابيا فى آن واحد • كان جميع السجناء يعملون ، فيجنون من عملهم بعض الدريهمات ، لأن طلبات كثيرة كانت تأتى اليهم من المدينة • ان المال حرية رنانة راجحة فى نظر من حرم من الحرية حرمانا كاملا • فاذا شعر أن فى جيبه بعض المال ، كان له فى ذلك عزاء عن حاله ، ولو لم يكن يستطيع أن ينفق هذا المال فى وجه من الوجوه ( ولكن يجب أن نذكر أن انفاق المال ممكن فى كل مكان وكل زمان ، لا سيما وأن المرء يشتهى الثمرة المحرمة اشتها مضاعفا ، ولقد كان يمكن الحصول على خمرة حتى فى السجن ) • وكان السجناء جميعا يدخنون رغم أن

الغلايين كانت ممنوعة منعاً باتاً • فكان المال والتبغ يقيان السجناء شرّاً  
الجريمة : فلولا العمل لأهلك بعضهم بعضاً ، لولاه لدمر بعضهم بعضاً ،  
كما تفعل العناكب حين تُحبس في حق من زجاج • ومع ذلك كان  
العمل والمال كلاهما ممنوعين محظورين : وكثيراً ما كانت ادارة السجن  
تقوم في الليل بحملات تفتيش دقيق فتصادر كل ما تقع عليه عند السجناء  
من أشياء تحظر الأنظمة اقتناءها ؛ وكانت حملات التفتيش هذه تظفر  
بإكتشاف بعض هذه الأشياء المحظورة مهما يتفنن السجناء في إخفائه •  
وكان هذا أحد الأسباب التي تدفع السجناء الى أن لا يحتفظوا بهذه  
الأشياء زمناً طويلاً ، بل يسارعون الى أن يستبدلوا بها خمرا يشربونه •  
وذلك يعلل لنا كيف كان لا بد أن تدخل الخمر الى السجن • كان  
السجين لا يحرم من ماله متى صودر فحسب ، بل كان الى ذلك يجلد  
جلداً قاسياً ! •••

وما يكاد ينقضى على حملات التفتيش زمن قصير ، حتى يحصل  
السجناء من جديد على نظائر الأشياء التي تمت مصادرتها ••• فتعود  
الأمر الى ما كانت عليه ••• وكانت ادارة السجن تعلم ذلك ••• ورغم  
أن ظروف حياة السجناء كانت أشبه بظروف حياة الناس الذين يسكنون  
فوق بركان فيزوف ، فلم يكن أحد منهم يتمم بكلمة واحدة تدمرا من  
العقاب •

ومن لم يملك صنعة يدوية كان يتاجر بطريقة من الطرق •  
وكانت أساليب الشراء والبيع طريفة • فبعضهم يشتري أشياء عتيقة ثم  
يبيعها ، وهي أشياء ما كان لأحد غير سجين أن يخطر بباله بيعها أو  
شراؤها ، حتى ولا اعتبارها ذات قيمة ما • ان أحقر خرقة بالية كان لها  
ثمنها ، وكان يمكن أن تنفع • وكان المال يكتسب في نظر السجناء ،  
بسبب فقرهم ، قيمة أعلى من قيمته في الواقع • ان أشغالا طويلة شاقة ،

بل ومعقدة كل التعقيد فى بعض الأحيان ، كان لا يُدفع ثمنها الا بضعة  
كوبكات • وكان بعض السجناء يقرضون بالربا لمدة اسبوع ، فيجنون  
من ذلك بعض الأرباح • كان السجن المبذّر أو المتلاف يحمل الى  
المرابى الأشياء القليلة التى يملكها ، فيرهنها لديه لاقتراض دريهمات  
قليلة بفائدة ضخمة • فاذا لم يسترد المدين أشياءه بدفع الدين فى  
موعد المضروب ، كان من حق المرابى أن يبيعها بالمزاد فى غير رحمة ،  
وبلا ابطاء • وقد بلغ الربا فى السجن من الرواج والازدهار أن السجناء  
كانوا يرهنون حتى أشياء تملكها الدولة : كالملابس والأحذية وما الى  
ذلك من أمتعة لا غنى عنها فى لحظة من اللحظات • فاذا قبل الدائن رهن  
أمتعة من هذا النوع ، جرت الأمور فى كثير من الأحيان مجرى لم يكن  
فى الحساب : فما هو ذا صاحب الامتعة يمضى بعد استلام المال الى  
العريف ( رئيس المراقبين فى السجن ) ، فيبلغه نبأ اختفاء امتعة من ملك  
الدولة ، فتتزعج الامتعة عندئذ من المرابى ، دون أن يرى أحد أن هناك  
ما يدعو الى تبليغ ادارة السجن حقيقة الأمر • وما من مشاجرة قامت يوماً  
بين المرابى وصاحب الأمتعة - وذلك أظرف ما فى الأمر - فان المرابى يرد  
الامتعة المطلوبة صامتاً عابس الوجه مقطب الجبين ، كأنه كان يتوقع ذلك  
منذ زمن طويل • • ولعله كان يعترف لنفسه بأنه لو كان فى محل المدين  
لما فعل غير ما فعله المدين • • ولذلك اذا تشاتم الرجلان فى اثر حادثة من  
هذا النوع ، فانهما لا يتشتمان عن كره وبغضاء ، بل يتشتمان ابراءً  
للذمة ان صح التعبير •

• وكان السجناء يسرق بعضهم بعضا بلا خجل ولا حياء • ان لكل  
سجين صندوقاً صغيراً مزوداً بقفل ، يدس فيه الأمتعة التى تعهد بها اليه  
ادارة السجن • غير أن السماح باستعمال هذه الصناديق لم يمنع السرقات  
قط • وسهل على القارىء أن يتصور براعة اللصوص الذين كانوا يبنّاء

ان أحد السجناء ، وكان مخلصاً لى كل الاخلاص ، ( أقول هذا بلا ادعاء ) قد سطا على كتاب التوراة الذى كنت أملكه ، وهو الكتاب الوحيد الذى كان يسمح للسجناء اقتناؤه فى السجن . وقد اعترف لى بفعلته فى ذلك اليوم نفسه ، لا ندما على ما فعل ، بل لأنه حين رآنى أبحث عن الكتاب مدة طويلة أشفق علىّ وأخذته بى رحمة . وكان بين رفاقنا فى القيد عدد من السجناء يسمون «خمّارين» ، وهم يبيعون الخمر ويثرون من هذه التجارة اثراءً لا بأس به . سأحدث عن هذا فيما بعد ، لأن هذه التجارة شائعة جداً فيحسن أن أتلبث عليها قليلاً . ان عدداً كبيراً من السجناء قد جرىء بهم الى هنا لانهم مهربون ، فلا غرابة والحالة هذه ان يهرّب الخمر سرا الى السجن ، رغم المراقبة الشديدة ، والحراسة المستمرة التى لا بد منها ولا غنى عنها . . . . ويجب أن أذكر عابراً أن التهريب جريمة لها شأن خاص . . . . هل تصورون أن المال والربح الذى يجنيه المهرّب من التهريب ليس فى المقام الأول دائماً فى نظر المهرّب ؟ تلك حقيقة مع ذلك . ان المهرّب يعمل فى التهريب لا طمعاً فى الربح بل تحقيقاً لرسالة : انه فى نوعه شاعر . انه يجازف بكل ما يملك ، ويعرّض نفسه لأشد المخاطر ، ويمكر ، ويحتال ، ويبتكر ، ويخرج من المآزق ، وينجو من المتاعب . . . . حتى لكأنه أحياناً ملهم فيعمل . . . . ان هوى التهريب لا يقل قوة وعنفاً عن هوى القمار . عرفت سجيناً ضخماً الجسم قوى البنية كان بين جميع من عرفت أكثرهم دماً وألينهم عريكة وأشدهم مسالمة وخضوعاً . . . . حتى ليتساءل المرء كيف أمكن أن يسجن هذا الانسان ؟ لقد كان من حسن المعشر ولطف السلوك وحب الناس أنه لم يتشاجر مع أحد طوال المدة التى قضاها فى السجن . انه من روسيا الغربية ، وكان يقطن على الحدود ، فاعتقل وأرسل الى السجن بتهمة التهريب . وكان طبيعياً أن لا يستطيع مقاومة الاغراء الذى

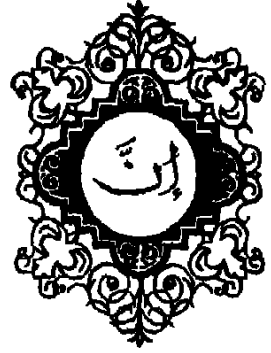
يحضه على المجيء بخمرة الى السجن • كم من مرة عوقب على ذلك !  
والله يعلم كم كان يخاف الشيطان ! وكانت هذه المهنة لا تدر عليه الا  
ربحاً زهيداً ••• وكان التعهد ( المقاتل ) هو الذى يثرى على حسابه ••  
كان الرجل يبكى بكاء امرأة عجوز كلما عوقب ، ويحلف أغلظ الأيمان  
لينقطع عن هذا العمل ••• فكان يبر بالعهد الذى قطعه على نفسه شهراً ،  
ثم اذا هو يعود سيرته الأولى منساقاً مع هواه من جديد ••• فبفضل هواه  
التهريب هؤلاء كان السجن لا يخلو من الخمرة فى يوم من الأيام •

وهناك مورد آخر ثابت كان يحسن الى السجناء وان لم يكن  
ينفيهم ••• ذلك المورد هو الصدقات • ان الطبقات الراقية فى مجتمعنا  
الروسى لا تعرف مدى اهتمام التجار والباعة والكسبة وسائر شعبنا  
الروسى «بعائرى الحظ» • كان سيل الصدقات لا ينقطع عن السجن فى يوم  
من الأيام ، وهو أنواع من الخبز الأبيض فى أكثر الأحيان ، أو شئ من  
المال فى بعض الأحيان • فلولا هذه الصدقات لكنت حياة السجناء ، ولا  
سيما حياة أولئك الذين ساءت تغذيتهم ، شاقة أليمة الى أبعد الحدود •  
وكانت الصدقات توزع على السجناء بالتساوى • فاذا كانت احدى  
الصدقات غير كافية شطرت الأربعة الصغيرة نصفين ، حتى ينال كل  
سجين نصيبه • ما زلت أذكر أول صدقة تلقيتها ، وكانت قطعة نقدٍ  
صغيرة • ففى ذات صباح ، بعد وصولى بزمن قصير ، كنت عائداً من  
العمل وحدى مع أحد الحرس ، فالتقيت بأُم وابنتها ••• ان البنت فى  
العاشرة من عمرها ، جميلة كملاك ••• كنت قد رأيتها مرة قبل ذلك •  
( الأم أرملة جندى شاب مسكين حوكم أمام المجلس الحربى ومات  
بمستشفى السجن أثناء وجودى فيه • لقد بكنا بكاءً حاراً حين جاءنا

كلتاها تودعانه الوداع الأخير ) • فلما رأتنى الفتاة احمر وجهها وتمتت  
تهمس فى أذن أمها ببعض الكلام ، فتوقفت الأم ، وتناولت من سلتها ربع  
كوبك مدته الى البنت ، فأسرعت البنت الى تقول : « خذ هذا الكوبك  
أيها المسكين ، على روح يسوع المسيح ! » • فأخذت قطعة النقد التى  
دستها البنت فى يدي • وعادت البنت الى أمها فرحة كل الفرحة • لقد  
احتفظت بذلك الكوبك ••••• زمنا طويلا •••••



## السبوع الأولى



الأسابيع الأولى من سجنى ، وبداياتى الأولى فيه بوجه عام تعرض لخيالى الآن واضحة وضوحاً قويا . أما السنون التالية فقد اختلط بعضها ببعض ولم تخلف فى نفسى الا ذكرى غامضة مبهمه . حتى أن بعض فترات هذه الحياة قد امّحت من ذاكرتى تماماً ، ولم أحتفظ منها الا باحساس واحد لم يتغير ، وهو الاحساس بأنها شاقة رتيبة خانقة .

ان ما رأيته وشعرت به أثناء تلك الآونة الاولى من اعتقالى يبدو لى كأنه حدث بالامس . وكان لا بد أن يكون الامر كذلك .

أذكر تماماً أن هذه الحياة انما أدهشتنى فى أول الامر لأننى لم أجد فيها شيئاً خاصاً خارقاً يلفت النظر أو يثير الانتباه ، أو قل بتعبير أصدق لأننى لم أجد فيها شيئاً غير متوقع . ولم أفهم كل ما فى مثل هذه الحياة من أمور استثنائية غير متوقعة الا بعد أن عشت فى السجن زمناً طويلاً طويلاً كافياً ، فدهشت عندئذ أشد الدهشة . ويجب أن أعترف أن هذه الدهشة لم تفارقنى طوال المدة التى قضيتها فى السجن ؛ ولا استطعت أن أتصالح مع هذه الحياة بحال من الاحوال .

شعرت في أول الأمر باشمئزاز لا سبيل الى مغالته حين وصلت الى السجن ، ولكن الشيء الغريب أن الحياة فيه بدت لي أقل مشقة والمآ مما كنت أتصورها في طريقي اليه •

فهاهم أولاء السجناء ، رغم ضيقهم بالأغلال ، يذهبون ويجيئون في السجن بحرية • انهم يتشائمون ويغنون ويعملون ويدخنون الغليسون ويشربون الخمر ( كان الشاربون مع ذلك قلة نادرة ) ، بل ويقيمون في الليل ندوات لعب بالورق • ولم تبد لي الأشغال شاقة جدا • وخيل الي أنها ليست هي المشقة أو العناء أو التعب الذي يلقاه السجين في معتقل الأشغال الشاقة • ولم أدرك الا بعد ذلك بزمن طويل لماذا كان هذا العمل قاسيا ومفرطاً • انه قاس ومفرط لا لأنه صعب ، بل لأنه اجباري ، لأنه الزامي ، لأنه قهري ، ولأن المرء لا يقوم به الا خوفا من العصا • لا شك أن الفلاح يعمل أكثر كثيراً من السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، فهو يكد ويجهد في الصيف ليل نهار • ولكنه من أجل مصلحته انما يكد ويجهد ، فهدفه معقول وغايته مفهومة ، لذلك لا يقاسى عايقاسيه السجين الذي يقوم بعمل اجباري لا يجنى منه نفعاً • خطر ببالي ذات يوم أنه اذا أريد تحطيم انسان من الناس تحطيماً ، ومعاقبته معاقبه قاسية رهية ، وسحقه سحقاً يرتعش ازاءه أشد السفاكين عنواً ، وأكثرهم ضراوة ، اخافته من هذه العقوبة خوفا رهيبا قبل انزالها فيه ، يكفي أن يُفرض عليه القيام بعمل ليس له أي فائدة البتة ، عمل سخي فباطل مستحيل • ان الأعمال التي يُفرض على السجناء أن يقوموا بها الآن لا تفيد هؤلاء السجناء في شيء ، ولا تعود عليهم بنفع ، ولكنها أعمال معقولة على كل حال : فالسجين يصنع قريدا أو يحفر الأرض أو يطبخ أو يبني ، وتلك كلها أعمال لها معناها ولها هدفها • فهو يريد عندئذ أن يقوم بعمله بمزيد من الحذق ، ومزيد من الفائدة • أما اذا أكرهته مثلا

على أن يصب ماءً من وعاء في وعاء ، ثم أن يعيد الماء من الوعاء الثاني الى الوعاء الاول ؛ أو اذا اكرهته على أن يدق رملاً ، او على ان ينقل كومة تراب من مكان الى مكان لتأمره متى أتم نقلها بأن يردها الى حيث كانت ، فأننى لعلى يقين من أن السجين سيقتل نفسه ذبحاً بعد بضعة أيام ، أو سيرتكب ألف جريمة من الجرائم التى يعاقب فاعلها بالاعدام ، مؤثراً ذلك على أن يحيا فى مثل هذا الهوان وهذا العذاب • ان عقوبة كهذه العقوبة لهى أقرب الى التعذيب والانتقام الرهيب منها الى التأديب • وهى سخيفة مستحيلة لا تحقق هدفاً مقولاً •

مهما يكن من أمر ، فأننى لم أصل الى السجن الا فى فصل الشتاء ، فى شهر كانون الأول ( ديسمبر ) • لم تكن الأعمال حينذاك كثيرة فى قلعنا • ولم يكن فى ذهنى اية فكرة عن اعمال الصيف التى يساوى تمبها خمسة أضعاف تعب أيام الشتاء • كان السجناء أثناء فصل الشتاء ينقضون مراكب قديمة تملكها الدولة على نهر ارتيش ، ويعملون فى الورشات ، وينزعون الثلوج التى تراكمها عواصف الثلج على المباني ، أو يحرقون الجص ويدقونه ، النخ • ولما كان النهار قصيراً جداً ، فان العمل ينتهى فى ساعة مبكرة ، ويعسود السجناء الى السجن حيث لا يعملون شيئاً عدا العمل الاضافى الذى ابتدعوه لأنفسهم •

وكان ثلث السجناء فى أكثر تقدير يقوم لنفسه بعمل جاد : أما الآخرون فيتسكعون كسالى لا يعملون ، ويحوّمون هنا وهناك فى الثكنة بغير هدف ، يكيّد بعضهم لبعض ويشتم بعضهم بعضاً • والذين يملكون منهم شيئاً من مال يشربون الخمر ويسكرون ، أو يخسرون فى القمار ما ادخروه ••• ذلك كله كسلاً وضجراً وفراغاً ••• وقد عرفت نوعاً من العذاب لعله أشد وآلم أنواع العذاب التى يمكن أن يقاسى منها سجين الى جانب حرمانه من الحرية : ألا وهو السكنى المشتركة قسراً • ان

السكنى المشتركة أمر يُقسر عليه الانسان قسراً فى كل مكان تقريباً ،  
ولكن السكنى المشتركة ليست رهية فى مكان كما هى رهية فى سجن :  
ان هناك أناساً لا يطبق أحد أن يعيش معهم • وانى لعل يقين من أن كل  
سجين قد قاسى من هذا الأمر ، ربما دون أن يشعر •

أما الطعام الذى كان يقدم للسجناء فقد بدا لى مقبولاً • وكان  
السجناء يؤكدون أنه خير كثيراً من الطعام الذى يقدم فى أى معسكر من  
معسكرات التأديب فى روسيا الأوروبية • غير أننى لا أستطيع أن أشهد  
بصدق قولهم ، لأننى لم أدخل سجناً غير هذا السجن • وكان كثيرون  
منا يستطيعون أن يحصلوا على الطعام الذى يطيب لهم • ولكن رغم أن  
سعر رطل اللحم لا يزيد على كوبكين شتاءً ، وثلاثة كوبكات صيفاً ، فان  
الذين كانوا يسمحون لأنفسهم بترف أكل اللحم انما هم الذين يملكون  
مالاً • أما أكثر السجناء فكانوا يكتفون من الطعام بالنصيب الذى يوزع  
عليهم •

واذا امتدحوا طعام السجن فانهم لا يعنون الا الخبز الذى كان  
يوزع بالوزن على الغرف لا على الافراد ، ولو قد اتبعت هذه الطريقة  
الأخيرة لأرعب ذلك السجناء ؛ لأن ثلثهم على الأقل كان سيُعاني من  
الجوع فى هذه الحالة بغير انقطاع ؛ أما الطريقة المتبعة فقد كان كل منهم  
راضياً عنها • وكان خبزنا طيب المذاق لذيذ الطعم مشهوراً فى المدينة  
كلها : وانما تعزى جودته الى أن افران السجن قد أحسن بناؤها • أما  
حساؤنا الذى كان يُصنع من حامز الملقوف ( الكرنب ) ويطبخ فى قدر  
كبيرة ويكتف باضافة شئ من الدقيق اليه ، فلم يكن منظره بالمنظر  
الساو ، وهو فى أيام العمل رائق هزيل يكاد يخلو من الدسم • على أن  
الشئ الذى كان يثير فى نفسى الاشمزاز خاصةً ، انما هو عدد الهوام

والحشرات التي كثيراً ما كانت توجد فيه • على أن السجناء كانوا لا يولون ذلك أيّ انتباه •

لم اذهب الى العمل في الأيام الثلاثة الأولى التي أعقبت وصولي : فلقد كان السجناء الجدد يُمهّلون بعض الوقت للاستراحة من متاعب السفر • وكان على ان اخرج من السجن في الغداة لتبديل أغلالي ، فان السلسلة التي كنت مقيداً بها ليست من النموذج المستعمل في السجن ، فهي مؤلفة من حلقات ترن رنين الجلاجل ، كما وصفها بذلك السجناء ؛ وهي تُحمل من الخارج فوق الثياب ، ولا كذلك قيود رفاقي فانها لم تكن مصنوعة من حلقات بل من قضبان أربع بسمك الاصبع ، تضمها ثلاث حلقات تلبس تحت السروال وتشدُّ الحلقة الوسطى منها بحزامٍ معقود على القميص • ما زلت أرى الصبيحة التي قضيتها في السجن رؤية واضحة الى الآن • لقد دق الطبل عند مقر الحرس قرب الباب الكبير في السور ، فما هي الا عشرة دقائق حتى فتح العريف أبواب الثكنة ، فأخذ السجناء يستيقظون بعضهم وراء بعض ، فينهضون عن أسرتهم المصنوعة من ألواح الخشب ، مرتجفين من شدة البرد ، على ضوءٍ كابٍ يصدر عن شمعة مشتعلة •

انهم عابسون جميعاً على وجه التقريب : يتساءبون ويتمطون وتتغصن جباههم الموشومة • فبعضهم يرسم اشارة الصليب وبعضهم يبدأ بقذف الشتائم وصب اللعنات • والأبخرة التي تملؤ جو الثكنة رهية • غير أن الهواء البارد يهجم من الخارج متى فُتح الباب ، ويأخذ يدور في الثكنة كالاعصار • ويتدافع السجناء حول دلاء الماء يملئون منها أفواههم ليفسلا وجوههم وأيديهم • ويكون هذا الماء قد حمله السقاء منذ الأمس • والسقاء سجين توجب الأنظمة أن يعنى بتنظيف الثكنة ، وينتخبه السجناء بأنفسهم ، فهو لا يمضى الى العمل ، لأن عليه أن يعنى بفحص الأسرة ،

وملاحظة الأرض ، وأن يجيء بطشت الغسيل في الليل وأن يخرج في الصباح ، وأن يملأ دلاء الثكنة بالماء البارد يُستعمل في الصباح للاغتسال ويستعمل في النهار للشرب • وفي ذلك الصباح الذي دخلت فيه السجن شبت على الفور مشاجرات حول جرة الماء :

— ماذا تفعل هنا يا ذا الجبين الموشوم ؟

بهذا دمدم سجين فارح القامة ، أعجف الجسم ، أسمر اللون ، يلفت النظر بالتواءات الغريبة التي تغطي جمجمته • قال ذلك ودفع بيده سجيناً آخر مدوّر الجسم ، قصير القد ، مرحح الطبع ، أحمر الوجه • فأجابته الثاني :

— هلاًّ انتظرت قليلاً !

— لماذا تصرخ ؟ ألا تعلم أن من يطلب من غيره الانتظار فلا بد له أن يدفع ثمن ذلك ؟ هيا امض ! أرايتم الى هذا التمثال أيها الاخوة ! لا ••• لا ••• انه لا يملك شيئاً من « الفارتيكوليتانبوست » •••

وأحدثت هذه الكلمة « فارتيكوليتانبوست » \* أثرها ••• فانفجر السجناء ضاحكين مقهقهين ••• وذلك كل ما كان يتمناه السجن المازح الهازل الذي كان واضحاً أنه يقوم في الثكنة بدور المهرّج • فرمقه السجن الثاني بنظرة احتقار عميق •

قال الأول :

— يا لك من عجل ••• انظروا كم سمّنه خبز السجن ! •••

— ماذا تظن نفسك ؟ طائراً جميلاً ؟ •••

— كما تريد ! •••

— قل لنا اذن : أيُّ طائر جميل أنت ؟

- انك ترى ...

- كيف أرى ؟

- قلت لك : طائر ...

- ولكن أى طائر ؟

كان الرجلان يلتهم كل منهما صاحبه بعينه التهاماً • وكان القصير ينتظر جواباً وهو قابض يديه كأنه يستعد للنزال • وقدّرت أن معركة ستشب • كانت هذه الأمور كلها جديدة علىّ • لذلك كنت أنظر الى المشهد مستظلاً مدهوشاً • ولكننى علمت بعد ذلك أن المشاجرات التى من هذا القيل بريئة كل البراءة ، يراد بها تسلية السجناء الآخرين ، كأنها تمثيلية مضحكة ... ولا يكاد يصل الشجار فى يوم من الأيام الى حد استعمال الأيدي • ذلك أمر تتميز به عادات السجن وأخلاقه تميزاً واضحاً •

لبث السجين الطويل القائمة هادئاً رضيعاً وقوراً جليلاً • كان يحس أنهم ينتظرون جوابه • ان عليه أن أن يدافع عما قاله ، وأن يبرهن على أنه طائر عظيم ، على أنه شخصية ... والا تلتخ شرفه أمام الآخرين ، وضحكوا عليه ما شاء لهم هواهم أن يضحكوا • لذلك ألقى على خصمه نظرة شذراء تفيض احتقاراً لا يوصف ، محاولاً أن يثير حنقه بنظرة من فوق الكنف يروزه بها من أعلاه الى أدناه ، كما يمكن أن يفعل ذلك بحشرة من الحشرات ، ثم قال يجيبه بصوت بطيء متميز :

- كاجان \*

يريد أن يقول انه طائر من نوع « الكاجان » • فما ان نطق بهذه الكلمة حتى انطلقت من الصدر قهقهة رهية ، وحتى أخذت الأكف تصفّق تهليلاً للجواب المحكم •

– أنت لست طائر « كاجان » ••• بل أنت وغد حقير •••

كذلك صاح يقول الرجل القصير السمين الذى أحس أنه غلب •  
وثارت نائثرته للهزيمة التى ألحقها به خصمه ، فأوشك أن يهجم عليه لولا  
أن رفاقه أحاطوا بالرجلين كليهما خشية أن تقوم مشاجرة حقاً •

صاح أحد المشاهدين يقول من ركنه البعيد :

– مالكما لا تقتلان بالأيدى بدلاً من تراشق الكلام بالألسن ؟

فأجيب :

– بل حولوا بينهما ••• فلسوف يقتلان ••• نحن رجال أشداء •••  
واحدنا بسبعة اذا جد الجدد ••• ولا نهجم عن منازلة •••

– يا للمقاتلين الأشداء! ••• واحد جىء به الى هنا لأنه سرق  
رطلاً من خبز ••• وواحد لأنه من لصوص الأوانى ••• أوسع الجلود  
جلداً بعد أن سرق من احدى العجائز وعاء لبن رائب •••

صاح رجل من مشوهى الحرب :

– هياً ••• كفى ••• كفى •••

هو جندى سابق مهمته أن يحافظ على النظام فى الثكنة ، وكان ينام  
فى ركن من الأركان على سرير خاص •

– ماءً يا أولاد ! ماءً لأخيكم نيفاليد بتروفتشس ! ••• ماءً لأخينا  
نيفاليد\* بتروفتشس ••• ها هو ذا يستيقظ الآن !

– أخوك ؟ أنا أخوك ؟ اتنا لم نشرب خمرة معاً بقرش واحد فى  
يوم من الأيام •••



كذلك دمدم يقول الرجل المشوه وهو يدس ذراعيه في كمي

معطفه •

وتهياً السجناء للتفقد ••• ذلك أن النهار قد طلع ••• تدافع  
السجناء نجو المطبخ جمهوراً متزاحماً ••• كانوا قد لبسوا صدراتهم •••  
وها هم يتلقون بقبعاتهم ذات اللونين الخبز الذي يوزعه عليهم أحد  
الطباخين • كان هؤلاء الطباخون يختارهم السجناء أنفسهم ، وكان يوجد  
منهم اثنان في كل مطبخ ••• وهم يتصرفون بالسكين الوحيدة المرخص  
بها في المطبخ ، يستعملونها في قطع الخبز وقطع اللحم على السواء •

وتفرق السجناء في الأركان وحول الموائد ، لابسين طاقياتهم  
وستراتهم ، متزترين بحزام الجلد ، متأهين للذهاب الى العمل • وكان  
أمام بعض السجناء شيء من شراب الكفاس\* يفتون فيه خبزهم ثم يلتهمونه.  
الجلبة لا تطاق • ومع ذلك كان بعض السجناء يتحدثون في  
الأركان وقد لاح في وجوههم الجد والهدوء •

– نعمت صباحاً ، وطاب طعامك أيها الأب أنطونتش •

كذلك قال أحد الشبان من السجناء ، وهو يجلس الى جانب شيخ  
أثرم عابس • فأجابه الشيخ دون أن يرفع عينيه محاولاً أن يمضغ خبزه  
بلثيه اللتين ليس لهما أسنان :

– نعمت صباحاً ، اذا كنت لا تمزح !

– كنت أحسب أنك مت يا أنطونتش ! ما أغباني ! ••• حقاً كنت  
أظن أنك مت ! •••

– مت أنت أولاً فأتبعك •••

جلست قرب الرجلين • كان على يميني سجينان وقوران يتبادلان الحديث ويحاولان أن يحافظا على رصاتهما وهما يتحدثان •

قال أحدهما :

- لست أنا من يمكن أن يسرقه أحد ••• بل اننى لأخشى أن أقوم أنا بسرقة أحد ••• لن ينفع أحداً أن يسرفنى ••• والا دفع الثمن غالباً •••

- ما عسك نستطيع أن تفعل ؟ ما أنت الا سجين ••• هل لنا اسم آخر ؟ ••• لسوف ترى أنها ستسرقك ، هذه اللثيمة ••• دون أن تقول لك شكراً • لقد صنعت بى ذلك • هل تتصور أنها جاءت منذ بضعة أيام ؟ تساءلت : أين يمكن أن نختفى عن الأنظار ؟ قلت : استأذن بالذهاب الى تيودور الجلاد • كان لا يزال يملك داراً فى ظاهر البلدة ••• هى تلك الدار التى اشتراها من سالومون الأجرى ••• هل تعرفه ؟ انه ذلك اليهودى الذى قتل نفسه منذ عهد قريب •

- نعم أعرفه ••• هو الذى كان خمّاراً هنا منذ ثلاث سنين ، وكانوا يسمونه جريشكا ••• الخمّار الأعور ••• أعرفه •

- بل أنت لا تعرف شيئاً ••• أولاً : هو خمّار آخر •••

- كيف ؟ خمّار آخر ؟ أنت لا تعرف ماذا تقول ••• أستطيع أن آتيك بالعدد الذى تشاء من الشهود على أنك لا تدري ماذا تقول ! •••

- أأنت تأينى بشهود ؟ من أنت ؟ أتعرف من تخاطب يا هذا ؟

- من أنا ؟ أنا من ضربك مراراً ، رغم أننى لا أتباهى بذلك ولا أفخر ولا أزهو ••• فدعك اذن من التكبر والاستعلاء ! •••

– أنت ضربتني ؟ لِمَا يولد بعد من يضربني ••• والشخص الذى  
ضربني هو الآن راقد فى باطن الارض على عمق ست اقدام •••

– أنت امرؤ مصاب بالطاعون !  
– ليت جذام سيريا يملؤك قروحاً !  
– ليت تركيا يشق رأسك شقاً ! •••  
وانهالت الشتائم كالطرر المنهمر •••

– انظروا ••• ها هما يصيحان • على المرء أن يبقى هادئاً بعد أن لم  
يعرف كيف يسلك سبيل الرشاد فى هذه الحياة ••• انهما لسعيدان جدا  
بالمجئء الى هنا ليأكلوا خبز الحكومة ، هذان القتيان الشجاعان ! ••

وسرعان ما فصلوا أحدهما عن الآخر ، فحالوا بين اشتباكهما • لأن  
« يقتتل المقتلون بالألسن » ماشاء لهم أن يقتلوا ، فذلك أمر مباح ، لأنه  
يسلئى الجميع ، أما ان يشتبكا بالأيدي فلا ! ••• ان الاعداء لا يشنجرون  
بالأيدي الا فى حالات نادرة استثنائية ! ••• فاذا نشب عراك أبلغ الميجرء ،  
فأمر الميجرء باجراء تحقيق ، وتدخل فى الامر بنفسه – وعندئذ تجرى  
الامور مجرى سيئا يصيب السجناء باذى • لذلك تراهم يسارعون الى انهاء  
اى شجار جدى • ثم ان المتخاصمين يتشاجرون من قبيل التسلية والتمرن  
على فصاحة اللسان وبلاغة البيان فى الدرجة الأولى • انهم يتحمسون فى  
أول الأمر ، ويتخذ الشجار بينهم طابع السخط والغضب والحق ، فيتوقع  
المرء أن يهيم أحدهما بالآخر يريد أن يقتله ، ثم لا يقع شئ من ذلك  
البنة ؛ فما ان يبلغ بهم الغضب حداً معيناً ، حتى يفترقا ويمضى كل منهما  
فى سبيله • ولقد أدهشنى ذلك كثيراً ••• ولئن كنت أصف هنا بعض  
ما كان يجرى بين السجناء من أحاديث ، فانما أفعل ذلك عامداً • هل كان  
يمكننى قبل ذلك أن أتصور أن يتشاتم اثنان نشداناً للذة ، وأن يجدوا

فى هذا التشتام متعة ! يجب أن لا نسى ميل المرء الى الظهور والشهرة :  
ان المحاور الذى يعرف كيف يشتم شتماً موفقا كفتان ، يحظى باحترام  
الآخرين . . . حتى ليكاد السجناء يصفقون له كما يصفق الناس لمثل  
أجاد تمثيل دوره .

وكنت قد لاحظت فى المساء الماضى نظرات شزراء يوجهها الى  
بعضهم ؛ ولاحظت فى مقابل ذلك عدداً من السجناء يحوم حولى ، لظنهم  
أننى احمل معى الى السجن بعض المال . حاولوا أن يستميلونى ، وذلك  
بأن يعلمونى كيف أضع الاغلال دون أن تضايقنى ، وقدموا لى ايضاً  
صندوقاً ذا قفل أودع فيه أمتعتى التى سلمتها الادارة وأودع فيه الملابس  
الداخلية القليلة التى سمح لى ان ادخلها معى الى السجن ( وقد قبضوا  
ثمن الصندوق طبعاً ) . وبعد ذلك بيوم واحد فقط ، سرق هؤلاء السجناء  
هم أنفسهم صندوقى ، بعد أن شربوا بئمه خمرأ . ان واحدا منهم قد  
أخلص لى الود بعد ذلك ، وبلغ من ذلك أنه أصبح يسرق لى كل ما تتح  
الفرص أن تمتد يده اليه من أشياء . ولم يكن يشعر من سرقاته باى  
خجل أو حياء ، لأنه كان يرتكب هذه السرقات وهو لا يكاد يشعر بما  
يعمل ، حتى لكأن ما يقوم به واجب : لذلك لم أستطع أن أحمل له أى  
حقد أو ضغينة .

وقد عرفت من هؤلاء السجناء أن فى امكان المرء أن يحصل على  
شىء من الشاى ، وأن من مصلحتى أن أهيبء لى غلاية . ووقعوا لى  
على غلاية استأجرتها الى زمن . ودلونى كذلك على طباخ يمكن اذا أنا  
نقدته ثلاثين كوبكاً فى الشهر أن يدبّر لى الأطعمة التى أرغب فيها ،  
هذا اذا كنت أريد أن أشتري مؤناً خاصةً وأن يهيا لى طعام خاص . . .  
واقترضوا منى بعض المال بطبيعة الحال . . . بل انهم فى يوم وصولى نفسه  
قد جاءونى يطلبون الاقتراض ثلاث مرات .

ان من كانوا ينتمون الى طبقة النبلاء قبل دخولهم السجن ، كان السجناء ينظرون اليهم شزرا • فرغم انهم جر دوا من جميع حقوقهم ، وأصبحوا كسائر السجناء سواء بسواء ، فان هؤلاء كانوا لا يعدونهم رفاقاً. صحيح • كانوا ينظرون الينا دائما نظرتهم الى نبلاء ، رغم أنهم كثيراً ما يسخرون من سقوطنا • كانوا يقولون مثلاً :

— هيه ! أنظر الى هذا السيد النبيل ! كانت عربته فى الماضى تدوس الناس بموسكو ! أما الآن فقد انتهى الأمر • انه الآن يجدل حبال القنب •

كانوا يفتبظون لآلامنا التى نحاول اخفاءها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً • وكنا نقاسى أكثر ما نقاسى حين نعمل معهم، ذلك أن قوانا لا تعادل قواهم ، ولم نكن نستطيع أن نساعدهم حقاً • لا شىء أصعب من كسب ثقة الناس ، وكسب ثقة أمثال هؤلاء الناس خاصة ، والحظوة برضاهم ونيل محبتهم وعاطفتهم •

ولم يكن فى السجن كله الا بضعة أشخاص من قدامى النبلاء ، فهم خمسة بولونيين كان السجناء يكرهونهم أكثر مما يكرهون الروس من قدامى النبلاء ( وسأتكلم عن هؤلاء البولونيين تفصيلاً فيما بعد ) ؛ كان البولونيون ( ولا أتكلم الآن الا عن الحكوميين السياسيين ) يكرهون أنفسهم على معاملة السجناء بشىء من التهذيب اكرهاها جارحاً مسيئاً مؤذياً، ولا يكادون يخاطبونهم يوماً بكلمة ، ولا يخفون ما يشعرون به من اشمئزاز من صحبتهم • فكان السجناء يدركون ذلك حق الادراك ، ويكيلون لهم الصاع صاعين •

احتجت الى ما يقرب من سنتين من أجل أن أظفر بمودة بعض رفاق السجن ، على أن أكثرهم كان يحببنى ويعلم أننى انسان طيب شهيم •

كان عدد قدامى النبلاء من الروس فى السجن خمسة منهم أنا •  
ولقد سمعت من يصف أحدهم - حتى قبل وصولى - بأنه انسان شرير  
حقير فاسد الأخلاق وغد متفسخ يتجسس على السجناء ويشى بهم • لذلك  
تحاشيت منذ أول يوم أن تكون لى علاقة بهذا الانسان • أما ثانى الخمسة  
فهو قاتل أبيه الذى سبق أن أتيت على ذكره • وأما الثالث فاسمه آكيم  
آكيتش ، ما رأيت فى حياتى انسانا اطرف منه ، وما تزال ذكراه فى نفسى  
حية قوية الى الآن •

انه طويل القامة ، نحيل الجسم ، ضعيف العقل ، على جانب رهيب  
من الجهل ، مماحك مناكد كالماني • كان السجناء يسخرون منه ويستهزئون  
به ولكنهم كانوا يخشونه ، لأنه سريع التأذى ، كثير المطالب ، ميال الى  
المشاجرة • وقد وضع نفسه منهم موضع الند منذ وصوله ، فهو يبادلهم  
الشتائم والضرب ، وهو لما يتصف به من استقامة وشرف ونزاهة واخلاص ،  
ما ان يلاحظ ظلماً يقع على مخلوق حتى يتدخل فى الأمر الذى لا يعنيه ،  
فكانه طرف فيه • وكان الى ذلك ساذجاً الى أبعد حدود السذاجة • كان  
فى مشاجراته مع السجناء يعيب عليهم أنهم لصوص ، وينصحهم مخلصاً  
صادقاً بأن يقلعوا عن السرقة • كان فى الماضى ملازماً ثانياً بالفقاس • وقد  
انعقدت بينى وبينه الصلة منذ أول يوم ، فسرعان ما قصّ علىّ قصيته •  
قال انه بدأ حياته العسكرية متطوعاً برتبة صف ضابط فى فرقة على  
الحدود • وبعد أن انتظر ترقيته الى رتبة ملازم ثانٍ زمناً طويلاً ، نال  
هذه الترقية أخيراً ، وأرسل الى الجبال رئيساً لحصن صغير • وكان هنالك  
أمير صغير من الأراضى التابعة للحصن ، حاول اشعال النار فى الحصن ،  
وقام ذات ليلة بهجوم على الحصن ، فلم يظفر بطائل • وعمد آكيم  
آكيتش الى الحيلة فى الاقصاص من الأمير ، فظاهر بأنه يجهل أن

الأمير هو الذي شن ذلك الهجوم على الحصن ، ونسب ذلك الهجوم الى عصاة كانوا يطوفون في الجبل . وبعد شهر من ذلك ، دعا آكيم الأمير الى زيارته زيارة مودة وصداقة . فجاء الأمير منمتطياً صهوة جواده دون أن يخطر بباله أى شك ، ودون أن تراوده أية شبهة . جمع آكيم آكمتش جنوده ، وأعلن لهم أمام الأمير الخيانة التي ارتكبها الزائر ، وقرع الأمير على سلوكه ، وبرهن له على أن احراق حصن من الحصون جريمة شنعاء ، وشرح له بكثير من الدقة والتفصيل ما يقع على أمير تابع للحكومة من واجبات ، ثم ختم ذلك كله بأن أمر باطلاق الرصاص على الأمير ؛ ثم أسرع يبلغ رؤساءه بأنه نفذ في الأمير حكم الاعدام ، ذاكراً جميع التفاصيل اللازمة . فأحيل آكيم آكمتش الى المحاكمة أمام مجلس حربى ، فصدر الحكم باعدامه ، ثم خفف الحكم فأرسل الجانى الى سييريا سجيناً من الفئة الثانية ، أى سجيناً مدة اثنى عشرة سنة . اعترف لى آكيم بأن تصرفه لم يكن شرعياً ، وأن الأمير كان يجب أن يحاكم أمام محكمة مدنية لا أمام مجلس عسكرى . ومع ذلك كان آكيم غير قادر على أن يفهم أن فعله جريمة . فكان يجيب على جميع اعتراضاتى بقوله :

— لقد أشعل النار فى حصنى ، فماذا كان يجب علىّ أن أعمل ؟  
 أكان يجب علىّ أن أشكر له فعلته ؟

وكان السجناء ، رغم أنهم يسخرون من آكيم آكمتش ، ويستهزئون به ، ويزعمون أن به لوثة ، كانوا يقدرونه بسبب حذاقته ومهارته ودقته .

كان يتقن جميع المهن الممكنة ، ويصنع لك ما تشاء أن يصنعه : كان حذاءً ، واسكافياً ، ودهاناً ، ونقاشاً ، وقفالاً . وقد اكتسب هذه المواهب كلها فى السجن نفسه ، فقد كان يكفيه أن يرى شيئاً من الأشياء حتى

يقلده أحسن تقليد • وكان يبيع في المدينة سلالاً وفوانيس ودمى ، أو  
قل كان يكلف احداً يبيع له هذه الاشياء •

وبفضل عمله كان يملك بعض المال دائماً ، يشتري به على الفور  
ملابس او وسادة أو ما الى ذلك مما يحتاج اليه • وقد هيا لنفسه فراشاً •  
واذ كان يقيم في نفس الثكنة التي اقيم انا فيها ، فقد أفادني كثيراً في اول  
عهدي بالسجن •

وكان السجناء قبل أن يخرجوا من السجن الى العمل يصطفون  
صفين أمام مقر الحرس ، فكان الحرس يحيطون بهم وقد أمسكوا ببندقياتهم  
محشوة • وكان ياتي عندئذ ضابط من سلاح الهندسة مع مراقب الاشغال  
وعدد من الجنود الذين يشرفون على أعمال السجناء • فكان المراقب يعد  
السجناء ويرسلهم أفواجاً الى الأماكن التي يجب عليهم أن يعملوا فيها •

وذهبت مع عدد من السجناء الى ورشة الهندسة ، وهي مبنى واطيء  
من خشب ، شيد وسط فناء كبير تراكت فيه مواد البناء • كان هناك كور  
لصهر المعادن ، وورشات نجارة واقفال ودهان • فكان آكيم آكيتش  
يعمل في هذه الورشة الأخيرة : يحضر زيت الدهان ، ويشكل الألوان ،  
ويطلى الموائد وغيرها من الاثاث بلون يوهم أنها من خشب الجوز •

وبانتظار أن يضعوا لى أغللاً جديدة ، نقلت اليه احساساتي الأولى ،

فقال :

– نعم ، انهم لا يحبون النبلاء ، ولا سيما المحكومين السياسيين ،  
ويسعدهم أن يلحقوا بهم أذى أو أن ينالوهم باساءة • وذلك أمر ما ينبغي  
أن نستغربه في حقيقة الأمر ! أنت لست منهم ، أنت لا تشبههم : لقد  
كانوا كلهم قناتاً أو جنوداً ، فكيف يمكن أن يجسوك ؟ ان الحياة قاسية  
هنا ، ولكن تسوتها ليست شيئاً مذكوراً اذا قيست بقسوة الحياة في



معسكرات التأديب بروسيا • حتى أن الذين يجيئون من هنالك يمتدحون سجننا ، ويصفونه بأنه جنة بالقياس الى تلك السجون ••• لا لأن العمل هنالك أصعب ؛ ويقال ان الادارة هنالك تعامل سجناء الفئة الأولى (وليست الادارة هناك عسكرية فحسب ، كما هي هنا ) معاملةً تختلف عن المعاملة هنا كل الاختلاف • ان للسجناء هناك بيوتاً صغيرة خاصة بهم ( قيل لي ذلك ولسكنى لم أره بنفسى ) ، وانهم لا يرتدون زياً موحداً ، وانهم لا تُحلق رؤوسهم ؛ على أن الزي الموحد والرؤوس المحلوقة خير في نظري ••• انها تنظم الأمور ، ثم ان منظرها أجمل ••• ولكنهم ، هم ، لا يحبون هذا • ياله من برج بابل ! أولاد مجنون ، شراكسة ، ملاحدة ، أورثوذكس ، فلاحون تركوا نساءهم وأولادهم ، يهود ، غجر ، وأناس آخرون لا يدرى الا الله من أين جاءوا ! ••• وعلى هذا الخليط العجيب من البشر أن يعيش معاً كأسرة واحدة ، جنباً الى جنب ؛ على هؤلاء الناس جميعاً أن يأكلوا من أطباق واحدة ، وأن يناموا على ألواح واحدة ••• ما من لحظة حرية : ولا يمكن للمرأة أن يرفه عن نفسه قليلا الا خلصة وخفية ••• عليه أن يخبيء ماله في حذاءيه ••• ثم السجن فالسجن ••• ولا شيء الا السجن ••• ان الانسان لتراوده عندئذ حماقات دون أن يريد ذلك •

كنت أعلم هذا كله من قبل • وانما كنت أحب خاصة أن أسأل آكيم آكيتمش عن الميجر • فلم يخف عنى آكيم شيئاً ، فتركت أقواله في نفسى أثرا ليس بالمتع ! •••

كان على أن أعيش سنتين كاملتين تحت سلطة هذا الضابط • وكل ما قصه على آكيم آكيتمش عنه لم يكن الا الحقيقة نفسها بلا زيادة ولا نقصان • ان هذا الضابط انسان سيء الطبع ، شرس الخلق ، رهيب ، لا سيما وأنه كان يملك سلطة تكاد تكون مطلقة على أكثر من مائتى

انسان • كان ينظر الى السجناء نظرتة الى أناس يناصبونه العداة شخصياً ، وتلك خطيئة أولى خطيرة كل الخطورة • وحتى كفاءاته النادرة ، بل وربما حسناته القليلة كان يفسدها طيشه وخبثه وميله الى الشر والأذى • كان يسقط على الثكنة فى بعض الأحيان سقوط قبلة فى وسط الليل ، فاذا رأى أحد السجناء نائماً على ظهره أو على جنبه الأيسر أيقظه ليقول له : « يجب أن تنام على الجنب الأيمن كما أمرت أنا بذلك » • وكان السجناء يكرهونه ويمقتونه ويخافونه خوفاً من الطاعون • ان وجهه الكريه المحمرّ يرتجف لمنظره جميع السجناء • وكان كل سجين يعرف أن الميجر خاضع خضوعاً كاملاً لسلطة خادمه فدكا ، وأنه كاد يُجنّ حين مرض كلبه تريزوركا\* • كان يؤثر هذا الكلب على جميع خلق الله ••• فلما أعلمه فدكا أن بين السجناء سجيناً ملماً بالليطرة ، وأن حالات شفاء عجيبة قد تمت على يديه ، استدعى السجين على الفور وقال له :

— أعهد اليك بمعالجة كلبى من مرضه ، فان شفيت تريزوركا أغدقت عليك ذهباً وفضة •••

والرجل فلاح سيبرى ذكى جداً ، هو فى الواقع بيطرى ممتاز ، ولكنه فلاح ماكر قبل كل شيء • وقد قص على رفاقه قصة زيارته للميجر بعد أن نسيت تلك القصة ، قال :

— نظرت الى كلبه تريزوركا • كان راقداً على أريكة وتحت رأسه وسادة ناصعة البياض • وأدركت فوراً أنه يعانى من التهاب ، وأنه فى حاجة الى فصد ، وأيقنت أن فى امكانى أن أشفيه ، ولكننى قلت لنفسى : « فماذا لو فطس الكلب ؟ لسوف يكون الذئب عندئذ ذئبى أنا » ، فقلت للضابط : « لا يا صاحب النبالة ••• لقد تأخرت فى استدعائى ••• فلو

قد رأيت كلبك أمس أو أمس الأول اذن لكان الآن مشافى معافى •••  
ولكن فات الأوان ، فليست أستطيع أن أصنع له شيئاً ، وسيموت لا محالة !  
وفطس تريزوركا •

وحكى لى أن أحد السجناء أراد فى يوم من الأيام أن يقتل الميجر •  
كان هذا السجن قد عُرف منذ عدة سنين بخضوعه وامتاله وانصياعه ،  
كما عرف أيضاً بسكوته وصمته : حتى لقد كان يعد مجنوناً • ولما كان  
على جانب من ثقافة ، فقد كان ينفق ليليه فى قراءة التوراة • فمتى نام  
جميع السجناء نهض وتسلق المدفأة فأشعل شمعة من شموع الكنيسة  
وفتح انجيله وأخذ يقرأ • فعلى هذه الحال انما قضى سنةً بكاملها •

وفى ذات يوم ، خرج من الصفوف وأعلن أنه لن يذهب الى العمل •  
فأبلغ الميجر الأمر ، فغضب غضباً شديداً ، ولم يلبث أن جاء الى الثكنة  
فوراً • فما ان رآه السجن حتى اتجه نحوه ، ورماه بقرميدة كان قد  
هياها سلفاً ، ولكنه لم يصبه • فقبض على السجين ، وحوكم ، وجلد  
بالسياط ، بضع لحظات لا أكثر ••• نقل بعدها الى المستشفى ، فما هى  
الا ثلاثة أيام حتى مات • وقد صرَّح وهو يحتضر بأنه لا يكره أحداً ،  
وانما أراد أن يتألم وأن يتعذب ، وانه مع ذلك لا ينتمى الى أية ملة من  
الملل المنشقة • كان الناس اذا أتوا على ذكره فى الثكنات يذكرونه بالخير  
والاحترام دائماً •

وأخيراً أبدلوا لى أغلالى • وفيما كانوا يلحمونها دخلت الى الكور  
بأتمات أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض ، واحدةً بعد أخرى • كان  
أكثرهن فتيات صغيرات يأتين لبيع أرغفة الخبز التى تحضرها أمهاتهن •  
حتى اذا شبين عن الطوق ظللن يجئن الينا ، ولكن دون أن يحملوا بضاعة  
لليع ••• كان لا بد أن يلقي المرء واحدة منهن دائماً • وكان ثمة نساء

متزوجات • ان سعر رغيف الخبز الصغير كوبكان ، فكان جميع السجناء تقريباً يشترون •••

وقد لاحظت سجيناً نجاراً ، أشيب الشعر محمرّ الوجه باش الهيئة مبتسم الثغر ••• كان هذا السجين النجار يمازح بائعات أرغفه الخبز الصغيرة • عقد على عنقه منديلاً أحمر قبل مجيئهن • فما هي الا لحظات حتى وصلت امرأة سمينة فى وجهها بثور ، فوضعت سلتها أمام منضدة النجار ، ودار بينهما الحديث التالى :

– لماذا لم تجيئى أمس ؟

كذلك سألتها النجار مبتسماً ابتساماً رضى •  
فأجابته المرأة بجرأة قائلة :

– بل جئت ، ولكنك كنت قد مضيت •

– نعم لقد ذهبوا بنا من هنا ، والا لكنا التينا حتماً ••• لقد جئت

أمس الأول جميعاً لرؤيتى •••

– من اللواتى جئت ؟

– مارياشكا ••• هافروشكا ••• تشيكوندا ••• وكانت هنا

دفوجروشفايا ( أربعة كوبكات ) أيضاً •••

سألت آكيم آكىمتش :

– ماذا ؟ هل مثل هذه الأمور ممكنة هنا ؟

– نعم ، تحدث أحياناً •••

قال آكيم ذلك وهو يفض طرفه ، لأنه رجل عف جداً •

نعم ، كانت هذه الأمور تحدث أحياناً ، ولكنها لا تحدث الا نادراً •••

وذلك بعد تخطى مصاعب كبيرة جداً ••• فكان السجناء يؤثرون أن ينفقوا مالهم فى الشراب ، رغم كل ما فى حياتهم المكبوتة من عنت • لقد كان من الصعب جداً اللحاق بهاته النسوة • كان لا بد من الاتفاق على المكان والزمان ، كان لا بد من تحديد موعد ، من العثور على خلوة ، وذلك من أعسر الأمور ، وكان لا بد من مغافلة الحرس ، وذلك أمر يكاد يكون مستحيلاً ، وكان لا بد من انفاق مبالغ طائلة ••• نسيياً ••• ومع ذلك رأيت بعض مشاهد الغرام ••• فى ذات يوم ، كنا ثلاثة نعمل فى تسخين فرن القرميد فى مكان على شاطئ نهر ارتيش • وكان معنا جنود من الحرس متسامحون • فاذا بامرأتين تصلان •

قال أحد السجناء يخاطب المرأتين ، وكان ينتظرهما ولا شك :

– أين بقيتما طوال هذه المدة ؟ تلبثتما عند آل زفيركوف ، أليس

كذلك ؟

– عند آل زفيركوف ؟ حين يصبح للدجاج أسنان أذهب الى آل

زفيركوف !

كذلك قالت احدهما متضحكة •

انها أقدر بنت يمكن أن يتصورها الخيال • كانوا يطلقون عليها اسم

تشيكوندا ••• وقد وصلت فى صحبة صديقتها « الأربعكوبكات »

( دفوجروشفايا ) التى تفوق كل وصف •

قال الشاب الغزل مخاطباً الأربعكوبكات :

– هيه ••• أصبحنا منذ زمن طويل لا نراك ••• لكأنك نحلت

قليلاً •

– ربما ••• لقد كنت قبل الآن جميلة سمينية ، أما الآن فكأننى بلغت

ابراً •••

– وما تزالين تصاحبين الجنود ، أليس كذلك ؟

– انظروا الى هؤلاء الناس كم يتقولون ويفتابون ! ثم أى ضير فى أن أصحاب جنودا ؟ ♦♦♦

– دعى جنودك أولئك ، وأحيينا نحن ♦♦♦ ان معنا مالا ♦♦♦

تصوروا هذا المغازل المحلوق الرأس ، المغلول القدمين ، اللابس سترّة من لونين ، العامل تحت حراسة الخفراء ♦♦♦

وحين أصبح فى وسعى أن أعود الى السجن ، وكنت قد أوثقت بالأغلال ، ودعت آكيم آكيمتش ، وانصرفت بحراسة أحد الجنود • ان الذين يعملون لا على أساس عدد معين من الساعات بل على أساس مهمة معينة ينجزونها ، يعودون أول العائدين ♦♦♦ ولذلك حين وصلت الى ثكنتنا كان قد سبقنى اليها عدد من السجناء : ان الوسيلة الوحيدة التى تحمل السجناء على المواظبة والاستمرار فى العمل هى أن يُعهد اليهم بمهمة معينة يجب عليهم انجازها ؛ انهم ينجزون المهمة عندئذ مهما تكن صعبة بنصف الوقت الذى يحتاجون اليه لانجازها حتى ولو استمروا على العمل بغير انقطاع الى أن يقرع الطبل • فمتى انتهى السجن من انجاز مهمته عاد رأساً ، ولم يخطر ببال أحد أن يصدّه عن العودة •

واذ كان المطبخ لا يمكن أن يتسع لسكان ثكنة بكاملها ، فقد كان السجناء لا يتناولون الطعام معاً ، فمن يصلون قبل غيرهم يأكلون نصيبهم ويفرغون فيخلوا المكان للآخرين • وقد ذقت الحساء المصنوع من حامز الملفوف ، ولكننى لم أستسغ مذاقه لأننى لم أعود عليه ، وهيات لنفسى شيئاً من الشاي ، ثم جلست الى طرف مائدة مع أحد السجناء ، وهو مثلى نبيل سابق •

كان السجناء يدخلون ويخرجون • ولم يكن المكان هو الذى

يعوزهم ، ذلك أن عددهم ما يزال قليلاً • وجلس خمسة منهم على حدة ، قرب المائدة الكبيرة ، وصبّ الطباخ لهم طاستين من حامز الحساء ، وأتاهم بقصعة فيها سمك مقلي • كان هؤلاء الأشخاص يحتفلون بعيد فيرفهون عن أنفسهم ويبدخون • ونظروا إلينا من جانب • ودخل أحد البولونيين فجلس قربنا •

صاح سجين طويل القامة وهو يدخل ويشمل رفاقه بنظرة :

— لم أكن معكم ، ولكننى أعرف ماذا تعملون •

انه رجل فى نحو الخمسين من عمره ، نحيل الجسم ناتئ العضلات ، ينم وجهه عن المكر ، كما ينم عن المرح ، وشفته السفلى سميقة متدلية تضى على وجهه مظهرًا مضحكًا •

قال وهو يجلس قرب الذين يحتفلون ويولون :

— هيه ! هل طاب نومكم ؟ لماذا لا تردون التحية ••• طيب ••• يا أصدقائى الكورسكين ••• هنيئاً مريئاً ! ••• هأنذا أحييكم بضيف جديد •

— لسنا من مقاطعة كورسك !

— اذن يا أصدقائى التامبوفيين •

— ولا نحن من تامبوف • وليس لك أن تطلب منا شيئاً • فإذا أردت أن تولم فعليك بفلاح غنى فاتجه إليه •••

— فى معدتى اليوم ايفانى تاسكون وماريا ايكوتشينا ( ايكوتا تعنى بالروسية : الفواق ) أى اننى أكاد أموت جوعاً ، فأين يسكن هذا الفلاح الغنى الذى ذكرتموه ؟

— هو جازين ، فعليك به !

– ان جازين يشرب اليوم يا اخوتى ، فيتلف كل ما يملك !  
– معه عشرون روبلاً على الأقل • ألا ان مهنة بيع الخمر لمهنة تدر  
ربحاً كثيراً •••

كذلك قال سجين آخر •  
أجاب الرجل قائلاً :

– أترفضوننى اذن ؟ طيب ••• سأكل طيخ الحكومة •  
– هل تريد شيئاً من الشاى ؟ عليك اذن بهذين السيدين اللذين  
يشربان الشاى ، فاسألهما منه قليلاً ! •••

– أين ترون سيدين ؟ ما هما الآن بنيلين ، ما هما الآن خير منا •  
بهذا نطق بصوت قاتم سجين آخر كان جالساً فى ركن ، ولم يكن  
قد جازف قبل ذلك بكلمة واحدة •

قال السجين ذو الشفة السميقة وهو يلقي علينا نظرة فكهة :  
– وددت لو أشرب قدحاً من الشاى ، ولكننى أستحى أن أطلب ••  
ذلك أن لنا كرامتنا نحن •••

فقلت له وأنا أدعوه بإشارة من يدي :

– اذا شئت قدمنا اليك قدحاً من الشاى • هل تريد ؟

– وكيف لا أريد ؟ من ذا الذى لا يريد ؟

قال ذلك وهو يقترب من المائدة •

– انظروا الى هذا الرجل ! حين كان حرأ فى بيته كان لا يأكل الا  
حساءً حامزاً وخبزاً أسود أما فى السجن فلا بد له من شرب الشاى كأنه  
نيل من النبلاء !

كذلك أردف يقول السجين ذو الوجه القاتم الكئيب •



سألته :

- ألا يشرب أحد الشاي هنا ؟

ولكنه لم يجدني جديراً بجواب •

- أرغفة بيضاء ، أرغفة بيضاء ! أول مبيع •••

كان سجين شاب يحمل أرغفة بيضاء منظومة في خيط ، هي حمل

ثقيل من الأرغفة يبيعه في الثكنات •

ان البائعة تعطيه رغيماً عن كل عشرة أرغفة يبيعه ، أجراً له ، وعلى

هذا الرغيف انما كان يعتمد لطعامه •

- أرغفة صغيرة ! أرغفة صغيرة !

كذلك كان يصيح وهو يدخل المطبخ •

ثم يردف قائلاً :

- أرغفة صغيرة من موسكو ، ساخنة ، ساخنة ••• أتمنى لو آكلها

كلها ، ولكن لا بد عندئذ من مال ، لا بد من مال كثير • هيأ يا أولاد ! لم

يبق الا رغيف واحد ••• من كان يحب أمه فليشتر مني هذا الرغيف ••

ضحك الجمع من هذه الاستعانة بحب الابن أمه ••• فاشتروا منه

بضعة أرغفة بيضاء •

قال :

- ان جازين يسكر الآن سكرة رهية ! يالها من خطيئة! ولقد اختار

اللحظة المناسبة ••• ماذا لو وصل « ذو العيون الثماني » ؟ ( يقصد

الميجر ) •

- سنخبئه ••• هل سكر ؟

- نعم ••• ولكنه فظيع ••• لقد ثارت ثائرتة ! •••

– لا شك أننا سنصل الى مرحلة اللطعات •

سألت البولندي جاري :

– عمّن يتكلمون ؟

فقال :

– عن جازين •• هو سجين يتعاطى بيع الخمرة • فاذا جنى من تجارته بعض المال ، شرب بالمال الذي جناه الى آخر كوبك • انه منى شرب أصبح وحشاً كاسراً قاسياً شريراً • أما قبل أن يشرب فهو هادىء مسالم ••• حتى اذا شرب ظهر على حقيقته ، فاذا هو يهجم على الناس مشرعاً سكينه الى أن ينتزعوها منه •

– وكيف يستطيعون ذلك ؟

– يهجم عليه عشرة أشخاص ، فما ينفكون يضربونه ضرباً شديداً مبرحاً الى أن يفقد وعيه ، ويسقط مغشياً عليه • فاذا صار كالميت من كثرة الضرب أرقدوه على سريره المصنوع من ألواح الخشب وغطوه بمعطفه •  
– ولكنهم بذلك قد يجهزون عليه !

– لو ضرب غيره كما يضرب هو لمات حتماً ، أما هو فلا ••• انه قوى الجسم الى درجة خارقة ، انه أقوى السجناء طرا ••• ان بنيته تبلغ من المتانة والصلابة أنه يصحو في الفداة سليماً معافى كأن لم يحدث شيء •••

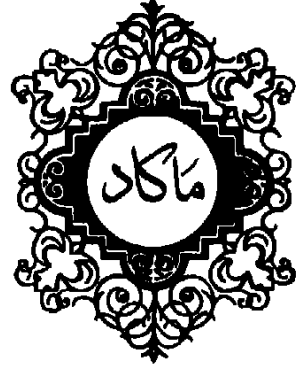
تابعت أسأل البولوني :

– قل لي ، من فضلك : هؤلاء أناس يأكلون على حدة ، ومع ذلك أراهم ينفسون على الشاي الذى أشربه ••• فما معنى هذا ؟  
– لا دخل للشاي فى هذا ••• وانما حقدهم منصب عليك أنت :

الست نييلا؟ انك لا تشبههم • وانه ليسعدهم أن يناكدوك وأن يذلوك •  
انك لا تعرف المتاعب التى تنتظرك • ان حياتنا هنا استشهاد ، انها شاقّة من  
ناحيتين • ولا بد أن نكون على جانب عظيم من قوة الارادة وشدة الصبر  
حتى نعتادها ونألفها • لسوف يسبيون لك كثيراً من نكد العيش وكثيراً من  
التنغيص بسبب طعامك وشايك ، مع أن الذين يأكلون طعاماً خاصاً  
ويشربون الشاي كثيراً • ان ذلك من حقهم هم ، أما أنت فليس من  
حقك •••

قال البولونى هذا ثم نهض وبارح المائدة • وبعد لحظات كانت  
نبوءاته قد تحققت •••

## المسافر الأولي تتمه



يخرج • • • • كى \* (البولوني الذي تحدثت عنه) حتى دخل جازين الى المطبخ مسرعاً وقد أخذ السكر منه كل مأخذ •

لأن أرى سجيناً سكران في وسط النهار ،  
رغم أن على جميع السجناء أن يذهبوا الى العمل ، ورغم ما عُرف عن  
الميجر من قسوة شديدة ، ورغم أن هذا الميجر قد يباغت الثكنة  
من لحظة الى أخرى ، ورغم مراقبة ضابط الصف الذي كان لا يبارح  
السجن لحظة ، ورغم وجود جنود وحرس وموظفين ، فان ذلك خليف  
بأن يبلبل الأفكار التي كانت قد قامت في ذهني عن السجن • وقد احتجت  
الى زمن طويل حتى أفهم وأعلل وقائع كهذه الوقائع ظهرت لي في الوهلة  
الأولى أقرب الى الألفاظ والأحاجي •

سبق أن قلت ان جميع السجناء كانوا يزاولون حرفة من الحرف،  
وان هذا العمل كان لهم ضرورة طبيعية لا بد منها • وهم يجنون المال حياً  
شديداً ، وينزلونه منزلة عالية لا تعلوها منزلة أى شيء من الأشياء ،  
ويكادون يقدرونه تقديرهم للحرية نفسها • ان السجن يتأسى بعض  
التأسى حين ترن في جيبه بضعة كويكات • أما اذا لم يكن يملك شيئاً من

مال فان الحزن يستولى عليه ، وان القسوط واليأس يستبدان به ، حتى  
ليمكن أن يقارف أية جناية في سبيل الحصول على بعض المال • غير أن  
هذا المال ، رغم المنزلة العالية التي ينزلها فيه السجناء ، ورغم القيمة الكبرى  
التي يضيفونها عليه ، لا يبقى في جيب صاحبه زمناً طويلاً قط ، لأن  
الاحتفاظ به والابقاء عليه هما من أشق الأمور • فهو إما أن يصادر وإما  
أن يُسرق • كان الميجر يصادر أثناء حملاته التفتيشية المباحثة كل ما قد  
يقع عليه من مبالغ صغيرة لقي أصحابها في جمعها أكبر العناء ؛ فينفق المال  
عندئذ في تحسين طعام السجناء ، لأن ادارة السجن تخصص المال المصادر  
لهذا الغرض • ولكن المال يسرق في أكثر الأحيان • ان من المستحيل أن  
يثق السجين بأحد ، وأن يركن اليه ويعتمد عليه • على أن السجناء قد  
اهتدوا الى وسيلة للمحافظة على المال • كان هناك شيخ عجوز ينتمى الى  
الملة الدينية المنسوبة الى مدينة فياتكا\* وقد التجأ الى منطقة ستارودوب ،  
فهذا الشيخ هو الذي يتولى اخفاء مدخرات السجناء • لا أستطيع أن أقاوم  
الاغراء الذي يدفعني الى قول بضع كلمات عن هذا الرجل: انه في الستين  
من عمره ، نحيل ، قصير القامة ، أشيب الشعر تماماً • وقد أوقعتني في حيرة  
شديدة منذ وقع بصرى عليه أول مرة ، ذلك أنه لا يشبه السجناء الآخرين  
في شيء • ان نظرته تبلغ من الهدوء والوداعة والمسألة والعدوبة أنني كان  
يحلولى دائماً أن أرى عينيه الصافيتين الراضيتين المخفوفتين بغضون كثيرة •  
وقد تحدثت معه مرارا ، فقلما رأيت انساناً يبلغ ما يبلغه هذا الرجل من  
طيبة القلب ، ونبل النفس ، وشهامة الخلق ، ودماثة السلوك • ولقد  
أرسل الى سجن الأعمال الشاقة لجريمة خطيرة ارتكبها • كان عدد بنى  
ملته الدينية في ستارودوب (اقليم تشرنيجوف) قد ارتدوا الى الارثوذكسيه •  
لقد عملت الحكومة كل ما تستطيع أن تعمله من أجل أن تشجعهم على  
المضي في هذا الطريق ، ومن أجل أن ترد الى هذا الطريق سائر المنشقين •

فقرر الشيخ مع عدد من المتعصين للملة الدينية أن يدافعوا عن « الدين القديم » ، فلما أخذت الحكومة تبنى في مدينتهم كنيسة أرثوذكسية ، أضرموا في الكنيسة النار وأحرقوها . وتنج عن ذلك اعتقال الفاعل وإرساله الى السجن في سييريا . ان هذا الرجل الغني ( وكان يعمل في التجارة ) قد خلف وراءه امرأة وأولاداً يحبهم ، ولكنه ذهب الى المنفى رابط الجأش شجاعاً ، معتقداً لعمالته أنه يتألم في سبيل « الدين القديم » و « الايمان الصحيح » . . . . ان المرء ليتساءل رغم ارادته ، بعد أن يعيش زمنا الى جانب هذا الشيخ : « كيف أمكن أن يتمرد هذا الرجل وأن يثور ؟ » . ولقد سألته عدة مرات عن « دينه » ، فكان لا يجيب بشيء يتعلق بمعتقداته ، ولكنني لم ألاحظ في ردوده أية بفضاء أو سخيمة . ومع ذلك فقد أضرم النار في كنيسة فدمر الكنيسة . . . . وكان لا ينكر أنه فعل ذلك أبداً : كان يبدو أنه مقتنع كل الاقتناع بأن جريمته و « استشهاده » ، على حد تعبيره ، هما من الأعمال المجيدة التي تستحق أن يعتز بها صاحبها وأن يفخر . وعبثاً حاولت أن أحاصره بالأسئلة وأن أدرسه ، فأننى لم أستطع أن أجده أثراً من آثار العجب بنفسه أو الزهو أو الخيلاء أو الغرور . وكان بيننا سجناء آخرون من المنشقين عن الأرثوذكسية المنتمين الى هذه الملة ، وكان أكثرهم من سييريا ، فكان هؤلاء على جانب كبير من توقد الذكاء وحسن الحيلة ، كما يلاحظ ذلك لدى كثير من الفلاحين . كانوا يحبون الجدل على طريقتهم ، وكانوا يتبعون عقيدة ملتهم اتباعاً أعمى ، ويميلون الى المناقشة ميلاً واضحاً . ولكنهم كانوا يتصفون بعيوب كثيرة : فهم متعالون متكبرون فيهم من الغطرسة ما لا يطاق ولا يحتمل . ولا كذلك صاحبنا الشيخ . انه لا يشبههم في شيء . فهو ، على أنه قوى جداً ، وعلى أنه أقوى من أتباع هذه الملة الآخرين حجةً وأوسع منهم ثقافة ، يتحاشى أى نقاش ؛ وكان

دمت الطبع ، لين العريكة ، باش المزاج ، حتى ليتفق له أن يضحك -  
لا ضحكا فظاً ساخراً كما يضحك غيره من السجناء - بل ضحكا حلوا  
مضياً يسمع فيه المرء كثيراً من براءة الطفولة ، وينسجم اكبر الانسجام  
مع راسه الاثيب • ( قد اكون على خطأ ، ولكننى احسب أن فى الامكان  
معرفة رجلٍ من ضحكته وحدها ؛ فاذا بدت لك ضحكته محببة ، فكن  
على يقين من انه انسان طيب كريم النفس ) • وقد ظفر هذا الشيخ باجماع  
السجناء على احترامه ولكن ذلك لم يصبه بشيء من غرور • كان السجناء  
يطلقون عليه اسم « الجد » ، ولا يسيئون اليه فى يوم من الأيام • وعندئذ  
أدركت كيف استطاع هذا الشيخ أن يكون له تاثير كبير فى أتباع ملته •  
وان المرء يشعر ، رغم أن الشيخ كان يتحمل فسوة الحياة فى السجن  
رابط الجاش قوى العزيمة ، أنه يخفى حزناً عميقاً لا شفاء منه ولا برء  
له • ففى ليلة من الليالى ، فى نحو الساعة الثالثة من الصباح ، استيقظت  
من نومى ، فسمعت نشيجاً بطيئاً مخوقاً • كان الشيخ جالساً على المدفأة  
( حيث كان قبل ذلك يصلى الرجل الذى أراد أن يقتل الميجر ) ،  
يقرا فى كتاب ملته المخطوط • وكان يبكى • وسمعته يردد : « لاتركنى  
يا رب ! لاتركنى يا رب ! يا رب شدّ أزرى وقوّ عزيمتى •• أولادى  
الصغار المساكين ! ••• أولادى الصغار الأحبة ••• لن نلتقى اذن بعد  
اليوم أبدا ••• » • لا أستطيع أن أصف لكم الحزن الذى شعرت به  
حينذاك !

عهدنا اذن بماننا الى هذا الشيخ • كان قد ذاع فى ثكنتنا - لايدرى  
الا الله لماذا ؟ - أن الشيخ لا يمكن أن يسرق • كانوا يعلمون أنه يخفى  
المدخرات التى تودع عنده فى مكان ما ، ولكن لم يستطع أحد أن يكشف  
سرّه • وقد كشف لنا عن هذا السر ، كشفه لى وللبولونيين •

كان لأحد الأوتاد التى يتألف منها السياج غصن يبدو فى الظاهر

مرتباً بالجذع ارتباطاً قوياً ، ولكن كان يمكن فى الواقع انتزاعه ثم رده الى مكانه . وها هنا اذن فراغ . وهذا الفراغ هو ما كان يتخذه الشيخ مخبأً للمال .

والآن أعود الى ما كنت بصدد الكلام عليه . لماذا لا يحتفظ السجين بماله ؟ انه لا يحتفظ بماله ، لا لأن الابقاء على هذا المال صعب فحسب ، بل أيضاً لأن حياة السجن حزينة كثيفة كثيراً . . . ان السجين فى ظمأ شديد الى الحرية بطبيعته ! انه من جهة وضعه الاجتماعى انسان يبلغ من قلبه الاكثراث وشدة الفوضى ان فكرة تبديد ماله فى سكر وعريضة وموسيقى تراود ذهنه بطبيعة الحال ، ولو لىسى شقاءه دقيقة واحدة . انه ليدو للمرء غريباً أن يكب بعض الناس على العمل دائمين صابرين ، لا لهدفٍ آخر غير أن يتلفوا فى يوم واحد كل ما جنوه بالتعب والعرق حتى آخر قرش ! . . . ثم هم يعودون الى العمل يكدون ويجهدون الى أن يحين حين احتفال جديد ينتظرونه أشهراً برمتها . وكان بعض السجناء يحبون الثياب الجديدة المنفردة بعض التفرد ، يحبون السراويل الغربية ، والصديرات ، والمعاطف السبيرية . . . ولكن القمصان الهندية هى ما كان يحبه السجناء أكثر مما يحبون أى نوع آخر من أنواع الثياب ، وكذلك الأحزمة ذات المشابك المعدنية .

وكان الأنيقون فى أيام الأعياد \* يرتدون أبهى حلة : ليتك تراهم يتبخثرون فى جميع الثكنات ! ان سرورهم بارتداء ثياب أنيقة يبلغ بهم مبلغ الطفولة . والحق أن السجناء هم فى أمور كثيرة اطفال كبار . وهذه الملابس الجديدة سرعان ما تختفى ، وكثيراً ما تختفى فى مساء اليوم الذى اشترت فيه ، فان أصحابها ما يلبثون أن يرهنوها أو يبيعوها بأبخس الأثمان . والاحتفالات انما تتكرر فى أوقات توشك أن تكون دائماً محدّدة ، فهى تطابق مواعيد الاحتفالات الدينية أو تطابق أيام الأعياد



الشخصية \* \* \* فالمحتفل يضع شمعةً أمام صورة العذراء متى نهض من نومه ، ويقراً صلاته ، ثم يرتدى أبهى حلله ويأمر لنفسه بغدائه \* ويكون قد اشترى لحماً وسمكاً وفطائر \* \* \* \* \* فيها هو ذا يزدرد الطعام كالثور ، يزدرده وحده في أكثر الأحيان \* \* \* \* \* فقلما يدعو سجين رفيقاً له الى مشاركته احتفاله بعيدة \* \* \* \* \* وفي أحد هذه الأوقات انما تظهر الخمرة : يعب السجن منها ما شاء له هواه أن يعب ، ثم يقوم يتجول في الثكنات مترنحاً متعثراً ، حريصاً أشد الحرص على أن يظهر لجميع رفاقه أنه سكران ، يستحق بذلك احتراماً خاصاً وتقديراً خاصاً \* \* \*

ان الشعب الروسى يشعر دائماً بشيء من العطف على امرئ سكران \* \* \* \* \* ولكن شعور السجناء نحو السكران فى السجن ليس عطفاً بل احتراماً \* \* \* \* \* ان السكر فى السجن نوع من التميز الارستقراطى \* \* \*

ومتى استخف السجن الطربُ دعا موسيقياً يعزف له \* \* \* \* \* لقد كان بيننا بولونى قصير هارب من الجندية ، دميم الوجه بشع المنظر \* \* \* \* \* لكنه يملك كماناً يحسن العزف عليها \* \* \* \* \* ولم يكن هذا البولونى يمارس أية مهنة غير العزف على كمانه ، فيها هو ذا يتبع السجن الطرب من ثكنة الى ثكنة يعزف له ألحان رقص بكل ما أوتى من قوة \* \* \* \* \* وكثيراً ما كان يفصح وجهه عن الملل والسأم والاشمئزاز من هذه الموسيقى التى تتكرر الى غير نهاية ولا تتجدد قط ، فإذا السجن يصيح قائلاً له : « اعزف ما دمت قد نلت على هذا اجرا \* \* \* » ، فيعود الموسيقى يواصل العزف على أوتار كمانه بمزيد من الهمة والقوة \* \* \*

وكان هؤلاء السكرانى على ثقة من أن رفاقهم يحمونهم ، فاذا اتفق أن وصل الميجر أخفوهم عن أنظاره \* \* \* \* \* وتلك خدمة منزهة عن الغرض مبرأة من المنفعة ؛ كما أن ضابط الصف والجنود الذين يقون فى الثكنة للمحافظة على النظام لا يحركون ساكناً قط : فان السكر لا يمكن أن

يسبب أية فوضى • ومتى حاول أن يثور أو أن يحدث جلبة وضجة وصخباً ، قام رفاقه يهدثونه ، وقد يوثقونه • لذلك كان الموظفون المرءوسون ( من مراقبين وغيرهم ) يفضون الأبصار • انهم يعلمون أن تحريم الخمرة سيجعل جميع الأمور تجرى فى السجن مقلوبة • والسؤال الآن هو : كيف كان السجناء يحصلون على الخمرة ؟

كانوا يشترونها فى السجن نفسه من « الخمارين » ( بهذا الاسم كان السجناء يسمون أولئك الذين يتعاطون هذه التجارة ، وهى تجارة مربحة جداً ، رغم أن عدد الثماريين والمحتفلين قليل ، نتيجة لفلاء تكاليف كل احتفال من هذا القبيل ، اذا قيست هذه التكاليف بقله موارد السجناء ) • وكانت هذه التجارة تبدأ وتستمر وتنتهى على نحو طريف كل الطرافة • هذا سجين لا يجيد أى حرفة ، ولا يريد أن يعمل ، ولا بد له مع ذلك من أن يفتنى اغتناء سريعاً ، فاذا هو يقرر ، متى ملك بعض المال ، أن يتعاطى تجارة الخمرة يشتريها ويبيعها • والمغامرة خطيرة جريئة : فهى تقتضى شجاعة وتتطلب جسارة ، لأن المغامر لا يخاطر بجلده وحده ، بل يخاطر ببضاعته أيضاً • ولكن الخمّار لا يتراجع أمام هذه العقبات • وهو فى أول الأمر يحمل الخمرة الى السجن بنفسه ، لأنه لا يملك ، بعد ، الا قليلاً من المال ، ويبيعها فيجنى من ذلك ربحاً كبيراً • ثم يكرر هذا العمل مرة ثانية ، فثالثة ••• فاذا لم تكشف أمره الادارة ملك من المال ما يتيح له أن يوسّع تجارته ••• فيصبح عندئذ «مقاولاً» ، يصبح « رأسمالياً » : انه يتخذ لنفسه عملاء ومساعدين ، وبذلك تقل المخاطر التى يتعرض لها ، وتزداد الأرباح التى يجنيها • فالمساعدون هم الذين يجازفون الآن من أجله وفى سبيله •

ان السجن مليء دائماً بسجناء لا مال عندهم ولا حرفة لهم ، ولكنهم يملكون الجرأة والشجاعة ، ويملكون الحنق والمهارة • فرأس المال

الوحيد الذى ينعمون به انما هو جلود ظهورهم ، وهم كثيراً ما يقررون استغلال رأس المال هذا ، فيقترحون على الخمّار أن يتولوا تهريب الخمرة الى الثكنات . ولا بد أن يوجد فى المدينة دائماً جندي أو متكسب أو حتى فتاة ، يشترون خمراً بمال الخمّار ( ويتقاضون على شراء الخمر ربها يتفق عليه ، وهو ربح زهيد على وجه الاجمال ) ثم يخفونه فى مكان يعرفه السجين المهرّب ، قرب ورشة العمل التى يعمل فيها ؛ والمهرّب لا بد أن يذوق هذا السائل الطيب فى طريق عودته الى السجن ، فيفرغ بذلك بعض الزجاجات ، فيعمد الى ملء الفراغ بالماء القراح . . . . . ولسان حاله يقول : « لك أن تأخذ أو أن تدع » . . . . . وان يستطيع الخمّار أن يكون متشدداً ، بل عليه أن يعد نفسه سعيداً اذا لم يسرق ماله أصلاً ، واذا جيء بالخمرة ممزوجةً بالماء على هذا النحو . ان المهرّب الذى يعيّن له الخمار مكان اللقاء بينه وبين الوسيط يحمل الى هذا الوسيط أمعاء من امعاء البقر أحسن غسلها سلفاً ، وملئت ماءً ، لتحتفظ بمرورتها ولينها وطراوتها ، فمتى تم ملء الأمعاء بالماء ، لفّها المهرّب وخبأها فى جسمه . . . . . فى المواضع الخفية السرية من جسمه . . . . . وهنا انما تتجلى الحيلة وتتجلى الدهاء والحدق لدى هؤلاء السجّاء الشجعان . . . . . والا تتجلل شرفهم بالعار : ان عليهم أن يخادعوا الذين يرافقونهم الى العمل ، وأن يخدعواهم ؛ فاذا كان المهرّب بارع الحيلة لم يلاحظ الحارس شيئاً ( وهو فى الغالب من المجندين ) لأن المهرّب يكون قد أحسن دراسته ، كما يكون قد أحسن اختيار الزمان والمكان للموعد المضروب . هب المهرّب يعمل فى صنع القرميد مثلاً : انه فى هذه الحالة يتسلق الفرن الذى يُشوى فيه القرميد ، وطبعى أن لا يرافقه الجندي الذى يحرسه ليراقب حركاته وسكناته . ومن ذا الذى يستطيع أن يرى هنالك ماذا يصنع ؟ حتى اذا قفل راجعاً الى السجن ، هيا قطعة نقدية بخمسة عشر كوبكاً أو بعشرين كوبكاً ، وانتظر

عريف الحرس على الباب • ان العريف يفتش كل سجين ويجسه وينبشه عند عودته الى التكنة ، ثم يفتح له الباب ؛ والمهرب يامل ان يستحي العريف من تفتيشه وجسه في بعض المواضع تفصيلاً ، ولكن العريف انما يجس هذه المواضع الحرجة بعينها حين يكون بارع الحيلة مآكراً ، فاذا هوي عشر على الخمرة المهربة ، فلا يبقى للسجين عندئذ الا سبيل واحدة للسلامه ، هي ان يدس في يد العريف قطعة النقد خلصة فتصل الخمرة بهذه الطريقة الى ايدي الخمار بغير مشاكل في كثير من الاحيان • حتى اذا لم تنجح هذه الحيلة كان لا بد للمهرب من أن يضع في التداول رأس المال الوحيد الذي يملكه ، فالعريف يكتب تقريراً الى الضابط الميجر ، والضابط الميجر يأمر بجلد المهرب العائر الحظ بغير هوادة ولا رحمة ؛ وتصادر الخمرة ••• والمهرب يتلقى عقابه دون أن يشى بصاحبه المقاول ، لا لأن هذه الوشاية ستلطح شرفه بل لأنها لن تجلب له نفعاً ، فلسوف يُجلد على كل حال ، سواء أوشى بصاحبه أم لم يش به ؛ وكل العزاء الذي يمكن أن يناله من الوشاية بصاحبه هو أن يشركه في تحمل العقوبة معه ، ولكنه في حاجة الى الخمار ، لذلك لا يشى به ، رغم أنه لا يتقاضى أى أجر متى افتضح أمره فلم يستطع أن يهرب الخمرة الى داخل السجن •

على أن الوشاية رائجة في السجن • والسجناء لا يفضبون من الجاسوس ولا يبعدونه عنهم ، بل كثيراً ما يتخذونه لهم صديقاً • فاذا خطر ببال أحد أن يرهن للسجناء على أن وشاية بعضهم ببعض أمر حقير غاية الحقارة لم يفهم عنه أحد شيئاً • ان النيل السابق الذي تحدثت عنه آنفاً ، ذلك المخلوق الجبان الغدار الدنيء الذي قطعتُ صلتى به منذ وضولى الى القلعة كان صديقاً لفدكا خادم الضابط الميجر ، فكان يروى له كل ما يجرى في السجن ، وكان فدكا يسارع طبعاً فينقل الى مولاه ما قد

سمعه • والسجناء جميعاً يعرفون هذا الأمر ، ولكن ما كان ليخطر ببال أحد منهم أن يعاقبه على ذلك ، أو أن يعيب عليه سلوكه • ولكن هأنذا ابتعدت عن مجرى حديثي مستطرداً ، فلأعد الى ما كنت بصدده :

متى وصلت الخمرة الى السجن دفع المقاول للمهرب أجره وأخذ يُجرى حسابه ، والبضاعة قد كلفه ثمنها غالباً ، وهو لذلك من أجل أن يُربى ربحه يضيف الى الخمرة نصف مقدارها ماءً قراحاً ، فلا يبقى عليه بعد ذلك الا أن ينتظر المشتريين • وهذا سجين يجيئه في مطلع يوم عيد ، بل وفي مطلع يوم من أيام الأسبوع : لقد عمل عدة أشهر عملاً شاقاً كما يعمل زنجي ، من أجل أن يجمع ، كوبكاً بعد كوبك ، مبلغاً من المال يقرر أن ينفقه دفعةً واحدة • لقد حدد السجين يوم احتفاله منذ زمن بعيد ، وحلم به أثناء ليالي الشتاء الطويلة ، وأثناء قيامه بأعماله القاسية المرهقة ، فكان الأمل بحلول هذا اليوم يشد أزره ويقوى عزيمته • ويسطع أخيراً فجر ذلك اليوم الموعود الذي طال انتظاره : ان المال في جيب السجين لم يصادر ولم يسرق ، وهو حر في انفاقه على مايشاء له هواه ، فهاهوذا يحمل مدخراته الى الخمار الذي يعطيه في أول الأمر خمرة تشبه أن تكون صافية لأنها لم تمزج بالماء الا مرتين • ولكن كلما فرغت الزجاجاة بعض الفراغ ملأ الخمار فراغها ماءً ، وهكذا يدفع السجين ثمن قدح الخمر ستة أضعاف ما يدفعه في خمارة • قد يتراعى لكم أن السجين يحتاج الى عدد كبير من مثل هذه الأقداح حتى يسكر ، وأنه يدفع مبالغ طائلة من المال قبل أن يسكر ••• ولكن الواقع أن القليل من الكحول الذي يحويه الشراب يسكر السجين بسرعة كافية ، لأن السجين قد فقد عادة الشراب ••• وهو يظل يشرب الى أن ينفق آخر قرش يملكه ، ثم يعمد الى بيع أمتعته الجديدة أو رهنها ليستمع على الشراب ، والخمّار يتعاطى تجارة الاقراض بالرهن في الوقت نفسه ، فاذا نفذت أمتعة السجين

الشخصية ، وهى قليلة ، لم يلبث أن يرهن الأمتعة التى تقدمها له الحكومة؛ فمتى شرب بئمن آخر قميص من قمصانه وآخر خرقة من خرقة ، استيقظ فى صباح اليوم التالى مصدّع الرأس ، فراح يتوسل الى الخمّار أن يعطيه قطرةً من الخمر ديناً ليذهب عنه هذا الصداق ، ولكن الخمّار يرفض أن يعطيه شيئاً بالدين ، فما يملك المسكين الا أن يقبل الرفض حزيناً • وفى اليوم نفسه يعود يعمل ، ويظل يعمل أشهراً بكاملها ، كادحاً مرهقاً نفسه ، حالماً باليوم السعيد الذى انقضى ••• وشيئاً فشيئاً يسترد أمله ويستعيد شجاعته منتظراً يوماً كذلك اليوم ، يوماً بعيداً لكنه آتٍ لا ريب فيه •

وحين يجنى الخمّار مبلغاً كبيراً - بضع عشرات من الروبلات - فانه يشتري خمراً ، ولكنه لا يمزج هذه الخمرة الجديدة بماء ، لأنه يخص بها نفسه : كفاد تجارة ! ••• لقد آن له هو أن يتسلى ويترب • فيها هو ذا يشرب ويأكل ويدفع للموسيقى أجراً ••• ان موارده تتيح له أن يمنّ على صغار الموظفين المرعوسين فى السجن ببعض الهبات ••• ويدوم احتفاله هذا بضعة أيام ، حتى اذا نفدت مئوته من الشراب مضى يشرب عند الخمارين الآخرين الذين ينتظرون ذلك منه ويتوقعونه، فيظل يشرب الى أن ينفق آخر كوبك يملكه • ومهما يكن اتباه السجناء قوياً من أجل حماية رفاقهم المحتفلين ، فانه ليتفق أن يلاحظ الضابط الميجر أو ضابط الحرس ما قام فى السجن من فوضى ، فيقاد السكر عندئذ الى غرفة القصاص ، فيصادر ما معه من مال - ان كان قد بقى له منه شيء - ثم يُجلد ، حتى اذا فرغوا من جلده نفّض جسمه كما ينفّض جسمه كلب تلتطخ بالوحل ، وعاد الى الثكنة ، ثم استأنف عمله خمّاراً بعد بضعة أيام •

ويوجد بين السجناء فى بعض الأحيان أناس من عشاق الجنس

اللطيف : انهم يستطيعون بمبلغ كبير من المال يرشون به جندياً من الجنود أن يتسللوا خلسة من القلعة الى ضاحية من ضواحي المدينة بدلا من ان يذهبوا الى العمل • وهناك ، فى بيت هادى المنظر ، يقيمون حفلةً ينفقون فيها مبالغ طائلة • ان الجنود الذين يقبلون اصطحاب سجين من السجناء فى رحلة كهذه يتقاضون رشوةً كبيرة ، لذلك تراهم فى بعض الاحيان يهشون فراراً من هذا النوع سلفاً لتقتهم بأنهم سيكافئون مكافأة ضخمة • وامثال هؤلاء الجنود مرشحون لان يصبجوا هم انفسهم سجناء • وهذا الفرار يبقى فى أكثر الأحيان سرياً ، بل يكاد يبقى سرياً فى جميع الاحيان • ويجب ان أعترف مع ذلك ان حدوث هذا الفرار امر نادر ، لانه يكلف نفقات باهظة ، وعشاق الجنس اللطيف يلجئون الى وسائل أخرى لا تكلف مثل هذه النفقات الباهظة •

فى بداية عهدي بالسجن لفت نظرى واستأثر بانتباهى وأثار حب الاطلاع فى نفسى سجين شاب وسيم الوجه حلو الملامح دقيق القسمات : ان اسمه سيروتكين : انه انسان يشبه أن يكون لغزاً من نواح كثيرة • لقد خطف وجهه بصرى منذ أول نظرة • لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وكان ينتمى الى القسم الخاص ، أى أنه كان محكوماً عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، فكان ينبغى النظر اليه على أنه من أخطر المجرمين العسكريين • انه هادى لطيف عذب لا يتكلم الا قليلاً ، ولا يضحك الا نادراً • ان عينيه الزرقاوين وبشرته الرائعة وشعره الأشقر ، ان هذا كله يضى على وجهه تعبيراً جميلاً لا تفسده حتى جمجمته المحلوقة الشعر • ورغم انه لا يمارس اية حرفة فقد كان يحصل احيانا على مبالغ زهيدة من المال • كان كسولاً كسلاً واضحاً ، وكان زرى الثياب دائماً • فاذا تكرم أحدهم فأهدى اليه قميصاً أحمر طار له من فرط الفرح وشدة الابتهاج ، فأخذ يطوف مرتدياً قميصه الجديد يعرضه فى كل مكان •

وكان سيروتكين لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار ولا يكاد يتشاجر يوماً مع احد من السجناء • وكان لا ينى يتجول ، واضعاً يديه فى جيبي سرواله ، هادىء المشية واجم النظرة متأملاً مفكراً • أما فى أى شىء كان يفكر ، فذلك ما لا أعلم عنه شيئاً • اذا نودى ليسأل عن امر من الامور ، او ليطلب منه شىء من الأشياء أسرع يجيب بكثير من الاحترام ، وتكلم كلاماً واضحاً دقيقاً ، دون أن يثرثر كثيراً كما يفعل غيره : انه ينظر اليك دائماً بعينين ساذجتين سداجة عيني طفل فى العاشرة من عمره • اذا ملك مالاً لم يشتري شيئاً مما كان يعده سائر السجناء أشياء لا غنى عنها ، واذا تمزق قميصه لم يعهد الى أحد بترقيعه ، لا ولا كان يشتري أحذية جديدة • ان ارغفة الخبز الأبيض والقطائر هى ما كان يحلو له ان يشتريه أكثر من أى شىء آخر • فكان يقضم هذه الأرغفة وهذه القطائر بلذة كلذة طفل صغير فى السابعة من عمره • كان السجناء يخاطبونه بقولهم : « هيه ! سيروتكين ، يا يتيم \* قازان الصغير المسكين ! » اذا كان رفاقه لا يعملون أخذ يتجول فى الثكنات على عادته حتى اذا كان جميع السجناء منكبين على عملهم ظل هو عاطلاً لا يحرك يديه • واذا مازحه أحد أو سخر منه وهزىء به - وكان هذا يحدث كثيراً - لم يزد على أن يدير ظهره ويمضى الى مكان آخر دون أن يقبول كلمة واحدة • فاذا كانت المزحة ثقيلة قوية احمر وجهه • تساءلت كثيراً ما عسى تكون الجريمة التى اقترفها حتى أرسل الى سجن الأشغال الشاقة • وفى ذات يوم كنت مريضاً راقداً فى المستشفى ، وكان سيروتكين متمدداً على فراش قريب منى ، فأخذت أتحدث معه ، فتحمس وقصّ علىّ بغير تحفظ كيف جُنّد ، وكيف صحبته أمه باكية ، ووصف لى أنواع العذاب التى قاساها أثناء الجندية ، وأضاف الى ذلك أنه لم يستطع أن يتعود هذا النوع من الحياة : فلقد كان جميع الناس هنالك قساة عتاة ، يفضيئون لأتفه الأسباب،



وكان رؤساؤه حاقدين عليه ساخطين منه في جميع الأحيان تقريباً •  
سأله :

- ولكن لماذا أرسلت الى هنا يا سيروتكين ؟ ولماذا الى القسم الخاص  
يا سيروتكين ؟  
قال :

- نعم يا ألكسندر بتروفتش ! ... اننى لم أقض فى الجندية الا  
سنة واحدة : وقد أرسلت الى هنا لأننى قتلت رئيسى النقيب جريجورى  
بتروفتش •

- سمعت بعضهم يروى هذا ، ولكننى لم أصدقه ... فكيف أمكن  
أن تقتله يا سيروتكين ؟  
- كل ما روى لك صحيح • لقد كانت حياتى هناك ثقيلة لا تطاق  
ولا تحمل •

- ولكن المجندين الآخرين يحتملون تلك الحياة ! صحيح أنها شاقة  
قاسية فى البداية ، ولكن المرء يتعودها أخيراً ويصبح جندياً ممتازاً • لاشك  
أن أمك قد أسرفت فى تدليلك فأفسدت طباعك ... أنا واثق أنها كانت  
تغذيك بالفطائر واللبن حتى الثامنة عشرة من عمرك ! ...

- حقاً لقد كانت أمى تحببى كثيراً ... وحين سافرت رقدت على  
سريرها وبقيت فيه ... ألا ما كان أقسى حياة الجندية فى نفسى حينذاك !  
كان كل شىء يجرى مقلوباً ... كانوا ينزلون فى العقوبة تلو العقوبة  
... ولماذا ؟ لقد كنت أطيع جميع الناس ، وأخضع لجميع الأوامر ، وأتبع  
جميع القواعد ، وأعتنى بكل شىء ، ولا أشرب الخمر قط ، ولا أستدين  
من أحد شيئاً ... ذلك أن المرء يسيء صنعاً اذا هو أخذ يستدين ...  
ومع هذا كان جميع الناس حولى قساةً عتاةً الى أبعد حدود القسوة  
والعتو ... كنت فى بعض الأحيان ألتو فى ركن من الأركان وأخذ

أبكى ••• وأنتحب ••• نعم ••• أنتحب ••• وفي ذات يوم ، أو قل في ذات ليلة ، كنت مكلفاً بالحراسة ••• الفصل خريف ، والرياح شديدة ، والجو يبلغ من شدة الاظلام أن المرء لا يستطيع أن يرى قطة ••• وكنت حزينا ، حزينا غاية الحزن ••• نزعت الحربة من بندقتي ووضعتها جانبا، ثم وضعت فوهة البندقية على صدري ، وضغطت الزناد بابهام قدمي بعد أن خلعت حذائي • لم تنطلق الطلقة • فحصت بندقتي وحشوتها باروداً جديداً ، ثم سدوت فوهة البندقية الى صدري ••• ومرةً أخرى لم تنطلق الطلقة ••• قلت لنفسى : « ما العمل ؟ » • ثم انتعلت حذائي ، وأحكمت اعادة وضع الحربة في موضعها من البندقية ، ومضيت أتجول ذاهباً آيياً ، حاملاً بندقتي على كفى • قلت لنفسى : ألا فلأرسل الى أى مكان ، ولكننى لا أريد أن أبقى جندياً • وبعد نصف ساعة وصل النقيب الذى كان يقوم بجولته التفتيشية • تقدم منى وقال لى : « أهكذا يسير الجندى حين يكون حارساً ؟ » ، فما كان منى الا أن أمسكت بندقتي وأغمدت الحربة فى جسمه • وقد جلدونى أربعة آلاف جلدة بالسوط ••• هكذا وصلت الى القسم الخاص •

لم يكذب سيروتكين ! ومع ذلك فأنا لا أفهم لماذا أرسلوه الى هنا • ان جرائم من هذا القبيل تعاقب معاقبة أقل قسوة • ان سيروتكين هو السجين الوحيد الذى كان جميل الوجه حقاً • أما سائر رفاقه فى القسم الخاص - وعددهم خمسة عشر سجينا - فقد كان لهم منظر كريبه رهيب! ان لهم وجوها تبعث الاشمئزاز فى النفس ! والرؤوس الشائبة فيهم كثيرة • سأحدث عن هذه العصابة فيما بعد • وكان سيروتكين فى كثير من الأحيان على صداقة طيبة بالخمّار جازين الذى سبق أن تحدثت عنه فى بداية هذا الفصل •

ان جازين هذا انسان رهيب • يحس كل من يراه أنه رجل مرعب

مخيف يبعث الاضطراب والقلق في النفس • ولقد بدا لي أنه لا يمكن أن يوجد على وجه الأرض مخلوق أشد منه شراسة وضراوة ووحشية ؛ لقد سبق لي أن رأيت في مدينة توبولسك قاطع الطريق كامنيف الذي اشتهر بجرائمه ؛ ورأيت بعد ذلك سولو كوف ، السجين الهارب ، الذي كان فاراً من الجنديه ، وكان سفاحاً كاسراً من السفاحين • ولكن لا هذا ولا ذاك أيقظ في نفسي من الاشمئزاز ما أيقظه جازين • تخيلوا عنكبوتاً ضخماً عملاقاً في حجم انسان • وهو تترى • لم يكن في السجن كله انسان يضارعه قوة جسم ، وشدة بأس • انه يوحى الى القلوب الذعر والرعب ، بضخامة رأسه الغريب المشوه اكثر مما يوحى ذلك بقامته الطويلة وبنيته الهرقلية • وكانت تجرى في حقه شائعات من أغرب الشائعات : فبعضهم يقول انه كان جندياً ، وبعضهم يزعم أنه قد فرّ من نرتسنسك\* ، وأنه نفى عدة مرات الى سيبيريا ، ولكنه استطاع أن يهرب في كل مرة ، ثم آل أخيراً الى سجننا فرداً من أفراد قسم المؤبدين ، ويُقال انه كان يحب قتل الاطفال الصغار يستدرجهم في أول الأمر الى مكانٍ ناءٍ ثم يأخذ يرعبهم ويعذبهم ، حتى اذا شفى غليله من الاستمتاع بذعر نفوسهم ونبضات قلوبهم ، اخذ يقتلهم ببطء وهدوء وورصانة ووقار ، متلذذاً بذلك أكبر التلذذ • لعل الذين يروون عنه هذه الفظائع قد تخيلوها تخيلاً من الأثر الذي يحدثه في نفوسهم ، غير أن من الجائز أن تكون صحيحة ، وهي تتفق وسجنته على كل حال • على أن جازين ، حين يكون صاحباً غير سكران ، يتصرف تصرفاً لائقاً ويسلك سلوكاً لا غبار عليه • انه هادىء دائماً لا يخاصم أحداً ، ويتحاشى المشاجرات احتقاراً لمن حوله ، وتقديراً لشخصه • وكان لا يتكلم الا قليلاً • وكانت حركاته جميعها محسوبة موزونة هادئة رصينة • ولا تخلو نظراته من ذكاء ، ولكن تعبير هذه النظرة تعبير قاسٍ ساخر كابتسامته • وكان بين تجار الخمرة أغناهم طراً • وكان يسكر

مرتين في السنة ، فاذا سكر انكشفت شخصيته على حقيقتها وحشية ضارية كاسرة • انه ينتعش شيئاً فشيئاً فيأخذ يناكد السجناء بالسخریات اللاذعة المسمومة التي يكون قد حضرها وسنّها وصلّحها زمنا طويلا قبل ذلك ؛ حتى اذا بلغ غاية السكر واستبدت به نوبات حنق مسعور وغيظ مجنون ، تناول سكيناً فأشرعها واتجه نحو رفاقه • والسجناء يعرفون قوة بأسه الهرقلية ، فهم لذلك يتحاشون ويختبئون عنه لانهم يعلمون أنه سيهجم على اول من يراه منهم • وقد انتهوا مع ذلك الى وسيلة يجردونه بها من سلاحه هي أن ينقض على جازين عشرة من السجناء مباغتةً ، فما يزالون يكيلون له ضربات شديدة على صرته وفي بطنه وتحت قلبه الى ان يفقد الوعي ويسقط مغشياً عليه • ان هذه الطريقة يمكن أن تجهز على أي انسان ، ولكنها لا تجهز على جازين • حتى اذا أوسعوه ضرباً لفوه بمعطف ورموه على سريره ، قائلين : « والان فلينم » • ويستيقظ جازين في الغداه سليماً معافى تقريباً • فيذهب عندئذ الى العمل صامتاً كئيب المزاج مظلم النفس • وكلما سكر جازين عرف جميع السجناء كيف ينتهي نهاره • وكان هو نفسه يعرف ذلك ، ولكنه يشرب رغم كل شيء • وانقضت على هذا سنوات ، فلاحظ السجناء أن جازين قد أخذ يهزل ويضعف • أصبح لا يكف عن الأنين ، شاكياً من أمراض شتى • وازدادت زياراته للمستشفى • وقال السجناء : « ها هو يرضخ أخيراً » •

في ذلك اليوم دخل جازين المطبخ يتبعه البولوني القصير الذي يعزف على الكمان ، والذي كان السجناء يستأجرونه لتتم بموسيقاه بهجة أعيادهم • وقف جازين وسط القاعة صامتاً يحدّق الى رفاقه واحداً بعد واحد • لم ينطق أحد بكلمة • فلما رأى مع رفيقى ألقى علينا نظرتة تلك الخيثة الساخرة ، وابتسم ابتسامة رهيبة ، وقد لاح في وجهه ما يلوح من

الرضى فى وجه امرىء تخيّل مهزلةً سوف يقوم بها ••• اقترّب من  
مائدتنا مترنحاً وقال :

— هل لى أن أعرف من أين تجيئون بالموارد التى تتيح لكم أن  
تحتسوا شايًا ؟

تبادلت وصديقى نظرة عجلى • وأدركت أن خير ما نفعله هو أن  
نصمت فما نجيب بشىء ••• ذلك أن أية معارضة يمكن أن تثير حنق  
جازين ، فيجبن جنونه •••  
وتابع جازين يقول :

— لا شك أن عندكم مالا ، بل لا شك أن عندكم مالا كثيرا حتى  
تشرّبوا الشاي • ولكن قولاً : أأنتم فى سجن الأشغال الشاقة من أجل  
احتساء الشاي ؟ هه ؟ ••• أأنتم هنا من أجل أن تشرّبوا شايًا ؟ هلاّ قلم  
••• هلاّ أجبتم ، حتى أعرف كيف •••

واذ أدرك أننا صامتان ، وأنا قررنا أن لا نلتفت إليه تقدم نحونا  
مسرّعاً مكفهر الوجه مرتجفاً من شدة الغيظ والحنق • وكان يوجد على  
بعد خطوتين منا صندوق ثقيل يودع فيه خبز السجناء مقطّعا للغداء والعشاء ،  
فما يحتويه الصندوق يكفى لإطعام نصف السجناء • وكان الصندوق فى  
تلك اللحظة خالياً ، فتناوله جازين بكلتا يديه ، وهزه فوق رأسنا • ورغم  
أن وقوع جناية قتل أو محاولة قتل يكون فى العادة مصدر انزعاج للسجناء  
( اذ تجرى عندئذ تحقيقات كثيرة ، وتفقيشات كثيرة ) ، ورغم أن السجناء  
يحولون فى العادة دون حدوث مشاجرات يمكن أن تكون لها عواقب  
وخيمة ، فقد صمت الجميع وأخذوا ينتظرون ما سيحدث •••

ما من كلمة قالها أحد دفاعاً عنا ! ما من صيحة صدرت عن أحد فى  
ردع جازين ! لقد كان حقد السجناء على النبلاء يبلغ من الشدة أن كلاً

منهم كان يسره أن يرانا فى خطر ، وأن يحس أننا فى خطر ... كان ذلك واضحاً كل الوضوح ... غير أن حادثاً موالياً سعيداً قد أنهى هذا المشهد الذى أوشك أن ينقلب الى فاجعة ... كان جازين يهم أن يسقط فوق رأسينا الصندوق الضخم الذى كان يديره بيديه ، حين جاء أحد السجناء مسرعاً من الثكنة التى يبيت فيها ، فصاح يقول لجازين :

— جازين ، لقد سُرِقَ خمرك !

فاذا بالرجل الرهيب يدع الصندوق يسقط على الأرض ، ويسرع خارجاً من المطبخ • قال السجناء بعضهم لبعض : « الله أنقذهما ! » ... وظلوا يرددون هذه الجملة زمناً طويلاً •

لم أستطع يوماً أن أعرف هل سُرِقَ خمره حقاً ، أم أن تلك حيلة ابتكرت لانقاذنا ...

وفى ذلك المساء نفسه ، قبل اغلاق الثكنات ، حين هبط الليل ، كنت أتجول عند السور ... ان حزناً ساحقاً قد سقط على نفسى ... لم أشعر طوال مدة اقامتى فى السجن بتعاسة كالتعاسة التى شعرت بها فى ذلك المساء ، رغم ما يقال من أن أول يوم فى السجن هو أشقى أيام السجن على الاطلاق • كانت فكرة تهزنى فى ذلك المساء هزاً قوياً ، فكرة لم تبارحنى بعد ذلك طوال مدة اقامتى فى السجن ... فكرة هى سؤال لم أجد له جواباً حينذاك ، ولا وجدت له جواباً الى الآن • ذلك السؤال هو : هل يمكن أن تقارن جريمة بأخرى ولو مقارنة تقريبية ؟ هذان رجلان اقترف كل منهما جريمة قتل ... وقد درست ظروف اقتراف الجريمتين دراسة دقيقة ووزنت وزناً دقيقاً ... ان القضاء يصدر على الرجلين حكماً واحداً وينزل فيهما عقوبة واحدة ... ومع ذلك ما أعمق الهوة بين الفعلين ! ان أحد الرجلين قد قتل فى سبيل شىء تافه لا قيمة له ... قتل فى سبيل

بصلة ••• قتل في الطريق فلاحاً كان ماراً هناك ولم يجد معه الا  
بصلة •

– هه ••• لقد أرسلوني الى سجن الأشغال الشاقة من أجل فلاح لم  
يكن معه الا بصلة ! •••

– يا لك من غبي ! ان ثمن البصلة كوبك ، فلو قتلت مائة فلاح  
لملكت مائة كوبك ••• أى للمكت روبلاً ، فما قيمة ذلك ؟ •••

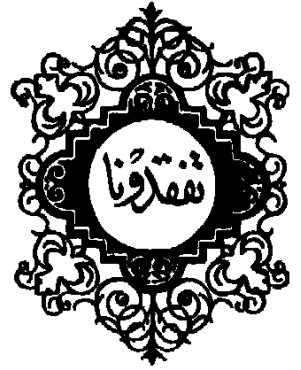
أما الرجل الثانى فقد قتل طاغية حقيراً لطنخ سرف امراته أو أخته أو  
بنته • وهذا رجل ثالث متشرد يكاد يموت جوعاً ، تحاصره فصيلة كاملة  
من الجند فيدافع عن حرите وحياته • فهل هو مساو لذلك الوغد الذى  
يقتل الأطفال تلذذاً ، للاستمتاع بجريان دمهم الحار على يديه ، وبمنظرهم  
وهم يرتعشون آخر رعشة من رعشات عصفور تذبجه سكين ؟ ان هؤلاء  
القتلة جميعاً يرسلون الى سجن الأشغال الشاقة • قد لا تكون مدد الأحكام  
متساوية • ولكن أنواع العقوبات قليلة ، فى حين أن أنواع الجرائم تعد  
بالالوف • فهناك من أنواع الجرائم بقدر ما هناك من انواع الطباع •  
وهنا سلمنا بأن من المستحيل ازالة هذا الظلم الأول فى العقوبة ، هنا سلمنا  
بأن هذه المشكلة لا سبيل الى حلّها ، هنا سلمنا بأن هذه المشكلة صعبة  
صعوبة تربيح الدائرة ••• هنا سلمنا بهذا ••• هنا تفاضينا عن هذا  
الظلم ••• ان هناك ظلماً آخر : هو الظلم الذى يتعلق بنتائج العقوبة •••  
فرب رجل يذوى فى السجن ويهلك ويذوب كما تذوب الشمعة ؛ ورب  
رجل آخر ما كان ليخطر له ببال أن الحياة فى السجن يمكن أن تكون  
ممتعة الى هذه الدرجة بين حلقة من الأصدقاء تحلو معاشرتهم وتطيب  
صحبتهم ! ••• هناك أشخاص من هذا النوع فى سجون الأشغال الشاقة •  
وانظر بعد ذلك الى انسان رقيق القلب مثقف الفكر مرهف الضمير •••

ان ما يشعر به لهو أشد ايلاماً لنفسه من العقوبة نفسها . ان الحكم الذى أصدره هو نفسه على جريمته أفسى حكم يصدره القضاء تطبيقاً لأشد نصوص قانون من القوانين صرامةً وقوة . انه يعيش جنباً الى جنب مع سجين آخر لم يفكر مرةً واحدةً فى الجريمة التى ارتكبها والتى عوقب عليها ، لم يفكر فى هذه الجريمة مرةً واحدةً طوال مدة اقامته فى السجن ، ولعله يعد نفسه بريئاً لم يقارف اثماً . . . . وأخيراً ، أليس هناك أناس تعساء بؤساء يرتكبون الجرائم بغية أن يُرسلوا الى سجون الأشغال الشاقة حيث الحياة أقل مشقة من حياة الحرية خارج السجن ؟ ان الحياة ملأى بألوان الشقاء . . . رب شخص لا يجد ما يأكله اذا جاع . . . رب شخص يرهق نفسه فى العمل من أن أجل أن يفتنى سيده . . . وهو لذلك يؤثر حياة السجن على الحياة التى يعيشها خارج السجن . . . فالعمل فى السجن أقل مشقة وعسراً ، والمرء فى السجن يأكل متى جاع ، ولعله يأكل خيراً مما يأمل أن يأكل خارج السجن . . . سوف يأكل لحمأ فى أيام الأعياد ، وسوف تتوارد عليه الصدقات ، وسوف يجنى من عمل المساء بعض المال . . . وهذا المجتمع الذى سوف يعرفه فى السجن ، هل تعدونه غير ذى بال ؟ ان السجناء أناس بارعون ماكرون يعرفون كل شىء . . . والقادم الجديد ينظر الى رفاق الأغلال نظرة اعجاب لا يخفيها . . . انه لا عهد له بشىء كهذا من قبل . . . فهو لذلك يتصور أنه فى أحسن صحبة ! . . .

فهل يُعقل أن يشعر هؤلاء الرجال جميعاً شعوراً واحداً بالعقوبة التى أنزلت فيهم ؟ ولكن علام الخوض فى مشكلات لا سبيل الى حلها ، علام طرح أسئلة لا سبيل الى الجواب عليها ! . . . لقد قرع الطبل ، فيجب أن أعود الى الثكنة . . .



## المسألة الأولى تمه



مرة أخرى ، ثم أغلقوا أبواب الثكنات ، وأقفلوا كل باب بقفل خاص ، وظل السجناء محبوسين حتى مطلع الفجر •

لقد قام بتفقد السجناء ضابط صف ، يصحبه جنديان • فإذا اتفق أن شهد التفقد ضابط من الضباط ، صُفَّ السجناء في الفناء • أما في أكثر الأحيان فكان التفقد يتم في داخل المباني نفسها • ولما كان الجنود كثيراً ما يخطئون التعداد ، فانهم يخرجون ثم يعودون ليكرروا تفقدنا واحداً واحداً ، الى أن يتضح لهم أن العدد كان صحيحاً ، فيحبسوننا عندئذ في الثكنات • وكل ثكنة من الثكنات تضم نحو ثلاثين سجيناً ، لذلك كانت المضاجع متراسةً قريباً بعضها من بعض • ويأخذ السجناء يعملون ، لأن موعد النوم ما يزال بعيداً •

عاد الجندي المشوه الذي سبق أن أتيت على ذكره ، والذي كان يبيت معنا في الثكنة ، ويمثل ادارة السجن أثناء الليل • وكان يوجد في كل ثكنة سجين قديم يعينه الضابط المجير «عريفاء» ، مكافأة له على حسن

سلوكه • ومع ذلك لم يكن بالأمر النادر أن يرتكب « العرفاء » أنفسهم مخالفات يعاقبون عليها بالجلد ؛ فهم يفقدون عندئذ رتبتهم ، ويحل محلهم سجناء آخرون ممن يكون سلوكهم مرضياً • كان « عريف » نكتنا هو آكيم آكيمتش • وقد أدهشني أنه كان ينهر السجناء ويقرعهم تقرعاً شديداً ، ولكن السجناء لا يردون على تقرعاته الا بسخریات • أما الجندي المشوه فقد كان أقرب الى حصافة الرأي وسداد النظر فهو لا يتدخل في أمر من الأمور ، فاذا فتح فمه بكلام ، فهو انما يتكلم عندئذ مراعاة للواجب وتبرئة للذمة • وكان يظل جالسا على مرفده صامتا ، عاكفاً على ترقيع أحذية عتيقة • وكان السجناء لا يولونه أى اهتمام ولا يلتفتون اليه أى التفات •

وفى ذلك لاحظت أمراً ثبتت لى صحته وثبت لى صدقه بعدئذ ، وهو ان جميع من ليسوا سجناء ويتعاملون مع السجناء ، سواء أكانوا من جنود الحرس أم من الموظفين ، ينظرون الى السجناء نظرة خاطئة مبالغه ، كأنهم يتوقعون ان ينقض عليهم السجناء بسكين لأتفه أمر أو لايسر سبب • وكان السجناء لعلمهم بهذا الخوف الذى يوظفونه فى نفوس هؤلاء ، يشعرون من ذلك بزهو وخيلاء • لذلك فان خير رئيس للسجن انما هو ذلك الذى لا يشعر أمام السجناء بأى انفعال • والسجناء رغم المظاهر التى يصطنعونها يؤثرون هم أنفسهم أن يُمحضوا الثقة، حتى لقد تستطيع بهذه الثقة التى توليهم اياها أن تشدهم اليك وأن تربطهم بك • وقد أتىح لى غير مرة أن ألاحظ دهشتهم حين يدخل عليهم رئيس بلا حرس يرافقه • • • وليس فى هذه الدهشة شىء من التملق فى الواقع : فان الزائر الشجاع يفرض احترامه ويفرض مهابته على السجناء • واذا وقع شىء مزعج فى يوم من الأيام ، فان ذلك لا يمكن أن يقع فى حضوره • ان الرعب الذى يوظفه السجناء فى النفوس عام شامل ؛ ومع ذلك فأنا أرى أنه لا يقوم على

أساس • هل يرجع هذا الذعر الى أن سحنة السجين وهيته التي تدل على  
 الاجرام تولدان شيئاً من النفور والاشمئزاز؟ أغلب الظن عندى أن هذا  
 الذعر راجع الى شعور معين يستبد بنا منذ ندخل السجن ، هو الشعور  
 بأن من المستحيل على المرء ، رغم جميع الجهود ورغم اتخاذ جميع الاجراءات  
 الممكنة ، أن يحيل انساناً حياً الى جثة ، أن يخفق عواطف هذا الانسان ،  
 أن يزيل ظمأه الى الانتقام والى الحياة ، وأن يبدد أهواءه وحاجته القوية  
 العارمة الى ارضاء هذه الأهواء • ومهما يكن من أمر فانتى أوكد أنه  
 لا داعى الى الخوف من نزلاء سجون الاشغال الشاقة • ما من انسان  
 ينقض بسكين على قرينه بمثل هذه السرعة وبمثل هذه السهولة • ولئن  
 وقعت حوادث من هذا القيل فى بعض الاحيان ، فهى من الندرة بحيث  
 يمكن أن لا تحسب • أنا لا أتكلم هنا طبعاً الا عن تم صدور الحكم  
 عليهم ، فهم ينالون عقابهم ، ويكاد يشعرون بعضهم بالسعادة من وجوده فى  
 السجن اخر الامر ، فان شكلاً جديداً من أشكال الحياة لا بد أن يجذب  
 الانسان دائماً • فهؤلاء يعيشون هادئين خاضعين راضخين مدغنين • أما  
 المشاغبون فان السجناء أنفسهم يجبرونهم على المحافظة على الهدوء ، فلا  
 يمكنهم أن يمضوا فى تبجحهم بعيداً • ان السجين ، مهما يكن جسوراً  
 ومهما يكن متهوراً ، يخاف فى السجن كل شىء • ولا كذلك المتهم الذى  
 لم يتقرر مصيره بعد • ان هذا المتهم لا يتورع عن الإبتقاض على أى  
 شخص ، دون أن يكون ثمة دافع من كره يدفعه الى ذلك ، لا لشىء الا  
 لانه سيصدر فى حقه حكم غداً • فانه اذا ارتكب جريمة جديدة ، تعقدت  
 قضيته ، وتأخر انزال العقاب فيه ، وكسب وقتاً ••• ان لمثل هذا العدوان  
 ما يفسره ويعلله ، ان له سبباً ، ان له هدفاً ••• ان السجين فى هذه  
 الحالة يريد أن « يغير مصيره » بأى ثمن ، ويريد أن يغير هذا المصير  
 فوراً • وبهذه المناسبة فقد أتيج لى أن أشهد واقعة نفسية غريبة جداً •



دوتوف  
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كان في قسم المحكومين العسكريين جندي قديم أرسل الى سجن الأشغال الشاقة يقضى فيه سنتين . كان هذا الرجل متبجحاً وجباناً في آن واحد . ان الجندي الروسي قليل المباهاة بوجه عام ، ولا يتسع وقته للمباهاة ولو أراد . فاذا وجد بين الجنود الروس جندي كثير المباهاة شديد الافتخار فاعلم أنه جبان وأنه محتال . قضى دوتوف - وذلك هو اسم السجين الذي أتحدث عنه الآن - قضى مدة سجنه وعاد الى فرقة مرابطة على الحدود . ولكنه كان قد فسد فساداً كاملاً كسائر من يُرسلون الى السجن لاصلاحهم . ان كثيراً من هؤلاء السجناء يعودون الى السجن بعد أن يتمتعوا بالحرية أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، ولكنهم لا يعودون عندئذ لقضاء مدة قصيرة بعض القصر ، وانما يعودون ليقضوا في السجن خمسة عشر عاماً أو عشرين . فذلك ما حدث لصاحبنا دوتوف . فبعد اطلاق سراحه بثلاثة أسابيع ، سرق أحد رفاقه عنوةً ، ثم شق عصا الطاعة وتمرد على النظام العسكري ، فحوكم وصدر في حقه حكم جسمي قاس ، فاذا هو من شدة هلعه من العقاب المقبل ( لأنه جبان ) ينقض بسكين في يده على ضابط الحرس الذي دخل عليه مقره عشية اليوم الذي كان يجب أن ينفذ فيه الحكم الذي أصدرته المحكمة بجلده . لقد كان يدرك تمام الادراك أنه بذلك يفاقم جريمته ويطيل مدة حكمه . ولكن الشيء الوحيد الذي كان يريده هو أن يؤجّل اللحظة الرهيبة ، لحظة انزال العقوبة ، بضعة أيامٍ أو بضع ساعات على الأقل . وكان من الجبن بحيث أنه لم يستطع حتى أن يطعن الضابط الذي أشهر عليه سكينه . انه لم يرتكب هذا العدوان الا ليضيف الى « ملفّه » جريمة جديدة ، توجب أن تُعاد محاكمته .

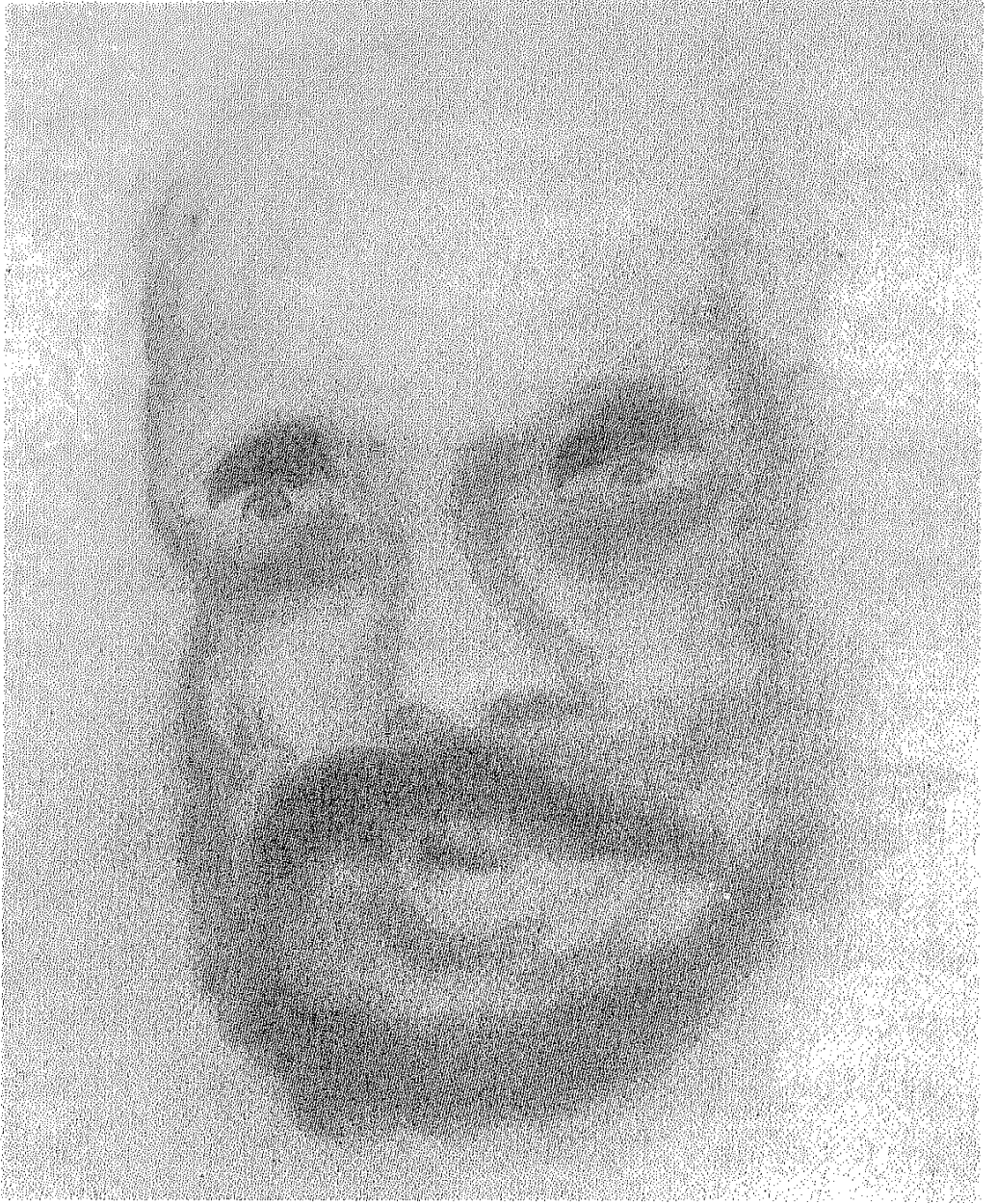
ان اللحظة التي تسبق تنفيذ العقاب هي لحظة رهيبة في نظر المحكوم بعقوبة الجلد بالسياط . لقد أتيج لي أن أرى كثيراً من المحكومين قبل تنفيذ

الحكم فيهم بيوم • كنت ألقاهم عادةً في المستشفى حين أكون مريضاً ،  
وكثيراً ما كنت أمرض ... ان أرأف الناس بالمحكومين في روسيا انما هم  
الأطباء حتماً • انهم لا يفرقون أبداً بين المحكومين تلك الأنواع من  
التفريق التي يعمد اليها غيرهم ممن هم على صلة مباشرة بهؤلاء المحكومين •  
ولعل الشعب وحده يرأف بهم أيضاً مع الاطباء ، لانه لا يلوم المجرم أبداً  
على الجرم الذي ارتكبه مهما يكن هذا الجرم ، بل يغفر له هذا الجرم  
ما دام قد كفر عنه بالعقاب الذي ناله •

ليس عبثاً أن الشعب في روسيا كلها يصف الجريمة بأنها سوء حظ،  
ويصف المجرم بأنه انسان سييء الحظ • ان لهذا التعريف دلالة بليغة  
عميقة ، دلالة هامة خطيرة ، لا سيما وانه غريزي لا شعوري ... أعود الى  
حيث كنت من الحديث فأقول ان الأطباء هم الملجأ الطبيعي الذي يلجأ اليه  
السجناء ، وخاصة حين يكون عليهم أن يتحملوا عقوبة جسدية ... ان  
المتهم الذي أحيل الى مجلس عسكري يعرف على وجه التقريب الوقت  
الذي سيصدر فيه الحكم ، فمن أجل أن يجتنب هذا الموعد تراه يتمارض  
ويطلب الذهاب الى المستشفى عسى أن تُرجأ اللحظة الرهيبة بضعة أيام •  
وهو حين يصرّح أنه شفى من مرضه لا يجهل أن تلك اللحظة موعدها  
غداً خروجه من المستشفى • لذلك ترى السجناء مضطربين أشد  
الاضطراب في ذلك اليوم • صحيح أن بعضهم يحاول اخفاء اضطرابه  
محافظة على كبريائه ، ولكن ما من أحد ينطلي عليه هذا التظاهر الكاذب  
بالشجاعة • ان كل انسان يفهم قسوة هذه اللحظة ، ويسكت من قيل  
الشعور الانساني • لقد عرفت سجيناً شاباً كان في الماضي جندياً ، وقد  
أرسل الى سجن الأشغال الشاقة بتهمة القتل ... وكان عليه أن يعاقب  
بالحد الأقصى من الجلد بالسياط • فقرر قبل تنفيذ العقوبة فيه بيوم أن  
يشرب زجاجة كاملة من الخمر غلى فيها مقداراً من التبغ • ان السجن

المحكوم بالجلد لابد أن يشرب قبل اللحظة الحاسمة شيئاً من خمر يكون قد أعده منذ زمن طويل ، واستتراه بتمن باهظ في أكثر الاحيان : انه يؤثر أن يحرم نفسه من الاشياء الضرورية ستة اشهر برمتها على ان لا يعب ربع لتر من الكحول قبل تنفيذ العقوبة فيه • فالسجناء يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن الانسان لا يتألم من ضربات العصا أو السوط مثلما يتألم منها وهو في حالة الصحو • وأعود الى قصتي فاقول ان الشاب المسكين سقط مريضاً بعد شربه زجاجة الخمر ببضع لحظات ، وأخذ يتقيا دماً ، ونقل الى المستشفى مغشياً عليه • وبلغ صدره من التمزق لهذا أن سلاً أصابه ثم أودى بحياته بعد بضعة أشهر • ولم يعرف الاطباء الذين تولوا علاجه سبب مرضه أبداً •

وإذا لم تكن الأمثلة على الجبن نادرة بين السجناء ، فيجب أن نضيف أننا نقع عندهم على أفراد يملكون بسالة مذهلة • اننى أتذكر ألواناً من الشجاعة وصلت الى حد فقدان الاحساس • وما يزال مشهد وصول أحد قطاع الطرق الى المستشفى محفوراً في ذاكرتى الى الآن • ففي ذات يوم جميل من أيام الصيف ، انتشرت في مستشفىنا شائعة تقول ان فاطح الطرق الشهير أورلوف سيجلد في مساء ذلك اليوم نفسه ، وأنه سينقل بعدئذ الى المستشفى • وقال السجناء الذين كنوا في المستشفى ان تنفيذ العقوبة سيبلغ غاية القسوة ، لذلك كان جميع السجناء في المستشفى مضطربين • وانى لأعترف بأننى كنت أنا نفسى أنتظر بكثير من حب الاطلاع أن يصل الى المستشفى هذا الرجل الذى كانت تروى عنه حكايات رهيبة • انه مجرم قلّ بين المجرمين مثله ، قادر على أن يقتل شيوخاً وأطفالاً دون أن يهتز فيه عرق ، ودون أن يشعر بأى انفعال • وكان يملك ارادة جبارة لا يمكن ترويضها ولا يمكن السيطرة عليها ، وكانت نفسه تفيض زهواً وكبرياء من شعوره بقوته • ولما كان قد قارف جرائم عدة فقد حكم



أورلوف  
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساقوفا



بالجلد • وجاءوا به أو قل حملوه في المساء • كانت القاعة غارقة في  
 الظلام ، وقد أخذ السجناء يشعلون شموعاً • كان أورلوف شاحباً شحوباً  
 خارقاً ، يكاد يكون فاقد الوعي مغشياً عليه ؛ ان شعره كثيف مضفور ،  
 أسود على غير لمعان • وكان ظهره متشققاً متورماً أزرق اللون تغطيه بقع  
 من الدم • وظل السجناء يعنون به طوال الليل ، يغيرون له الكمادات ،  
 ويرقدونه على جنبه ، ويحضرون له المرهم الذي أمر به الطبيب ، واهتموا  
 به وعطفوا عليه كما يهتم المرء بقريب له ، وكما يعطف على محسن إليه •  
 واسترد الرجل حواسه كاملة في الغداة ، فطاف بالقاعة مرة أو  
 مرتين • فأدهشني ذلك كثيراً ، لأنه كان مهدماً محطّم القوى حين جئ  
 به الى المستشفى • لقد جلدوه نصف عدد الجلادات التي حدّدها القرار •  
 ولكن الطبيب أوقف الجلد لاقتناعه بأن أورلوف سيموت حتماً اذا استمروا  
 في جلده • وكان هذا المجرم ضعيف البنية قد هدّمه طول اقامته في  
 السجن • ان من رأى سجناء حكم عليهم بالجلد ، سيظل يتذكر وجوههم  
 المزولة المهدودة ، ونظرتهم المحمومة المسعورة • وسرعان ما شفئ  
 أورلوف : لا شك أن طاقته الجبارة قد ساعدت جسمه على استرداد عافيته •  
 ان أورلوف ليس بالشخص العادي • وتعرفت عليه جياً بالاطلاع ،  
 واستطعت أن أدرسه على مهل خلال أسبوع بكامله • ما رأيت في حياته  
 كلها رجلاً يضارعه قوة ارادة وصلابة شكيمة • كنت قد التقيت في  
 توبولسك برجل مشهور من هذا النوع كان رئيس عصابة من قطاع  
 الطرق • لقد كان ذلك الرجل وحشاً كاسراً حقاً ، ما ان يلامسه المرء  
 ملامسة ، ولو دون أن يعرفه ، حتى يوجس أنه رجل خطر • والأمر الذي  
 أربعني فيه خاصة انما هو غباؤه • ان المادة تبلغ فيه من غلبتها على الروح  
 أن المرء ما يكاد يراه حتى يحس أن لا وجود لشيء عنده الا ارضاء حاجاته  
 الجسمية واشباع شهواته الحيوانية ••• ومع ذلك فأنا مقتنع اقتناعاً تاماً

بأن كورنيف ( وهذا هو اسمه ) كان لا بد أن يغمى عليه لو سمع صدور  
 حكم يقضى بتعذيبه تعذيباً جسدياً كالتعذيب الجسدى الشديد الذى  
 أوقعوه فى أورلوف ، وكان لا بد أن يذبح عندئذ أول قادم دون ان  
 يطرف جفنه • ولا كذلك أورلوف ، فلقد كان انتصاراً رائعاً للروح  
 على الجسم ••• كان يسيطر على نفسه سيطرة كاملة : كان  
 لا يشعر نحو القصاص الا بالاحتقار ، ولا يخشى فى العالم شيئاً على  
 الاطلاق • ان الشيء البارز فيه هو هذه الطاقة التى ليس لها حدود ، هو  
 هذا الظماً الى الانتقام ، هو هذا النشاط الذى لا يهدأ ، وهو الارادة التى  
 لا تتزعزع ، حين يكون عليه أن يبلغ غاية من الغايات أو أن يحقق هدفاً  
 من الاهداف • وقد أدهشنى مظهره المتعالى المتعطرس ، كان ينظر الى  
 الناس من عل ، لا اصطناعاً للمهابة والوقار ، فلقد كان العجب والكبر  
 فطرةً فيه • وما أحسب أن أحداً قد أثر فيه أى تأثير فى يوم من الأيام •  
 انه ينظر الى كل شيء نظرةً لا تبالى ، فلا شيء فى هذا العالم يمكن أن يثير  
 دهشته أو يوقظ استغرابه • وكان يعلم حق العلم أن السجناء الآخرين  
 يحترمونه ، ولكنه لا يستغل ذلك لاضطناع الوجاهة واطهار الاستعلاء •  
 على أن حب الظهور والزهو بالنفس آفتان لا يخلو منهما سجين • وكان  
 ذكياً • وكانت صراحته العجيبة ليست من الثرثرة واللغو فى شيء • لقد  
 أجاب عن جميع الأسئلة التى ألقىتها عليه ، بغير لف ولا دوران : فاعترف  
 لى بأنه ينتظر شفاءه بصبر فارغ ، حتى ينتهى من باقى العقوبة التى صدر  
 الحكم بانزالها فيه • قال لى غامزاً : « عندئذ ينتهى الأمر : أنال باقى العقوبة  
 ثم أرحل الى فرتشنسك مع قافلة من السجناء ••• وسأتهز هذه الفرصة  
 فأهرب ••• نعم سوف أفر ، ما فى ذلك شك ! ولكن ••• ليت جروح  
 ظهرى تبرأ بمزيد من السرعة ! » • وظل خلال خمسة أيام يحترق  
 شوقاً الى تحسن حاله بحيث يستطيع مغادرة المستشفى • وكان فى بعض

الأحيان مرحاً رائق المزاج • فكنت أستغل لحظات صفائه هذه لأسأله عن مغامراته • فكان يقطب حاجبيه قليلاً ، ولكنه يجيب على أسئلتى دائماً بصدق واخلاص • فلما أدرك أنني أحاول أن أنفذ الى أعماقه وأن أجد في نفسه بعض آثار ندامة ، ألقى عليّ نظرة استعلاء واحتقار ، كما لو كنت طفلاً غيباً بعض الغباء يشرفه كثيراً أن يرضى التحدث معه ؛ ولمحت في وجهه نوعاً من الاشفاق عليّ ، والرأفة بي • وما هي الا لحظة قصيرة حتى انفجر يقهقه ملء حنجرتة ، دون أى استهزاء أو سخر • ويخيل اليّ أنه لا بد قد ضحكك بعد ذلك غير مرة حين كان يتذكر كلماتي • وأخيراً سجل اسمه بين الراغبين في الخروج من المستشفى ، رغم أن جروح ظهره لم تتدب بعدُ تندباً كاملاً • ولما كنت قد شفيت من مرضى فقد غادرنا المستشفى معاً في يوم واحد • أما أنا فعدت الى السجن ، وأما هو فأعيد الى المحل الذي كان مسجوناً فيه من قبل • فلما تركني صافحني مصافحة قوية ، وكان ذلك في نظره دليلاً على حسن الثقة ؛ وأحسب أنه انما فعل ذلك لأنه كان في تلك اللحظة رائق المزاج مقتبط النفس • فالحق أنه كان يحقرني ولا شك ، لأنني انسان ضعيف يستحق الشفقة والرثاء من جميع النواحي ، انسان أذعن لقدره ورضخ للمصير الذي كتب له • وفي الغداة أنزلوا فيه النصف الثاني من العقوبة •

حين أقفلت علينا أبواب ثكنتنا اتخذت على الفور طابعاً آخر مختلفاً عن طابعها الأول كل الاختلاف ، اذ أصبحت مسكناً حقيقياً ، ومنزلاً أهلاً بسكانه • وعندئذ فقط انما رأيت رفاقي السجناء كأنهم في بيوتهم حقاً • ذلك أن ضباط الصف أو غيرهم من المشرفين على السجن كان يمكن أن يباغتوا السجناء أثناء النهار في كل لحظة ؛ لذلك يكون السجناء أثناء النهار على شيء من القلق ، لا يشعرون بالاطمئنان كاملاً • حتى اذا أغلقت الأبواب وأقفلت بالأقفال ، جلس كل سجين من السجناء في مكانه ،

وأخذ يعمل ... وقد أضيئت الثكنة عندئذ اضاءةً لم تكن في حسابي ،  
فلقد كان لكل سجين شمعة وشمعدان من خشب؛ فهؤلاء يأخذون يرتقون  
بعض الأحذية ، وأولئك يأخذون يخيطنون بعض الثياب ، وهكذا  
دوايك ...

ويفسد الهواء مزيداً من الفساد ... ها هم أولاء بعض السجناء  
قد أقعوا في ركن من الأركان يلعبون بالورق على بساط ممدود . ان في  
كل ثكنة من الثكنات سجيناً يملك بساطاً طوله ثمانون سنتيمتراً ، وشمعة  
كبيرة ومجموعة من ورق اللعب متسخة أشد الاتساخ . كان هذا يسمى  
« قماراً » . وصاحب الورق يتقاضى من المقامرين خمسة عشر كوبكاً عن  
كل ليلة . فتلك تجارته التي يمارسها . وكان المقامرون يلعبون في العادة  
لعبة « الورقات الثلاث » ، لعبة « الجوركا » ، وهي من ألعاب الحظ . ان  
كل سجين يضع أمامه كدسة من قطع النقد النحاسية ، هي ثروته كلها ،  
ولا ينهض عن اللعب الا بعد أن يخسرها أو يربح كل ما يملكه رفاقه  
الباقون ... واللعب يستمر الى ساعة متأخرة من الليل ، حتى لقد يطبع  
الفجر قبل أن يفرغ أصحابنا من المقامرة ، وكثيراً ما لا ينقطعون عن اللعب  
الا قبل فتح أبواب الثكنة بدقائق معدودات . وكان في ثكنتنا - كما كان  
في سائر الثكنات - شحاذون فقدوا كل ما يملكون في القمار أو في  
الشراب ؛ أو قل كان هنالك شحاذون « فطروا » على الشحاذة . أقول  
« فطروا » ، وأعنى ذلك . ذلك أنه يوجد بين أبناء شعبنا وسيظل يوجد  
بينهم مهما تكن الظروف عدد من تلك الشخصيات العجيبة المسألة التي قد  
لا تكون كسولةً في كثير من الأحيان ، ولكن القدر فرض عليها أن يكون  
مصيرها مصير الشحاذين دائماً . ان هؤلاء الشحاذين أناس شاذون يظلون  
طوال حياتهم متبلدين مأخوذيين مرهقين ، يخضعون لسלטان أحد من  
الناس ، ويبقون تحت وصاية أحد من الناس ، ولا سيما المتلافين الذين

وصلوا الى شيء من الاعتناء • ان كل جهد هو عبء على هؤلاء الشحاذين ، وان كل مبادرة حمل تنوء به أكتافهم • انهم لا يحيون الا شريطة أن لا يبادروا الى القيام بعمل من الأعمال من تلقاء أنفسهم ، ولكنهم يخدمون دائماً ، ويعيشون دائماً في ظل ارادة شخص • لقد يُسَّرُوا لأن يعملوا بغيرهم ولغيرهم • وما من ظرف من الظروف يمكن أن يغنيهم ، حتى ولو كان ظرفاً طارئاً ليس في الحسبان ••• فهم يظنون شحاذين ••• لقد التقت بأناس من هذا النوع في جميع طبقات المجتمع ، وفي جميع الفئات ، وفي جميع الهيئات ، وحتى في عالم الأدب • وأنت تجدهم في كل سجن ، في كل ثكنة •••

فمتى تشكلت حلقة القمار نودي أحد هؤلاء الشحاذين الذين لاغنى عنهم للمقامرين ؛ انه يتلقى خمسة كوبيكات فضة عن عمل ليلة بكاملها ••• وياله من عمل ! ••• ان عمله هو أن يحرس الدهليز في جو بارد تبلغ درجة برودته ٣٠ ريثامور ، وفي ظلام دامس خلال ست ساعات أو سبع . فاذا سمع هذا المتربص أيسر ضجة أو أقل صوت ، لأن الضابط الميجر أو ضابط الحرس يقومون بجولاتهم التفثيشية في ساعة متأخرة من الليل أحياناً ، بخطوات كخطوات اللصوص ، فيداهمون اللاعنين والعاملين ، وينقضون عليهم متلبسين بالجرم المشهود ، وذلك بفضل رؤيتهم ضوء الشموع الذي تمكن رؤيته من الفناء ، أسرع ينبه المقامرين ، ذلك أنه حين يُسمع صرير المفتاح في قفل الباب ، لا يتسع الوقت للاختباء واطفاء الشموع والاستلقاء على المضاجع • وتلك مداهمات نادرة جداً على كل حال • والأجر الذي يتقاضاه الشحاذ خمس كوبيكات ، أجر " تافه حتى في سجننا ••• ومع ذلك ترى المقامرين يتشددون مع من يعينونه لهذا النوع من الحراسة ، ويقسون في معاملته أشد القسوة ، وذلك أمر أدهشني ، كما أدهشتني أمور أخرى كثيرة على كل حال ••• انهم يقولون

له : « لقد نقدناك أجرك ، فعليك أن تخدمنا ! » • وتلك حجة لا تتحمل جواباً ولا رداً • • يكفي أن تنقد أحد الناس بضعة دريهمات حتى تستفيد منه وتستغله الى أقصى درجة من درجات الاستفادة والاستغلال ؛ بل يكفي أن تنقده هذه الدريهمات القليلة حتى يكون من حقتك عليه أن يعرب لك عن مشاعر الشكر والامتنان • حتى لقد رأيت بعض السجناء ينفقون بلا حساب ، ويبددون المال يمناً ويسرة ، ثم هم يفتشون الشخص الذي « يخدمهم » • رأيت ذلك بعيني غير مرة في أكثر من سجن •

سبق أن قلت ان جميع الناس يأخذون يعملون ، باستثناء الذين يتحلقون للمقامة • وكان هنالك خمسة سجناء لا يعملون شيئاً ، فما تكاد أبواب السجن تغلق حتى يرقدوا على الفسور • وكان مكاني على ألواح الخشب قريباً من الباب ، وبعده يأتي مكان آكيم آكمتش • • • فاذا رقدنا تلامس رؤسنا • ظل آكيم يعمل حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الصاق مصباح صيني متعدد الألوان كان قد عهد اليه بصنعه أحد سكان المدينة ، وكان سيتقاضى ثمنه مبلغاً كبيراً • ان آكيم بارع براعة فذة في هذا العمل ، فهو يتبع في عمله نظاماً دقيقاً وطريقة ممتازة بلا كسل ولا تراخ ولا اهمال • فلما فرغ منه جمع أوراقه بعناية ، وبسط فراشه ، وقرأ صلواته ، ونام نوماً عميقاً • ان آكيم يبالغ في التقيّد بأدق تفاصيل النظام تقيداً يبلغ حد الحذقة • • • ولا شك أنه كان في قرارة نفسه يعد نفسه انساناً ذكياً ، كسائر ذوى العقول المتوسطة المحدودة • انه لم يعجبني في أول الأمر ، رغم أنه حملني على أن أفكر كثيراً في ذلك اليوم • لقد أدهشني أن يوجد رجل كهذا الرجل في سجن الأشغال الشاقة ، بدلاً من أن يكون خارج السجن متفوقاً في صناعة من الصناعات • وسأتحدث عن آكيم آكمتش غير مرة ، فيما سيلي من هذه القصة • ولكن يجب على أن أصف أشخاص نكتنا • لقد كتب عليّ أن

أعيش في هذه الثكنة عدداً من السنين ، فهؤلاء الذين يحيطون بي لا بد أن يكونوا رفاق كل دقيقة من دقائق حياتي . وطبعي أنتى كنت أنظر اليهم بكثير من حب الاطلاع ! كانت تبيت على يمينى عصبة من سكان جبال القفقاس ، قد نفى جميع أفرادها تقريباً لأنهم كانوا من قطاع الطرق ، وحكم عليهم بعقوبات متفاوتة : كان منهم اثنان من أهل لزخين ، وشركسى واحد ، وثلاثة من تتر داغستان . أما الشركسى فهو رجل عابس الوجه مقطب الأسارير لا يكاد يتكلم أبداً ، وهو يختلس اليك النظر اختلاساً ويتسم ابتسامة وحش مفترس . وأما اللزخينيان فأحدهما شيخ مستقيم الأنف طويل القامة نحيل الجسم ، تدرك من أول وهلة أنه من قطاع الطرق ؛ ولا كذلك الثانى ، واسمه نورا ، فقد شعرت نحوه شعوراً طيباً ، وأحسست بارتياح اليه . انه مربع القد ، ما يزال شاباً ، قوى البنية ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، معقوف الأنف قليلاً ، تشبه قسماته أن تكون قسمات فنلندى . . . . وكانت ساقاه مقوّستين كجميع من عاشوا على ظهور الخيل . وكان جسمه ممتلئاً بالندوب ، محروثاً بضربات الحراب أو طلقات الرصاص . لقد انضم هذا الرجل الى العصاة رغم أنه من رجال الجبال الخاضعين ، وقام مع هؤلاء العصاة بعدد من الغارات المتصلة على أراضينا . كان جميع من فى السجن يجه بسبب مرح طبعه وبشاشة وجهه . وكان يعمل بغير دمدمة أو تدمر ، هادئاً مسالماً بغير انقطاع . وكان يشمئز من السرقة والفسق والاحتيال والسكر ، بل كان يغضب من هذه الأعمال غضباً شديداً ، ولا يطيق أن يحتمل أى أمر معيب مشين منافٍ للشرف والكرامة . ولكنه لا يحاول أن يشاجر أحداً ، بل يكتفى باشاحة وجهه مستكراً مستاءً . لم يقترف خلال اقامته سرقة ولا أتى أى عمل يمكن أن يؤخذ عليه . وكان شديد التقوى كثير العبادة ، فهو يؤدى صلاته كل مساءً ، ويصوم شهر رمضان ، ويتمسك بدينه الاسلامى ، وكثيراً

ما كان يقضى الليل كله متهجداً • كان جميع من فى السجن يحبونه ،  
ويرون أنه انسان شريف حقاً ••• كان السجناء يلقبونه «نورا الأسد» ،  
وقد بقى له هذا اللقب • وكان مقتنعاً اقتناعاً قويا بأنه سيرسل الى القفاس  
متى أنهى مدة سجنه ، فكان فى الواقع لا يعيش الا على هذا الأمل، ويقينى  
أنه لو حرم من هذا الأمل لمات • لقد لاحظته يوم وصولى الى السجن •  
وكيف كان يمكن أن لا أميز هذا الوجه الهادىء النيل الشريف وسط  
تلك الوجوه القائمة الكئيبة العابسة المنفرة ! لقد مرّ الى جانبى فى نصف  
الساعة الأول ، فربت على كتفى برفق ولطف وهو يتسم لى ابتسامة عذبة  
طيبة • فلم أفهم فى أول الأمر ما كان يريد أن يقوله لى ، لأنه كان  
لا يحسن الكلام بالروسية • ولكنه لم يلبث أن عاد يمر قربى من جديد ،  
ويربت على كتفى مرةً أخرى وهو يتسم ابتسامة المودة والصدافة تلك •  
وظل يكرر هذه الحركة ثلاثة أيام • لقد كان يريد أن يشير ، كما أدركت  
ذلك فيما بعد ، الى أنه يشفق علىّ ويرثى لحالى ، ويدرك مدى ما أعانيه  
من آلام فى هذه اللحظات الأولى من اقامتى بالسجن: كان يريد أن يبرهن  
لى على مودته وصدافته ، وأن يقوى عزيمنى ويشد أزرى ويؤكد حمايته  
ورعايته لى • ما كان أطيّب نورا ، وما كان أعظم سداجته !

وأما تتر داغستان الثلاثة ، فقد كانوا اخوة ، الكبيران منهم كهلان،  
والثالث شاب اسمه على ، لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، بل ان  
المرء حين يراه يقدّر أن عمره أقل من ذلك • كان يبيت الى جانبى • وقد  
اجتذبنى وجهه الذكى الصريح الطيب الساذج منذ البداية • وشكرت  
للقدر أنه وهب لى هذا الجار بدلاً من أن يرمينى الى جانب سجين آخر  
ان نفسه كلها تُقرأ على صفحة وجهه المفتوح • ان فى ابتسامته الوادعة  
الهادئة المطمئنة بساطة كبسطة الأطفال • وان فى عينيه الواسعتين السوداوين  
من الرقة والعذوبة والحنان ما كان يجعلنى أشعر بلذة كبيرة حين أراه،



فكان ذلك يخفف عنى ويسرّى عنى فى لحظات الحزن والهم والقلق والغم • لقد أمره أخوه الأكبر ( وله خمسة اخوة كان اثنان منهما فى مناجم سييريا ) أمره فى ذات يوم أن يحمل سيفه وأن يمتطى جواده وأن يتبعه • ان احترام الجليلين لاختوتهم الكبار يبلغ من القوة أن الفتى علياً لم يجزؤ أن يسأل أخاه عن الدافع الى هذه الرحلة ، ولعله لم تدر فى خلدّه أية فكرة عنها ؛ لا ولا رأى اخوته أن من الضرورى أن يطلعوه على شيء • هكذا مضى الاخوة الثلاثة يقطعون الطريق على قافلة تاجر أرمنى ترى استطاعوا أن يضلّوه ، فقتلوا التاجر ونهبوا بضاعته • وشاء سوء حظهم أن تكتشف فعلتهم وأن يفضح أمرهم ، فاعتقل الاخوة الستة ، وحكم عليهم ، وجلدوا ، ثم أرسلوا الى سجون الأشغال الشاقة فى سييريا • ولم تعد المحكمة الى تخفيف الحكم الا عن الفتى علي ، فحكم بالسجن مدة هى أقصر مدة : أربع سنين سجناً • وكان أخواه يحبانه كثيراً ، حتى يمكن أن يوصف حبهما له بأنه حب أبوى أكثر مما هو حب أخوى • وكان عزاءهم الوحيد فى المنفى • فكانا يبتسمان له دائماً ، رغم أنهما فى العادة عابسان مقطبان حزيران • فاذا تحدثا اليه - وكان لا يحدث ذلك الا نادراً لأنهما يعدانه طفلاً لا يمكن أن يفضيا اليه بشيء ذى بال - كان وجههما العابسان المكفهران يضيئان ، وأدركت أنهما لا يكلمانه الا كما يكلمّ طفل صغير ؛ حتى اذا أجابهما تبادلا نظرات سريعة وابتسما ابتسامة طيبة • وما كان له أن يتوجه اليهما بكلام من فرط ما يكن لهما من احترام • ولعمري لست أدري كيف استطاع هذا الفتى أن يحتفظ بقلبه الحنون الرقيق ، وبشرفه الفطرى البرىء ، وبمودته الصريحة السخية ، دون أن تفسد أخلاقه طوال هذه المدة التى قضاه فى سجن الأشغال الشاقة ••• ان ذلك لأمر لا تفسير له ولا تعليل ••• ورغم كل ما كان يتصف به من رقة وعذوبة ولين ، فقد كان قوى الارادة شديد

البأس في تحمل المكاره ، كما استطعت أن أتحقق من ذلك فيما بعد •  
وكان على عفة وخفر كالعذارى ، وكان كل فعل سيء او مستهتر أو معيب  
أو ظالم يلهب عينيه السوداوين استياءً واستنكاراً ، فيزيدهما ذلك جمالاً .  
وعلى أنه ليس من أولئك الذين يتهاونون في حق كرامتهم أو يسمحون  
لا أحد أن يهينهم أو يسيء اليهم ، فقد كان يتحاشى التماجر ويتجنب  
الشتائم ، ويعف عن السب واللعن ، ويحافظ على وقاره ومهابته وكرامته •  
وليت شعري مع من كان يمكن أن يشتجر ؟ لقد كان الجميع يحبونه  
ويلاطفونه ويدارونه ••• ولم يكن في أول الأمر معي الا مهذباً مؤدباً  
لطيفاً ، ولكننا وصلنا من ذلك الى أن أخذنا نتجادب أطراف الحديث في  
المساء • لقد استطاع خلال بضعة أشهر أن يحسن الكلام باللغة الروسية ،  
على حين أن أخويه لم يتوصلا يوماً الى اجادة الكلام بهذه اللغة • لقد  
رأيت فيه فتى خارق الذكاء من جهة ، وجمّ التواضع مرهف الشعور  
عاقلاً حكيماً من جهة أخرى • لقد كان الشاب على انساناً نادر المثال •  
وما زلت أعد لقاىي به حظاً من أجمل حظوظ حياتي • ان هناك أناساً  
يبلغون من جمال الطباع من تلقاء أنفسهم ، ويبلغ ماوهب لهم الله من مزايا  
عظيمة أن المرء لا يتصور أن يفسدوا في يوم من الأيام ••• فهو مطمئن  
عليهم كل الاطمئنان واثق منهم كل الثقة ، لذلك لم أكن أخشي على الفتى  
على من شيء ••• ترى أين هو الآن ؟

في ذات يوم ، بعد وصولي الى السجن بمدة طويلة ، كنت مستلقياً  
على مضجعي وكانت تهزني وتبث الاضطراب في نفسي خواطر شاقة  
أليمة • وكان عليّ الذي لا يكف عن العمل والنشاط ، لا يعمل في تلك  
اللحظة ، ولم يكن أوان النوم قد آن • كان الاخوة الثلاثة يحتفلون بعيد  
اسلامى ، فهم لذلك لا يعملون • ان علياً راقد الآن ، ممسك رأسه بيديه ،  
مسترسل في أحلامه • وها هو ذا يسألني فجأة :

- هه ! يبدو عليك أنك حزين جداً الآن ؟

نظرت اليه متعجباً • لقد بدا لي هذا السؤال من على غريباً • ذلك أن علياً لبقٌ دائماً ، يتحاشى أن يخرج أحداً ، ولكنني انعمت النظر اليه فلاحظت في وجهه حزناً شديداً وعذاباً عميقاً • لا شك أن هذا الألم انما أيقظته في نفسه الذكريات التي كانت تطوف بخياله • وأدركت أنه كان هو نفسه في تلك اللحظة يعاني كرباً شديداً وكمداً عظيماً • ذكرت له ذلك فتهدئ تنهداً عميقاً وابتسم ابتسامة كثيية • كنت أحب دائماً ابتسامته اللطيفة الودود : كان اذا ابتسم يفتر ثغره عن صفين من الاسنان يمكن أن يحسده عليهما أجمل مخلوق في العالم •

قلت له :

- لعلك كنت تتذكر يا علي كيف يحتفلون بهذا العيد في داغستان !  
لا شك أن الاحتفال بالعيد رائع هناك •••  
قال علي متحمساً وقد سطعت عيناه :

- نعم هو كذلك ولكن كيف عرفت انني كنت أحلم بهذا ؟  
- كيف لا أدرك ذلك يا علي ؟ أليس العيد هناك أجمل منه هنا ؟  
- أوه ! لماذا تقول لي هذا الكلام ؟  
- لا شك أن في بلادكم أزهاراً جميلة ، أليس كذلك يا علي ؟ ان بلادكم جنة !

- اسكت اسكت أرجوك •  
كان واضحاً أنه انفعل انفعالاً شديداً •  
قلت له :

- اسمع يا علي ، هل لك أخت ؟  
- نعم ولكن لماذا تسألني هذا السؤال ؟

- لا بد أنها بارعة الجمال اذا كانت تشبهك !

- لا مجال للمقارنة بيني وبينها • ليس فى داغستان كلها فتاة جميلة كجمالها • ما أجمل أختى ! أنا واثق أنك لم تر فتاة فى مثل حسنها • ولقد كانت أمى جميلة جداً كذلك •

- هل كانت أمك تحبك ؟

- ما هذا السؤال ؟ لعلها قد ماتت حزناً وكرهاً وكمداً • لقد كانت تحبى كثيراً • كنت أنا الأثير على نفسها • نعم ••• كانت تحبى أكثر من من أختى ، وأكثر من سائر اخوتى ••• لقد جاءت الىّ فى الحلم هذه الليلة وذرفت على رأسى دموعاً سخية •

قال علىّ ذلك وصمت ثم لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة ، لكنه أصبح منذ تلك اللحظة يسعى الى مصاحبتي ويحرص على التحدث معى رغم أنه لم يسمح لنفسه يوماً أن يكون هو البادئ فى الكلام ، وذلك من باب الأدب والاحترام فما كان أسعده حين أتحدث معه ! كان يتكلم كثيراً عن القفقاس ، وعن حياته الماضية ، وكان أخواه لا يمنعانه من الكلام معى بل أظن أن ذلك كان يسرهما فحين رأيا أننى أعطف علىّ علىّ وأحبه أصبحا أكثر تودداً الىّ وتقرباً منى •

وكثيراً ما كان علىّ يساعدنى فى الأعمال • وكان فى الثكنة يفعل كل ما يظن أنه يسرنى ويخفف عنى ويحمل بعض الغزاء الى قلبى ، ولم يكن فى عنايته بى والتفاتة الىّ لا شىء من عبودية ولا أمل فى منفعة ، بل عاطفة حارة ودود لا يخفيها قط • وكان علىّ يملك استعداداً خارقاً لتعلم الفنون الميكانيكية : لقد تعلم الخياطة وتعلم ثرقيع الأحذية ، حتى لقد ألمّ بفسن النجارة بعض الامام ••• ذلك ما كان يمكن تعلمه فى السجن ••• وكان أخواه يعتزان به •

قلت له ذات يوم :

- اسمع يا على : لماذا لا تتعلم القراءة والكتابة باللغة الروسية ؟ ان ذلك قد يفيدك كثيراً في سبيرييا في المستقبل •

- أتمنى ! ولكن من ذا الذي يعلمنى !

- ان من يعرفون القراءة والكتابة كثرة هنا • واذا شئت علمتك

أنا •

- أوه علمنى القراءة أرجوك •

بهذا هتف على وهو ينهض ويضم يديه احديهما الى الآخر وينظر الى نظرة توسل وتضرع •

وشرعنا نعمل فى مساء الغد • كان عندى ترجمة روسية للانجيل ، وهو الكتاب الوحيد الذى لم يكن محرماً فى السجن • فبواسطة هذا الكتاب وحده وبدون تعلم الألفباء أتقن على " القراءة فى غضون أسابيع وما انقضت ثلاثة أشهر حتى كان يفهم لغة الكتابة فهماً كاملاً لأنه كان يكتب على الدراسة بحماسة قوية ونشاط متأجج •

وفى ذات يوم قرأنا معاً موعظة الجبل كاملة ، فلاحظت أنه كان يقرأ بعض الآيات بنبرة نافذة ولهجة مؤثرة ، فسألته هل أعجبه ما قرأ فرمقنى بنظرة ناقبة واشتعل وجهه بحمرة مفاجئة •

قال :

- نعم ان عيسى نبي ينطق بلسان الله • ما أجمل هذا الكلام !

- ولكن قل لى : ما الذى أعجبك أكثر من غيره ؟

- الآية التى تقول : « اغفروا لأعدائكم ! أحبوا أعداءكم ! لاتسيئوا

الى أحد قط » • آه ما أجمل كلامه !

والتفت على" الى أخويه اللدين كانا يصغيان الى حديثنا وقال لهما  
بضع كلمات فى حرارة وحماسه ، وتحدث الاخوة الثلاثة طويلا فى جد  
واهتمام ، فكان أخواه يؤيدان كلامه بهز الراس فى بعض الاحيان ، ثم  
أكدوا لى وهما يتسلمان ابتسامه مهية لطيفة ، ابتسامه مسلمة ( ما أكثر  
ما أحب مهابة هذه الابتسامه ) أكدوا لى ان عيسى نبي عظيم وذكرنا انه حقق  
معجزات كبرى منها أنه خلق طائراً من طين ثم نفخ فى الطائر روحاً فطار  
الطائر • كانا مقتنعين بأنهما يحدثان لى سرورا عظيماً حين يمدحان عيسى .  
أما على فقد أسعده كثيراً ان يرى اخويه يؤيدان كلامى ويهبان لى ما كان  
يعده رضىً وارتياحاً فى نفسى •

ان النجاح الذى أصبته مع تلميذى فى تعليمه القراءة كان نجاحاً  
رائعاً حقاً • وقد اشترى على ورقاً واقلاماً وحبوراً ( اشترى ذلك من ماله  
لأنه لم يشأ ان أنفق انا هذه النفقة ) فما انقضى شهران الا وكان على قد  
تعلم الكتابة • ودهش الأخوان أشد الدهشة من هذا التقدم السريع الذى  
أحرزه على ، وشعرا بزهو ورضى وارتياح بغير حدود ، حتى أصبحت  
لا يعرفان كيف يعربان لى عن عظيم شكرهما وعميق امتنانهما ، حتى اذا  
كنا نعمل فى الورشة كانا يتنافسان فى مساعدتى ويشعران من ذلك بلذة  
كبيرة ، ناهيك عن على الذى كان يكن لى عاطفة لا تقل عمقاً عن عاطفته  
نحو أخويه • لن أنسى ما حيت اليوم الذى أطلق فيه سراحه • لقد  
قادنى يومئذ الى خارج التكنة فارتمى على عنقى وأجهش باكياً • لم يكن  
قد قبلنى قبل ذلك يوماً ولا بكى أمامى أبداً •

قال :

— لقد صنعت فى سبيلى أشياء كثيرة ، أشياء كثيرة جداً ، فلا أبى ولا  
أمى كانا خيراً منك فى معاملتى : لقد خلقت منى رجلاً ، فليبارك الله فىك ،  
ولن أنساك مدى الحياة ، مدى الحياة •••

تُرى أين هو الآن ؟ أين هو صديقي الطيب العزيز على ؟

وكان في تكتنا ، عدا الشراكسة ، عدد " من البولنديين يشكلون عصبة على حدة ، ولا يكاد يكون بينهم وبين سائر السجناء صلة . سبق أن قلت انهم بسبب تعصبهم وبسبب ما يضررونه من بفض للسجناء الروس ، كانوا مكروهين منبوذين . انهم أناس ذوو طبائع مضطربة معذبة مريضة . وكان عددهم ستة ، اثنان منهم متعلمان سأتحدث عنهما تفصيلاً فيما سيلي من هذه القصة ، ومن هذين انما استعرت بضعة كتب في الفترة الاخيرة من اقامتى بالسجن . لقد أحدث أول كتاب قرأته من هذه الكتب أثراً غريباً عميقاً في نفسى . . . . . وسأتحدث فيما بعد عن هذه الاحساسات التى أعدها عجيبة جداً ولكن القارىء سيجد شيئاً من العناء فى فهمها ، أنا من ذلك على يقين ، لأن هناك أشياء لا يستطيع المرء ان يقضى فيها ما لم يكابدها بنفسه . وحسبى أن أقول ان الحرمان من متع الفكر اشق على النفس من أقى الآلام الجسمية . ان من يرسل الى السجن من عامة الناس يجد نفسه فى مجتمعه ، بل لعله يجد نفسه فى مجتمع ارقى ، فلئن افتقد عندئذ الركن الذى ولد فيه ، والأسرة التى نشأ وترعرع بين أحضانها ، فان بيئته تظل هى نفسها . أما الرجل المثقف الذى حكم عليه القانون بالعقوبة نفسها التى يحكم بها على رجل من عامة الناس فانه يتألم ألماً لا يقاس به الألم الذى يعاينه ذلك الرجل . ان عليه أن يخفق جميع حاجاته وأن يقضى على جميع عاداته وأن يهبط الى مستوى أدنى لا يرضيه ، وأن يتعود استنشاق هواء آخر . انه أشبه بسمكة ألقيت على الرمل . فالعقوبة التى يتلقاها ، وهى تساوى بحكم القانون عقوبات جميع المجرمين ، نُحدث له فى كثير من الأحيان من الألم الممض والعذاب الكاوى عشرة أضعاف ما يعاينه من ذلك ابن الشعب . تلك حقيقة لا جدال فيها ، ولو اقتصر الكلام على العادات المادية التى ينبغى له أن يضحى بها .

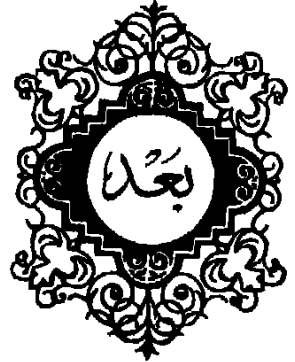
غير أن هؤلاء البولنديين كانوا يشكلون عصبه على حدة ، ويعيشون معاً ، ولا يحبون من بين جميع السجناء في ثكنتنا الا سجيناً يهودياً ، واذا كانوا يحبونه ، فلأنه كان يسليهم ويضحكهم ويسرى عنهم . وكان هذا اليهودى محبوباً على وجه العموم رغم أن جميع السجناء يسخرون منه ويتهكمون عليه . ولم يكن بيننا يهودى غيره . وما زلت لا أستطيع حتى الآن أن أتذكره دون أن أضحك . كنت كلما نظرت اليه تذكرت اليهودى يانكل الذى وصفه جوجول فى قصته تاراس بولبا والذى متى خلع ملابسه ليضاجع يهوديته فيما يشبه الخزانة ، كان أقرب ما يكون الى فرخ دجاجة . حقاً ان بين أشعيا فومتش وبين فرخ الدجاجة المتوف الريش من الشسبه ما بين قطرتى ماء . انه متقدم فى السن قليلاً ، فهو فى نحو الخمسين من عمره قصير ضعيف ، ماكر على غباوة عظيمة ، متبجح على جبن شديد . كان وجهه مليئاً بالفضون وكانت على جبينه وخديه ندبات الحرق التى نشأت عن وشمه . لم أستطع فى يومٍ من الأيام أن أفهم كيف أمكن أن يحتمل هذا الرجل ستين جلدة بالسوط بعد الحكم عليه بتهمة ارتكابه جريمة القتل . كان يحمل فى جيبه وصفة طيبة وصفها له يهودٌ آخرون بعد تنفيذ الوشم رأساً . وكان المفروض فى المرهم الذى تضمه هذه الوصفة أن يزيل الندبات فى أقل من أسبوعين ولكن اشعيا فومتش لم يجرؤ أن يستعمل هذا المرهم ، فهو ينتظر انقضاء العشرين عاماً على سجنه حتى يستعمل مرهمه الشافى بعد أن يستوطن فى المنطقة . كان يقول لى : « لن أستطيع أن أتزوج ( أتزوج ) ما لم أستعمل هذا المرهم ، ولا بد لى أن أتزوج قطعاً » . كنا صديقين . ان مزاجه الرائق لا ينضب له معين ، وان الحياة فى السجن لا تبدو له شاقة كثيراً ، وكانت مهنته الصياغة فما أكثر الطلبات التى ترد اليه ، اذ لم يكن فى مدينتنا صانع غيره . فبذلك كان ينجو من الأعمال الصعبة . وكما يليق بيهودى ، كان يقرض السجناء



بالرّبا فيجنى منهم فوائد طائلة ، وكان لا يقرضهم الا اذا اودعوه رهناً ، وكانت مدة القرض أسبوعاً لا تزيد . وقد وصل الى السجن قبل ما كان أروع دخوله المظفر الذي رواه لى أحد البولنديين . تلك حكاية طويلة سأقصها فيما بعد لأن لى عودة الى اشعيا فومتش .

أما السجناء الآخرون فكان منهم أولاً أربعة من المنشقين يتمون الى الملة التي ينتمى اليها العجوز القادم من ستارودوب ، ثم اثنان أو ثلاثة من روسيا الصغرى وهم أناس عابسو الوجه متجهمو المزاج ، ثم فتى مرهف الوجه دقيق الأنف في الثالثة والعشرين من عمره كان قد ارتكب ثمانى جرائم قتل ، ثم عصابة من مزيفى النقود كان أحد أفرادها مهرج ثكنتاء وأخيراً بضعة سجناء مكتئبة نفوسهم حزينة قلوبهم محلوقة رؤوسهم مشوهة وجوههم صامتون حاسدون ينظرون نظرة شزراء الى كل من يحيطون بهم ، وقد ظلوا ينظرون هذه النظرة ويحسدون هذا الحسد ويقطبون هذا التقطيب خلال سنين طويلة . هذا كله انما لمحتة لمحا فى ذلك المساء الحزين الكئيب ، مساء وصولى الى سجن الأشغال الشاقة وسط دخان كثيف وهواء موبوء وشتائم بذيئة وسباب مقذع واهانات مسمومة وضحكات ساخرة يصحبها صليل الأغلال وصريف القيود . استلقيت على ألواح الخشب العارية مسنداً رأسى الى وسادة صنعتها من رداى ( لم أكن قد ملكت مخدة بعد ) والتحفت معطفى . غير أننى بعد تلك المشاعر الأليمة فى ذلك النهار الأول لم أستطع أن أنام فوراً . ان حياتى الجديدة انما تبدأ الآن . وكان المستقبل يدخر لى أشياء كثيرة لم تكن فى حسابى ولا خطرت لى على بال . . . .

## الشهر الأول



وصولي بثلاثة أيام تلقيت الأمر بالمضي الى العمل •  
ان الاحساس الذي بقي لي عن ذلك اليوم ما يزال  
واضحاً جداً ، رغم أنه لا يشتمل على أى شيء  
خاص ، اذا نظرنا بعين الاعتبار الى أن وضعي كله  
غير عادى أصلاً • ولكنها الاحساسات الأولى : فكنت في تلك اللحظة  
أنظر الى كل شيء بكثير من حب الاطلاع وكثير من التعجب • لاشك أن  
تلك الأيام الثلاثة كانت أشق أيام سجنى • كنت أقول لنفسي : « انتهت  
أيام السفر • ها قد وصلت الى المعتقل الذي سأقيم فيه سنين طويلة • في  
هذا الركن يجب أن أعيش • اننى أدخل الى هذا المكان منقبض الصدر  
ملتاع النفس مفعماً شكاً وحذراً • » « ومن يدري ؟ لعلى سافارقه موجع  
القلب أسفاً عليه وحينئذ اليه ، حين أفارقه • » • هذا ما كنت أضيفه ،  
تدفعنى اليه تلك اللذة الخيثة التي تحض المرء على أن ينكأ جرحه ، كأنه  
يستطيب الآلام ويستعذب العذاب • ان المرء ليجد لذة حادة في بعض  
الأحيان حين يشعر بضخامة الشقاء الذي يعاينه ، وفداحة النازلة التي ألت  
به ؟ فحين كنت أتصور أننى قد أبارح هذا المكان ، حين أبارحه ، أسفاً  
حزيناً على فراقه ، كان ذلك نفسه يرعبنى ويملؤنى خوفاً • وأوجست منذ

تلك اللحظة أن «الانسان حيوان يتعود»... وأن هذا التعريف يصدق على الانسان الى درجة لا يصدقها العقل... على أن ذلك كله هو من المستقبل ، أما الحاضر الذى يحيط بى فلقد كان رهيباً ، وكان يناصبنى العدا... أو هذا ما بدا لى على الأقل...

ان ما كان يرشقنى به رفاقى السجناء من نظرات مستطلعة متوحشة ، وما كانوا يعاملون به هذا « النيل » السابق الذى يدخل الآن عضواً فى جماعتهم من معاملة قاسية تبلغ أحياناً حد البغض والكره ، ان هذا كله كان يعذبنى تعذيباً شديداً ، حتى صرت أتمنى أنا نفسى أن أمضى الى العمل ، بغية أن أعرف مدى شقائى دفعة واحدة ، وأن أعيش كما يعيش الآخرون ، وأن أسقط فى الهاوية معهم بأقصى سرعة . كانت تفوتنى أمور كثيرة ، وتستعصى على فهمى وقائع شتى : كنت لا أستطيع مثلاً أن أميز بين العداوة الشاملة التى يظهرونها لى ، وبين المودة والعاطفة التى يبديونها نحوى . على أن ما أحاطنى به بعض السجناء من تودد وبشاشة قد شد أزرى وبث الشجاعة فى نفسى وأنعش قلبى . كان أكثر هؤلاء تقرباً منى وتودداً الى وعظفاً على هو آكيم آكيمتش . وسرعان ما لاحظت أيضاً بضعة وجوه أخرى طيبة كريمة لطيفة محببة فى ذلك الجمهور الكئيب المبغض من السجناء الآخرين . أسرعت أقول لنفسى متأسياً : « ان فى كل مكان أشراراً ، ولكن الأشرار أنفسهم يشتملون على خير ! ومن يدرى ، فقد لا يكون هؤلاء الناس شراً من الآخرين الذين هم طلقاء أحرار . » قلت ذلك لنفسى وأنا أهز رأسى متحيراً ! ... ولم أكُن أدرى الى أية درجة كنت على حق ! ...

انظروا الى السجنين سوشيلوف مثلاً : اننى رجل لم أعرفه حق معرفته الا بعد مدة طويلة ، رغم أنه يجاورنى طوال الوقت تقريباً . اننى متى تكلمت عن الذين ليسوا شراً من الآخرين ، ينصرف ذهنى اليه على

غير ارادة منى • كان سوشيلوف يخدمنى ، كما يخدمنى سجين آخر اسمه أوزيب زكّاه لى آكيم اكميتش منذ دخولى السجن ، وتعهد ، لقاء كوبك فى الشهر ، بأن يطبخ لى غداءً خاصاً حين لا يرضينى الغداء الذى يقدمه السجن للسجناء عادة ، أو حين أكون قادراً على أن أطعم بمالى • كان أوزيب واحداً من الطباخين الاربعة الذين يختارهم السجناء بأنفسهم فى المطبخين • يجب أن أذكر هنا مستطرداً أن الطباخين يمكن أن يقبلوا هذه الوظيفة أو أن يرفضوها ، كما يمكن أن يتركوها متى حلا لهم أن يتركوها • كان الطباخون لا يذهبون الى العمل ، فمهمتهم تقتصر على خبز الخبز واعداد الحساء • وكان السجناء يطلقون عليهم لقب الطباخات ، لا احتقاراً لهم أو استخفافاً بهم ، فان أذكى السجناء واشرفهم هم الذين كانوا يُختارون لهذه المهمة ، وانما كان يطلق عليهم هذا اللقب من قبيل المزاح والدعابة • ولم يكن يُغضبهم هذا اللقب أبداً • ولقد ظل أوزيب يُنتخب «طباخة» عدة سنين ؛ فكان لا يترك هذه الوظيفة الا حين يلم به ضجر شديد ويستولى عليه سأم كبير ، أو حين يجد سيلاً الى القيام بعمل تهريب الخمرة الى الثكنة • وهو ، رغم أنه أرسل الى سجن الأشغال الشاقة بسبب التهريب ، فقد كان على جانب عظيم نادر المثال من العفة والاستقامة والشرف وكان الى ذلك جباناً جباناً رهيباً ، فهو يخشى جلد السياط فى كل ما يقبل عليه من أمر وما يهم به من عمل • وكان هادىء الطبع مسالماً لطيفاً فى معاملة جميع الناس ، لا يتشاجر مع أحد يوماً • ولكنه ما كان ليستطيع بحال من الأحوال أن يقاوم الاغراء الذى يدفعه الى القيام بأعمال تهريب الخمر ، رغم كل ما يتصف به من جبن ، لأنه يعشق التهريب عشقاً كبيراً • فكان يتعاطى تجارة الخمر كسائر الطباخين ••• ولكن تجارته كانت أضيق كثيراً من تجارة جازين ، لأنه لا يجرو أن

يجازف مراراً وكثيراً كما يجازف جازين • لقد كنت دائماً على صلة طيبة بأوزيب •

ليس يحتاج المرء الى أن يكون غنياً جداً حتى يعد لنفسه طعاماً خاصاً : لقد كنت أنفق على طعامي روبلاً واحداً في الشهر على وجه التقريب ؛ ذلك طبعاً عدا الخبز الذي كان السجن يزودنا به ؛ وكنت في بعض الاحيان اكل حساء الملفوف الذي يقدم للسجناء ، وذلك حين يستبد بي جوع شديد ، رغم الاشمتزاز الشديد الذي كان هذا الحساء يوقظه في نفسي • على أن هذا الاشمتزاز قد زال زوالاً تاماً بعد ذلك • كنت أشتري في العادة رطلاً من اللحم في اليوم ، فيكلفني ذلك كوبكين • ان الجنود المشوّهين الذين كانوا يراقبون داخل الثكنات يقبلون طائعين مختارين أن يذهبوا الى السوق كل يوم يشترون للسجناء ما هم في حاجة اليه • وكانوا لا يتقاضون على ذلك أى أجر ، اللهم الا أن ينفجهم أحد مكافأة يسيرة زهيدة من حين الى حين ••• كانوا يفعلون ذلك ضماناً لراحتهم نفسها وهدوئهم نفسه ، فلو رفضوا أن يقوموا بهذه المهمة لأصبحت حياتهم في السجن عذاباً متصلاً وجحيماً لا يُطاق • كانوا يشترون للسجناء تبغاً وشاياً ولحماً ، أى كل كل ما يريده السجناء عدا الخمرة ، ولم يكن أحد يطلب منهم ذلك على كل حال •••

ظل أوزيب عدة سنين يهيء لي شريحة من اللحم المقلي كل يوم بدون تغيير ••• أما كيف كان يستطيع طهيها فذلك سره • وأغرب ما في الأمر أنني لم أبادله كلمتين طوال تلك المدة : لقد حاولت أن أتكلم معه غير مرة • ولكنه كان عاجزاً عن عقد أى حديث مع أى انسان • فكان يكتفى بالابتسام ، وكان يقتصر من الجواب على « نعم » أو « لا » في كل ما يُلقى عليه من أسئلة • لقد كان شخصاً عجيباً هذا الرجل الذي يملك جسماً كجسم هرقل ، وعقلاً كعقل طفل في السابعة من عمره •

وكان سوشيلوف أيضاً فى عداد من يساعدونى • لم أندبه لذلك ،  
 ولا بحثت عنه ، وانما ارتبط بشخصى من تلقاء نفسه لا ادرى متى • وكان  
 العمل الاساسى الذى يقوم به من اجلى هو غسل ملابسى وتنظيفها • كان  
 يوجد لهذا الغرض حوض فى وسط الفناء يجتمع السجناء حوله فيغسلون  
 ملابسهم فى اجران تملكها الدولة • وقد استطاع سوشيلوف ان يقدم لى  
 طائفةً من الخدمات الصغيرة : كان يغلى الماء فى غلايه الشاى التى املكها ،  
 ويركض ذات اليمين وذات الشمال ينفذ شتى المهمات التى أعهد اليه بها ،  
 ويهيبى لى كل ما أنا فى حاجة اليه ، فيرقع صدرتى متى احتاجت الى  
 ترفيع ويدهن حذاءى بالشمع اربع مرات فى الشهر • كان ينهض بهذه  
 الاعباء كلها فى همة ونشاط وحماسة وانهماك شاعرا بما يقع على عاتقه  
 من واجبات • الخلاصة أنه ربط مصيره بمصيرى ، فكان يتدخل فى كل  
 شأن من شئونى ، ويهتم بكل امر من امورى • ما كان يخطر بباله مثلاً  
 أن يقول لى : « عندك هذا العدد من القمصان ••• سترتك ممزقة » ،  
 وانما كان يقول « عندنا هذا العدد من القمصان ••• سترتنا ممزقة ••••• »  
 لم يكن يرى شيئاً جميلاً غيرى ، بل أعتقد أننى أصبحت الغاية الوحيدة  
 لحياته كلها • ولما كان لا يجيد أية مهنة ، فانه كان لا يتلقى أى مالٍ غير  
 ما أعطيه أنا ، وهو نزر يسير طبعاً ••• ومع ذلك كان دائم الرضى مهما  
 يكن المبلغ الذى أعطيه اياه • ما كان لهذا الرجل أن يطيق الحياة دون أن  
 يخدم أحداً من الناس ، ولعله آثرنى على غيرى لأننى كنت أكثر لطفاً فى  
 معاملته ، وأكثر عدلاً وانصافاً فى مكافأته • انه واحد من أولئك الناس  
 الذين لا يمكن أن يفتنوا يوماً ، ولا يمكن أن يحسنوا تدبير أمورهم ؛  
 ولقد كان أحد أولئك الذين يستأجرهم المقامرون ليسهروا طول الليل فى  
 الدهليز ، ينصتون الى أية نأمة يمكن أن تدل على وصول الضابط الميجر ؛  
 وكانوا يتقاضون خمسة كوبكات أجراً على سهرهم ليلةً بكاملها • أما اذا

جرى تفتيش في الليل ، فانهم لا يتقاضون أى أجر • وكانت ظهورهم  
 هى التى تتحمل جزاء غفلتهم وسهوهم وقلة انتباههم • ان الشيء الذى  
 يميز هذا النوع من الناس هو انه لا شخصيه لهم البتة ، فى اى مكان  
 وفى أى زمان ، فهم دائماً فى المحل الثانى أو المحل الثالث • وذلك فطرة  
 فيهم • ان سوشيلوف انسان وديع مسكين اذا نظرت اليه رأيتَه مذعوراً  
 كان أحداً قد ضربه منذ لحظة ••• هكذا خلق • ومع هذا ما كان  
 ليخطر ببال احد فى ثكنتنا أن يمد اليه يديه بلطمه ••• كنت أشفق عليه  
 دائماً ، لا أدري لماذا ••• كنت لا استطيع ان انظر اليه دون أن أشعر  
 نحوه بشفقة عميقة • لماذا كنت أحمل له هذه الشفقة؟ ذلكم سؤال لا أدري  
 بم أجيب عليه • وكنت لا أكلمه ، لأنه لا يحسن الكلام ••• وما كان  
 أشد ارتياحه وانتعاشه حين أعهد اليه بعمل من الأعمال ، أو أكلفه بالرخص  
 الى أمرٍ من الأمور ! ••• كل ذلك فى سبيل أن يتحرر من الحديث •  
 وأصبحت على يقين من أنه يُسرُّ أكبر السرور متى أصدرت اليه أمراً من  
 الأوامر ••• انه ليس بالطويل ولا بالقصير ؛ ليس بالدميم ولا بالجميل ،  
 ليس بالغبي ولا بالذكى ؛ ليس بالعجوز ولا بالشاب ••• ان من الصعب  
 على المرء أن يصف هذا الانسان بأية صفة محدّدة معينة • وكان وجهه  
 مغطى قليلاً ببثور الجدرى ••• وكان أشقر الشعر ••• صفة واحدة  
 كانت تبدو لى بارزة فيه هى أنه اذا صدق ظنى ينتمى الى الفئة التى ينتمى  
 اليها سيروتكين ••• انه ينتمى الى هذه الفئة من ناحية أنه مشدوه مدهول  
 لا يشعر بالمسئولية • كان السجناء يسخرون منه ويتكلمون عليه فى بعض  
 الأحيان ، لأنه أجرى مقايضةً فى طريقه الى سيبيريا ، ولأن هذه المقايضة  
 كانت على قميص أحمر وروبل فضة • كانوا يضحكون من هذا المبلغ  
 الزهيد الذى باع به نفسه • والمقايضة تعنى أن يجرى تبادل فى الاسم بين  
 معتقلين اثنين ، أى أن يتحمل كل منهما عقوبة الآخر • قد يبدو لكم هذا

الأمر غريباً كل الغرابة ، ولكنه واقع لا مجال للشك فيه • كانت هذه العادات التي رسختها التقاليد ما تزال قائمة بين المعتقلين الذين صحبوني الى منفاى فى سيرريا • لقد رفضت أن أصدق وجود امر كهذا الأمر فى البداية ، ولكنه ثبت لى بعد ذلك فأيقنت منه •

واليكم الطريقة التى تتم بها هذه المياضة : قافلة من المحكوم عليهم تسير فى طريقها الى سيرريا • ان بين أفراد القافلة سجناء من كل فئة : فبعضهم محكوم بالأشغال الشاقة فى السجن ، وبعضهم محكوم بالعمل فى المناجم ، وبعضهم محكوم بالاحتجاز فى معسكر لا أكثر ••• وفى أثناء الطريق ، فى مكان ما ، فى مقاطعة برم مثلاً ، يعرب أحد المعتقلين عن رغبته فى المياضة على الحكم الصادر فى حقه • هذا رجل اسمه ميخائيلوف مثلاً محكوم بالأشغال الشاقة لجريمة كبرى • انه لا يطيق أن يتصور أن يبقى محروماً من الحرية سنين طويلة • ولما كان ماكرا واسع الحيلة ، فانه يعرف ماذا يجب عليه أن يعمل • فهذا هو يبحث فى القافلة عن رفيق بسيط ساذج غر طيب ، هادىء الطبع ••• محكوم بعقوبة أقل من عقوبته ••• محكوم مثلاً بالعمل فى المناجم أو بالأشغال الشاقة بضع سنين ، أو محكوم بالنفى وحده • وهذا هو يعثر على واحد اسمه سوشيلوف هو قن قديم لا يتعدى الحكم عليه احتجازه فى معسكر ••• لقد سار سوشيلوف على قدميه حتى الآن ألفاً وخمسمائة فرسخاً دون أن يكون فى جيئه كوبك واحد ، لسب بسيط هو أن رجلاً مثل سوشيلوف لا يمكن أن يكون له أى مال • انه الآن متعب مكدود مرهق مهدم القوى لأنه لا يملك من الطعام غير ما تقدمه الحكومة الى أفراد القافلة ولا يملك من الكساء غير الرداء الموحد الذى يرتديه السجناء • انه عاجز حتى عن الحصول على لقمة طيبة من حين الى حين ••• وهو يخدم جميع السجناء لقاء دريهمات قليلة بخسة ••• وهذا ميخائيلوف يبدأ معه حديثاً • وها هى أوامر



الصدقة تنعقد بين الرجلين •• ثم تأتي مرحلة أخرى •• ان ميخائيلوف يسكر الآن صديقه • ثم يسأله هل يريد أن يقايض ؟ ••• يقول له : « أنا اسمي ميخائيلوف ، وأنا محكوم بالأشغال الشاقة ، ولكنها ليست اشغالا شاقة لأنني ساكون فى قسم خاص ••• هى أشغال شاقة اذا شئت ، ولكنها ليست كغيرها ••• ففرقتى خاصة ، فلا بد أن تكون خيراً من غيرها ! » •

قبل الغاء الفرقة الخاصة كان كثير من الذين يعملون فى وظائف الحكومة ، حتى بمدينة سان بطرسبرج ، لا يتصورون وجود هذه الفرقة الخاصة ولا يخطر لهم وجودها ببال • كانت الفرقة الخاصة تقيم فى ركن منزوٍ جدا بمقاطعة من أبعد مقاطعات سيبيريا ، فيصعب على الناس ان يعلموا بوجودها • على أن عدد المحكومين من أفراد هذه الفرقة الخاصة ضئيل ( كان فى زمانى لا يتجاوز سبعين سجينا ) • وقد التقت فيما بعد بأناس خدموا فى سيبيريا ، وعرفوا تلك البلاد معرفة تامة ، ومع ذلك لم يكونوا قد سمعوا بوجود « فرقة خاصة » ••• وكل ما تنص عليه مجموعة القوانين فيما يتعلق بهذه الفرقة الخاصة لا يتجاوز ستة أسطر : « يتم انشاء فرقة خاصة فى سجن ••• للمجرمين الخطرين جداً ، بانتظار تنظيم أشغال شاقة أعنف ••• الخ » • والسجناء أنفسهم لا يعرفون شيئاً عن هذه الفرقة الخاصة : أهى مؤبدة أم مؤقتة ؟ الواقع أن مدة الاعتقال فى سجن الفرقة الخاصة ليست محددة ، وانما هى فترة تطول الى « حين تنظيم أشغال شاقة أعنف » ، أى تطول مدة لا تعرف نهايتها • فلا سوشيلوف ولا أحد من أفراد القافلة ولا ميخائيلوف نفسه ، لا أحد من هؤلاء كان فى وسعه أن يحزر معنى هاتين الكلمتين • غير أن ميخائيلوف يتصور كيف يمكن أن تكون طبيعة هذه الفرقة ، يتصور ذلك على أساس خطورة الجريمة التى عوقب عليها بثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جلدة بالسوط • لا شك أنهم لا يرسلونه الآن الى مكان يعيش فيه حياة رضية ناعمة •••

وكان على سوشيلوف أن يستوطن ، فهل يمكن أن يرغب ميخائيلوف فيما هو خير من هذا • « الا تريد أن تقايض ؟ » ••• هكذا يسأل ميخائيلوف صاحبه سوشيلوف • وسوشيلوف سكران ، وهو انسان طيب القلب طاهر السريرة تفيض نفسه شكرا وعرفانا وامتنانا لرفيقه الذي يسقيه الخمره ويغدق عليه ، فليس في وسعه أن يرفض • ثم انه قد سمع من سجناء آخرين أن المقايضة ممكنة ، وأن هناك سجناء آخرين قد قايضوا ، فلا عجب أن يقايض هو أيضاً ، وليس في هذا العرض الذي يعرضه عليه رفيقه شيء خارق للعادة خارج عن المألوف • وهكذا يتم الاتفاق بين الرجلين على المقايضة • فيشترى ميخائيلوف الماكر اسم رفيقه بقميص أحمر وروبل فضة يستلمهما منه سوشيلوف بحضور شهود يشهدون الصفقة • ويصحو سوشيلوف من سكرته في الغداة ، ولكن صاحبه يُسكره من جديد ، فلا يستطيع اذن أن يرفض • لقد شرب بالروبل خمره ؛ وما هي الا وهلة يسيرة اذا هو شرب خمره بالقميص الأحمر أيضاً • ويقول له ميخائيلوف : « اذا كنت تريد العدول عن الصفقة والنكول عما تم الاتفاق بيننا عليه ، فأعد الى المال الذي أعطيتك اياه • • » • ولكن من أين يمكن أن يحصل سوشيلوف على روبل فضة • واذا هو لم يردّ الروبل ، فان أفراد القافلة سيجبرونه على ذلك • ان السجناء أناس لا يحبون أن يحنث المرء بعهد قطعه على نفسه • فلا بد أن يقبى سوشيلوف بوعدة ، وويل له اذا لم يفعل ••• فان مصيره القتل ••• أو ان مصيره الاذلال والتعذيب في أقل تقدير •••

ذلك أنه يكفي أن تتسامح الجماعة مرة واحدة في أمر النكول عن المقايضة التي يكون قد تم الاتفاق عليها ، حتى تزول صفقة تبادل الأسماء هذه زوالاً تاماً ••• فاذا كان في وسع المرء أن يتراجع عن تنفيذ العهد الذي قطعه على نفسه، وأن يفسخ الصفقة التي تم ابرامها بينه وبين صاحبه،

بعد أن قبض المبلغ المتفق عليه ، فمن ذا الذى يمكن أن يفنى بعد ذلك بعهد قطعه وشرط ارتصاه ؟ ان القضية هي فى نظر الجماعة قضية حياة او موت ، انها مسألة تهمهم جميعا ، فلا يمكن ان يتهاونوا فيها ولا ان يتسامحوا ؛ ويدرك سوشيلوف اخيرا انه لا يستطيع التراجع او التملص ، ويدرك انه لا شىء يمكن ان ينقذه مما تورط فيه ، لذلك يدعى لما يراد منه ، ويرضخ شاء ام لم يشا . وعندئذ يذاع امر الصفقة فى القافلة كلها ، فاذا كان يخشى أن يشى بالقضية أحد ، أعطيت رشوة لمن يظن فيهم أنهم قد يشون . . . . . وهؤلاء لا يهمهم الامر فى شىء . . . . . فسيان عندهم ان يكون ميخائيلوف او سوشيلوف هو الذاهب الى الفرقة الخاصة . لقد شربوا خمرة ودفعت لهم رشوات فلذلك يبقى السر مكتوماً لا يعلم به أحد . وفى المرحلة التالية يجرى التفقد فاذا نودى على ميخائيلوف أجاب سوشيلوف : حاضر ! واذا نودى على سوشيلوف أجاب ميخائيلوف : حاضر ! . . . . . وتمضى القافلة ولا يعود يتحدث أحد فى الامر من قريب ولا من بعيد ؛ حتى اذا وصلت القافلة الى توبولسك تم فصل السجناء فيمضى ميخائيلوف يستوطن البلاد ويقاد سوشيلوف الى الفرقة الخاصة تحت حراسة مضاعفة ، ويستحيل عندئذ على سوشيلوف ان يطالب بشىء أو أن يحتج على شىء ، لأنه لا يملك برهانا . ولو طالب واحتج فسيطول أمر القضية سنين عدة ولن يجنى من شكواه شيئاً فلا شهود يشهدون على صحته ما يقول ، اذ لا يعرف أحد أين هم الآن ، وهبهم وجدوا فلن يقولوا شيئاً ولن يشهدوا بشىء بل سيلوذون بالصمت . اليكم اذن كيف أرسل سوشيلوف الى القسم الخاص لقاء تناوله روبلا فضة وقميصاً أحمر . كان السجناء يستخرون منه ويستهنئون به لا لأنه أجرى تلك المقايضة ، رغم أنهم على وجه العموم يحتقرون أولئك البلهاء الذين ارتكبوا حماقة استبدال عمل شاق بعمل سهل ، بل لأنه لم يقبض ثمن تلك الصفقة

الا قميصاً أحمر وروبلاً فضة وذلك مبلغ نزر يسير تافه ، فانما يقبل المرء عادةً أن يقايض على مبالغ ضخمة ( ضخمة بالقياس الى موارد السجناء ) حتى لقد يتقاضى بضع عشرات من روبلات • على أن سوشيلوف كان يبلغ من الثلاثى والتفاهة وانعدام الشخصية أنه لا سبيل الى التهكم عليه ولا حاجة الى الهزاء به •

لقد عشنا معاً أنا وهو ردحاً طويلاً من الزمن ، فتعدت عليه وتعلق بي • ومع ذلك فانه جاء يسألنى بعض المال فى ذات يوم ، ولم يكن قد نفذ أوامرى ، فما كان أشد قسوتى حين قلت له : « انك تعرف كيف تطلب مالاً ولكنك لا تفعل ما تؤمر به » • آه ! اننى لم أغفر لنفسى يوماً فعلتى تلك • وقد صمت سوشيلوف عندئذ ، وأسرع ينفذ أوامرى طائماً راضحاً ، ولكنه أصبح حزيناً جداً على حين فجأة • انقضى يومان لم أستطع أن أصدق أن يتأثر سوشيلوف هذا التأثير كله مما قلته له • وكنت أعلم أن سجيناً اسمه فاسيليف كان يطالبه ملحاً برد دين صغير له عليه ، ولعل سوشيلوف كان خالى الوفاض لا يملك قرشا واحداً ولا يجروء أن يطلب منى شيئاً ، فناديته وقلت له : « اسمع يا سوشيلوف ! أعتقد أنك أردت أن تطلب منى بعض المال لسداد دين انطوان فاسيليف عليك ، فإليك هذا المال ! » كنت جالسا على مضجعى ولبث سوشيلوف واقفاً أمامى مدهوشاً أشد الدهشة من أننى أعرض عليه المال بنفسى ، وأننى تذكرت وضعه الحرج وحالته الشائكة ، لا سيما وأنه كان فى الآونة الأخيرة قد طلب منى فى رأيه سلفاً كثيرة فهو لا يجروء أن يأمل أن أنقعه سلفة جديدة • نظر سوشيلوف الى الورقة النقدية التى مددتها اليه ، ونظر الى ثم استدار فجأة وخرج • أدهشنى ذلك غاية الدهشة ، ونخرجت أجرى

وراءه الى أن وجدته خلف الثكنات • كان واقفاً مسنداً وجهه الى السور  
متكئاً بيديه على الأوتاد •

سألته :

— ما بك يا سوشيلوف ؟

فلم يجبني • وما كان أشد دهشتي حين لاحظت أنه يهم أن يبكي •  
قال بصوت مختلج وهو يحاول أن لا ينظر الى :  
—

انت •• تظن •• يا •• الكسندر •• بتروفتش •• أنني أقوم  
بخدمته •• فى سبيل •• المال •• أما أنا •• فأنى •••

قال ذلك واستدار من جديد وهوى بجبينه على السور وطفق يبكي  
منتحباً • تلك أول مرة فى السجن أرى فيها رجلاً يبكي ، فأخذت  
أواسيه وأعزيه ، وبذلت فى سبيل ذلك عناءً كبيراً • صار بعدئذٍ يخدمنى  
بمزيد من الحماسة والهمة والنشاط ، وأصبح « يرصد » حركاتى  
وسكناتى ويدارينى أشد المداراة ، ولكننى استطعت أن أدرك من بعض  
الامارات التى لا تكاد تلاحظ ومن بعض العلامات التى لا تكاد ترى أن  
قلبه لن يغير لى فى يوم من الأيام أننى نهرتة وزجرته • على حين أن  
آخرين كانوا يضحكون عليه ويعاكسونه ويناكذونه كلما سنحت الفرصة ،  
بل ويهينونه ويشتمونه فلا يفتضب ولا يتأثر بل تظل صلواته بهم طيبة •  
نعم ان من المستحيل أن يعرف المرء انساناً معرفة صحيحة حتى بعد أن  
يعاشره سنين طويلة •

ذلكم هو السبب فى أن السجن لم يكن له فى نظرى فى أول الأمر  
الدلالة التى ستكون له بعد ذلك • ذلكم هو السبب فى أننى رغم شدة  
اتباهى لم أستطع أن أدرك كثيراً من الوقائع التى فقأت عيني من بعد •

ان الذين لفتوا نظري أول الامر انما كانوا هم الاشخاص البارزين •  
 لكن نظرتي كانت خاطئة • انهم لم يخلفوا في نفسى الا اترا ثقيلاً  
 حزينا مؤسماً • ومما ساهم خاصة في وصولي الى هذه النتيجة ، لغائي مع  
 ا . . . ف وهو سجين وصل الى السجن قبل وقد ادهشني في الايام الاولى  
 ادهاشاً مؤلماً غاية الالم • لقد سمم بداية اقامتي في السجن وفاقم مزيدا من  
 المفاقمة الآلام الروحية القاسية الرهيبة التي كنت أعانيها • انه اقدر مشال  
 للخصه والدناءة والحقارة التي يمكن أن ينحدر اليها انسان ماتت فيه كل  
 عاطفة من عواطف الشرف دون مقاومة أو ندامة • كان هذا الشاب وهو  
 نيل سابق (سبق أن تحدثت عنه) ينقل الى الضابط الميجر كل ما كان  
 يجري في الثكنات ، لأنه كان على صلة بخادمه فدكا واليكم قصته : لقد  
 وصل الى بطرسبرج قبل اتمام دراسته بعد مشاجرة قامت بينه وبين أبويه  
 الذين أصابهما الذعر والرعب من اندفاعه في أنواع الفجور والعهر  
 والدعارة • ومن أجل أن يحصل على المال لم يتورع عن ارتكاب وشاية  
 كاذبة • لقد قرر أن يبيع دم عشرة رجال في سبيل أن يرضى ظمأه الذي  
 لا يشبع الى الملمات البهيمية الحقيرة الدنيئة ، وبلغ من نهمه في التمتع  
 بهذه الملمات القذرة ، وبلغ من فرط انحداره الى حضيض الفساد في الحانات  
 والمواخير ببطرسبرج أنه لم يتردد عن التورط في قضية كان يعرف  
 ما تشتمل عليه من طيش وجنون لأن الذكاء لم يكن يعوزه فحكم عليه  
 بالنفى الى سيبيريا وبالاقتال في سجن الأشغال الشاقة • تلك كانت بداية  
 حياته • وقد يتوهم المرء أن هذه الضربة الرهيبة التي أصابته كان لا بد أن  
 تهزّه ، وأن توقظ في نفسه شيئاً من المقاومة ، وأن تحدث له أزمة ،  
 ولكنه ارتضى مصيره الجديد غير عابئ ولا مكترث ، حتى أنه لم يشعر  
 بشيء من ذعر أو رعب • وكل ما كان يخيفه هو أنه سيضطر الى العمل  
 والى هجر فسقه ومجونه الى الأبد • فلما أصبح يسمى سجيناً لم يزد

هذا الاسم الاّ امعاناً في المزيد من أنواع الحقارات والدناعات الكريهة  
المقيبة ، فكان يقول : « أنا الآن سجين محكوم بالاشغال الشاقة فلا جناح  
على اذا انعمت فيما أحب الانغماس فيه على ما يشاء لى هواى بلا خجل  
ولا حياء » . كذلك كان ينظر الى وضعه . اتنى أتذكر هذا الانسان المقزز  
كما اتذكر ظاهرة شاذة من الظاهرات الخارقة العجيبة . لقد عشت عدة  
سنين بين قتلة سفاكين وعهرة ماجنين واوباش واوغاد ، ولكننى لم اصادف  
فى حياتى كلها حالة تمثل الخسة الاخلاقية والفساد المتعمد والحقارة  
الوقحة تمثيلاً يبلغ هذا المبلغ من الكمال . كان بيننا شاب من اصل نبيل  
قتل أباه ( سبق أن تحدثت عنه ) ولكننى استطعت أن أفتتح من نواح ليرة  
وسمات شتى أن هذا الشاب كان أكرم نفسا وأكثر انسانية من صاحبنا  
آ . . . ف . اتنى طوال مدة اقامتى فى السجن لم ار فى آ . . . ف شيئاً  
آخر غير كتلة من لحم لها أسنان ومعدة ، شرهة الى أوسخ الملذات  
الحيوانية ، نهمه الى أقدر المتع الوحشية التى لا يتورع صاحبها عن اغتيال  
أى انسان فى سبيل الحصول عليها؛ ولست فيما أقول بالمبالغ قط، فقد عرفت  
فى آ . . . ف نموذجاً من أتم نماذج الحيوانية التى لا يردعها مبدأ ولا  
تنظمها قاعدة ولا تزعمها أخلاق . ولشد ما كانت ابتسامته الساخرة أبداً ،  
الهائثة دائماً ، تثير فى نفسى الاشمئزاز والتقزز ! انه مخلوق عجيب  
مشوه ! انه فى روحه مثل كازيمودو فى جسمه ! ولقد كان ذكياً ماكرأ  
وسيماً ، يملك بعض ثقافة ، وينعم ببعض كفاءات . . . لا ! لا ! ألا ان  
الحرائق والأوبئة والمجاعات وسائر الكوارث والنوازل أفضل من وجود  
انسان كهذا الانسان فى المجتمع . لقد سبق أن قلت ان التجسس  
والوشايات رائجة فى السجن ، كثرة طبيعية للانهيال الروحى والخسة  
الأخلاقية لا يستاء منها السجناء أى استياء . بالعكس . . . لقد كانوا على  
صلوات طيبة بصاحبنا آ . . . ف ؛ وكانوا يتوددون اليه ويتقربون منه

ويلاطفونه ويدارونه أكثر مما يفعلون ذلك معنا • وكان صاحبنا الضابط الميجر السكير يحسن معاملته ، فكان ذلك يسبغ عليه شيئاً من مهابة في نظر السجناء ، بل كان يهب له شيئاً من قيمة • وقد زعم للميجر فيما زعم انه رسّام قادر على تصوير وجوه ( كما اوهم السجناء بانه كان ضابطاً برتبة ملازم في حرس القيصر ) فأعفاه الميجر من الذهاب الى الأشغال الشاقة ، واستدعاه مخفورا الى منزله ليتيح له اعمال مواهبه الفنية برسم صورة له • حتى اذا استقر به المقام في منزل الميجر انعقدت بينه وبين فدكا الخادم أوامر الصداقة ، وكان للخادم تأثير كبير في مولاه وسلطان عظيم عليه ، وكان له تبعاً لذلك تأثير " وسلطان على جملة السجناء • فكان آ • • • ف يكتب تقارير عنا ، بتكليف من الميجر الذي كان اذا سكر لا يتورع عن صفعه وشتمه ، ووصفه بأنه جاسوس وانه واش • بل كان يتفق في كثير من الأحيان ، بعد أن يصفعه ويشتمه ، أن يجلس على كرسي ، فيطلب اليه متابعة عمله في رسم صورته • فرغم ان الضابط الميجر كان يعده رسّاماً من الطراز الاول يشبه أن يكون من مستوى برولوف \* ( وكان قد سمع عن هذا الرسّام الشهير برولوف ) فقد كان يحسب أن من حقه عليه أن يصفعه ، قائلاً له بينه وبين نفسه : « مهما تكن رسّاماً ، فأنت في السجن ، وأنا أظن رئيسك أفضل بك ما يحلولى أن أفعل » • حتى لقد كان يأمره في بعض الأحيان أن يخلع له نعليه ، أو أن يأتيه بالوعاء الذي يبول فيه ليلاً • • • واحتاج الضابط الى وقت طويل حتى يدرك أن الرجل لا يملك أية موهبة • فقد ظل الرسام يعمل فيها قرابة السنة ، فلاحظ الضابط أخيراً أن الرجل قد ضحك عليه ، فكلما تقدم العمل في رسم الصورة ، كانت الصورة تزداد بعداً عن الشبه بصاحبها • • وزعل الضابط ، فضرب الرسّام ، وطرده وأرسله الى الأشغال الشاقة • • • وكان طبيعياً أن يستاء آ • • • ف : انه يأسف الآن على انقضاء أيام الفراغ



والكسل ، وعلى الحرمان من الهدايا الصغيرة ، وعلى الابتعاد عن اصناف الحلوى النى كانت تختلس من على مائدة الضابط اختلاسا، وعلى الانفصال عن فدكا ، وعلى هجر الطيبات التى كانا ينعمان بها كلاهما فى مطبخ الميجر . . . .

وحين فقد آ . . . . ف حظوة الضابط ، كف الضابط عن اضهاد م . . . . الذى كان آ . . . . ف يحرّضه عليه للسبب التالى : حين وصل آ . . . . الى السجن كان م . . . . يعانى حزنا شديدا ويأسا قاتلا . . . . كان لا يشعر بوجود أية صلة تربطه بهؤلاء السجناء ، وكان ينظر اليهم باحتقار واشمئزاز . انه لم يعرف كيف يجد فيهم ما يمكن ان يحمل بعض الهدوء الى قلبه ، وما يمكن أن يعزّيه ويسرّى عنه ويخفف بلواه . كان يكرههم بدلا من أن يحاول معرفتهم وفهمهم ، وكانوا من جهتهم يبادلونه كرها بكره . كان وضعه حرجاً رهيباً . وكان م . . . . لا يعرف السبب الذى سيق من أجله آ . . . . ف الى سجن الاشغال الشاقة . واذ أدرك آ . . . . ف طبيعة الرجل ، تقرّب منه ، وأكد له فى البداية أنه لم يحكم بالأشغال بسبب وشاية كاذبة ، بل بسبب جرم كالجرم الذى أدى الى الحكم على م . . . . فما كان أشد سعادة م . . . . بأن يعثر أخيراً بين هؤلاء السجناء على رفيق من رفاق المحنة والشقاء ! . . . . ولاعتقاده بأن صاحبه يعانى ولا شك آلاماً روحية كبيرة ، فقد أسرع اليه محاولاً أن يواسيه ، حتى لقد أعطاه بعض المال ، وجعله يتناول طعاماً خاصاً غير طعام السجناء ، وأثر كه فى جميع أشياءه . . . . غير أن آ . . . . ف الذى تفوق حقارته كل حد ، وتجاوز دناءته كل وصف قد أخذ يكره صاحبه م . . . . بسبب هذا الكرم نفسه ، وبسبب هذا السخاء الذى أغدقه عليه . . . . فلم يجد خيراً من أن ينقل الى الميجر فى الوقت المناسب كل ما أسر به اليه صاحبه م . . . . عن الضابط الميجر وعن السجن أثناء الأحاديث التى جرت بينهما . . . . فكره الضابط

صاحبنا م . . . وأضر له الحقد ، ولولا وجود أمر السجن اذن لمضى بهذا الحقد الى أقصى حد ، فاجهز على الرجل . . . وبعد ذلك ، حين اكتشف م . . . حقايرة آ . . . ف لم يشعر آ . . . ف باى نوع من انواع التحرج ، حتى لقد صار يحرص على ان يلقى رفيقه ليرمقه بنظرة شزراء ، وليتسم له ابتسامة صفراء تعبر عن جميع معاني الشماته والتشفي والوقاحة والحقد . . . وكان ذلك يحمل الى قلبه الرضى والسرور . وقد لفت م . . . انتباهى الى هذا غير مرة . وقد فرّ هذا الانسان الحقير بعد ذلك من السجن فى صحبة جندي من جنود الحراسة ، ولكننى ساقص حكاية فراره هذه فى الوقت المناسب والموضع المناسب . . . أما الآن فأحب أن اذكر أن هذا الرجل قد أخذ يحوم حولى فى أول الامر ، ظانا انى لا أعرف قصته . وأعود فأقول انه سمّم حياتى وأفسد على أوائل أيامى فى السجن ، حتى هويت الى الحضيض من الحزن والكمد والكرب واليأس . لقد أرعبتنى هذه البيئة الحقيرة الجبانة التى ألقيت اليها ، وتصورت أن كل ما فى هذه البيئة دنيء هذه الدناءة نفسها ، فاسد هذا الفساد نفسه ، ولكننى أخطأت الظن حين خيل الىّ أن جميع من فى السجن يشبهون م . . .

فى تلك الأيام الثلاثة الأولى كنت لا أزيد على أن أطوّف فى السجن حين لا أكون راقداً على مضجعى الخشبي . وقد عهدت الى واحد من السجناء كنت واثقاً منه ( لأن آكيم آكيتمش زكاه لى ) عهدت اليه بالقماش الذى سلمتنى اياه ادارة السجن ليصنع لى منه بضعة قمصان . وعملت بنصيحة آكيم آكيتمش أيضاً ، فهيأت لنفسى فراشاً يطوى . انه فراش من لباد مغطى بقماش ، رقيق رقة فطيرة ، خشن كل الخشونة على من لم يألف مثله ولا اعتاده . وتعهد آكيم كيتمش بأن يمدنى بجميع الأمتعة التى لا بد منها ، حتى لقد صنع لى

يديه لحافا من قطع بالية من الجوخ الذى توزعه ادارة السجن على  
 السجناء ، قطع اختارها وقصها من السراويل والسترات التى استغنى  
 عنها أصحابها من فرط ما بلغت من الرثاثة ، وقد اشتريتها من عدد من  
 السجناء • ان الامتعة التى توزعها الدولة على السجناء تصبح ملك هؤلاء  
 السجناء متى انقضت على ارتدائها المدة التى يحددها نظام السجن ، فما  
 يلبث السجناء أن يبيعوها ، لأن لباساً من الألبسة تظل له قيمة مهما بلغ  
 من الاهتراء والبلى • وقد أدهشنى ذلك كثيرا ، ولا سيما فى البداية ،  
 فى أوائل اتصالى واحتكاكى بهذا العالم • فلئن صرت بعد ذلك واحداً  
 من هؤلاء الناس ، وأصبحت جزءاً من هذا العالم ، وغدوت سجيناً  
 كسائر السجناء ، فاصطبغت عادتى وأفكارى بعباداتهم وأفكارهم من  
 الخارج ، فان ذلك كله لم يبلغ أعماقى ، ولا نفذ الى قرارة نفسى • لقد  
 دُهِشت وتحيّرت ، كأنتى لم أسمع بهذه الأمور فى يوم من الأيام ، ولا  
 تصورت وجود مثلها فى لحظة من اللحظات • وعلى أننى كنت أعرف  
 ما سوف آراه فى السجن بعد أن سمعت ما سمعت عنه قبل وصولى اليه ،  
 فقد أحدث الواقع فى نفسى من الأثر ما لم يحدثه السماع • هل كان فى  
 وسعى أن أتصور مثلاً أن خرقاً بالية رثة خلقة ممزقة يمكن أن تبقى  
 لها قيمة ؟ ومع ذلك فقد كان لحافى مصنوعاً كله من مثل هذه الخرق !  
 ان من الصعب علىّ أن أصف نوع الجوخ المستعمل ثياباً للسجناء : انه  
 يشبه الجوخ الرمادى السميك الذى يُصنع للجنود ، ولكنه ما ان يلبس  
 زمناً قصيراً حتى تنسل خيوطه ويتمزق ويتقطع • ان على الرداء الموحد  
 أن يُلبس عاماً كاملاً ، ولكن الرداء لم يكن يدوم أبداً كل هذا  
 الزمان ، فان السجن يعمل ، ويحمل أثقالاً باهظة ، فسرعان ما يهترىء  
 القماش فى هذه المهنة ويتمزق • وكان على المعاطف أن تلبس ثلاث  
 سنين ، فهى خلال هذه السنين الثلاث تُتخذ ملابس وأغطية وألحفة

ومخدرات ووسائل ، ولكنها متينة ، ومع ذلك لم يكن نادراً أن تراها في نهاية السنة الثالثة مرقعة بقماش عادي . ورغم أنها تهترىء أخيراً ، فإن أصحابها يجدون من يشتريها منهم ، بسعر أربعين كوبكا للقطعة الواحدة ، فإذا كانت ما تزال محافظة على شيء من جدتها ارتفع السعر الى ستين ، وربما الى سبعين كوبكاً .

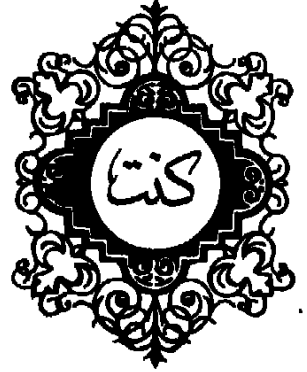
سبق أن قلت ان للمال سلطاناً أعلى في حياة السجن . وفي وسعي أن أؤكد جازماً أن السجين الذي يملك بعض المال يتألم أقل عشر مرات مما يتألم السجين الذي لا يملك شيئاً . ان رؤساءنا يقولون : « ما دامت الدولة تؤمن للسجين كل حاجاته ، فما شأنه وشأن المال ؟ » . كذلك يفكر رؤساءنا . ومع ذلك فأننى أعود فأقول : لو حُرم السجناء من القدرة على امتلاك شيء يخصهم ويكون لهم ، لفقدوا عقولهم حقاً ، او لمتوا كالذباب ، أو لارتكبوا جرائم لا نظير لها ولا سمع بمثلها أحد . . . . بعضهم ضجرأ وساماً ، وبعضهم حزناً وشجناً ، وبعضهم بغية أن يعاقبوا مزيداً من المعاقبة « فتبديل حالهم ويتغير وضعهم » على حد تعبيرهم . ولئن كان السجين الذي كسب بضغ كوبكات بالعرق الدامي يتصبب من جسمه وبمخاطرات ومجازفات قام بها ليحصل على هذه الدريهمات القليلة ، لئن كان هذا السجين ينفق بعد ذلك ما جناه يمناً ويسرة بغباء كغباء الأطفال ، فان ذلك لا يعنى أبداً أنه لا يدرك قيمة المال ، كما يمكن أن تتوهم لأول وهلة . ان السجين شره الى المال ، شره اليه شراهة تفقده عقله وصوابه . . . . ولئن كان يتلفه بعد ذلك ويبذره ، فمن أجل أن يحصل على ما يعده خيراً من المال . . . . وما هو الشيء الذي يعده السجين خيراً من المال ، ويضعه فوق المال قيمة وقدراً؟ انه الحرية . . . . أو انه حرية موهومة . . . . انه حلم حرية . . . . ان جميع السجناء أناس حاملون . . . . وسأتحدث عن هذا تفصيلاً في حينه . أما

الآن فحسبى أن أقول اننى سمعت سجناء محكومين بالاعتقال فى سجن  
الاشغال الشاقة عشرين عاما يقولون لى وقد لاح الهدوء فى وجوههم :  
« حين تنتهى مدة سجنى ، ان شاء الله ، فعندئذ سوف . . . » ان لقب  
السجين وحده يعنى انسانا محروماً من حرية الارادة . فاذا انفق  
هذا الانسان ماله ، كان يتصرف على ما يشاء له هواه ، كان يتصرف على  
ما تشاء له ارادته ، كان يتصرف حراً . . . انه رغم الوشم والاعلال ،  
رغم السور الذى يخفى العالم الحر من نظره ويحبسه فى قفص كما  
يجبس حيوان كاسر ، انه رغم ذلك يستطيع ان يحصل على خمرة ، ان  
يستمتع بموس ، بل وان يرشسو فى بعض الاحيان ( لا فى جميع  
الاحيان ) مراقبه من مشوهى الجنود وحتى من ضباط الصف ، ليغضوا  
الطرف عن مخالفاته للنظام . . . بل انه ليستطيع أيضاً - وذلك مايعشقه  
عشقا - أن يتبجح أمامهم ، أى ان يبرهن لرفاقه وأن يبرهن لنفسه  
كذلك ، الى حين ، أنه يتمتع بحرية هى أكبر من الحرية التى يتمتع  
بها فى الواقع . ان السجين فى حاجة الى أن يتوهم وأن يوهم أن له  
حرية وشأننا أكبر كثيراً مما يُظن ، فهو مباح له أن يتسلى ، وأن  
يصخب ويعربد ، وأن يؤذى الناس وأن يسىء اليهم حتى ليدخلهم تحت  
الأرض اذا شاء ! ان المسكين يريد أن يقتنع بأمور يعرف أنها مستحيلة :  
وذلكم هو السبب فى أن السجناء يجبنون أن يتباهوا وأن يتفاخروا ،  
ويبالغون فى تقدير شخصياتهم التعيسة مبالغة ساذجة وهمية مضحكة . .  
ثم انهم حين يتلفون مالهم ويبذرونه ، يجازفون بشيء من الأشياء ، وذلك  
عندهم مظهر حياة وحرية ، وهو عندهم خير مايرجونه ويتمنونه ويطمحون  
اليه . تصوروا رجلاً يملك الملايين قد شدت على عنقه حبل : أفلا يتمنى  
هذا الرجل أن يهب كل ما يملك من ملايين فى سبيل نشقة هواه ؟  
رب سجين يعيش هادئاً سنين طويلة متتالية ، ويبلغ من حسن سلوكه

وسلامه تصرفه أنه يُعيّن « عريفاً » ، ثم اذا بهذا الرجل يصبح على حين  
فجأة شيطاناً من الشياطين ، يعصى ويتمرّد ويتورّع ، ولا يتورّع عن ارتكاب  
اية جريمة ، قتلاً كانت أو اغتصاباً أو ما الى ذلك ! ان رؤساء ليد هوشون  
عندئذ اشد الدهشة ، وان الناس عندئذ يحبون أشد العجب . فماذا  
كان سبب هذا الانفجار الذى لم يكن ينتظره منه أحد ؟ ان سبب هذا  
الانفجار المبالغ لى رجل لا يتوقع احد منه مثله انما هو رغبة جامحة  
عارمه قلقه حزينة غريزية استحوذت عليه فجأة ، تدفعه الى اظهار  
شخصيته ، وتأكيد ذاته . . . . . تلکم عواطف لا يفهمها من يراه ، فيختار  
فى أمره ، ولا يعرف كيف يحكم عليه . . . . . انها أسبه بنوبة صرعة ،  
انها أشبه بتشنج . تصوروا انساناً دفن حياً ثم صحا على حين فجأة : ان  
هذا الانسان لا بد أن يضرب غطاء تابوته ضرباً مستميتاً . انه يحاول  
دفع الغطاء ، يحاول دفع الغطاء ، رغم أن عقله مقتنع بأن هذه الجهود  
كلها لن تجديه نفعاً ، ولكن العقل لا يملك أن يسكّن هذه التشنجات .  
يجب أن لا تنسى أن كل محاولة يحاولها السجين لاطهار شخصيته بارادته  
تشبه أن تكون فى نظر المسئولين جريمة ، يستوى عندهم فى ذلك أن  
يكون سيئه الى اظهار شخصيته خطيراً أو سيرا . فاذا كان الامر كذلك ،  
اذا كانت المخاطرة هى المخاطرة ، واذا كان الخروج على النظام هو  
الخروج على النظام ، فليمض السجين فى المجازفة الى أبعد حدودها ،  
ولو وصل من ذلك الى جريمة القتل . الخطوة الأولى هى الصعبة ، ثم  
يُجن جنون السجين شيئاً فشيئاً ، ويتشى ، فاذا هو عاجز عن السيطرة  
على نفسه وكبح جماحه . ولذلك يحسن أن لا يُدفع السجناء الى مثل  
هذا التطرف . . . . . والغلو . . . . . ليظل الجميع فى سلام وأمان . . . . .

نعم ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟

## السرد الأول تممة



أملك حين دخولي السجن مبلغاً ضئيلاً من المال ،  
ولكنني لم أحمل منه في جيبي الا جزءاً يسيراً  
مخافةً أن يصادر • أما الباقي فقد ألصقته  
أوراقاً نقدية في تجليدة انجيلي ، وهو الكتاب  
الوحيد المسموح باقتائه في السجن • وكان قد أعطاني هذا الانجيل  
في مدينة توبولسك \* أشخاصٌ منفيون منذ عشرات السنين ، ألفوا أن  
يعدوا كل « سيء حظ » أخاً • ان في سيبيريا أناساً نذروا حياتهم لنجدة  
« عاتري الحظ » نجدة الأخ أخاه • انهم يشعرون نحوهم بالعطف  
الذي كان يمكن أن يشعروا به نحو أبنائهم • ان شفقتهم شفقة مقدسة  
منزهة عن الغرض مبرأة من المنفعة • ولا يسعني هنا الا أن أروي في  
بضع كلمات لقاءً تم لي حينذاك •

في البلدة التي كان يوجد فيها سجننا ، كانت تقطن أرملة اسمها  
ناستازيا ايفانوفنا • لم يكن أي واحد منا على صلات مباشرة بهذه المرأة  
طبعاً • فقد نذرت هذه المرأة حياتها لمساعدة جميع المنفيين ولمساعدة نزلاء

سجن الأشغال الشاقة بخاصة • ترى هل كان أحد أفراد أسرتها امرءاً  
عائر الحظ ؟ ترى هل كان أحد الأشخاص الأعزة على قلبها فد أنزلت  
فيه عقوبة شبيهة بعقوبتنا ؟ لست أعرف ذلك • ولكنها كانت تفعل كل  
ما تستطيع أن تفعله فى سيلنا • على أن ما كانت تستطيع أن تفعله فى  
سيلنا قليل جداً ، لأنها كانت هى نفسها فقيرة فقراً شديداً •

ولكننا كنا نحن نزلنا السجن نشعر أن لنا فى خارج السجن  
صديقة مخلصه متفانية • كانت فى كثير من الأحيان تنقل إلينا الأنباء التى  
كنا فى حاجة كبيرة إليها ( ولقد كنا فقراء جدا إلى الأنباء ) ، فلما تركت  
السجن وسافرت إلى مدينة أخرى أتيت لى أن أزورها فى بيتها وأن  
أعرف إليها • كانت تقيم عند أحد أقربائها فى مكان بالضاحية •

ليست ناستازيا ايفانوفنا مسنة ولا شابة ، وليست جميلة ولا  
دميمة ، ويصعب على المرء بل يستحيل عليه أن يعرف أهى ذكية أم  
غنية ، أهى مثقفة أم غير مثقفة • ولكن كل فعل من أفعالها يدل على طيبة  
لا حدود لها ، وعلى رغبة لا تقاوم فى المسايرة والمجاراة والملاطفة  
والمواساة ، وفى أن تصنع شيئاً يسر ويبهج • ان المرء يقرأ هذه العواطف  
فى نظرتها الطيبة الرقيقة العذبة الحنون • قضيت سهرة كاملة لديها مع  
رفيق آخر\* من رفاق السجن ، فكانت تنظر إلينا وجهاً لوجه ، وتضحك  
إذا ضحكنا ، وتوافق فوراً على كل ما نقول من قول أو نعلن من رأى ؛  
فهى ، أياً كان الكلام الذى نقوله ، تسارع إلى تبنى رأينا ، وهى ماتنك  
تقوم وتقعده وتذهب وتجىء لتغدق علينا مما عندها من طعام ومن  
شراب •

قدمت لنا شايًا وحلوى • وان المرء ليدرك أنها لو كانت غنية لما  
كان يفرحها الغنى الا لأنه يتيح لها أن تهيب لنا مزيداً من المسرة  
والبهجة ، وأن تواسينا مزيداً من المواساة ، نحن معشر السجناء •



فلما استأذناها بالانصراف أهدت الى كل منا علبة لحفظ السيكار مصنوعة من الكرتون ، على سبيل الذكرى • كانت قد صنعت هاتين العلبتين بيديها وغلفتها بورق من ذلك الورق الذى تجلده به كتب الحساب للمدارس ، وزيّنتها بحافة رقيقة من ورق مذهب لعلها اشترته من احدى الدكاكين تجميلاً لهما •

قالت لنا وهى تعتذر خجلى من هديتها :

— ما دتما تدخان فلعل هاتين العلبتين تناسبكما •

هناك أناس يقولون ( قرأت هذا وسمعته ) ان الايثار الشديد ليس الا اثره شديدة فى الوقت نفسه ، وأن الغيرية أنانية ، فأين أين الأثرة أو الأنانية هنا ؟ لن أفهم ذلك يوماً

رغم أننى حين دخلت السجن كنت لا أملك مالاً كثيراً ، فاننى لم أستطع أن أعتناظ حقاً من أولئك السجناء الذين كانوا يقبلون علىّ منذ وصلت هادئين ، بعد أن خدعوني مرة أولى ، ليقرضوا منى ثانية فثالثة فرابعة • غير أننى أعترف صراحة بأن الشيء الذى كان يغيظنى حقاً ويثير غضبى وحنقى هو أن هؤلاء جميعاً كانوا بحيلهم الساذجة يحسبوننى امراً غيباً أبله ، ويسخرون منى فى قرارة أنفسهم ، لا لشيء الا لأننى أقرضهم بمض المال مرة خامسة • لا شك أنهم كانوا يتخيلون أن مكرهم كان ينطلى على • وانى لعلى يقين من أنهم كانوا سيشعرون نحوى باحترام أعظم وتقدير أكبر لو رفضت أن أقرضهم ، ولو طردتهم شر طردة ، ولكننى كنت لا أستطيع أن أرفض لهم طلباً ، رغم أنه اتفق لى غير مرة أن غضبت غضباً شديداً •

كان يهمنى أثناء الأيام الأولى أن أعرف أين يجب أن أضع قدمى ، وكيف يجب أن يكون سلوكى مع رفاقى • كنت أحس احساساً كاملاً

وأدرك ادراكاً تاماً أن هذه البيئة جديدة على كل الجدة ، وأنتى أسير فيها فى ظلمات، وان من المستحيل على المرء ان يعيش فى الظلمات عشر سنين . ولقد قررت ان اتصرف التصرف الصريح الواضح الذى يمليه على ضميرى وتامرني به عواطفى • ولكننى كنت اعلم ان هذه السنة قاعدة نظرية صالحه ، اما الواقع فملىء بمفاجات ليست فى الحسبان • لذلك فرغم جميع الهموم الصغيرة التى شغلتنى بها أفامتى فى التكنة ، وهى الهموم التى سبق ان تحدثت عنها والتى أعانى فيها اكيم آكىمتش راسا ، فلقد كان هنالك فلق رهيب يستبد بنفسى وغم عميق يقبض صدرى ويعذبني مزيدا من العذاب شيئاً بعد شيء • « المنزل الميت ! » كذلك كنت أقول لنفسى حين يهبط الليل وانا أنظر احيانا من عتبة نكنتنا الى السجناء العائدين من العمل وقد أخذوا يطوفون فى الفناء منتقلين من المطبخ الى التكنة أو من التكنة الى المطبخ • كنت أحاول وأنا أتأمل حركاتهم ووجوههم أن أعرف الى اى نوع من البشر ينتمون وما عسى أن تكون طباعهم • كانوا يطوفون أمامى ، فبعضهم مغضن الجبين وبعضهم شديد المرح - وهذان مظهران يلاحظان دائماً فى السجن وربما كانا يميزانه - وهم يتشائمون أو يتحدثون ، أو لايزيدون على أن يسيروا منعزلين مستغرقين فى تأملاتهم فى ظاهر الأمر ، فبعضهم يبدو مهدود القوى متبلد الشعور لا يحس بشيء ، وبعضهم مختال يشعر بالتفوق والاستعلاء ( حتى هنا ! ) ، جاعلاً طاقته على أذنه ، ملقياً معطفه فوق كتفه ، مطوّفاً نظراته الجريئة الماكرة هنا وهناك ، موزعاً أقواله الساخرة الوقحة بغير تعفف ولا حياء • قلت لنفسى : « هذه هى بيئتى الآن ، هذا هو عالمى الآن ، هذا هو العالم الذى لا أحب أن أعيش فيه ، ولكن يجب علىّ أن أعيش فيه ••• » •

حاولت أن أسائل آكيم آكىمتش الذى كنت أحب أن أشرب

الشاى معه حتى لا أكون وحيداً ، وأن أستطلعهُ أمر مختلف السجناء •  
يجب على أن أذكر هنا مستطرداً بعض الاستطراد أن الشاى كان غذائى  
الوحيد فى أول عهدى بالسجن ؛ وكان آكيم اكيتمش لا يرضن<sup>3</sup> على  
باحتراس الشاى معى ، حتى لقد كان يتولى بنفسه اشعال سماورنا البالى  
الذى صنُع فى السجن نفسه من الحديد الأبيض ، وكنت قد استأجرته  
من م \*\*\*\*

كان آكيم اكيتمش يشرب قدحاً من الشاى فى العادة ( ولقد كان  
عنده أقداح ) ، يشربه وقوراً رضياً صامتاً ، حتى اذا فرغ من شربه  
شكرنى وعاد يستأنف صنع لحافى على الفور • ولكنه لم يستطع ان يقول  
لى ما كنت أرغب فى معرفته ، حتى أنه لم يفهم اهتمامى هذا بمعرفة  
طبائع الناس الذين يحيطون بنا • لقد أصغى الى أسئلتى وهو يتنسم  
ابتسامة ماكرة ما زالت ماثلةً أمامى الى الآن • قلت لفسى : « لا • • •  
لا • • • فانما يجب أن أعانى كل شىء بنفسى ، وأن لا أسأل غيرى • • »  
فى اليوم الرابع اصطف السجناء صفيين فى ساعة مبكرة من  
الصباح ، فى الفناء ، أمام مقر الحرس قرب أبواب السجن • وكان من  
أمامهم ومن ورائهم جنود يمسكون بنادقهم محشوة بالرصاص ،  
مزودة بالحربة •

ان من حق الجندى أن يطلق النار على السجنين اذا حاول السجنين  
أن يهرب ، ولكنه يكون فى مقابل ذلك مسئولاً اذا هو أطلق النار فى  
غير حاجة مطلقة الى ذلك • ويسرى هذا على حالات العصيان والتمرد  
التي قد يقوم بها السجناء • ولكن من ذا الذى يخطر بباله أن يهرب  
علناً على رعوس الأشهاد؟! • • •

وصل ضابط من سلاح الهندسة يرافقه «السائق» \* ، وعدد من  
ضباط الصف ، العسكريين ، والمهندسين ، والجنود المفروزين للأعمال •

ونودى على السجناء • فأما الذين يذهبون الى ورشات الخياطة فقد ذهبوا أول الذاهبين : كان هؤلاء يعملون فى السجن نفسه ويعدون الملابس لجميع السجناء • ثم جاء دور الذين يذهبون الى العمل فى المصانع ، وأخيرا جاء دور الذين يذهبون الى الاشغال الشاقة فى الخلاء • وكنت أنا بين هؤلاء ••• وكان عددا عشرين سجينا • فورا القلعة ، على الشاطىء المتجدد ، كان يوجد سفينتان تملكهما الدولة ، وقد اصبحتا غير صالحتين للعمل ، ولا قيمة لهما البتة ، فكان علينا أن نفكهما حتى لا يضيع خشبهما سدى • الحق أن هذا الخشب لا يساوى شيئا ، لان حطب التدفئة كان فى المدينة زهيد الثمن ، فالمنطقة ملاءى بالغابات •

وانما كانوا يكلفوننا بهذه الاعمال حتى لا نبقى عاطلين ••• وكان السجناء يعرفون ذلك حق المعرفة ، لذلك يقومون بها متراخين متكاسلين • ولا كذلك حين يكون للعمل شأنه وتكون له قيمته ، ويكون له مايسوغه ••• أو حين يطلب الى السجن ان ينجز مهمة محددة معينة ••• فالسجناء ينشطون عندئذ ويتعشون ويمتلئون حيوية ••• حتى لقد رأيت سجناء يرهقون أنفسهم ارهاقا شديدا لينجزوا العمل باقصى سرعة مع أنهم لا يجنون منه أية فائدة ، وذلك لأن كرامتهم أصبح لها دخل فى الامر •

على أن طلب انجاز مهمة معينة محدّدة لا يمكن أن يحدث حين يكون العمل من نوع العمل الذى نحن بصدده الآن ، أى من الأعمال التى يطلب الى السجناء أن يقوموا بها صورةً وشكلاً لا ضرورةً وحاجة • ففى مثل هذه الأحوال يستمر العمل الى أن يُقرع الطبل مؤذنا بالعودة الى السجن فى الساعة الحادية عشرة من النهار •

كان اليوم دافئا ، وكان الجو مليئا بالضباب ، ويوشك الثلج أن يأخذ بالذوبان • اتجهت جماعتنا كلها نحو الشاطىء وراء القلعة ، تهز

أغلالها • ان الأغلال المختبئة تحت الثياب ترن رنيناً واضحاً جافاً لدى كل خطوة نخطوها • ومضى اثنان أو ثلاثة من السجناء ليحيثوا بالادوات من المستودع •

سرت مع السائرين • حتى لقد انتعشت قليلاً ، لأننى كنت أتمنى أن أرى وأن اعرف نوع الأشغال الشاقة التى سنقوم بها • ما نوع هذه الاشغال الشاقة ؟ كيف ترانى سأعمل لأول مرة فى حياتى ؟

ما زلت أتذكر جميع التفاصيل • التقينا فى الطريق برجل من أهل المدينة ذا لحية ، توقف حين رانا ومد يده الى جييبه • فسرعان ما انفصل عنا أحد السجناء ومضى اليه ماداً قبضته ، فوضع الرجل فى القبعة الصدقة التى أراد أن يتصدق بها علينا وهى خمسة كوبكات ، وعاد السجين الينا مسرعاً • وقد أنفقت هذه الكوبكات الخمسة فى ذلك الصباح نفسه فى شراء أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض ووزعت علينا بالتساوى •

وكان بين أفراد جماعتنا أناس عابسون صموتون ، وكان بينهم أفراد مرحون لا يبالون شيئاً ولا يحفلون بشيء ••• وكان بينهم أناس اذا تكلموا ففى كسل وتراخ وغير اكثراث • وكان بيننا رجل مرح راض سعيد فرح الى أقصى الحدود - لا يدرى الا الله لماذا ! - فهو لا يبنى يعنى ويرقص طوال الطريق ، فترن أغلاله عند كل وثبة يشها : ان هذا السجين المربع السمين هو ذلك الرجل نفسه الذى تشاجر يوم وصولى عند تراحم السجناء حول الماء ليغسلوا وجوههم وأيديهم ، مع رفيق من رفاقه تجراً أن يزعم أنه طائر من طيور الكاجان • ان اسم هذا الرجل هو سوراتوف • وها هو ذا يأخذ أخيراً بانشاد أغنية فرحة مرحة ما زلت لازمتها باقية فى ذاكرتى :

بينما كنت بعيداً  
أحمل القمح الى الطاحون يوماً  
زوجوني في غيابي  
دون اذنى ، رغم انفى •  
لم ينقصه الا بالالايكا •

وكان طبيعياً أن يستاء عدد من السجناء من مزاجه المرح ذاك ،  
حتى لقد عدوا مرحة اساءة اليهم واهانة لهم • فهذا أحدهم يقول بلهجة  
اللوم ، رغم أن الأمر لا يعنيه في قليل ولا كثير :  
- أخذ صاحبنا يعوى •

وهذا آخر يقول بلهجة تدرك منها أنه من روسيا الصغرى :  
- ليس للذئب الا أغنية واحدة ، وقد أخذها عنه هذا التولائي  
( نسبةً الى مدينة تولا ) •

فلم يلبث سكوراتوف أن أجاب على الفور :  
- صحيح ••• أنا من تولا ••• أما أتم يا أهل بولتافا فانكم  
ما تنفكون تزدردون لقم العجين حتى تفتسوا بها اختناقاً •  
- كذاب ! ما الذى كنت تأكله أنت ؟ حساء الكرنب تعرفونه  
بالنعال المصنوعة من قشر أشجار الزيزفون !  
وقال ثالث :

- لكأن الشيطان قد أطعمك جوزاً ولوزاً •••  
فقال سكوراتوف وهو يتنهد قليلاً دون أن يخاطب أحداً بعينه ،  
كأنما هو يشعر بالندم على أنه كان مترفاً :  
- الحق يا رفاق أنتى انسان مدلل رخو ••• لقدنشأت منذ طفولتى

في أحضان الترف ، فكنت آكل الخوخ اللذيذ والخبز الشهى • ولاخوتي  
الآن تجارة واسعة في موسكو • انهم من تجار الجملة ينعمون بشراء  
عريض وغنى كبير ، كما ترون ! •••

- وأنت ، ماذا كنت تباع ؟

- لكل انسان سجاياه ومزاياه ••• فأنا مثلاً حين تلقيت أول

مائتى •••

- مائتى روبل ؟ مستحيل

كذلك قاطعه سجين طُلعة انتفض مدهوشاً حين سمع كلاماً عن  
مبلغ ضخمة هذه الضخامة •

- لا ••• لا ياعزيزى ••• لا مائتى روبل ••• بل مائتى عشا !

هيه ••• لوقا ! لوقا !

- بين الناس من يحق لهم أن ينادونى لوقا فقط ••• أما أنت فلا

يحق لك أن تنادينى الا باسمى كاملاً : لوقا كوزمتش •

كذلك أجب ، فى استياء ، سجين من السجناء قصير القامة نحيل

الجسم مقرن الأنف •

فقال له صاحبه :

- طيب ••• لوقا كوزمتش ••• شيطان يأخذك !

- لا ••• لا يحق لك أن تنادينى لوقا كوزمتش ••• بل يجب

عليك أن تخاطبنى بقولك : يا عمى المحترم •

- شيطان يأخذ عمى المحترم ! ••• حقاً انك لا تستحق أن

يخاطبك المرء بكلمة واحدة ••• ولقد كنت أريد مع ذلك أن أتحدث

اليك في مودة وعاطفة وصدقة • أما أتم يا رفاق ، فاسمعوا كيف حدث  
أن لم ألبث مدة طويلة بموسكو ••• جلدوني آخر خمس عشرة جلدة  
••• ثم أرسلوني الى هنا ••• ذلك ما حدث !

قال سجين كان يصغى الى قصته في انتباه :

– ولكن لماذا نفوك ؟

– ••• لا تسأل أسئلة سخيفة ! ذلكم هو السبب في أننى لم أصبح  
غنياً ••• كنت أتلهف على ذلك تلهفاً لا تستطيعون ان تصوروا مداه !  
أخذ كثير من السجناء يضحكون •••

ان سكوراتوف واحد من أولئك المرحين الطيبين ، والملاحين  
الخلص الذين أخذوا على عاتقهم ان يسروا عن رفاقهم الحزاني  
المكثين ، ولكنهم لا يتلقون في مقابل ذلك الا الشتائم بطبيعة الحال •  
انه ينتمى الى نموذج خاص من البشر قد أتحدث عنهم فيما بعد •

قال لوقا كوزمتش :

– وها هو ذا الآن سمور شجاع من سمامير سيبيريا ! ••• ان  
ثيابه وحدها تساوى أكثر من مائة روبل •••

كان سكوراتوف يرتدى معطفاً لا يمكن أن يرى المرء معطفاً اعتق  
منه ولا أخلق ولا أبلى ••• انه مرقع في مواضع شتى برقع متهدلة  
متدلية •••

ونظر الى لوقا نظرة فاحصة من قمة الرأس الى أخمص القدمين •

ثم أجاب يقول :

– ولكن رأسى أيها الرفاق هو الذى يساوى مالا كثيراً • وحين



ودعت موسكو عزاني بعض العزاء أن رأسي سيرافقني طوال الطريق  
فوق كتفي ... وداعاً يا موسكو ... شكراً على حماك النظيف ،  
وهوائك الطليق ... وعلى الجلدات التي جلدتها ... أما معطفي ،  
يا عزيزي ، فلست في حاجة الى أن تنظر اليه .

- لعلك تريد أن أنظر الى رأسك !

صاح لوقا كوزمتش :

- ويا ليت رأسه له ... لقد تصدقوا عليه به في مدينة تومين حين  
مرت بها القافلة .

- سكوراتوف ، هل كان عندك مصنع ؟

قال أحد السجناء الحزاني :

- أي مصنع يمكن أن يكون عنده ؟ لقد كان اسكافياً بسيطاً ...  
يدق الجلد على الحجر .

قال سكوراتوف ، دون أن يلاحظ لهجة محدثه اللاذعة :

- هذا صحيح ، لقد حاولت أن أرقع أحذية ، ولكن مجموع  
ما رقت لم يتجاوز زوجاً واحداً من الأحذية .

- وهل وجدت من يشتريه منك ؟

- نعم ... وقعت على شاب لا شك في أنه كان لا يخشى الله ،  
لا شك في أنه لم ينل رضى أمه أو أبيه ، فعاقبه الله ، فاشترى ما صنعت !  
انفجر جميع من كانوا يحيطون بسكوراتوف ضاحكين مقهقهين .

وتابع سكوراتوف يقول بهدوء لا يعكسه شيء :

- ثم عملت مرة أخرى في سجن الأشغال الشاقة ، فركبت جلدأ

لحذاءي ستيفان فيدورتش بومورستيف ، الملازم الأول .

– هل أرضاه شغلك ؟

– لا والله يا رفاق \*\*\* بالعكس \*\*\* لقد شتمنى شتماً يمكن أن يكفينى طوال حياتى \*\*\* ثم لطم قفاى بركبته ! ما كان أشد غضبه ! آه من هذه الغادرة العاهرة \*\*\* حياتى فى سجن الأشغال الشاقة \*\*\* خانتنى هذه الموس !

قال سكوراتوف ذلك ، ثم عاد يغنى وهو يضرب الأرض بقدميه راقصاً :

ما هى الا لحظة من الزمن  
إذا بزوج « آكلينا » بغتة  
يغادر البيت لصحن الدار

جمجم السجين الوافد من روسيا الصغرى يقول وهو ينظر اليه نظرة شزراء ، وكان يسير بجانبى :

– ما اقل حياءه •

وقال آخر بلهجة جادة قاطعة :

– هذا رجل لا خير فيه !

لم أستطع أن أفهم أبدا لماذا كانوا يذمون سكوراتوف ، ولماذا كانوا يحتقرون السجناء المرحين كما أتبع لى أن ألاحظ ذلك فى هذه الأيام الأخيرة • وقد عزوت غضب السجن الوافد من روسيا الصغرى وعزوت غضب الآخرين الى عداوة شخصية بينهم وبين سكوراتوف • غير أننى أخطأت الظن والتقدير • فانما هم كانوا ساخطين على سكوراتوف لأن سكوراتوف لم يكن يصطنع هيئة الوقار الزائف التى كان يصطنعها كل من السجن ، ولأنه كان رجلاً « لا خير فيه » على حد تعبيرهم • ومع ذلك فقد كانوا لا يحتقرون على جميع المازحين ، ولا يعاملونهم جميعاً كما

كانوا يعاملون سكوراتوف • لقد كان بين المازحين من يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم ، ولا يغفرون لأحد أن يسيء اليهم فى شيء ، فكان الآخرون يحترمونهم ويوقرونهم شاءوا أم أبوا • كان بين عصبتنا واحد من هذا النوع ، فتى لطيف دائم الفرح ، لم أعرفه على حقيقته الا فيما بعد • كان شاباً فارح الطول ، حسن القامة ، على خده ثؤلول كبير جميل : وكان فى وجهه تعبير مضحك جدا ، وان يكن على جانب من وسامة الطلعة ونباهة العقل • كان هذا الشاب يدعى باسم « المستكشف » ، لأنه كان قد خدم فى سلاح الهندسة ، وهو ينتمى الآن الى القسم الخاص • وسأتحدث عنه فيما بعد •

هذا الى أن السجناء « الجادين » لم يكونوا جميعاً يفصحون عن أنفسهم كصاحبنا السجين الوافد من روسيا الصغرى ، حين يسوؤهم أن يروا الرفاق مرحين • لقد كان فى سجننا أفراد يهدفون الى الظهور ويرغبون فى التميز ويسعون الى التفوق ، سواء بما أوتوه من حذق فى العمل أو براعة فى التصرف أو القوة فى الطبع أو توقد فى الذهن • وكان عدد كبير منهم يملكون ذكاء وقوة ، ويصلون الى تحقيق الأهداف التى يرمون اليها ، ألا وهى أن يكون لهم على رفاقهم سلطان وغلبة ونفوذ • وكان هؤلاء يناصب بعضهم بعضاً أشد العداة ، وكان لهم حساد كثيرون • وكانوا ينظرون الى سائر السجناء بوقار وحرصانة يمازجها لطف وتواضع ، ولا يشتجرون فى غير داعٍ الى الاشتجار • ولما كان رأى ادارة السجن فيهم حسناً ، فانهم يتولون تسيير الأعمال بمعنى من المعانى • ما من أحد منهم ينزل الى مستوى التشاجر بسبب أغان تُغنى مثلاً : أنهم لا ينحدرون الى هذه الدرجة • ولقد كان جميع هؤلاء لطافاً مهذبين فى معاملتى طوال المدة التى قضيتها فى السجن ، ولكنهم لا يساروننى كثيراً ، وسيأتى حديث هذا بالتفصيل أيضاً •

وصلنا الى الشاطيء ، ان المركب العتيق الذى يجب علينا أن نفكه غاطس ، تحت ، فى جليد النهر • وعلى الطرف الاخر من النهر كانت تمتد المروج زرقاء ، ويلوح الافق حزيناً مقفراً • كنت أتوقع أن أرى جميع السجناء ينهدون للعمل بجهد ونشاط وحماسة • ولكن لم يحدث شئ من ذلك ، فهام أولاء بعض السجناء يجلسون بغير اكترات ولا مبالة على جذوع من جذوع الشجر كانت ملقاة قرب الشاطيء • وها هم جميع السجناء تقريباً يسلّون من أحذيتهم أكياساً تحتوى على تبغ من التبغ الذى يدخنه سكان هذه المنطقة ( وكان يباع فى السوق أوراقاً ، سعر الرطل منه ثلاثة كوبات ) ، فيأخذون يشعلون غلايينهم بينما يتحلق الجنود من حولنا ويستعدون لمراقبتنا وقد ظهرت فى وجوههم امارات الضجر وعلامات السأم •

قال أحد السجناء بصوت عال ، دون أن يتجه بكلامه مع ذلك الى أحد :

– من ذا الذى خطر بباله تقويض هذا المركب ؟ أتراهم فى حاجة الى حطب ؟

فقال آخر :

– ان من خطرت ببالهم هذه الفكرة الجميلة هم أولئك لا يخافون منا يا صاحبي !

وقال الأول بعد صمت :

– أين يذهب هؤلاء الفلاحون ؟

انه لم يسمع الجواب عن سؤاله • فهو يلقي الآن سؤالاً جديداً ، مشيراً بأصبعه الى جماعة من الفلاحين كانوا يسيرون رتلاً متلاحقاً ، فى

بعيد ، فوق الثلج الذى لم تطأه قدم بعد • التفت جميع السجناء الى تلك  
الجهة فى تـوان وكسل ، وأخذوا يتكلمون على هؤلاء المارة تزجيةً  
للوقت • كان أحد هؤلاء الفلاحين ، وهو آخرهم فى الرتل ، يمشى  
مشية غريبة مضحكة ، مباعدا ذراعيه مائلاً برأسه الى جانب ؛ وكان يضع  
على راسه قلنسوة عاليةً جدا لها شكل قالب من الفطير • وكان ظل قامته  
يرتسم ارتساماً واضحاً على الثلج الأبيض •

قال أحد رفاقي وهو يقلد نطق الفلاحين :

– انظروا الى لباس أخينا بتروفتش ما أجمله !

والغريب فى الامر أن السجناء كانوا ينظرون الى الفلاحين نظرة  
استعلاء وتكبر ، رغم أن أكثرهم ، هم أنفسهم ، من الفلاحين •  
– وانظروا الى آخرهم خاصةً ••• لكأنه يزرع فجلاً !

وقال ثالث :

– ما أضخم قلنسوته ••• لا شك أن عنده مالاً كثيراً •

وأخذ السجناء جميعاً يضحكون ، ولكن فى رخاوة وتوانٍ ، كأنما  
هم يضحكون على مـضض • وفى أثناء ذلك وصلت بائعة أرغفة من الخبز  
الابيض : انها امرأة نشيطة الحركة ، يقظة الهيئة • فاشتري منها السجناء  
خبزاً بالكوبكات الخمسة التى تصدق عليهم بها ساكن المدينة ،  
واقتموها بالتساوى •

واشترى الفتى الذى يبيع أرغفة الخبز الأبيض فى السجن ، اشترى  
من المرأة عشرين رغيفاً بعد أن أجرى بينه وبينها مناقشة حارة حادة فى  
سبيل أن تنقص له الثمن ؛ ولكنها لم تقبل ، فقال لها :

– طيب ••• ألا تعطيننى « هذا » على الأقل ؟

– ما هو ؟

– هذا الذى تعاف أكله الفئران •

قالت المرأة صامته مقهقهة :

– طاعون يصيبك •

وأخيراً وصل صف الضابط المكلف بمراقبة العمل ، يحمل بيده

عصا ، فقال :

– لماذا تقعدون ؟ هياً أبدأوا العمل !

فأجابه أحد « المتزعمين » ، يقول وهو ينهض متثاقلاً :

– عيّن لنا أعمالاً يا ايهاً مانفتش •

– انما عملكم أن تخرجوا المركب ، فماذا تريدون أكثر من ذلك ؟

ونهض السجّاء أخيراً ونزلوا نحو النهر بخطى بطيئة متثاقلة •

وظهر « مديرون » كثر ، مديرون قولاً لا فعلاً ، على الاقل • كان

ينبغى أن لا يحطم القارب كيفما اتفق ، وانما يجب الاحتفاظ بالواح

الخشب سليمة لم يمسهما أذى ، ولا سيما الألواح العرضانية المثبتة فى

قاع المركب على طوله ، وذلك عمل طويل مضجر •

صاح أحد السجّاء يقول ، ولم يكن « مديراً » ولا « متزعماً » بل

كان عاملاً بسيطاً :

– انما يجب سحب هذا اللوح قبل كل شيء ••••• هيا يا شباب ! •••

ان هذا الرجل المسالم الذى كان على جانب من غباء لم يقل قبل

الآن كلمة واحدة ؟ وها هو ذا ينحنى فيمسك بيديه لوحاً ثقيلًا من ألواح

الخشب منتظراً أن يهب الآخرون الى مساعدته ، ولكن أحداً لم يلب

نداءه •

دمدم واحد يقول من بين أسنانه :

- حاول ! انك لن ترفعه ! ولو جاء جدك الدب لما استطاع الى رفعه

• سيلاً •

- هه ! ألا نبداً يا اخوان ! اتنى لا أعرف كيف •••

كذلك قال الرجل الذى بادر بالعمل ، كذلك قال مرتبك الهيئة

وهو يترك اللوح وينهض منتصباً •

- لن تقوم بالعمل كله وحدك فلماذا هذا التعجل ؟

فأجاب المسكين حائراً مضطرباً يقول معتذراً :

- ولكننى يا رفاق ، ما قلت قولى إلا هكذا •••

صرخ صف الضابط المكلف بمراقبة العمل ، وصرخ مرة أخرى

وهو ينظر الى هؤلاء الرجال العشرين الذين لا يعرفون كيف يبدأون

عملهم وبماذا يبدأونه :

- هل يجب أن ندثركم بأغطية تستدفئون بها ؟ أم هل يجب أن

ندخركم مؤونة لفصل الشتاء ؟

- ومن تأنى نال ما يتمنى ، والعجلة من الشيطان يا ايفان ماتفتش •

ليس التسرع بمنجز عمله •

- ولكنك لا تعمل شيئاً البتة يا سافليف ! ما لك تظل محملاً

بعينيك ؟ أتراك تريد أن تيعهما ؟ ••• هيا ابدأوا •

- ما عساي أفعل وحدى •

- حدد لنا عملاً يا ايفان ماتفتش •

— قلت لكم اننى لن أحدد لكم أعمالاً بعينها • كل ما عليكم هو أن تفكوا المركب فمتى فرغتم من ذلك انصرفتم الى المنزل • هيا ابدأوا •

أخذ السجناء يعملون ، ولكنهم يعملون على مضض ، فى توان وتراخ وكسل • ان المرء ليفهم حق الرؤساء وغيظهم حين يرى هذه الجماعة من الرجال الأشداء الأقوياء مقبلين على العمل بهذا التوانى كانهم لا يعرفون كيف يبدأون • وما ان اتزعت العارضة الاولى وهى صغيرة جداً حتى انكسرت ، فأسرع السجناء يقولون للمفوض من قبيل التسويغ والتبرير : « انكسرت من تلقاء ذاتها • كان لا بد من العمل بطريقه أخرى ، كان لا بد من تدبر المهمة والاحتياى عليها على نحو اخر • ما العمل ؟ » • وأعقبت ذلك مناقشة طويلة بين السجناء استحالت شيئاً فشيئاً الى مسبات وشتائم ، وكاد الأمر أن يمضى الى أبعد من ذلك ••• وصرخ المراقب من جديد ملوحاً بعصاه • ولكن العارضة الثانية انكسرت كما انكسرت العارضة الأولى • وأدرك الجميع عندئذ أنهم فى حاجة الى فؤوس وأدوات غير هذه الأدوات ، فأرسل الى القلعة شابان يحرسهما خفر للمجئء بآلات أخرى وجلس سائر السجناء بانتظار عودتهما على المركب جلسة هادئة مريحة وسلوا غلايينهم وعادوا يدخنون •

بصق المراقب احتقاراً ثم دمدم يقول ممتعضاً متأففاً :

— ان العمل الذى تقومون به لن يقتلكم ••• تبا لكم من ناس ••• تبا لكم من ناس !

قال ذلك ثم حرك يده باشارة تدل على التذمر ، ومضى الى القلعة وهو يهز عصاه ويلوح بها •

وبعد ساعة من الزمان أقبل الناظر فأصغى الى كلام السجناء بهدوء ثم أعلن أنه يحدد لهم عملاً معيناً هو أن يفكوا أربع عوارض بكاملها دون



أن تنكسر وأن يقوضوا جزءاً كبيراً بعينه من المراكب حتى اذا أنجزوا هذا العمل كان في وسعهم ان يعودوا الى المنزل • ان المهمة ضخمة في الواقع • ولكن ليتك رأيت السجناء كيف اندفعوا الى العمل اندفاعاً وكيف خفوا اليه سراعاً ! أين هذا مما كانوا فيه منذ هنيئة من كسل وتوان وتراخ وجهل ؟ هذه هي الفؤوس ترتفع وتهوى حتى لكانها ترقص ، فنخرج المسامير والأوتاد ؛ والذين لا يملكون فؤوساً يدسون تحت العوارض هراوات ثخينة فاذا بالعوارض تخرج سليمة لم يمسسها سوء • ما كان أشد دهشتي حين كنت أراها تُرفع كاملة وتُنزع صحيحة لم تتفوض ولم تنكسر ! كان السجناء يسرعون في عملهم، وكانهم قد اصبحوا على جانب عظيم من الذكاء دفعة واحدة • هم الآن لا يتحدثون ولا يتشائمون ، وكل واحد منهم يعرف حق المعرفة ما كان عليه أن يقوله وما كان عليه أن يعمله وما كان عليه أن ينصح به ، ويعرف المكان الذي يجب أن يقف فيه والموضع الذي يجب أن يكون عنده • وفرغ السجناء من انجاز المهمة التي عهد اليهم بانجازها قبل أن يقرع طبل العودة بنصف ساعة ، فرجعوا الى المنزل متعبين مكدودين لكنهم رجعوا مسرورين مبتهجين بأنهم اختصروا نصف ساعة من الوقت الذي يفرض عليهم النظام أن يعملوا أثناءه • أما فيما يتصل بي فقد لاحظت أمراً غريباً وهو أنني حينما اندست لأعمل وأساعد العاملين شعرت أنني في غير مكاني ، فلقد كانوا يضيقون بي وينزعجون مني ويطرودوني من كل جهة أمضى اليها وهم ينهرونني نهرأ يوشك أن يكون اهانة أو شتماً •

وهذا واحد منهم وهو أرثهم ثياباً وأحقرهم هيئة ، واحد منهم ما كان له أن يجرؤ أن يتفوه بكلمة واحدة أمام السجناء الآخرين الذين هم أكثر منه ذكاءً وحقداً ، يشعر أن من حقه أن يزجرني اذا أنا اقتربت منه زاعماً

أنتى أضايقه فى عمله • وأخيراً قال لى أحدهم وهو من أكثرهم حدقاً ومهارة ، قال لى بصراحة وفضاظة :

— ما مجيئك الى هنا ؟ ما عسالك تستطيع أن تعمل ؟ هيا امض ! لماذا تأتى حين لا يستدعيك أحد ولا يناديك أحد ؟ •

وسرعان ما قال آخر :

— دع عنك هذا •

وصاح ثالث يقول :

— آولى بك أن تحمل جرة فتمضى تحمل ماءً الى المنزل الذى يبنى هناك أو أن تذهب الى الورشة التى يفرم فيها التبغ : فلا حاجة بنا اليك هنا ولا عمل لك فى هذا المكان •

اضطرت أن أتحنى • ألا ان الابتعاد جانباً حين يعمل الآخرون لأمر يشعر منه المرء بالخزى والعار • وحين مضيت الى الطرف الآخر من المركب ازدادوا شتما لى وازدراء بى وكانوا يقولون : « انظروا الى هؤلاء العمال الذين يرسلونهم الينا ! ما حاجتنا الى مثل أولئك الفتيان الأشداء ؟ » • • •

ولقد كانوا يقولون ذلك كله عامدين • كان يسعدهم أن يسخروا ببيل من النبلاء ، فكانوا ينتهزون هذه الفرصة ليرضوا حاجتهم الى ذلك ويحققوا رغبتهم فيه • ولا شك أن القارىء يفهم الآن لماذا كانت الفكرة الأولى التى قامت فى ذهنى عند دخولى السجن هى أنتى تساءلت كيف ينبغى أن يكون سلوكى مع هؤلاء الناس ؟ لقد كنت أحس أن حوادث كهذه الحوادث لا بد أن تتكرر كثيراً لكننى قررت أن لا أغير خطتى أية كانت هذه الاحتكاكات وأية كانت هذه الاصطدامات • كنت أعلم أنتى

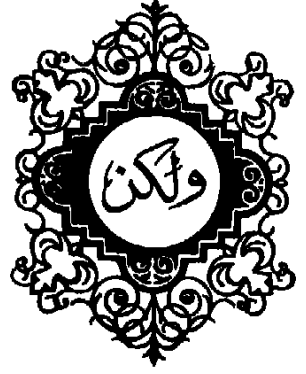
على صواب فى تفكيرى هذا ، فقررت أن أحيا بينهم على بساطة واستقلال  
دون أن أظهر أيسر رغبة فى التقرب اليهم ، ولكن دون أن أصددهم أيضا  
إذا هم أرادوا أن يتقربوا الىّ من تلقاء أنفسهم ؛ وقررت أن لا أخشى  
أبدا تهديدانهم وأن لا أخاف كرههم وبغضهم وأن أظهار ما أمكنتى  
التظاهر بأننى لا ألاحظ هذه التهديدات ولا ألقى بالأى هذا الكره وهذا  
البغض ، وقررت أن أنأى عنهم فى بعض اللحظات وأن لا أشاطرهم بعض  
ما الفوه من عادات ، أى قررت أن لا أنشد مصاحبتهم وأن لا أسعى الى  
مرافقتهم . لقد شعرت أنهم سيحتقرونى ان لم أسلك هذا السبيل .  
وأيقت فيما بعد أن محتدى النيل يخولنى فى نظرهم حق الاستعلاء عليهم  
ويبيح لى أن أقتضيهم مداراتى ومراعاتى وأن أكون فى معاملتهم صعب  
المراس وأن لا أعمل بيدي قط . صحيح أن مثل هذا السلوك سيحملهم  
على شتمى وسبى فى سرهم ولكنه سيجبرهم على أن يحترمونى . غير أننى  
كنت عاجزاً عن تمثيل هذا الدور . لم أستطع فى يوم من الأيام أن  
أصطنع تلك المظاهر التى كانوا يعدونها لاثقة بالسادة النبلاء ، ولكننى  
عزمت عزمًا قاطعاً على أن لا أتنازل عن شىء من تربيتى وعلى أن لا أفرط  
فى شىء من اقتناعى الحميمة . ولو قد حاولت أن أنال الخطوة عندهم برفع  
الكلفة بينى وبينهم لعادونى جباناً ولعاملونى كما يعامل جبان . لم يكن  
... ف بالمثل الصالح الذى يجب أن أقتدى به . لقد كان يشى بهم الى  
الميجر فكانوا يخشونه ، ويخافون منه . ولم أكن من جهة أخرى أحرص  
على أن أنفر منهم وأن أبتعد عنهم مستعلياً متكبراً متجبراً كما كان يفعل  
البولنديون . ولقد شعرت بما يحملون لى من عداوة وبغضاء ، فكنت  
أحاول أن أكون مفيداً نافعاً بدلاً من أن أشكو حظى وأندب نفسى . ولئن  
كنت مقتنماً بأنهم سيغيرون رأيهم فىّ بعد حين فلقد كنت أشعر بغير قليل

من المذلة والهوان حين كنت أرى أنني أحاول أن أعمل دون أن أعرف كيف أحتال لذلك وكيف أتدبره ، وحين كنت ألاحظ أن هذا يحملهم على ازدرائي ازدراءً مشروعاً .

حين عدت في المساء الى المنزل بعد العمل متعباً مضطرباً أستولى على حزن عميق . قلت لنفسي : « لسوف أعيش على هذا النحو نفسه آلاف الأيام » . وفيما كنت أتروض وحيداً واجماً مفكراً مع هبوط الليل على طول السور وراء الثكنات رأيت بولو يهرع نحوي قدماً على حين فجأة ان بولو هذا كلب السجن . ذلك أن للسجن كلبه كما كان لكئاب الفرسان وفصائل المشاة وبطاريات المدفعية كلابها . انه يعيش في هذا السجن منذ زمن طويل . وهو لا ينتمى الى أحد بعينه بل يعد كل واحد من السجناء مولاه . وهو يعيش من فضلات المطبخ وفتات الطعام . انه كلب كبير أسود ذو بقع بيضاء ، ليس بالسن كثيراً ، له عينان ذكيتان وذنب كثيف لم يكن يلاعبه أحد ولم يكن ينتبه اليه أحد وقد جعلته صديقاً لي مسروراً محبوراً . واذا أنه لم يرني طوال ذلك النهار أنا الذي كنت أول من خطر بباله أن يلاطفه منذ سنين فقد مضى يبحث عني في كل مكان حتى اذا لمحنى أسرع يلقاني وهو ينبح . لا أدري ما الذي شعرت به عندئذ ولكنني أخذت أقبله وضممت رأسه الى صدرى فوضع رجله على كتفي وأخذ يلحق وجهي . قلت لنفسي هذا هو الصديق الذي ترسله الى الأقدار . وصرت طوال الأسابيع الأولى الشاقة التي قضيتها في السجن أمضى مع بولو كلما عدت من العمل في المساء وقبل أن أعنى بأى شيء آخر ، أمضى مع بولو مسرعاً الى ما وراء الثكنات ، فكان بولو يتواهب

أمامي فرحاً وكنت أتناول رأسه بذراعي وأقبله ثم أقبله ثم أقبله • كان شعور عذب جداً يستولى على قلبي وكان هذا الشعور في الوقت نفسه ممضاً مرأ • ما زلت أتذكر كم كان يسرني أن أتصور ( لقد كنت أتلذذ بعذابي ) أنه لم يبق في هذا العالم إلا مخلوق واحد يحبني ويتعلق بي منذ وصولي اذ نفحته قطعة من الخبز • كنت اذا لاعتبه جمداً في مكانه ساكناً وأخذ يلقي عليّ نظرات وديعة ويحرك ذيله في رفق وهندوء • هو صديقي ، صديقي الوحيد ، كلبى الوفى بولو •

## أصحاب جرد بروف



الزمان كان ينقضى حتى ألفت حياتي الجديدة شيئاً فشيئاً • أصبحت المشاهد التي أراها أمام عيني كل يوم لا تحزنني كما كانت تحزنني من قبل • ويمكن أن أقول بإيجاز ان السجن وسكانه

وعاداته أصبحت تتركني غير مبال ولا مكترث • صحيح أن النصائح مع هذه الحياة كان أمراً مستحيلاً ، ولكن كان عليّ أن أقبل هذه الحياة من حيث أنها لا محيد عنها ولا مناص منها • دفنت في أعماق نفسي جميع أنواع القلق التي كانت تهزني وتبث الاضطراب في قلبي • • أصبحت لا أطوّف في أرجاء السجن ضائعاً تائهاً ولا أدع للنعم أن يستولي علي • وقد قلّ الفضول المتوحش الذي كان يحيطني به السجناء فأصبحوا لا ينظرون اليّ بتلك الوقاحة المتصنعة التي كانوا ينظرون اليّ بها قبل ذلك • أصبح أمرى لا يعنيه كثيراً • وقد أرضاني هذا كل الرضى • صرت أتجول في الثكنة كأنني أتجول في منزلي • حتى اذا جاء الليل عرفت مكاني الذي أوى اليه • حتى لقد ألفت أموراً كان تصورهما وحده يمكن أن يبدو لي قبل ذلك أمراً لا سبيل الي قبوله • أصبحت أذهب في

كل أسبوع الى الحلاف أسلمه رأسى ليحلقه لى • لقد كنا ندعى فى كل يوم من أيام السبت الى مقر هيئة الحرس بعضاً وراء بعض ، فكان حلاقو الفوج يغسلون جماجمنا بماء الصابون البارد فى غير شفقة ولا رحمة ثم يكشطونها بامواسهم المثلثة كشطاً • اننى ما ان أتذكر هذا العذاب حتى تسرى فى جلدى رعشة • على أننى لم ألبث أن وجدت دواءً ، فان آكيم آكيمتش قد دلنى على سجين من القسم العسكرى كان يحلق للهواة بموساه الخاصة ويتقاضى أجره على ذلك كوبكا واحدا • هذا هو مورد رزقه • كان كبير من السجناء يختلفون اليه تحاشياً للحلاقين العسكريين دون أن يكونوا مع ذلك أناساً مترفين • وكان حلاقنا يطلق عليه اسم « الميجر » لا أدرى لماذا ! ولو سألتنى عن وجوه الشبه بينه وبين الميجر لارتبكت فما أعرف بماذا أجيب • اننى وأنا أكتب هذه الأسطر أرى ذلك « الميجر » ووجهه الضامر رؤىة واضحة • انه شاب طويل القامة كثير الصمت بليد العقل دائم الاستغراق فى مهنته • ما كان يرى قط الا وفى يده سير جلدى يسن عليه فى الليل والنهار موسى حادة • لا شك أنه قد اتخذ هذا العمل غاية قصوى لحياته • ولقد كان يشعر فعلاً بسعادة عظمت حين يحسن سنّ موساه وحين يجيئه أحد يلتمس خدماته • وكانت صابونه ساخنة دائماً وكانت يده خفيفة جدا كالمخمل ليناً ورفقاً ، وكان هو يزهو بحذقه ويتباهى بمهارته حتى اذا ألقى اليه بأجره ، وهو كوبك واحد ، تناوله غير مقبل عليه ولا حافل به فكأنه كان يعمل شغفاً بالفن لا طمعاً بالأجر •

وفى ذات يوم بينما كان آ ••• ف يتكلم عن هذا الحلاق زلت لسانه فسماه بالميجر وكان ذلك بحضور الميجر نفسه من سوء الحظ فاستشاط الميجر غيظاً واستبد به حنق شديد فعاقب الرجل عقاباً صارماً • صاح يقول له وهو يهزه هزاً قوياً على عادته والزبد يرغى فى فمه :

— هل تعلم يا وغد ما معنى ميجر؟ هل تدرك يا وغد ما قيمة الميجر؟  
فكيف تجرؤ ان تسمى باسم الميجر سجيناً حفيراً امامى وبحضورى؟  
وكان له • ف الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يتفاهم مع انسان  
كهذا الانسان •

لقد بدأت أحلم باطلاق سراحى منذ أول يوم من أيام اعتقالى • كان  
الشاغل الوحيد الذى أوتره على غيره هو أن أعد الايام التى سابقاها فى  
السجن ، اعدتها الف مرة ومرة ، بالف طريقة وطريقة • كنت لأستطيع  
أن أفكر فى شىء آخر • ان كل سجين محروم من حرته لأجل معلوم  
لا يفعل غير ما افعل • ذلك أمر لا يراودنى فيه شك • لا أستطيع ان  
أقول هل كان السجناء يعدون الايام مثلما أعدها • ولكن جموح أحلامهم  
وطيش آمالهم واندفاعهم فى الأمنيات كان يدهشنى كثيراً • ان الآمال التى  
تداعب نفس السجين تختلف اختلافاً أساسياً عن الآمال التى يتغذى بها  
قلب انسان حر طليق • ان الانسان الحر الطليق قد يرجو تحسين أوضاعه  
او تحقيق مشروع من مشاريعه ، ولكنه بانتظار ذلك يحيا ويعمل • فالحياة  
الواقعية تجره فى اعصارها ، ولا كذلك السجين : انه يحيا اذا شئت ، ولكن  
ما من سجين محكوم بالأشغال الشاقة عدداً من السنين يسلم بقدره على  
أنه نىء حاسم ، على أنه جزء من حياته الحقيقية • تلك غريزة لديه •  
هو يحس أنه فى غير منزله ؛ هو يجسب أنه فى زيارة ان صح التعبير ؛  
هو ينظر الى السنين العشرين التى حكم عليه بها نظرتة الى ستين فى أكثر  
تقدير ؛ هو واثق من أنه حين يقضى مدة حكمه فى الخامسة والخمسين  
من عمره لن يكون أقل نضارةً ولن يكون أقل فتوة منه فى الخامسة  
والثلاثين ؛ هو يحدث نفسه قائلاً : « ما يزال أماننا زمان طويل نحياه » ،  
وهو يطرد فى اصرار وعناد الخواطر التى تثبط العزيمة والشكوك التى  
تفت فى العضد • وحتى المحكوم بالسجن المؤبد يأمل أن يصل فى ذات



يوم أمر من بطرسبرج يقول : «انقلوا فلاناً الى مناجم نرتشنسك وحددوا موعداً للافراج عنه • ما أجمل هذا ! أولاً لأن الوصول الى نرتشنسك يستغرق ما يقرب من ستة أشهر ولأن حياة القافلة المتجهة الى مكان من الامكنة تفضل الحياة فى السجن مائة مرة ؛ وثانياً لأنه سيقضى فترة الاعتقال فى نرتشنسك ثم • • •

ما أكثر الشيوخ الشيب الذين يفكرون على هذا النحو !  
ورايت فى توبولسك رجالاً مشدودين الى الجدران بسلاسل • ان طول السلسلة متران • وعلى مقربة منهم مضاجع يرقدون فوقها • أنهم يشدون بهذه السلاسل لجريمه ارتكبوها بعد ترحيلهم الى سيريا • وهم يلبثون على هذه الحال من التكيل بالأغلال خمس سنين أو عشرة • جميعهم تقريباً من قطاع الطرق • لم أر بينهم الا واحداً كان يبدو عليه أنه انسان طيب المحتد • كان فى الماضى موظفاً فى احدى دوائر الدولة • وهو يتكلم بلهجة حلوة ، ويصفر أثناء حديثه ، ويصطنع ابتسامة محببة • لقد أظهرنا على السلسلة التى كبل بها ، وذكر لنا الطريقة المثلى للاضطجاع والرقود لا شك أنه انسان لطيف • ولقد كان جميع هؤلاء الأشقياء يسلكون سلوكاً لا غبار عليه ، حتى لكأن كلاً منهم راض عما كتب له • ولكن الرعبه فى انهاء مدة التكيل تحرقه حرقاً وتأكل نفسه أكلاً ، فاذا سألتهمونى لماذا ؟ قلت لأنه سيخرج عندئذ من زنزاتته الواطئة الخائفة الرطبة التى لا تعدو أن تكون نوافذها آجرات منزوعة من أماكنها ، وسيستطيع عندئذ أن يخرج الى فناء السجن وأن • • • بل هذا كل شيء فلن يسمح له يوماً بالخروج من فناء السجن • انه لا يجهل أن جميع الذين كبلوا بالسلاسل لن يبرحوا السجن فى يوم من الأيام ، وأنه سيقضى فى السجن عمره كله ، وأنه سيقضى فيه نحبه • انه يعلم ذلك ، لكنه يتمنى أن يتخلص من سلسلته ؛ وهل كان يمكنه لولا هذا التمنى أن يبقى مشدوداً

الى جدار خمس سنين أو ستاً دون أن يموت أو يجن ؟ هل يمكنه أن يقاوم هذا ؟

سرعان ما أدركت أن العمل وحده يستطيع أن ينقذنى ، أن يقوى صحتى وجسمى ، على حين أن القلق النفسى المستمر والاهتياج العصبى الدائم ، والهواء المحبوس المسبوء فى الثكنة ، سيهدمنى تهديماً • كنت أحدث نفسى قائلاً : « ان الهواء النقى والتعب اليومى وتعود حمل الاثقال لا بد أن يقوينى ، فبفضل ذلك سأخرج من السجن سليماً معافى قوى الجسم موفور الحيوية » • ولم يخطيء ظنى فان العمل والحركة قد نفعانى كثيراً •

وما أشد ما كنت أشعر به من جزع حين كنت أنظر الى أحد رفاقى ( وهو سيد من السادة ) فأراه يذوب كما تذوب شمعة ، مع أنه حين وصل الى السجن يوم وصولى انا كان شاباً وسيم المحيا قوى البنية صلب العوده، حتى اذا خرج من السجن كانت صحته قد تدمرت ، وكان شعره قد ابيض ، وكانت ساقاه قد ضعفتا فما تحملانه ، وكان الربو يخنق صدره خفناً • كنت حين انظر اليه اقول لنفسى : « لا ، انى أريد ان اعيش ، ولسوف أعيش » • ولقد كان من شأن حبى للعمل أن جلب لى فى أول الامر احتقار رفاقى وازدراءهم بى وسخرياتهم اللاذعة منى ، ولكننى كنت لا ألقى بالاً الى هذا ، وكنت أمضى نشيطاً الى حيث أرسل للعمل من الأعمال ، كحرق الرخام ودقه مثلاً • ان هذا العمل كان من أول الاعمال التى عهد الى بها ، وهو عمل سهل • ولقد كان المهندسون يحاولون جهدهم أن ييسروا العمل على السجناء الذين ينتمون الى طبقة النبلاء • والحق أن ذلك لم يكن من قبل التسامح والمحابة ، بل كان ضرباً من العدالة والانصاف • والا أفلا يكون غريباً أن يكلف بعمل واحد بعينه رجل ألف العمل بيديه ورجل آخر لا تبلغ قواه نصف قوى الأول ولا

عمل بيديه في يوم من الايام ؛ على ان هذا « التدليل » لم يكن مستمرا •  
 خنى لقد كان يتم خفيه لان الرقابه علينا كانت سيديدة • واد لم تكن  
 الاعمال المضنيه المرهفه نادرة فكيرا ما كان يتفق ان تكون المهمة فوق  
 ما تطيقه قوة النبلاء • فكان هؤلاء يلقون من العناء والعداب ضعفى ما كان  
 يلقاه منهما رفاقهم • كان يرسل لدقّ الرخام ثلاثة رجال او اربعة في  
 العادة ، هم في جميع الاحيان تقريبا شيوخ أو أشخاص ضعفاء - ونحن  
 من هؤلاء طبعاً ، يُضم اليهم عامل خبير عارف بالمهنة • وقد ظل يصحبنا  
 الى عملنا هذا شخص واحد خلال عدة سنين هو المازوف • انه رجل  
 قاسٍ ، مسن ، قد لوحته الشمس ، هزيل هزالاً شديداً ؛ وهو الى ذلك  
 قليل الكلام صعب المراس • كان يحقرنا احتقاراً عميقاً ، ولكنه يبلغ من  
 قلة التعبير عن دخيلته أنه كان لا يكلف نفسه عناء شتينا أو اهانتنا •  
 والسقيفة التي كنا نحرق الرخام تحتها قد بنيت على الشاطيء الوعر المنحدر  
 المقفر من النهر • وكان منظر النهر في الشتاء حزينا حيث يكثر الضباب.  
 وتبدو الضفة المقابلة عندئذ بعيدة بعيدة • ان في هذا المنظر المتوحش  
 المتجهم الاجرد لشيئاً يقبض الصدر ويمزق القلب ، ولكن المرء يشعر  
 بمزيد من الحزن حين تشرق شمس ساطعة فوق هذا السهل الأبيض  
 الممتد الى غير نهاية • ان المرء يتمنى عندئذ لو يطير الى بعيد في هذه  
 السهوب التي تبدأ عند الضفة الأخرى وتمتد الى أكثر من ألف وخمسمائة  
 فرسخ جنوباً ، منبسطة كأنها غطاء واسع • كان المازوف يأخذ في العمل  
 صامتاً عابس الوجه مكفهر الأسارير ، وكنا نشعر بالخجل من أننا  
 لا نستطيع أن نساعدته مساعدة ذات بال ، ولكنه كان ينهى عمله وحده  
 لا يطلب منا عوناً كأنما هو يريد أن يفهمنا ذنوبنا في حقه وأخطائنا تجاهه  
 وأن يجعلنا نشعر بالحسرة والأسف من أننا أناس لا خير فينا ، ولا فائدة  
 منا • وكان هذا العمل هو اشغال الفرن لحرق الرخام الذي نكوّمه فيه •

حتى اذا احترق الرخام احتراقاً تاماً فى اليوم التالى كان علينا ان نخرجه من الفرن • فكان كل واحد منا يتناول مجرفة ثقيلة فميلا صندوقا من الرخام المحترق وياخذ يدقه • ان هذا العمل لممتع ، فالرخام الهش سرعان ما يستحيل الى تراب ابيض ساطع • انه يتفتت بسرعة وسهولة • كنا نرفع مطارقنا الثقيلة ونهوى بها على الرخام بضربات رهيبه نعجب بها نحن انفسنا : حتى اذا تعبنا شعرنا بمزيد من الخفه والنشاط • ان خدودنا تحمر وان الدم يتدفق فى عروقنا تدفقاً أسرع • وكان أرمازوف يتفضل عندئذ بالنظر الينا متواضعا مترقفاً متلطفاً كأنما هو ينظر الى صبيه صغار • وكان يدخن غليونه فى هذه الاثناء وقد لاح فى وجهه الرضى والتسامح دون أن يستطيع منع نفسه من التأفف والتذمر مع ذلك متى فتح أحد فمه • وكذلك كان امره مع جميع الناس على كل حال • وأظن أنه فى قرارة نفسه رجل طيب شهم •

وقد كُلفت أيضاً بعمل آخر هو أن أدير رحى المخرطة • كانت هذه الرحى عالية ثقيلة ، وكان لا بد لى من بذل جهود كثيرة من أجل أن أديرها، لا سيما حين يكون العامل (وهو من عمال ورشات سلاح الهندسة) يصدد صنع درابزين سلم أو قائمة منضدة كبيرة مما يحتاج الى جذع شجرة كامل تقريباً • واذ لم يكن فى وسع رجل واحد أن ينهض بهذا العمل ، فقد كانوا يرسلون سجينين هما أنا والسجين ب ••• الذى كان ينتمى الى طبقة السادة فى الماضى • كان هذا العمل يقع على عاتقنا فى جميع الأحيان تقريباً خلال عدة سنين متى كان هنالك شىء يجب خراطته • وكان ب ••• ضعيف البنية هزيل الجسم ما يزال شاباً ، وكان مصاباً بمرض فى صدره • لقد سجن قبلى بسنةٍ مع رفيقين آخرين هما من النبلاء أيضاً ؛ فأما الأول فكان يصلى ليل نهار ( وكان السجناء يحترمونه احتراماً كبيراً بسبب ذلك ) • وقد مات أثناء وجودى بالسجن • وأما الثانى فكان فتي

في ريعان الشباب نضر الوجه زاهى اللون قوى الجسم شجاع القلب قد حمل رفيقه ب \* \* \* على ظهره مسافة سبعمائة فرسخ لأن رفيقه سقط في الطريق من شدة التعب بعد نصف مرحلة من مراحل الرحلة . ولذلك كانت صداقتهما وثيقة قوية . ان ب \* \* \* شاب كريم النشأة رفيع التهذيب نبيل الخلق طيب النفس لكن المرض قد أفسد روحه وجعله سريع الغضب شديد الحنق . كنا ندير الرحى متعاونين وكان هذا العمل يشوقنا ويلقى هوى من نفوسنا ، وكنت أعده أنا رياضة ممتازة .

وكنت أحب جرف الثلج حباً خاصاً . وذلك ما كنا نفعله بعد الاعاصير التي كانت تهب كثيراً في فصل الشتاء ، فإذا هب اعصار من هذه الاعاصير يوماً كاملاً دفن عدد من السيوت تحت الثلج حتى النوافذ ، هذا اذا لم يطمر طمرا كاملاً . حتى اذا توقفت الزوبعة وظهرت الشمس من جديد امرنا بنزع الثلج عن المباني التي غطتها اكوامه . وكنا نرسل الى هذا العمل أفواجا كبيرة وربما أرسل اليه جميع السجناء بلا استثناء . فكان كل منا يحمل مجرفة ، وكان على كل منا أن ينجز عملاً محدداً يبدو له في كثير من الاحيان أن من المستحيل عليه أن ينجزه الى آخره . كان السجناء يشرعون في العمل خفافاً نشطين . والثلج لا يكون قد تلبد بعد ولا يكون قد تجلد منه الا سطحه . فكنا نجرفه جرفات كبيرة نبشرها فيما بيننا ونشرها ثراً فاذا هي تستحيل في الهواء ذرات ساطعة البريق . المجرفة تفوض بسهولة في الكتلة البيضاء المتلاثلة تحت أشعة الشمس والسجناء يقومون بهذا العمل فرحين مرحين في أكثر الأحيان . فهواء الشتاء البارد ينعشهم ، والحركة توظف نشاطهم . كل واحد يشعر بالبهجة والحبور . وهذه ضحكات وصرخات وأمازيح تُسمع هنا وهناك . والعاملون يتراشقون كرات الثلج ولكن ذلك كان بعد مدة من الوقت يثير استياء العقلاء الرصينين الذين لا يحبون الضحك ولا يؤثرون المرح ،

فلذلك كانت هذه الحماسة التي تشمل السجناء تنتهى فى أكثر الأحيان بتبادل الشتائم والمسبات •

واتسعت دائرة أصحابى شيئاً بعد شيء ، رغم انى لم يخطر ببالى قط أن يكون لى أصحاب : لقد كنت دائماً قلق النفس كئيب المزاج كثير الشك والحذر • وانما قامت هذه العلاقات وانعقدت هذه الصلات من تلقاء نفسها • ان أول من جاء يزورنى انما هو السجين بتروف • واذا قلت « يزورنى » فانى ألحُ على هذه الكلمة • كان بتروف يقيم فى القسم الخاص الذى هو أبعد الثكنات عن ثكنتى • والمفروض فى ظاهر الأمر أن لا تقوم بينى وبينه أية صلة ، فما من رابطة كانت تجمعنا أو كان يمكن أن تقرب أحداً من الآخر ومع ذلك فقد اعتقد بتروف خلال الفترة الأولى من اقامتى فى السجن أن من واجبه أن يجىء الىّ كل يوم تقريباً فى الثكنة التى قيم فيها او أن يستوقفنى على الافل اثناء فترة الراحة التى كنت أقضيها وراء الثكنات ابعـد مايمكن أن أكون عن جميع الأنظار • وقد أزعجنى الحاحه هذا فى أول الأمر ولكنه عرف كيف يتصرف بحيث اصبحت زيارته لى سلوى تسرّى عني رغم أنه لم يكن منفتح النفس منطلق اللسان • هو رجل قصير القامة قوى البنية نشيط الهمة خفيف الحركة حاذق • ان وجهه هو من الوجوه التى يسر مرآها : وجه شاحب اللون ناتئ الوجهتين جرى النظر له أسنان بيضاء صغيرة منضّدة؛ وكان يمضغ قطعه من التبغ دائماً يضعها بين اللثة والشفة السفلى من فمه ( ان كثيراً من السجناء قد ألفوا عادة مضغ التبغ على هذا النحو) • وكان يبدو أصغر سنا من الواقع ، فلو رآه الرئى لما ظن أنه تجاوز من عمره الثلاثين ، مع أنه كان فى الأربعين • وهو يحدثنى بغير كلفة ولا تحرج ، ويقف منى موقف الند للند ، مع كثير من الأدب واللطف والذوق على كل حال ؛ فاذا لاحظ مثلاً أننى أبغى الوحدة والخلوة تحدث الىّ دقيقتين

انتين ثم لم يلبث أن يتركني وشأني • وكان في كل مرة يشكر لي حسن استقبالى له ومعاملتى اياه ، وذلك أمر ما كان يفعله مع أحد قط • يجب أن أضيف الى هذا أن تلك العلاقات التي قامت بينى وبينه لم تتغير ولم تبدل لا أثناء الفترة الأولى من اقامتى فى السجن فحسب بل أثناء عدة سنين ؛ كما أنها لم تزد توثقاً وعمقاً فى يوم من الأيام رغم أنه كان مخلصاً لي كل الاخلاص حقاً • لم أستطع أن أحدد على وجه الدقة ما كان ينشده من صحبتي ، ولا أن أعرف على وجه الدقة لماذا كان يجيئني كل يوم • ولقد اتفق أن سرقني أحياناً • ولكن ذلك كان « على غير ارادة منه » دائماً • ولم يكن يجيئني قط لاقتراض شيء من مال : معنى ذلك أن ما كان يجذبني نحوي ويشده اليّ ليس هو المال ولا هو أية منفعة أخرى •

لا أدري لماذا كان يتراءى لي أن هذا الرجل لا يعيش فى نفس السجن الذى أعيش أنا فيه وانما يعيش فى منزل آخر ، فى المدينة ، بعيدا جدا ، حتى لكأنه يزور السجن مصادفة يستطلع الأخبار ويسال عنى ويرى كيف نعيش • انه مستعجل دائماً ، كأنه ترك أحدا لحظةً من اللحظات ، وكان أحدا ينتظره بفارغ صبر ، أو كأنه هجر عملاً من أعماله الى حين فهو حريص على العودة الى العمل يستأنفه بأقصى سرعة • ومع ذلك كان لا يبدو عليه التسرع • ان فى نظره ثباتاً غريباً وتحديقاً عجيباً ، على شيء يسير من جرأة وسخرية • هو ينظر الى بعيد ، من فوق الأشياء ، كأنه يحاول أن يتبين شيئاً وراء الشخص المائل أمامه ؛ وهو يبدو دائم الدهول • كنت أتساءل فى بعض الأحيان : ترى أين يذهب بتروف بعد أن يتركني ؟ وأين يُنتظر بفارغ صبر ؟ والواقع أنه كان يذهب الى نكته من الثكنات أو الى المطبخ ، بخطى خفيفة فيجلس بجانب المتحدثين يصغى الى حديثهم بانتباه ويشارك فى هذا الحديث بحرارة ثم اذا هو



بتروف  
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا



يسكت لائذاءً بصمت مطبق على حين فجأة • ولكن سواء أتكلّم أم اعتصم بالصمت ، فإن المرء يقرأ في وجهه دائماً أن ذهنه منصرف الى مكان آخر وأنه يُنتظر هناك ، في بعيد • وأغرب ما في الأمر أنه لم يكن يشغل نفسه بعمل من الأعمال في يوم من الأيام ، فهو فيما عدا الاشغال التي يحمل عليها في السجن حملاً ، لا يقوم بأي عمل ، بل ينفق وقته عاطلاً فارغاً • وكان لا يُحسن أية مهنة ، وكان لا يملك أى مال قط ، ولكن ذلك لا يحزنه ولا يبسه • فاذا سألتني الآن عمّ كان يكلمني وفيم كان يحدثني قلت ان حديثه كان غريباً كشخصه • وكان متى لاحظت أنني ماضٍ وحدي الى خلف الثكنات استدار نحوي فجأة ، وتبعني مسرعاً • انه سريع المشي سريع الالتفات دائماً • وها هو ذا يصل الى سائراً بخطى وثيدة ، رغم ما يظهر من أنه كان يركض ركضاً •

- نهارك سعيد !

- نهارك سعيد !

- هل أزعجك ؟

- كلا •

- أردت أن أسألك عن شيء يتعلق ببونا بريت \* • أردت أن أسألك أليس يمت بقريبي الى ذلك الذي أتى الينا سنة ١٨١٢ ؟ ( كان بتروف ابن جندي فهو يعرف القراءة والكتابة ) •

- هو كذلك •

- يقال انه رئيس ، فأى رئيس هو ؟ ورئيس ماذا هو ؟

ان أسئلة صاحبي متمجلة متقطعة دائماً ، كأنه يريد أن يعرف ما يسأل عنه بأقصى سرعة ممكنة •

• شرحت له رئاسة نابليون ، وأضفت أنه قد يصبح امبراطوراً  
- كيف ذلك ؟

أطلعته على ما أعرفه بقدر ما أمكنتني ذلك ، فكان يصغى الىّ بانتباه ،  
وأدرك ما قلته له ادراكاً تاماً ، وأضاف يقول وهو يميل على بأذنه :  
- هم ... آ ... أردت أن أسألك أيضاً يا ألكندر بتروفتش ،  
هل هناك حقاً قروود لها أيد تتدلى حتى تصل الى القدمين ، وطولها طول  
انسان ؟

- نعم •

- كيف هذه هي القروود ؟

وصفتها له وذكرت له كل ما أعرفه عن هذا الموضوع ؟

- أين تعيش هذه القروود ؟

- فى البلاد الحارة • يوجد منها فى جزيرة صومطرة •

- أهذا فى أمريكا ؟ يقال أن الناس هناك يسرون على رؤوسهم •

- طبعا لا ... لعلك تقصد انهم على الوجه الثانى من الكرة

الأرضية •

وشرحت له ما هى أمريكا وماهما الوجهان المتقابلان من الكرة

الأرضية ، فكان يصغى الىّ بانتباه شديد ، كأنه لم يجئنى الا ليسألنى عن

الوجهين المتقابلين من الكرة الأرضية •

- آ ... آ ... لقد قرأت فى السنة الماضية قصة عن الكوتيسة

دولا فالير • كان آريفييف قد جاء بهذا الكتاب من عند العريف • أهى

حقيقة أم خيال ؟ ان الكتاب من تأليف دوما •

- هى قصة من اختراع الخيال طبعا •

- طيب ، الوداع ، شكراً •

قال بتروف ذلك ثم مضى • والحق أننا ما كنا نتكلم يوماً على غير هذا النحو تقريباً •

لقد سألت عنه • فاعتقد م ••• أن من واجبه أن يتحدثني حين علم بهذه العلاقة القائمة بيني وبين هذا الرجل ، وقال فيما قال ان كبيراً من السجناء قد أثاروا في نفسه الكره والأشمئزاز والرعب منذ وصوله الى السجن ؛ ولكن ما من أحد ، حتى جازين ، قد أثار في نفسه من الهلع مثل الذي أثاره بتروف هذا •

قال لي م ••• :

- انه أمضاهم عزيزة وأشدهم هولاً • انه لا يتورع عن شيء • ما من شيء يمكن أن يصده عن انقاذ نزوة من النزوات تبدو له في لحظة من اللحظات • انه قد يفتالك اذا خطر بباله أن يفعل • يكفي أن تدور في خلدك هذه الفكرة حتى يقدم عليها غير متردد ولا هيَّاب ، فاذا فعل لم يشعر بشيء من الندامة ، وأحسب أنه لا يملك عقله •••

همنى هذا الكلام كثيراً ، ولكن م ••• لم يستطع أن يقول لي لماذا يرى في بتروف هذا الرأي • ألا انه لشيء غريب ! لقد ظلمت أرى هذا الرجل خلال عدة سنين وكنت أتحدث معه في كل يوم من الأيام تقريباً وكان صادق المودة والاخلاص لي دائماً ( رغم أنني لم أدرك سبب ذلك ) وفي أثناء ذلك الوقت كله كنت ازداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن م ••• على حق رغم أن الرجل قد التزم في حياته غاية الحكمة والتعقل والاعتدال ولم يصدر عنه فعل شاذ قط ؛ وكنت أزداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن هذا الرجل ربما كان أشد من في السجن بأساً وأصعبهم مراساً وأعزهم على الضبط • لماذا ؟ لا أستطيع جواباً على هذا السؤال •

ان بتروف هذا هو بعينه ذلك السجين الذى أراد أن يقتل الميجر حين نودى لنويع العقوبة فيه ، وقد ذكرت كيف أن المجير قد « أنقذ باعجوبة » لانه انصرف قبل توقيع العقوبة بدقيقة واحدة . فى ذات مرة حين كان بتروف جنديا ، قبل وصوله الى السجن ، ضربه كولونيله أثناء التدريب ، وأحسب أنه كان قد ضرب قبل تلك المرة كثيرا ولكنه كان فى ذلك اليوم فى حالة من المزاج لا تتيح له أن يحتمل اهانة أو أن يقبل ايذاء . فها هو ذا يذبح الكولونيل فى وضح النهار على مرأى من جميع أفراد الكتيبة أثناء التدريب . اننى لا أعرف جميع تفاصيل هذه القصة ، لانه لم يروها لى فى يوم من الأيام . ان هذه الانفجارات لا تظهر فيه طبعا الا حين تسيطر عليه الغرائز فينقاد لها ويندفع معها . وكانت هذه الانفجارات نادرة . أما فى الأحوال العادية فانه رجل عاقل بل وهادى . ان أهواءه القوية المستعرة العارمة مخبئة مخفية كأنها الجمر يرقد ساكنا تحت الرماد .

لم ألاحظ فى يوم من الأيام أنه متبجح مزهو مفاخر بنفسه ككثير من السجناء الآخرين . كان لا يتشاجر الا نادراً . ولم يكن بينه وبين أحد علاقات صداقة ، ربما باستثناء سيروتكين ، وذلك حين تكون به حاجة الى سيروتكين . ومع هذا فقد رأيت فى ذات يوم مهتاجاً احتياجاً شديداً . كان قد طالب بشئ من الأشياء فمُنِع عنه فشعر بأنه أهين ، فأخذ يتشاجر مع خصمه فى هذا الشأن . ان خصمه سجين طويل القامة قوى البنية عريض المنكين كرياضى ، اسمه فاسيلى أتونوف، عُرِف بشراسة طبعه وسوء سلوكه وحبه للمشاجرة وميله الى المناكدة والمناكفة . كان هذا الرجل ينتمى الى فئة المحكومين المدنيين ، ولم يكن بالرجل الجبان قط . تصايح الرجلان فقدرت أن هذه المشاجرة لا بد أن تنتهى الى ما تنتهى اليه أمثالها من المشاجرات من

- طيب ، الوداع ، شكراً •

قال بتروف ذلك ثم مضى • والحق أننا ما كنا نتكلم يوماً على غير هذا النحو تقريباً •

لقد سألت عنه • فاعتقد م •••• أن من واجبه أن يحذرني حين علم بهذه العلاقة القائمة بيني وبين هذا الرجل ، وقال فيما قال ان كيرا من السجناء قد أثاروا في نفسه الكره والاشمئزاز والرعب منذ وصوله الى السجن ؛ ولكن ما من أحد ، حتى جازين ، قد أثار في نفسه من الهلع مثل الذي أثاره بتروف هذا •

قال لي م ••• :

- انه أمضاهم عزيزة وأشدهم هولاً • انه لا يتورع عن شيء • ما من شيء يمكن أن يصدده عن انقاذ نزوة من النزوات تبدو له في لحظة من اللحظات • انه قد يفتالك اذا خطر بباله أن يفعل • يكفي أن تدور في خلدك هذه الفكرة حتى يقدم عليها غير متردد ولا هيَّاب ، فاذا فعل لم يشعر بشيء من الندامة ، وأحسب أنه لا يملك عقله •••

همنى هذا الكلام كثيراً ، ولكن م ••• لم يستطع أن يقول لي لماذا يرى في بتروف هذا الرأي • ألا انه لشيء غريب ! لقد ظلمت أرى هذا الرجل خلال عدة سنين وكنت أتحدث معه في كل يوم من الأيام تقريباً وكان صادق المودة والاخلاص لي دائماً ( رغم أنني لم أدرك سبب ذلك ) وفي أثناء ذلك الوقت كله كنت ازداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن م ••• على حق رغم أن الرجل قد التزم في حياته غاية الحكمة والتعقل والاعتدال ولم يصدر عنه فعل شاذ قط ؛ وكنت أزداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن هذا الرجل ربما كان أشد من في السجن بأساً وأصعبهم مراساً وأعزهم على الضبط • لماذا ؟ لا أستطيع جواباً على هذا السؤال •

لم أفهم لماذا يبقى فى السجن ، لماذا لا يهرب ؟ و يقينى أنه ما كان ليرتد  
 عن الهرب أبدا لو أراد ذلك • ان العقل لا سلطان له على أناس مثل  
 بتروف الا بمقدار ما تكون نفوسهم خالية من الرغبة فى شىء من الأشياء •  
 حتى اذا شبت فى نفوسهم هذه الرغبة لم تحل بينهم وبين تحقيق ارادتهم  
 أية عقبات • انى لعلى يقين انه كان فى وسعه أن يفر من السجن بمهارة  
 و حذق خادعا جميع الناس باقيا بلا طعام أسابيع برمتها مخبئا فى غابة أو  
 بين أشجار الحلفاء على ضفة نهر • غير أن هذه الفكرة لم تكن قد راودته  
 بعد ، أو هو لا يرغب فيها رغبة تامة • لم ألاحظ فيه قدرة على الحكم  
 الصادق أو الحس السليم • ان أمثال بتروف يولدون مع فكرة تدحرجهم  
 طوال حياتهم ذات اليمين وذات الشمال على غير شعور منهم فيظلون يطوفون  
 هكذا الى أن يلتقوا بشىء يوقظ الرغبة فى أنفسهم ايقاظا عيفا قويا • فاذا  
 التقوا بهذا الشىء لم يبالوا أن يندفعوا اليه ولو كانت رؤوسهم نمنا له •  
 لقد كنت استغرب فى بعض الأحيان كيف يتسنى لرجل كان قد قتل  
 كولونيله لأنه ضُرب ، أن يرقد بغير احتجاج من أجل أن يجلد • لقد  
 كان بتروف يُجلد حين يقبض عليه متلبسا بجرم تهريب الخمرة الى  
 السجن • ذلك أن بتروف ، كسائر من ليس لهم مهنة معينة ، يقوم بتهريب  
 الخمرة الى السجن • لقد كان بتروف يستسلم للجلد كأنه يقبل هذه العقوبة  
 ويرضاها ، وكأنه يعترف بأنه مذنب • ولولا ذلك لكان ارقاده أصعب من  
 قتله • وقد استغربت غير مرة أن يسرقنى رغم ما يضمرة لى من حب  
 ويحمله لى من عاطفة • كان ذلك يتفق أن يصدر عنه صدور نزوات تراوده  
 من حين الى حين • هكذا سرق فى ذات يوم توراتى التى طلبت منه أن  
 يردّها الى مكانها • ولم يكن بينه وبين ذلك المكان الا بضخ خطوات ،  
 لكنه التقى أثناء الطريق بمن يشتريها فباعه الكتاب • وسرعان ما أنفق ثمنه  
 فى شراء خمرة • لعله كان يحس فى ذلك اليوم برغبة شديدة فى الشراب

• • وهو انسان ادا اراد شيئاً فلا بد ان تتحقق ارادته • ان امرءا منسل بتروف لا يحجم عن قتل انسان فى سبيل الحصول على خمسة وعشرين كوبكا لا لشيء الا ان ينفق هذا المبلغ فى شرب نصف لتر من الخمرة • وهو فى غير هذه الحالة يحتقر مئات الالوف من الروبلات • وقد اعترف لى فى ذلك المساء نفسه بسرقة ولكن دون ان تظهر عليه اية علامة من علامات الخجل او ايه امارة من امارات الندم • وانما ذكر الامر بلهجة بسيطة كل البساطة ليس فيها شيء من الاكتراث او الاهتمام ، كان مافعله حادث عادى • ولقد حاولت او اؤنيه التائب الذى يستحقه ، لاننى اسفت على توراتى أشد الأسف ، فاذا هو يصنى الى كلامى هادئاً هدوءاً كبيراً لا يشعر بشيء من غيظ او حنق ، واذا هو يسلم لى بان التوراة كتاب مفيد جدا ، واذا هو ياسف صادقاً لحرمانى من هذا الكتاب ولكنه لا يظهر فى لحظة من اللحظات اى ندم على أنه سلبنى هذا الكتاب وكان ينظر الى أثناء ذلك نظرة فيها من النقه ما جعلنى أكف عن تقريره فوراً • لقد تحمل تأنيبى لاعتقاده بأن هذا التائب أمر لا بد منه ، وبأنه يستحق التبريع على مثل هذا العمل ، وأن من واجبى اذن أن أسبه وأن أشتمه لأسرى عن نفسى ولا تخفف من حزننى على فقدى الكتاب ، ولكنه كان فى قرارة نفسه يعد هذه الأمور كلها ترهات وسخافات لا بد أن يشعر أى انسان جاد بالخجل من الحديث فيها ؛ بل أغلب ظنى أنه كان يعدنى طفلاً صغيراً وصياً غراً لا يفقه من شؤون هذا العالم أبسطها • كان يجينى اذا أنا حدثته فى امور أخرى غير الكتب أو العلوم • ولكنه كان يجينى عندئذ من قبيل التأدب وحده ، وكانت اجابته موجزة مقتضبة • فكنت أتساءل : ترى ما الذى يدفعه الى سؤالى عن الكتب بالذات ؟ وكنت أثناء الحديث أختلس النظر اليه كانما لاتأكد من أنه لا يستهزى بى ، ولكننى لاحظت أنه كان يصنى الى جاداً كل الجد متبهاً أشد الاتباه رغم أن هذا الاتباه لا يستمر

طويلاً في كثير من الأحيان وكان ذلك يخفقني في بعض الاحوال • ان الاسئلة التي يلقها على واضحه دقيقة دائماً ، وان الاجوبة التي كانت تقتضيها هذه الاسئلة لم تكن تدهسه ••• اغلب الظن انه كان قد اقتنع اقتناعاً حاسماً اني امرؤ لا يمكن أن اخاطب كما يخاطب سائر الناس وانى لا أفهم شيئاً في خارج نطاق الكتب •

اننى لعلى يقين انه كان يحبني • ولقد كان هذا يدهشني كثيراً • ترى هل كان يعدني طفلاً ؟ هل كان يعدني رجلاً لم يكتمل نضجه ؟ هل كان يشعر نحوى بذلك النوع من الشفقة التي يشعر بها كل انسان هوى نحو انسان آخر أضعف منه ؟ هل كان يحسبني ••• لا أدري ! انى لعلى يقين من أنه كان يشعر نحوى بشفقة ، رغم ان هذه الشفقة لم تمنعه من أن يسرقني • ولا شك أنه حين كان يسرقني كان يحدث نفسه قائلاً : « هيه ! يا له من رجل مضحك غريب شاذ ! انه لا يجيد حتى المحافظة على ما يملك » • وأحسب أنه كان يحبني بسبب ذلك • قال لي ذات يوم كأنما على غير ارادة منه :

- أنت يا الكسندر بتروفتش مسرف في الطيبة! أنت تبلغ من البساطة والسداجة أن المرء يشفق عليك حقاً !  
وأضاف يقول بعد دقيقة :

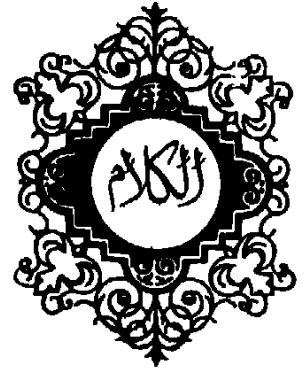
- لا تحمل كلامي محملاً سيئاً يا الكسندر بتروفتش ، فانما أنا أقوله بحسن نية •••

ان المرء يرى أحياناً في الحياة رجالاً مثل بتروف يظهرن ويؤكدون أنفسهم في لحظة من لحظات الاضطراب أو الثورة فهم يهتدون عندئذ الى النشاط الذي يناسبهم ويجدون العمل الذي يتفق وطبيعتهم • ليس هؤلاء الرجال رجال أقوال ، فهم لا يستطيعون أن يكونوا محرضين أو أن يكونوا



قادة ثورات ، ولكنهم هم الذين ينفذون ويعملون ، يعملون ببساطة ،  
بغير ضوضاء ، ينقضون على الحواجز أول المنقضين ، ويهجمون على  
العقبات أول الهاجمين ، ويتقدمون الى الأمام حاسرى الصدور لا يمنعهم  
عن الأقدام تفكير ولا تصدهم عن الأقدام خشية ، والناس جميعاً يسرون  
وراءهم ، يسرون وراءهم سيراً أعمى ، حتى يبلغوا الأسوار، حيث يلقون  
مصارعهم فى العادة • لا أظن أن بتروف قد انتهى الى خير : ان حياته  
مهياة لخاتمة عنيفة • واذا لم يكن قد مات حتى اليوم فانما يكون مرد ذلك  
الى أن الفرصة لم تعرض بعد • من يدري على كل حال ؟ قد يبلغ أقصى  
الشيخوخة ثم يموت موتاً هادئاً جداً بعد أن يكون قد طوف هنا وهناك  
دون هدف أو غاية • ولكننى أعتقد أن م ••• كان على حق ، وأن بتروف  
كان أشد من فى السجن بأساً وأصلبهم عوداً وأقواهم شكيمة •

# أولو العزم لوقا



على أولى العزم صعب • انهم نادرون في المعتقل  
وفى كل مكان ، يعرفهم المرء من الخوف الذى  
يوجهونه الى النفوس ، ومن الحذر الذى يعاملهم  
به الناس • ان شعوراً لا يقاوم قد دفعنى فى أول

الأمر الى النأى عن هؤلاء الرجال • ولكننى غيرت نظرتى بعد ذلك حتى  
الى القتلة السفاكين الرهييين • وهناك رجال لم يقتلوا فى يوم من الأيام ،  
ولكنهم أشد شراسة من أولئك الذين قتل واحد منهم ستة أشخاص • ان  
هناك جرائم يصعب على المرء أن يتصورها من شدة الغرابة فى اقترافها ؛  
وانما أقول ذلك لأن الجرائم التى يرتكبها أفراد من الشعب تكون أسبابها  
باعتة على الدهشة فى كثير من الأحيان •

اليكم نموذج قاتل يُصادف كثيراً : هو رجل يعيش حياة هادئة  
مسالمة موادعة ، لكن قدره قاسٍ فهو يتألم ويتعذب ( هو مثلاً فلاح يعمل  
فى أرض أو قن قد اتخذ خادماً أو واحد من سكان المدن أو جندى فى  
الجيش ) وها هو ذا يشعر فجأة بتمزق فى صدره فلا يطيق صبراً فاذا  
هو يغمد سكينه فى صدر الشخص الذى يضطهده ، فى صدر الشخص

الذى يناسبه العداة • ان سلوك هذا الرجل يصبح بعدئذ سلوكا شاذا عجيبا يتجاوز كل حد • لقد قتل مضطهده او عدوه ، وتلك جريمة طبعاً ، لكن لها تفسيراً • لقد كان هناك سبب دفعه اليها • اما بعد ذلك فان هذا الرجل لا يقتل أعداءه وحدهم بل يقتل اى انسان ، يفل اول قادم ، يقتل للقتل ، يقتل لكلمة ساءته أو نظرة لم تعجبه ، يقتل ليجعل عدد قتلاه شعفاً لا وتراً ، أو يقتل لا لشيء الا أن يقول : « ابعد عن طريقى » • انه يتصرف تصرف سكران يهذى ، حتى اذا تجاوز هذا الحد المرسوم وانتقل الى الجهة الأخرى لم يبق فى نظره شيء يمكن أن يعد مقدساً ؛ وقد يذهل هو نفسه من ذلك ويشده له ، فهو الآن يتخطى كل شرع ويتمدى كل سلطة ويتمتع بالحرية التى خلقها لنفسه طافحة غير ذات حدود ، يجد لذة فى ارتجاف قلبه ، فى الرعب الذى يحسه ، فى الهول الذى يشعر به • وهو يعرف أن عقاباً رهيباً ينتظره • لعل احساساته أن تشبه احساسات انسان يميل من أعلى برج على الهوة السحيقة التى يراها فيتمنى أن يلقى بنفسه منكس الرأس حتى يفرغ من الأمر بأقصى سرعة • يقع هذا لأفراد هم بين الناس أكثرهم مسالة وموادعة • وليس بندر أن نرى هذا التناقض : ليس يندر أن نرى أناساً كانوا مضطهدين مروّعين فاذا هم يصبحون حريصين على أن يضطهدوا غيرهم وأن بروّعوا غيرهم بمقدار ما اضطهدهم غيرهم وروّعهم غيرهم • واذا نحن أمام انسان يائس مستميت يجد لذة فيما يلقى فى نفوس الناس من جزع وهلع ويجد سعادة فيما يبعثه فى نفوس الناس من اشمئزاز وتقزز ، فهو يندفع فى أعمال جنونية من قبيل اليأس وهو فى أكثر الأحيان ينتظر عقاباً وشيكاً ويحترق شوقاً الى أن تحل مشكلته ويحدد مصيره وينتهى أمره ، لأنه يحس أن عبء هذا اليأس أثقل من أن يستطيع ظهره وحده أن يحمله • والغريب أن هذا الهياج الشديد وهذا العدوان القوي

يظنان مستولين عليه مستبدين به الى أن ينال العقوبة ، حتى اذا نالها بدا كأن الخيط قد انقطع ، فكأن العقوبة تضع حداً لعذابه ، فاذا هو يهدأ على حين فجأة ، واذا هو ينطفئ ، واذا هو يصبح خرقة رخوة لاتماسك فيها ، بل انه لينهار منذ توقع فيه العقوبة ، فاذا هو يستغفر الناس ويطلب الصفح والعتو من البشر ، حتى اذا صار في سجن الأشغال الشاقة انقلب شخصاً آخر فما يتصور أحد حين يراه أشبه بدجاجة مبتلة أنه قد قتل خمسة رجال أو ستة .

بين هؤلاء المجرمين أناس لا يروضهم السجن بسهولة ، فهم يحتفظون بشيء من المباهاة ، وهم يظهرون كثيراً من الادعاء ، حتى لتسمع أحدهم يقول : « هيه ! اسمع ! ما أنا من تظن ! لقد بعثت الى العالم الاخر بستة ارواح ! » ولكن هؤلاء يرضخون دائماً في آخر الامر . ولقد يسلون أنفسهم من حين الى حين بتذكر ما قاموا به من أعمال جريئة وما اندفعوا فيه من أفعال طائشة ، حين كانوا أناساً يائسين مستميتين ؛ ولقد يحب أحدهم أن يقع على مستمع ساذج فيأخذ يتباهى أمامه بما فعل مختللاً على احتشام ويروى له ما أقدم عليه من أعمال وهو يحاول طبعاً اخفاء رغبته في ادعاش السامع من قصته ويختم كلامه بقوله : « ذلك ما كنت ! » . ألا ما أرففه في التعبير عن غروره على حذر واستخفاء ! ألا ما أبرع هذا الالهال المتواني الذي يظهر عليه وهو يروى قصة كهذه القصة ! ان في اللهجة نفسها وان في كل كلمة يقولها ادعاءً يعرف كيف يغلفه بالتواضع ! ترى أين تعلم هؤلاء الناس هذا كله ؟

وقد أصغيت في احدي الأمسيات الطويلة من الأيام الأولى التي قضيتها في السجن الى حديث من هذه الأحاديث ، فتصورت بسبب قلة خبرتي ونقص تجربتي ، أن الشخص الذي كان يقص حكايته مجرم جبار ذو طبع من حديد بينما كنت في ذلك الحين أكاد أزدري بتروف

وأستخف به • كان الشخص الذى يقص حكايته وهو يسمى لوقا كوزميتش فد أردى ضابطا برتبة ميجر لا لسبب اخر غير المتعة واللدّة • ان لوقا كوزميتش هذا هو بين جميع سجناء ثكنتا اقصرهم وانحفهم وقد ولد فى الجنوب وكان قنا من الاقنان الذين لا يعملون فى الارض بل يعملون خدما فى منازل ساداتهم • ان فيه حدة وتعاليا ، هو « طائر صغير لكن له منقارا ومخالب » كما يقول المثل • والسجناء يعرفون حقيقة الرجال بغيرزة فطروا عليها فكانوا لا يحترمون لوقا هذا الا قليلاً جداً • انه سريع التاذى كثير الغرور شديد الكبرياء • كان فى ذلك المساء جالساً على سريره يخيظ قميصاً ، فلقد كان يعمل فى الخياطة ؛ وعلى مقربة منه كان يجلس جاره السجن كوبيلين ، وهو شاب محدود الذكاء بليد الحس غبى العقل ، ولكنه طيب القلب لطيف المعشر ، الى كونه ضخّم الجسم قوى البنية • كان لوقا يتساجر مع جاره هذا فى كثير من الأحيان ، ويعامله فى استعلاء وتجبر ، ويسخر منه ويستبد به ويطغى عليه ، ولكن كوبيلين لا يلاحظ شيئاً من ذلك كله ، لما أوتى من طيب القلب وبراءة السريرة وحسن النية • كان كوبيلين ينسج عندئذ جوربا ، ويصنئ الى لوقا بغير اهتمام ؛ وكان لوقا يتحدث بصوت عال وكلام متميز • كان يريد أن يسمعه جميع الناس رغم أنه يتظاهر بأنه لا يخاطب الا كوبيلين • قال وهو يفرز ابرته :

- هكذا طُردت من بلدى بتهمة التشرد يا أخى •

سأله كوبيلين :

- من زمان طويل ؟

- حين تنضج الباسلاء يكون قد انقضى على ذلك عام • وصلنا

ك • • ف وأودعت السجن • كان حولى دسّته من رجال هم جميعا من

روسيا الصغرى أفوياء الجسم أصحاب الأبدان سمان كأبقار ... وهاذئون  
هاذئون ... وكان الطعام الذى يقدم الينا رديئا ... كان الميجر يفعل  
ما يحلو له ... وانقضى يوم ثم انقضى يوم آخر ... لاحظت أن جميع  
هؤلاء الرجال الأشداء جناء ... قلت لهم : « أتخافون من حيوان  
كهذا ؟ ... » قالوا : « هيا كلمه ان استطعت ! » وانفجروا ضاحكين ،  
هؤلاء البهائم • سكت ولم أجب •

وأضاف المتحدث يقول وهو يترك كوبيلين ويخاطب الآخرين :

- وكان بينهم رجل من روسيا الصغرى تافه مضحك سخيف قد  
أخذ يقص عليهم كيف حوكم وماذا قال للقضاة وكيف استرحمهم  
واستعطفهم قائلاً ان له أطفالا وامرأة • انه رجل ضخم الجسم أنيب  
الشعر • واستمر الرجل يقص على أصحابه حكايته ، فذكر كيف كان  
هنالك كلب ما ينفك يكتب ويكتب ثم يكتب ... يكتب كل ما كان يفوله  
النتهم ، وكيف خاطبه المتهم بقوله : « قاتلك الله ... » فلم يزد  
الآخر على أن استمر يكتب ثم يكتب ... وختم الرجل كلامه قائلاً :  
« فكَذَلِكَ ذهب رأسى ... ! » •

- هات خيطاناً يا فاسيا \* ان هذه الخيطان فاسدة •

أجابه فاسيا وهو يعطيه الخيطان التى طلبها :

- اليك خيطاناً اشتريت من السوق •

- ان خيطان المصنع أفضل • لقد أرسلنا نيفاليد منذ مدة قصيرة

ليشترى لنا خيطاناً من المصنع ، فلا أدري من عند أية امرأة دنيئة اشترى  
هذه الخيطان ، انها خيطان رديئة •

قال لوقا ذلك وهو يدخل الخيط فى سم الابرة على ضوء المصباح •

- لا شك أنه اشتراها من صاحبه •

- من صاحبه حتماً •

قال كوبيلين الذي كان قد نسي تماماً :

- هيه ! والميجر ؟

ولم يكن ينتظر لوقا غير هذا السؤال • ومع ذلك لم يشأ أن يستأنف سرد حكايته فوراً كأن كوبيلين لا يستحق مثل هذا الاهتمام ، ففرز ابرته بهدوء ، وتربع بتراخ وكسل ، وقال أخيراً :

- وطفقت أستفز رفاقي السخفاء وأتحداهم حتى استدعوا الميجر • وكنت في ذلك الصباح نفسه قد استعرتُ «اللثيمة» (السكين) من جاري وأخفيها استعداداً للطوارئ • كان الميجر هائجاً كالمسحور • وصل الميجر • قلت لهم هامسا : « ما هذا أوان الخوف يا أهل روسيا الصغرى • ولكن لا فائدة ! كانت شجاعتهم قد هبطت الى الأطراف من راحات أقدامهم • أخذوا يرتجفون • لقد هرع الميجر سكراناً كل السكر • قال : « ماذا هنالك ؟ كيف تجرؤون أن ••• ؟ أنا قيصركم أنا ربكم » • فلما قال انه قيصرنا وانه ربنا اقتربت منه مخفياً سكينى فى كمى وقلت له وأنا قرب مزيداً من الاقتراب : « لا يا صاحب النبالة الرفيعة ••• ذلك لايمكن أن يكون يا صاحب النبالة الرفيعة ••• لايمكن أن تكون قيصرنا وأن تكون ربنا » • صرخ الميجر يقول : « ها ••• اذن أنت ••• أنت المحرض ••• » قلت وأنا ما أنفك أزداد اقتراباً منه : « لا يا صاحب النبالة الرفيعة • كل انسان يعلم وأنت نفسك تعلم أن ربنا تبارك وتعالى لا شريك له ••• وأن هنالك قيصراً واحداً لنا وضعه الرب نفسه فوقنا جميعاً فهو مولانا يا صاحب النبالة الرفيعة وما أنت يا صاحب النبالة الرفيعة حتى الآن الا ميجر ••• ولست رئيساً لنا الاً بفضل القيصر وبفضل مؤهلاتك » • قال الميجر : « ماذا ؟ ماذا ؟؟ ماذا ؟؟ » • لقد أرتج عليه

فأصبح لا يستطيع الكلام وأصبح يفأىء ويثأىء من فرط ما أصابه من دهشة . قلت له : « هو كذلك » . وهجمت عليه فاعمدت سكينى فى بطنه ، أعمدت السكين كلها ! وقد فعلت ذلك بسرعة ، فما هى الا أن ترنح وسقط على الارض مستديرا على عقيبه . قلت للرفاق بعد ان رميت سكينى : « فارفعوه الان يا رفاق ! » .

ساستطرد الان قليلاً مبتعداً عن قصتى فاقول ان هذه التعابير « أنا قيصركم ، أنا ربكم » وغيرها من التعابير المشابهة كانت تستعمل كثيراً فى سالف الزمان بكل اسف . كان يستعملها كثير من الضباط . ويجب أن نعترف بان عدد الذين يستعملونها الآن قد نقص كثيرا وربما أصبح لا يستعملها أحد قط . ولنلاحظ أن أولئك الذين كانوا يختالون هذا الاختيال ويصطنعون أمثال هذه التعابير انما هم خاصة الضباط الذين ارتقوا من رتبة صف ضابط الى رتبة ضابط فاذا بالرتبة الجديدة تقلب أدمغتهم رأساً على عقب . انهم بعد أن قاسوا عناءً كبيراً وتكبدوا مشاقاً كثيرة يرون أنفسهم على حين فجأة ضباطاً وقادة بل ونبلاء أيضاً ، فاذا هم لأنهم لم يألّفوا ذلك ، يسكرون مما نالوا من ارتقاء سكرأ شديداً ، فيبالغون فى تقدير قوتهم وسلطانهم وجبروتهم . هذا مع مرؤوسيهام أما مع رؤسائهم فانهم يخضعون خضوعاً ذليلاً لا يملك المرء الا أن يثور عليه ويشمئز منه . حتى أن المتملقين المتزلفين منهم يسارعون الى الاعتراف لرؤسائهم بأنهم كانوا مرؤوسين وبأنهم « لا ينسون أصلهم » . ولكن هؤلاء هم الطغاة الى غير حد المستبدون الى غير نهاية فى معاملة الخاضعين لهم من الناس . ويجب أن نذكر أنه لا شئ يحق السجناء ويغيظهم ويشير حفيظتهم كما يفعل ذلك مثل هذا الاسراف . ان الانسان مهما يكن خاضعاً مستكيناً ومهما يكن صابراً مدعناً لا بد أن تستيره وأن تفقده صبره وأن تبث الحقد فى قلبه هذه الخيلاء المتبجحة وهذه الكبرياء الصلفة .



من حسن الحظ أن هدّد الأمور كلها قد مضت وانقضت وأصبحت من الماضي الذي أوسك أن ينسأ الناس • ويجب أن نذكر أن السلطنة العليا كانت في ذلك الحين تعافب أولئك المخطئين عقابا صارما • واتى لأعرف أمثلة على ذلك •

ان ما يهيج حفيظة المرؤوسين خاصة انما هو الاحتقار والانسئزاز الذي يعاملون به • والذين يطور انهم ليس عليهم الا ان يطعموا السجين وان يرعوه وان يتصرفوا في كل امر وفقا للفانون ليخطئون أيضاً • فالانسان مهما يصغر سانه ومهما يهبط قدره ومهما تنه قيمته يجب بغيريته أن تحترم كرامته من حيث هو انسان • ان كل سجين يعرف حق المعرفة انه سجين ويعرف حق المعرفة انه منبوذ ممقوت مكروه، ويعرف المسافة التي تفصل بينه وبين رؤسائه • ولكن لا القضبان ولا الأغلال تنسبه أنه انسان فلا بد أن يعامل اذن معاملة انسانية • رباء ! ألا ان في استطاعة معاملة انسانيه أن تنقذ من الهوة حتى ذلك الذي اختفت من نفسه صورة الله منذ زمن طويل • الا ان « عاتري الحظ » هم الذين يجب أن يعاملوا معاملة انسانية قبل غيرهم من الناس ، فذلك هو خلاصهم ، وذلك هو فرحهم • لقد اتفق لي أن صادفت أمرين ينعمون بطبع نبيل وقلب طيب فاستطعت أن أرى مدى ما يحدثون في نفوس هؤلاء المذلين من تأثير حسن • رب كلمة طيبة يقولونها تبعث روح السجاء بعناً جديداً فاذا السجاء يفرحون بها كما يفرح الأطفال واذا هم يحضون رئيسهم حباً صادقا • ملاحظة أخرى : ان السجاء لا يحلو لهم من رؤسائهم أن يرفعوا الكلفة بينهم وبينهم ، ولا يحبون أن يسرف رؤسائهم فيما يعاملونهم به من طيبة ، ولا يريدون لهؤلاء الرؤساء أن يكونوا سذجا مفرطين في السذاجة ، ذلك أنهم يحبون أن يحترموا رؤسائهم • انهم ليشعرون بكثير من الاعتزاز مثلاً حين يكون رئيسهم كثير الأوسمة

حسن الهندام مهيب المظهر وحين يحظى رئيسهم بالتقدير والاعتبار في نظر رئيس أعلى وحين يكون قاسياً وقوراً عادلاً منصفاً ، وحين يشعر بكرامته شعوراً فويماً • ان السجناء يؤثرونه عندئذ على سائر من عداه ، لأنه يعرف قيمته ، ولا يهين. الاخرين أو يسيء اليهم ، لذلك تجرى أموره كأحسن ما تجرى الامور •

سأل كوبيلين بهدوء :

— أظن أنك عوقبت على ذلك عقاباً شديداً ؟

— هه ••• أما عن العقاب فلا تسل ••• لقد عوقبت عقاباً شديداً

والحق يقال ، يا رفاق ! ••• هات المقص يا على ! ولكن قولوا : أنن يكون لعبٌ بالورق هذا المساء ؟

قال فاسيا :

— شُرب المال اللازم للعب •• شُرب خمرًا فلولا أنه شرب

لوجد هنا •••

قال لوقا :

— « لولا » ! ان « لولا » هذه تساوى مائة روبل في سوق موسكو •

وعاد كوبيلين يسأل :

— فكم كان عقابك يا لوقا ؟

— خمسمائة جلدة يا صديقى العزيز •

قال لوقا ذلك ثم أردف يخاطب الآخرين مستخفاً بجارهِ مرةً

أخرى :

— حقاً يا رفاق ••• لقد أوشكوا أن يقتلونى ! وحين جلدونى هذه

الجلدات الخمسمائة ، احتفلوا بى احتفالاً كبيراً • لم أكن قد جُلدت

قبل ذلك اليوم • تجمعت أفواج من الناس • أسرع المدينة كلها تشهد

عقاب المجرم ، عقاب القاتل • ما كان أغبى أولئك الناس ! لا أستطيع أن

أصف لكم غباءهم ! خلع عنى تيموشكا ( الجلاب ) ثيابه ، وأضحبنى على الأرض ، وصرخ يقول لى : « استعد ... سوف أشويك ! » انتظرت • فلما هوى على بأول سوط وددت لو أصرخ ، ولكننى لم أستطع ... فانتى مهما افتح فمى لا يخرج صوت من حلقى • لقد اختق صوتى ... فلما هوى على بالسوط الثانى - صدقوا أو لا تصدقوا - فانتى لم أسمع صوت العداد قائلاً « اثنين » ... حتى اذا تاب الى شعوى بعد مدة سمعتهم يعدون : « سبعة عشر » • وقد فكّونى أربع مرات حتى يدعوا لى أن أتنفس مدة نصف ساعة ، وحتى يشرقونى بماء بارد • فكنت أنظر اليهم جميعاً وقد كادت عيناى تخرجان من رأسى ، وأقول لنفسى :  
• « سأفطس هنا »

سأله كويلين :

- ولم تمت ؟

فألقي عليه لوقا نظرة احتقار ، وانفجر الآخرون يضحكون

• مقهقنين

- معتوه حقاً •

وكأن لوقا ندم على أنه تنازل فارتضى أن يكلم رجلاً أبله كهذا

الرجل ، فيها هو ذا يضيف قائلاً :

- لا شك أن فى الطابق الأعلى من جسمه مرضاً •

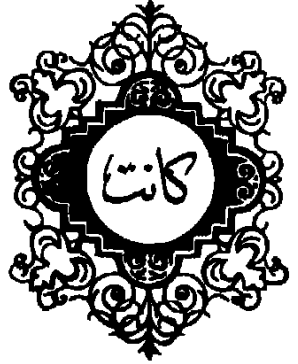
فقال فاسيا من جهته مؤيداً :

- ان فى عقله لوثه •

ومع أن لوقا قد قتل ستة أشخاص ، فما من أحد فى السجن قد

خاف منه يوماً ، لكنه كان يهوى أن يُعدَّ رجلاً مربعاً •

## أشعيا فومتش (الحمام) قصة بالكوتيين



أعياد الميلاد تقترب • ان السجناء ينتظرونها في شوق عظيم واهتمام كبير • فلما رأيتهم كذلك أصبحت أنا نفسي أتوقع شيئاً خارقاً • وكان يجب أن نؤخذ الى حمام البخار قبل الأعياد بأربعة أيام فكان السجناء جميعاً سعداء بذلك وكانوا يستعدون • ان علينا أن نذهب الى الحمام بعد الغداء • يحسن أن أذكر في هذه المناسبة أننا لانعمل بعد الظهر • ولا شك أن الشخص الذي كان بين جميع السجناء أشدهم ابتهاجا وأكثرهم حركة انما هو أشعيا فومتش بومشتاين ، اليهودي الذي تكلمت عنه في الفصل الرابع من قصتي هذه • كان أشعيا يحب الاستحمام ، ويسرف في المكوث في الحمام ، الى أن يقع مغشياً عليه في بعض الأحيان • كلما نبشت كومة ذكرياتي القديمة فتذكرت حمام السجن ( الذي يستحق أن لا يُنسى ) فان أول وجهٍ يترأى لي انما هو وجه رفيقي في السجن ، أشعيا فومتش المجيد الذي لا تنسى ذكره • ما كان أعجبه من انسان يا رب ! لقد سبق أن قلت بضع كلمات عن هذا الرجل : هو في الخمسين من عمره ، هزيل الجسم ، مفضن الوجه ، على خديه وجبينه ندبات

رهينة ، أعرج ، نحيل ، شديد البياض ، يشبه أن يكون جسمه  
 جسم صوص . ان وجهه يعبر عن اكتفاء دائم وثقة راسخة لا تزعزع ،  
 بل لعله كان يعبر أيضا عن غبطه وجور وسعادة . أحسب أنه لم يكن  
 يأسف قط على أنه اودع سجن الاشغال الشاقة . واذ كان صائغا ، واذ لم  
 يكن فى المدينة صائغ غيره ، فانه لم يكن يعوزه العمل . وكان يؤجر على  
 عمله أجراً حسناً . لم يكن فى حاجة الى شيء ، حتى لقد كان يعيش حياة  
 غنية ، فهو ينفق عن سعة ، ولكنه لا ينفق مع ذلك كل ما يجنيه من ارباح ،  
 بل يقتصد ويوفر ويدخر ، ويفرض السجناء بالربا على رهن . كان يملك  
 سماورا وفراشا ونيرا وماجين وغطاء . وكان يهود المدينة لا يرضون عليه  
 بحمايتهم ورعايتهم . وكان يذهب فى كل يوم من أيام السبت الى الكنيس  
 مخفورا ( وذلك أمر يبيحه القانون ) . كان يعيش اذن حياة رغدة مرفهة ،  
 ولكنه كان يحترق شوقا الى انقضاء مدة سجنه ، وهى اثنا عشرة سنة ،  
 من أجل أن « يتزوج » . انه مزيج عجيب مضحك من سذاجة وغباوة  
 ومكر ووقاحة وبساطة وخجل وادعاء وزهو وشراسة . وأغرب ما فى  
 الأمر فى نظرى أن السجناء كانوا لا يسخرون منه قط . فاذا ناكدوه فى  
 بعض الاحيان فانما هم يناكدونه لهوا وعبثاً وضحكاً ، فلقد كان أشعيا  
 فومتش يسرى عنهم ويسليهم ويبهجهم . كانوا يقولون : « ليس عندنا  
 الا أشعيا فومتش واحد ، فلا تمسوه » . وكان هو يزهو بخطورة شأنه  
 وعلو منزلته رغم أنه يدرك حقيقة أمره ، فكان ذلك يروح عن السجناء  
 كثيراً . كان أشعيا فومتش قد دخل السجن دخولاً أشاع بين السجناء  
 كثيراً من الضحك ( وقد دخل السجن قبل وصولي ولكن دخوله الى  
 السجن قد وُصف لى بعد ذلك ) . ففى ذات مساء ، انتشرت فى السجن  
 على حين فجأة شائعة تقول ان يهوديا قد اقتيد الى السجن ، وهو الآن فى  
 مقر الحرس ، يُحلق له شعره . ولم يكن فى السجن كله يهودى

واحد ، فانتظر السجناء دخوله عليهم بفارغ صبر ، حتى اذا اجتاز الباب الكبير أحاطوا به واحتشدوا حوله • جاء به ضابط الصف الى السجن المدني فدله على مكانه فوق ألواح الخشب • كان أشعيا فومتش يحمل كيساً يضم الأمتعة التي أعطيت له ، ويضم الأمتعة التي يملكها • فوضع كيسه على الأرض ، واتخذ مكانه فوق السرير ، وجلس متربعا لايجرؤ أن يرفع بصره • أخذ السجناء يضحكون من حوله ويتندرون على أصله اليهودى • وفجأة تقدم سجين شاب فابعد الجمهور واقترب من أشعيا حاملاً بيده سروالاً صيفياً قدراً ممزقاً مهترئاً مرقعاً بخرق عتيقة ، فجلس بجانب اشعيا فومتش وربت على كتفه ، وقال له :

— هيه أيها الصديق العزيز ! لقد انتظرتك ست سنين طوال !  
أنظر ! كم تقرضنى اذا رهننت عندك هذا السروال ؟

قال له ذلك وعرض عليه أسماله الرثة •

كان أشعيا فومتش يشعر بوجع يبلغ من الشدة أنه لم يجرؤ أن ينظر الى هذه الجمهرة الساخرة ذات الوجوه المشوهة المرعبة المتحلقة حوله دائرةً كثيفة • لم يكن قد نطق بكلمة واحدة من شدة جزعه وهلعه ، فلما رأى الرهن الذى يعرضه عليه السجين الشاب ، ارتعش وأخذ يجس السروال الخلق الرث بهمة ونشاط • حتى لقد اقترب من المصباح ليفحصه فى الضوء • كان كل واحد من السجناء ينتظر ماسيقوله أشعيا •

أردف السجين الشاب يخاطب أشعيا وهو يغمز رفاقه :

— هه ؟ هل تقرضنى روبلاً فضة اذا رهننت السروال لديك ؟

— روبلاً فضة ؟ لا ••• بل سبعة كوبيكات !

- هذه هي الكلمات الأولى التي نطق بها أشعيا فومتش في السجن
- فما ان سمعها الحضور حتى ضجوا ضاحكين في قهقهة صاخبة

قال السجين الشاب :

- سبعة كوبيكات ؟ طيب هاتها ••• يمينا انك لمحظوظ ! ولكن حافظ على سروالى ، وحذار أن تفسده ، والآن دفعت رأسك ثمناً له •
- قال اليهودى بصوت متقطع متهدج وهو يدس يده فى جيبيه ليخرج منها المبلغ المتفق عليه ، وينظر الى السجناء نظرة فاحصة وجلى :
- والفائدة ثلاثة كوبيكات فيكون دينى عليك عشرة •••
- كان اليهودى يشعر بذعر رهيب وهلع شديد ، ولكن رغبته فى اتمام الصفقة الرابحة تغلبت على ذعره وهلعه •

قال السجين الشاب :

- الفائدة ثلاثة كوبيكات ••• سنويا ؟

- بل شهرياً •

- ألا انك لطماع فطيع • ما اسمك ؟

- أشعيا فومتش •

- طيب يا أشعيا فومتش ! ستفلس هنا أيما فلاح ! الى اللقاء •

- عاد اليهودى يفحص مرة أخرى الأسمال التي أقرض على رهنها سبعة كوبيكات ، ثم طواها ودسها فى كيسه بكثير من العناية • وظل السجناء يضحكون ضحكاً شديداً •

الحق أن جميع السجناء قد أحبوه ، ولم يسىء اليه أحد يوماً ، رغم أنهم أصبحوا جميعاً مدينين له بأموال اقترضوها منه بفائدة باهظة • ولقد كان على كل حال لا يحمل قلبه من الحقد والضعف أكثر مما يحمل

منهما قلب دجاجة • فلما رأى جميعاً من حوله يلاينونه ويلاطفونه ، أخذ يتصنع الوقار وطفق يتعالى ويتكبر ، ولكن أوضاعه هذه كلها كانت مضحكة سخيفة ، فسرعان ما كان السجناء يغفرونها له فلا يؤاخذونه عليها •

وكان لوقا الذى سبق أن عرف كثيراً من اليهود قبل دخوله السجن يناكده ويناكفه ويغيطه فى كثير من الأحيان ، ولكنه لا يفعل ذلك عن سوء نية وخبث سريره ، وإنما يفعله على سبيل المزاح والتسلية والتفكه ، فهو يداعبه مداعبةً كما يداعب المرء كلباً أو بغاء أو أى حيوان من الحيوانات المدربة • وكان أشعيا فومتمش يدرك ذلك فما يستاء قط بل يسرع الى الرد عليه ويكيل له الصاع صاعين •

كان لوقا يقول مثلاً :

— سوف ترى يا يهودى ••• لأشبعنك ضرباً •

فيجيبه أشعيا بقوله :

— ان ضربتنى ضربة ضربتك عشرأ •

فيقول له لوقا :

— يا للأجرب الكريه !

فيجيبه أشعيا :

— فلاأكن أجرب !

فيقول له لوقا :

— يا لليهودى المعرور !

فيجيبه أشعيا :

— أجرب ! معرور ! قل ما شئت ، ولكننى غنى أملك مالا •





يهودى من أصغرهم الى أكبرهم حين عبروا البحر الأحمر ، وأن على كل اسرائيلى أن يغنى هذه الأغنية بعد كل انتصار على العدو •

وكان السجناء فى عشية كل يوم من أيام السبت يجيئون الى نكتتنا من سائر الثكنات ليروا أشعيا فومتش وهو يحتفل بعيد السبت • وكان هو من فرط امتلائه بالغرور الساذج والخلاء البريئة أن اهتمام الناس هذا به كان يسره ويطره • ها هو ذا يمضى الى منضدته الصغيرة القابعة فى أحد الأركان فيفرش عليها غطاءً وهو يصطنع مظاهر الوقار والتفهيق والتعالم ثم يفتح كتابا ويشعل شمعتين ويدمدم ببضع كلمات سرية ، ثم يتناول مسوحة المبرقش الذى لا أكمام له والذى كان يغنى بالمحافظة عليه فى قرارة صندوقه ؛ وها هو ذا يعلق يديه أساور من نحاس ؛ وها هو ذا ينبت على جبينه علبة صغيرة \* بواسطة عصبة فكأنها قرن يخرج من رأسه ، ثم ها هو ذا يأخذ أخيراً فى الصلاة والدعاء • انه يقرأ فى ببطء ويصيح ويبصق ويتمايل بحركات عنيفة مضحكة • ذلك كله تأمر به طقوس العبادة فى ديانتهم • وما كان لشيء من هذا كله أن يعث على الضحك أو أن يبدو غريباً لولا الأوضاع التى يتخذها أشعيا فومتش أمامنا ولولا الهيئات التى يصطنعها وهو يعرض هذه الطقوس على أنظارنا ! وها هو ذا يغطى رأسه بيديه على حين فجأة ويأخذ يقرأ ناشجاً منتحباً • ان بكاءه يزداد قوة ، وانه ليوشك من شدة ألمه أن يرقد على الكتاب رأسه المعصوب نائحا معولا ، ولكنه ما يلبث فى وسط هذه الانتحابات اليايسة أن ينفجر ضاحكاً مقهقهاً على حين بغتة ، ويأخذ ينشد بصوت أحن لحناً مظفراً منتصراً كأنما رققه وأضعفه فيض من سعادة ••• كان السجناء فى بعض الأحيان يقولون لأنفسهم : « لا يفهم المرء من هذا شيئاً » • وقد سألت أشعيا فومتش ذات يوم عن معنى هذه الانتحابات وسألته لماذا ينتقل فجأة من مرارة اللوعة الى ظفر السعادة والغبطة • وكان أشعيا فومتش يحب هذه

الأسئلة كثيراً منى ، فسرعان ما شرح لى أن الدموع والانتحابات انما يستيرها فقد أورشليم ، وأن الدين يأمر بالتأوه والالين ولطم الصدور لهذه الذكرى ، حتى اذا بلغ ذروة الكمد والحزن والكرب كان عليه فجأة ، هو أشعيا فومتش ، أن يتذكر بما يشبه المصادفة ( والدين نفسه يأمر بهذا التذكر «الفجائى» ) أن نبوءة من النبوءات قد وعدت اليهود بالعودة الى أورشليم ، فعليه أن يسارع فوراً الى اظهار فرح طافح ، والى أن يغنى ويضحك ، وأن يتلو صلواته بصوت يعبر عن السعادة ، وأن يسبح على وجهه أكبر قدر ممكن من الآبهة والنبل •

كان هذا الانتقال المفاجيء من البكاء الى الفرح يسره كثيراً ، وكان تقيده بهذا الواجب يرضى نفسه أشد الارضاء • وقد شرح لى هذه القاعدة الحكيمه من قواعد الدين بابتهاج لم يحاول أن يخفيه • وفى ذات مساء بينما كان أشعيا فومتش مندفعاً فى صلاته دخل الميجر يتبعه ضابط الحرس ويخفّره عدد من الجنود ، فسرعان ما اصطف السجّاء أمام مضاجعهم ، الا أشعيا فومتش ، فقد استمر يصيح ويتحرك • كان يعلم أن من حقه أن يتعب ، فما من أحد يستطيع أن يقطع عليه صلاته ، وانه اذا ظل يعول أمام الميجر فليس يجازف بشيء ، وليس يتعرض لخطر • كان يهجه كثيراً أن يظل يتحرك على مرأى من الرئيس • اقترب منه الميجر حتى صار على بعد خطوة • فأدار أشعيا فومتش ظهره الى المنضدة ، واتصب واقفاً أمام الميجر ، وطفق ينشد نشيد الظفر محرّكاً يديه متميلاً بجسمه ، ملحا على بعض المقاطع ؛ حتى اذا أصبح عليه أن يسبح على وجهه معنى السعادة والنبل ، فعل ذلك فوراً وهو يغمز بعينه ويطلق ضحكات مجلجلة ويخنى رأسه متجهاً نحو الميجر • فما كان من الميجر الا أن دُهِش فى أول الأمر ، ثم انفجر مقهقهاً ، ووصف أشعيا بأنه « أبله » ، وانصرف بينما استمر اليهودى فى صراخه • وبعد ذلك بساعة،

بينما كان أشعيا يتناول عشاءه ، سألته عمّا كان يمكن أن يفعله لو بدا للميجر أن تتورث ثارته • فاذا بأشعيا يسألنى :

- أى ميجر ؟

قلت :

- كيف ؟ ألم تر الميجر ؟

قال :

- لا •••

قلت :

- كان ينظر اليك وهو على مسافة قدمين منك • ولكن فوما فومتش أكد لى جاداً كل الجد أنه لم ير الميجر ، لأنه فى مثل هذه اللحظة من الصلاة يبلغ من شدة الوجد فى العادة انه لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً مما يجرى حوله •

وما زلت أرى أشعيا فومتش يتجول أيام السبت فى السجن كله محاولاً أن لا يعمل شيئاً كما تأمر الشريعة كلّ يهودى بذلك • ألا ما أكثر ما كان يروى لى من حكايات لا تصدق ! لقد كان ، كلما عاد من كنيسة اليهود ، يحمل الىّ أبناء عن بطرسبرج ، ويحمل الىّ شائعات سخيفة ، مؤكداً أنه عرفها من أبناء ملته فى المدينة ، وأن هؤلاء قد استقوها من ينايعها •

ولكننى أطلت الكلام عن أشعيا فومتش •

لم يكن فى المدينة كلها الا حمّامان عامان • فأما الأول ، وصاحبه يهودى ، فقد كان مقسماً الى مقصورات يبلغ أجر المقصورة منها خمسين كوبكاً ، وهو الحمام الذى كان يرتاده أبناء الطبقة الأرستقراطية بالمدينة ؛ وأما الثانى الذى يرتاده أبناء الشعب فهو عتيق وسخ ضيق ، وهو الحمام الذى كان يؤخذ اليه السجناء • كان الجو بارداً والنهار مضيئاً : ان

السجناء ليفرحهم أن يخرجوا من القلعة وان يطوفوا في المدينة ، فها هي ذى ضحكاتهم وامازيحهم لا تنقطع لحظة اتناء الطريق • وقد صحبتنا سرية من الجند شاكية السلاح • هذا منظر يتسلى به سكان المدينة • فلما وصلنا الى الحمام قسمنا فئتين ، لان الحمام ضيق لا يستوعب جميع السجناء دفعة واحدة ، ففئة تستحم ، وفئة تنتظر دورها في الحجرة الباردة التي سبق المبخر • ومع ذلك كانت القاعة من الضيق بحيث يصعب على المرء ان يتصور كيف يمكن ان تضم نصف السجناء • لم يبتعد عنى بتروف قيد أنملة • لقد أسرع الىّ دون أن أسأله مساعدتى ، حتى لقد عرض على ان يفلسنى • وهناك سجين اخر من القسم الخاص عرض على خدماته في الوقت نفسه • انه باكلوشين • ما أزال أتذكر هذا السجين الذى كان يُطلق عليه اسم « الميجر » • لقد كان أكثر رفاقى مرحا وبشاشة • وقد جمعت بيننا الصداقه • ساعدنى بتروف فى خلع ملابسى ، لانتى كنت أنفق وقتا طويلاً فى هذا العمل الذى لم آكن قد الفتته بعد ولا تعودت عليه • ثم ان البرد فى حجرة الانتظار لم يكن أقل من البرد فى الخارج • انه لمن الصعب جدا على سجين مبتدىء أن يخلع ملابسيه ، ذلك أن عليه أن يعرف كيف يحسن نزع السيور الموضوعة تحت السلاسل • ان هذه السيور من جلد طوله سبعة عشر سنتيمتراً ، وهى تُربط فوق الملابس الداخلية تحت الحلقة التى توثق الساق • ان ثمن الزوجين من هذه السيور ستون كوبكاً • ولا بد لكل سجين أن يشتري من هذه السيور زوجين ، لأنه لا يستطيع بدونها أن يمشى ، فان الحلقة لا تحيط بالساق احاطة كاملة دقيقة ، وفى وسع المرء أن يدخل اصبعه بين الحديد واللحم ، لذلك تلمم الحلقة الكاحل وتحكه ، فيكفى أن يمشي السجين يوماً واحداً بدون سيور حتى تجرح ساقه وينزف دمه • لا صعوبة فى نزع السيور ، وانما الصعوبة فى خلع الملابس الداخلية ،

ولا بد لنزع الملابس الداخلية من براعة كبيرة وصدق عظيم • ان على السجنين بعد نزع فردة السروال اليسرى أن يُمرّها كلها بين الحلقة والساق ، وأن يعيد امرارها في الاتجاه المعاكس تحت الحلقة • فبذلك تتحرر الساق اليسرى تحرراً تاماً ، ويكون على السجنين بعدئذ أن يمرّ فردة السروال اليسرى تحت حلقة الساق اليمنى ، وأن يعيد امرارها ثانية الى الوراء مع فردة السروال اليمنى • وهذه العملية المعقدة تتم ايضا حين تبديل الملابس الداخلية الوسخة بملابس داخلية نظيفة • ولقد كان أول من علمنا ذلك هو كورنيف ، في مدينة توبولسك ، وهو سجين كان زعيم عصابة من قطاع الطرق وحكم بالتهكير بالسلاسل خمسة أعوام • والسجناء قد ألفوا هذه الرياضة فهم يجرونها في خفة وسرعة • أعطيت بتروف بضعة كوبكات ليشتري صابوناً وليفة • صحيح أن السجناء كانوا يُعطون قطعة صابون ، ولكن قطعة الصابون التي كانوا يُعطونها لا يزيد حجمها على حجم قطعة النقد من فئة الكوبكين ، ولا يزيد سمكها على سمك شرائح الجبن النحيلة التي تُقدّم بدايةً لوجبة العشاء على موائد أبناء الطبقة المتوسطة في الولايم • كان الصابون يُباع في حجرة الانتظار نفسها ، كما يباع شراب « السيتين » ( المصنوع من عسل وتوابل وماء ساخن ) ، وكما تباع أرغفة من خبز أبيض ، وكما يباع الماء الغالي ، لأن كل سجين من السجناء لا يأخذ الا قادوساً واحداً من الماء الغالي ، وفقاً للاتفاق المبرم بين صاحب الحمام وادارة السجن ؛ فاذا أراد أحد السجناء أن ينظف جسمه مزيداً من التنظيف كان في وسعه أن يشتري بكوبكين قادوساً آخر يمدّه اليه صاحب الحمام من كوة مشقوقة في الجدار لهذا الغرض •

ما ان فرغت من خلع ملابسى حتى أمسك بتروف ذراعى قائلاً ان من الصعب علىّ أن أسير بأغلالى ؛ وأضاف ينصحنى وهو يسندنى من

ابطى كأتنى شيخ عجوز : « ارفعها الى فوق ، الى ربلى الساقين • حذار هنا ! سنجتاز الآن عتبة الباب ! » • خجلت من هذه الرعاية التى يحيطنى بها بتروف ، فأكدت له أتنى أستطيع أن أسير وحدى ، ولكنه لم يشأ أن يصدنى • كان يرعنى كما يرعى طفل صغير أخرق ينبغى لكل انسان أن يهب الى مساعدته • ولم يكن بتروف بالخادم قط • ولو قد أهنته لعرف كيف يتصرف معى • وأنا لم أعده بشىء مكافأة له على خدماته ، ولا هو سألنى شيئاً من ذلك ، فما الذى كان يدفعه الى هذه العناية بى وهذه الرعاية لى ؟

حين فتحنا باب المبخر خيّل الى أننا ندخل الجحيم • تصوروا قاعة طولها اثنتا عشرة قدماً وعرضها مثل ذلك ، وقد حُشر فيها مائة شخص فى آن واحد ، أو ثمانون شخصاً على الأقل ، لأن عددنا كان نحواً من مائتين قسموا فئتين • أعمانا البخار • كان السخام والقذارة وضيق المكان ، كان ذلك كله يبلغ حدّاً لا نعرف معه أين نضع أقدامنا • ذُعرت وأردت أن أخرج • ولكن بتروف لم يلبث أن طمأننى • واستطعنا بعد لأى أن نشق طريقنا نحو المصاطب كيفما اتفق ، متطاولين بخطانا على رهوس السجناء ، راجين اياهم أن ينحنوا حتى يُتاح لنا أن نمر • ولكن جميع المصاطب كانت قد سُغلت • فأعلمنى بتروف أن على أن أشتري مكاناً ، وسرعان ما أخذ يساوم فى هذا سجيناً كان جالساً على مصطبة قرب النافذة • فقبل السجين أن يتنازل لى عن مكانه لقاء كوبك واحد • أخذ الكوبك من بتروف الذى كان يقبض على الكوبك بيده اذ كان قد أعدّه سلفاً من باب الاحتياط • أخلى لى السجين مكانه ثم انسل من تحتى الى مكان مظلم قدر تراكت فيه أوساخ علوّها نصف بوصة على الأقل • حتى الأماكن التى تحت المصاطب كانت غاصة بالسجناء يتقلبون فيها ويلغظون • أما أرض الحمام فلم يكن فيها خلاء بسعة راحة اليد الا وهو

مشغول بالسجناء الذين يصبون الماء من قواديسهم • فالواقفون يغتسلون  
 ممسكين أو انيهم بأيديهم ، فيتساقط الماء الوسخ من أجسامهم على رءوس  
 القاعدين الحليقة • وعلى المصطبة والدرجات المنفضية إليها قد ألقى سجناء  
 آخرون يغتسلون متجمعين على أنفسهم متكومين ، ولكنهم قلة • والسواد  
 الأعظم من السجناء لا يحب الاغتسال بالماء والصابون ، وانما يؤثر البقاء  
 في جو البخار زمناً طويلاً ، ثم يصب الماء البارد على الجسم ، فهكذا  
 كانت تستحم العامة من السجناء • وعلى أرض الحمام يرى المرء خمسين  
 ليفة تعلق وتهبط في آن واحد ، تحك أجسام المستحمين فيشعر المستحمون  
 من ذلك بنشوة تشبه أن تكون سكرأ • والبخار يزداد في كل لحظة ،  
 حتى ليصبح الشعور بالحرارة احسأ بالاحتراق • والصراخ والزعيق  
 يرتفعان في كل جهة من الجهات ، ويختلطان بجلجلة الأغلال التي تقرع  
 الأرض ••• فاذا أراد بعض السجناء أن ينتقلوا من موضع الى آخر  
 تشابكت سلاسلهم بسلاسل أخرى ، وصدمت رءوس من يكونون تحتهم ،  
 فاذا هم يسقطون ، فيأخذون يشتمون ، واذا هم يجرون الى السقوط معهم  
 أولئك الذين تعلقوا بهم • ان السجناء جميعا في نوع من سكر ، وفي  
 حالة من هيجان مجنون • الصرخات والصيحات تتقاطع وتختلط • وعند  
 الكوة التي يُعطى منها الماء الساخن ، يتكدس السجناء تكديسا حتى ليكاد  
 يسحق بعضهم بعضا • والماء الساخن يتدفق فوق رءوس القاعدين على  
 أرض الحمام قبل أن يصل الى حيث ينقل • وكنا نحس اننا أحرار طلقاء ،  
 غير أن وجها ذا شاربين هو وجه أحد الجنود ، كن يظهر وراء كوة  
 الحجرة أو وراء الباب المشقوق ، من حين الى حين ؛ ان الجندي يحمل  
 بندقيته حرصا على منع حدوث أية فوضى • ان رءوس السجناء الحليقة  
 وأجسامهم التي صبغها البخار بلون كلون الدم تبدو غريبة مزيدا من  
 الغرابة والشذوذ • فعلى ظهورهم المحمرّة من حرارة البخار تبدو الآن ،





عند قدميَّ وأعلن لي أنه مرتاح كل الارتياح • وفي أثناء ذلك اشترى لنا باكلوشين ماءً ساخناً ، فكان يحمله إلينا كلما احتجنا إلى ماء ساخن • وأعرب لي بتروف عن رغبته في أن يغسلني من القدمين إلى الرأس حتى أصبح « نظيفاً كل النظافة » • وحضني على أن ألبث في البخار زمناً • ولكنني لم أعزم أمري على ذلك • فأخذ يفرك جسми كله بالصابون • فلما انتهى من ذلك قال : « والآن سأغسل قدميك الصغيرتين » ، فاردت أن أجييه بأنني أستطيع أن أغسل نفسي بنفسى ، ولكنني لم أعارضه بل استسلمت لإرادته • لم يكن في قوله « قدميك الصغيرتين » شيء من مذلة • ان بتروف لا يستطيع أن يسمى قدميَّ باسمهما ، لأن جميع الرجال العاديين لهم أقدام ، أما أنا فليس لي قدمان بل « قدمان صغيرتان » ! ••

فلما فرغ بتروف من غسلى مرة ثانية أعادنى إلى الحجرة الخارجية وهو يسندنى من ذراعى وينبهنى عند كل خطوة ، كما لو كنت من خرف • وأعاننى على لبس ثيابى ، حتى إذا انتهى من تدليلى هذا التدليل كله ، اندفع إلى الحمام ليستحم هو أيضاً •

فلما وصلنا إلى الثكنة قدمت إليه فنجاناً من الشاى فلم يرفضه بل حساه وشكره لى • وخطر ببالى أن أنفق ثمن قرح من الخمرة تكريماً له • فوجدت خمرة فى ثكنتنا نفسها • فما كان أشد سروره بذلك ! أفرغ الخمرة فى جوفه ، وتنحج رضى واغباطاً ، وقال لى اننى رددته إلى الحياة ، ثم مضى مسرعاً إلى المطبخ ، كأنما لا يمكن أن يُقرر فى المطبخ شيء بدونه • فما ان غاب حتى جازنى محدث آخر : انه باكلوشين الذى سبق أن تكلمت عنه ، وكنت قد دعوته أيضاً إلى فنجان من الشاى • لا أعرف خلقاً أدمث من خلق باكلوشين • والحق أنه لم يكن يفضر لأحد شيئاً ، حتى لقد كان يتشاجر مع الناس كثيراً ، وكان لا يجب

أن يتدخل أحد في شئونه خاصة • الخلاصة أنه كان يعرف كيف يدافع  
عن نفسه • ولكن مشاجراته كانت لا تطول • وأعتقد أن جميع السجناء  
كانوا يحبونه • وكانت تحسن وفادته حيثما ذهب • وحتى في المدينة  
كان يعد اللف انسان • انه فتى فارح القامة ، في الثلاثين من عمره ،  
له وجه ينم عن ذكاء وحزم ، وهو بلحية ذقنه وسيم الطلعة جميل المحيّا •  
وكانت له موهبة فذة هي القدرة على تشويه وجهه تشويهاً يبلغ من  
الاضحاك في تقليد أول قادم أن الحلقة التي تحيط به ما تلبث أن تنفجر  
في قهقهة شديدة • انه ممثل هزلى بفطرتة • ولكنه يرفض أن يسيء اليه  
اولئك الذين يصطنعون الاشمئزاز ولا يحبون أن يضحكوا • لذلك لم  
يكن يتهمه أحد بانه امرؤ « لا فائدة منه ولا دماغ له » • كان باكوشين  
يفيض حياة وناراً • وقد تعرف الى منذ الأيام الاولى ، فقص على سيرة  
حياته العسكرية جندياً في كتيبة الرواد حيث لاحظته وعنى به اناس من  
أعلى الرتب • وسرعان ما ألقى على عدة أسئلة عن بطرسبرج • حتى لقد  
كان يقرأ كتباً • فلما جاء في هذه المرة يحسبى الشاى عندى أضحك  
جميع من فى الثكنة اذ روى كيف أساء الليوتان ش ••• معاملته الميجر  
فى الصباح • وأبأنى مبتهجاً وهو يجلس الى جانبى أن من الجائز أن تقام  
فى السجن حفلة تمثيلية • ان فى نية السجناء أن يمثلوا مسرحية أثناء  
أعياد الميلاد ، وقد عثروا على الممثلين اللازمين ، وهم الآن بسبيل اعداد  
« الديكور » شيئاً بعد شئ • وقد وعدهم بعض الأشخاص فى المدينة  
باعارتهم ثياب نساءٍ للتمثيل ، حتى أن هناك أملاً فى الحصول على بزة  
ضابط بواسطة خادم من خـدم الضباط ، مع ما على البزة من شارات  
مذهبة ، اللهم الا أن يخطر بال الميجر أن يمنع اقامة الحفلة كما منعها  
فى السنة الماضية ! لقد كان الميجر فى السنة الماضية معتكر المزاج لأنه خسر  
فى القمار، هذا عدا أن شيئاً من الشعب كان قد حدث فى السجن، فاذا هو

يمنع كل شيء في سورة من الغضب والاستياء • ولعله لن يحب أن يمنع إقامة حفلة تمثيلية في هذا العام • كن باكلوشين متحمساً ، وكان من الواضح انه أحد المحرضين الأوائل على إقامة المسرح المرتقب • ولقد قررت بيني وبين نفسي أن أحضر المسرحية • ان الفرح الشديد الذي ظهر على باكلوشين أثناء حديثه عن هذا المشروع قد أثر في قلبي تأثيراً قوياً • شيئاً فشيئاً أصبحنا نتصارع وتتكاشف ، فذكر لي فيما ذكر أنه لم يخدم في بطرسبرج فحسب ، وانما أُرسِل أيضاً الى مدينة ر ••• برتبة صف ضابط مع فصيلة من الجيش ، ثم أضاف الى ذلك قوله :

- ومن هناك انما أُرسِلت الى هنا •

سألته :

- لماذا ؟

فأجاب :

- لماذا ؟ انك لن تحزر السبب يا ألكسندر بتروفتش ! لقد أُرسِلت

الى هنا لأننى عشقت •••

فقلت له ضاحكاً :

- دعك من هذا الكلام ، فما أحد ينفي لمثل هذا السبب •

فقال باكلوشين :

- الحقيقة اننى بسبب ذلك الغرام قد قتلت هناك ألمانيا بطلقة من

مسدس • ولكن هل يستحق ألماني أن أُحكم من أجله بالأشغال الشاقة

فى المنفى ؟ اننى أحتكم اليك •••

- كيف وقع هذا ؟ اقصص علىَّ القصة ، فلا شك أنها قصة

شائقة •

- هى قصة مضحكة يا ألكسندر بتروفتش !

— هلاً قصصتها على ؟

— أتريد ذلك ؟ اصغ اذن الى ...

وأصغيت الى قصة القتل ؟ ما هي بالقصة « المضحكة » ، وانما هي

في الحقيقة قصة عجيبة جداً ...

بدأ باكوشين يروي قصته :

— اليك القصة ... كنت قد أرسلت الى ريجا ، وهي مدينة كبيرة

جميلة لا يعيها الا شيء واحد هو كثرة الألمان فيها . كنت ما أزال شاباً ،

وكان رؤسائي يقدرونني ويشنون عليّ . كنت أتبخرت جاعلاً قبعتي مائلةً

على رأسي حتى الاذن ، وكنت اقضي وقتي في متعة وبهجة . وكنت اغازل

الفتيات الألمانيات ، فأعجبتني احدهن اعجاباً شديداً ، وكان اسمها لويزا .

انها تعمل مع عمته في تنظيف الملابس الراقية وكى الثياب الانيقة .

فأما العمة فكان شكلها أشبه بصورة كاريكاتورية ، وكانت تملك مالاً

وفيراً . لم أزد في أول الامر على المرور تحت النوافذ ، ولكن سرعان

ما انعقدت الصلة بيني وبين الفتاة . كانت لويزا تجيد الكلام بالروسية ،

على لكمة يسيرة . وكانت بارعة الجمال فاتنةً لم أصادف نظيراً لها في

حياتي . استعجلتها في أول الأمر بحسرة وقوة ، ولكنها قالت لي :

« لا يا ساشا ، لا تطلب مني هذا ، فاني أريد أن أحتفظ ببراءتي ، لأكون

زوجةً جديدةً بك ! » . وكانت لا تتى تلاطفتني وهي تضحك ضحكاً

صافياً صريحاً ... وكانت طاهرة كل الطهارة ، أوكد لك ذلك ! ...

وقد حرصتني هي على زواجها ... فكيف لا أتزوجها ؟ هلاً قلت لي

كيف أرفض أن أتزوجها ؟ وهأنذا أتهدأ للذهاب الى الكولونيل حاملاً

طلب الموافقة على ذلك . وفجأةً أخلفت لويزا الموعد ، مرةً أولى ، فمرة

ثانية ، فمرة ثالثة ... بعثت اليها برسالة ... فلم تجب ... قلت لنفسى :

« ما العمل ؟ لو كانت تخدعني ، لو كانت تخونني لكان في وسعها أن تذر

الرماد فى عينى فتجىء الى الموعد » • ولكنها كانت لا تعرف الكذب •  
لا شك فى انها قطعت ضلتي بها اذن • هذا كل ما فى الامر • حدثت  
نفسى قائلاً : « تلك حيلة دبرتها عمته » • لم أجرؤ أن اذهب الى العمه .  
فرغم انها كانت على علم بعلاقتنا ، فقد كنا نتصرف تصرف من يجهل انها  
على علم بهذه العلاقة ••• أصبحت كمن مسه جن ••• كتبت لها  
رسالة اخيرة قلت فيها : « اذا لم تأتى ، فساذهب الى العمه بنفسى » •  
فخافت وجاءت • وها هى ذى تطفق تبكى ، وتقصّ على أن ألمانيا اسمه  
شولتس ، وهو يمت اليها بقربى بعيدة ، ويعمل مصلح ساعات ، كما أنه  
متقدم فى السن ولكنه غنى ، قد اظهر رغبته فى تزوجها من أجل أن  
يسعدها على حد تعبيره ، ومن أجل ان لا يبقى بغير زوجة اثناء شيخوخته ؛  
وان هذا الألماني كان يحبها منذ زمن طويل وأنه قد منى نفسه بهذه  
الفكرة سنين كثيرة ، ولكنه صمت ولم يعزم أمره على مكاشفتها ؛ ثم  
ختمت كلامها بقولها : « هانت ذا ترى يا ساشا أن سعادتى رهن بهذا  
الزواج لان الرجل غنى • فهل تريد ان تحرمنى من سعادتى ؟ » نظرت  
اليها ••• انها تبكى ، وتقبلنى ، وتعانقنى •••

قلت لنفسى : « ألا انها لعلى حق ! فأية فائدة تجنيها من تزوج  
جندى ، حتى ولو كان عريفاً ؟ » ثم قلت لها : « طيب يا لويزا ! وداعاً •••  
حماك الله ورعاك ! ليس من حقى أن أحرمك من سعادتك ••• ولكن  
قولى لى كيف هو الرجل ؟ أهو جميل ؟ » ، فاجابت : « لا ••• انه  
مسن ، ثم ان أنفه طويل » حتى لقد انفجرت ضاحكة • تركتها • وقلت  
لنفسى : « هياً ••• لم يكتب لى هذا الحظ » • وفى الغداة مررت بالقرب  
من دكان شولتس ( كانت قد ذكرت لى الشارع الذى يقيم فيه ) ، ونظرت  
من خلال الزجاج ، فرأيت ألمانيا يصلح ساعة • انه فى نحو الخامسة  
والأربعين من عمره ، له أنف أقنى ، وعينان منتفختان ، وهو يرتدى

فراكاً ذا ياقة قومة عالية جداً • بصقت حين رأيت احتقاراً : كنت فى تلك اللحظة مستعداً لأن أحطم زجاج واجهة دكانه • ولكننى قلت لنفسى : « ما فائدة هذا ؟ لم يبق لى فى الأمر حيلة ! لقد انتهى كل شىء ! » • وصلت الى الثكنة مع هبوط الليل ، واستلقيت على مضجعى ، وطفقت أتحب وأتحب • هل تصدق هذا يا ألكسندر بتروفتش !

وانقضى يوم فيوم ثان فيوم ثالث • أصبحت لا أرى لويزا • ومع ذلك علمت من عجوز تعمل فى تنظيف الملابس وكيها هى أيضاً ، وكانت حبيبتى تذهب إليها فى بعض الأحيان ، علمت أن هذا الألماني كان يعرف حينا وأنه لهذا السبب قد قرر أن يتزوجها بأقصى سرعة ممكنة ، ولولا ذلك لكان يمكن أن ينتظر سنتين • ولقد أجبر لويزا على أن تحلف له أن لا تلقانى أبداً • وعلمت أن الألماني يسبب معاملة لويزا وعمتها ، وأنه قد يغير رأيه فينكص على عقبيه وينكل عن الزواج • وقالت لى العجوز أيضاً انه دعاهما الى تناول الشاى فى منزله غداً غد ، وهو يوم أحد ، وان قريباً آخر قد يأتى أيضاً وهو رجل كان فى الماضى تاجراً وأملق الآن املاقاً شديداً فأصبح يعمل مراقباً فى مستودع للخمور • فلما عرفت أنهم سييتون فى هذا الأمر يوم الأحد بلغت من الغضب أننى لم أستطع أن أستود هدوئى • ولم أزد فى ذلك اليوم وفى اليوم الذى يليه على أن أفكر وأفكر • لقد كان يمكن لو رأيت ذلك الألماني أن ألتهمه التهاماً فيما أظن •

فى صباح يوم الأحد لم أكن قد قررت شيئاً بعد ، ولكن ما ان انتهيت من سماع القداس حتى خرجت راكضاً فألقيت على معطفى وذهبت الى ذلك الألماني • كنت أقدر أن أراهم جميعاً هناك • أما لماذا ذهبت الى الألماني وماذا كنت أريد أن أقول فذلك أمر لم أكن أعرف عنه شيئاً أنا نفسى • وقد دسست فى جيبي مسدساً من باب الاحتياط ، وهو مسدس

صغير حقير له زناد على الطراز القديم ؛ لقد كنت أستخدمه في الرمي أيام الطفولة ، وهو الآن لا يصلح لشيء ، ومع ذلك حشوته رصاصاً ، لاننى قدّرت أنهم قد يطردوننى وأن هذا الألماني قد يُغلظ لى القول وأننى قد أطلق رصاص مسدسى عندئذ من أجل أن أخيفهم جميعاً . وصلت . كان السلم خالياً . انهم جميعا فى الحجرة التى تقع خلف الدكان . وما من خادم . كانت الخادم الوحيدة غائبة . عبرت الدكان ، فرأيت الباب مغلقاً ، وهو باب عتيق يدعمه رتاج . أخذ قلبى يخفق . توفمت وأصغيت : انهم يتكلمون بالألمانية . رفست الباب بقدمى ، فانفتح ، ونظرت ، فرايت المائدة مبسوطة . كان عليها ابريق قهوة كبير تغلى القهوة فيه فوق سراج يشتعل بالكحول . وكان على المائدة بسكويت ؛ وعلى صينية أخرى كانت توجد قارورة خمرة وأسمك مجففة وسجق وزجاجة نبيذ . ان لويزا وعمتها ترتديان ثياب يوم الأحد ، وهما جالستان على الأريكة . وأمامهما كان الألماني مسترخياً على كرسى وقد بدا عليه ما يبدو على خطيب ، فهو مصفف الشعر يرتدى فراكاً وبتزين بياقة عالية . وفى الجهة الأخرى كان يجلس ألماني ثان هو شيخ منذ الآن بدين الجسم أشيب الشعر . انه صامت . اصفرت لويزا اصفرارا شديداً حين دخلت ، ونهضت العمة عن مقعدها بوثة سريعة ثم ما لبثت أن عادت تجلس . وغضب الألماني ، فها هو ذا يقوم ويهب الى لقائى قائلاً :

— ماذا تريد ؟

كان يمكن أن أرتبك لولا أن شد الغضب أزرى . قلت :

— ماذا أريد ؟ هلا أحسنت وفادة ضيف فسقيته قليلا من الخمرة ؟

أنا انما جئتك زائراً ...

فكّر الألماني لحظة ثم قال لى :



– اجلس •

جلست •

– اليك خمرة فاشرب •

– هلا أعطيتني من جيد الخمرة !

وكان غضبي يزداد استعاراً •

قال :

– هذه خمرة جيدة •

رأيت أنه ينظر الىّ من أعلى الى أدنى ، فأثار هذا حنقي اثاره

رهية • وكان أنكى ما فى الأمر أن لويزا ترى هذا المشهد • شربت

وقلت له :

– هيه يا ألماني ! لماذا تغلظ لى القول ؟ يجب أن تتعارف فأنا قد

جئتك صديقاً •

أجاب الألماني قائلاً :

– لا يمكن أن أكون صديقك ، فما أنت الاّ جندى •

نارت عندئذ نائرتنى فصحت أقول :

– أيها الحقير ! يا آكل السجق ! هل تعلم أن فى وسعى أن أصنع

بك ما أشاء ؟ هل تريد أن أحطم رأسك بهذا المسدس ؟

قلت ذلك وأنا أسل مسدسى وأنهض من مكائى وأضع فوهة

المسدس على صدغه • أصبحت المرأتان أقرب الى الموت منهما الى الحياة •

انهما لا تجرؤان أن تتنفسا • وأخذ الشيخ يرتجف كورقة فى مهب

الريح وقد شحب لونه شحوباً شديداً •

دهش الألماني ، ولكنه سرعان ما تاب الى نفسه فقال :

– لست أخاف منك • وأنا أرجوك كرجل مهذب أن تكف فوراً  
عن هذا المزاح • أنا لا أخاف منك قط •

– كذاب • انك خائف • انظروا اليه ! انه لا يجرؤ أن يحرك  
رأسه من تحت المسدس •  
قال :

– لا ••• أنت لا تجسر أن تفعل هذا !

– لماذا لا أجسر أن أفعله ؟

– لأنه ممنوع منعاً باتاً ، ولأنك ان فعلته عوقبت عقاباً قاسياً !  
يا لهذا الألماني الأحمق ما كان أغباه وما كان أشد بلاهته ! فلولا  
أنه دفعنى الى قتله دفعاً لبقى الى الآن حياً •  
قلت له :

– أنت تعتقد اذن أنني لن أجرؤ ؟

– لن تجرؤ •

– لن أجرؤ ؟

– لن تجرؤ أن •••

– طيب خذها اذن يا سجق !

قلت ذلك وأنا أطلق رصاص مسدسى فاذا هو يتهاوى على كرسيه •  
وصرخ الآخرون •

أعدت مسدسى الى جيبي • وحين رجعت الى القلعة رميته في  
الأعشاب قرب الباب الكبير •

وصلت الثكنة واستلقيت على مضجعي وقلت لنفسي : « سيقبض  
على فوراً » • انقضت ساعة وانقضت ساعة أخرى ولم أعقل • وعند

المساء استبد بي حزن شديد وغم ثقيل • فخرجت • كنت أريد أن أرى  
لويزا مهما كلف الأمر • مررت أمام منزل الساعاتى ، فرأيت حشدا  
كبيراً من الناس ورأيت شرطة ••• أسرع الى بيت المرأة العجوز وقلت  
لها : « نادى لويزا » • فما هى الا لحظة حتى كانت لويزا ترتدى على  
عنى باكية وتقول لى : « الذنب ذنبى فقد أطعت عمى » • وذكرت لى  
لويزا أن عمتها قد رجعت الى الدار رأساً بعد ذلك المشهد وأنها قد بلغت  
من شدة الخوف أنها مرضت ، وأنها لم تنس بكلمة واحدة • ولم تش  
العجوز بأحد ، حتى أنها أمرت ابنة أخيها بأن تسكت وان تكتم كل  
شئ ، لأنها كانت خائفة ؛ وقالت لويزا : « فليفعلا ما يشاؤون • ما من  
أحد رآنا منذ وقع الحادث » • كان الساعاتى قد صرف خادمته لأنه  
يخافها كما يخاف النار ، فلو علمت أنه يريد أن يتزوج لفقأت عينيه •  
ولم يكن فى الدكان أى عامل ، فان الساعاتى قد أبعد جميع العمال •  
لقد تولى بنفسه اعداد القهوة والوجبة • أما قريبه فهو امرؤ صامت طوال  
حياته • لذلك تناول قبعته دون أن يفتح فمه ، وانصرف أول المنصرفين •  
أضافت لويزا تقول : « أنا على يقين من أنه سيظل صامتاً » • وذلك  
ما حدث • انقضى أسبوعان ولم أعتقل ، ولا اشتبه فى فظ • وكان  
هذان الأسبوعان كل سعادة حياتى ! صدق أو لا تصدق يا ألكسندر  
بتروفتش ! أصبحت ألقى لويزا كل يوم ، فما أشد ما تعلقت بى ! كانت  
تقول لى وهى تبكى : « اذا نفيت فلأذهبن معك ! لأتركن كل شئ فى  
سبيل أن أتبعك » • فكان هذا يفطر قلبى شفقة • وقبض على بعد  
أسبوعين • لقد اتفق الشيخ والعمة على أن يبلغا عنى ويشيا بى •  
قلت مقاطعاً :

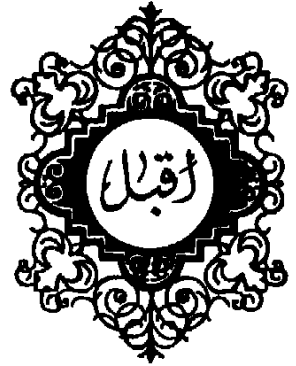
- ولكن اسمع يا باكلوشين ! من أجل هذا الأمر لا يحكم أحد  
الاّ بعشر سنين أو بائنتى عشرة سنة ، ذلك هو الحد الأقصى للعقوبة ؛

ويسجن الجانى فى القسم المدنى فمالى أراك فى « القسم الخاص » ؟  
ما سبب ذلك ؟

قال باكلوشين :

— تلك قضية أخرى ، فحين اقتادونى الى المجلس الحربى ، أخذ  
النائب العام وهو برتبة رائد يهيننى أمام المحكمه ، ويقول لى الفاظاً نابيه ،  
فلم اطق صبراً ، فصرخت أقول له : « لماذا تشتمنى ايها الوغد ؟ الا ترى  
أنك امام «مرأة عداله» ؟ » \* فكان أن رفعت على قضية اخرى واعيدت  
محاكمتى للجرمين كليهما فحكم على باربعة الاف جلده وبايداعى  
« القسم الخاص » • ويجب ان أذكر لك انه حين جىء بى الى الشارع  
لتلقى العقوبة قد جىء بذلك الضابط ايضا ، وكان قد حكم بتجريده من  
رتبه العسكرية وبارساله الى القوقاز جندياً بسيطاً ، وذلك لجرم  
اقترفه • الى اللقاء يا ألكسندر بتروفتش : لا تتخلف عن حضور حفلتنا  
التمثيلية •

## عيد الميلاد



عيد الميلاد أخيراً • ان السجناء لا يكادون يذهبون الى العمل فى اليوم السابق على العيد • الذين يعملون فى الخياطة وأمثالهم يمضون الى ورشاتهم كالعادة ؛ أما الآخرون فانهم ما ان يتجمعوا فى أماكن العمل حتى يعودوا الى الثكنة وحدانا أو جماعات • حتى اذا فرغوا من تناول غدائهم لم يعملوا بعد ذلك قط • لم يهتم القسم الأكبر من السجناء ، منذ الصباح ، الا بأعمالهم الخاصة ، أما الأعمال التى تفرضها ادارة السجن فلم يحفلوا بها : فبعض " يحتال لادخال خمرة الى السجن ، أو لطلب المزيد منها ، وبعض يطلب الاذن له برؤية أصدقائه من الرجال أو النساء ، وبعض يلمُّ الديون الصغيرة التى له على غيره لقاء أعمال سبق أن قام بها • وكان باكلوشين والسجناء الذين يشاركون فى اعداد الحفلة التمثيلية يحاولون أن يقنعوا أصحابهم من خدم الضباط باعارتهم الملابس التى هم فى حاجة اليها •

وكان بين السجناء أناس يضطربون ذاهين آيين لا لشيء الا لأن آخرين كانوا يضطربون ذاهين آيين • ما من أحد يدين لهم بمال يتوقعون أن يتقاضوه ، ومع ذلك يبدو عليهم أنهم ينتظرون أن يتقاضوا

شيئاً • الخلاصة أن جميع الناس يأملون حدوث تغير ما ، يأملون وقوع شيء خارق • وفي المساء عاد الجنود القدماء ( مشوهو الحرب ) يحملون للسجناء ما أوصوهم بشرائه لهم من أنواع الأطعمة : لحماً وخنازير رضية وأوزاً • ان كثيرا من السجناء ، وحتى أكثرهم عوزاً وأشدهم تقيراً ، ممن ظلوا طوال السنة يكدسون كويكاتهم ، يعتقدون أن من واجبهم أن يبسطوا أكفهم في هذا اليوم وأن ينفقوا بسخاء وأن يحتفلوا بسهرة العيد احتفالاً يليق بها • ان الغد هو في نظر السجناء عيد حقيقي لهم فيه حق ، عيد معترف لهم به بحكم القانون • لا يمكن ارسال السجناء الى العمل في ذلك اليوم ؛ وليس في السنة كلها الا ثلاثة أيام كهذا اليوم •

وأخيراً من ذا الذي يدري ما هي الذكريات التي لا بد أن تستيقظ وأن تغلى وتفور في نفوس هؤلاء المنبوذين عند اقتراب احتفال كهذا الاحتفال ؟ ان أبناء الشعب يحفظون ذكرى الأعياد الكبرى منذ الطفولة . فلا بد لهؤلاء السجناء أن يتذكروا في كثير من الحزن والقلق والاضطراب تلك الأيام التي يرتاح فيها المرء من الأعمال المضنية في حضن الأسرة • ان احترام السجناء لهذا اليوم يفرض نفسه عليهم فرضاً ، فاذا الذين يسرفون في الشراب والسكر منهم قلة قليلة ، واذا أكثرهم جادون ، حتى لتراهم منهمكين رغم أن معظمهم ليس عليه ما يعمل • وحتى الذين يسمحون لأنفسهم بالاستهتار يحتفظون بشيء من الرزانة والرصانة والوقار ••• فكأن الضحك ممنوع محظور • لقد ران على السجن ترمت لا يتهاون ولا يتسامح ، فاذا أساء أحد الى الراحة العامة والهدوء الشامل ، هب السجناء ينهرونه ويردوناه الى مكانه صارخين شامتين ، وغضبوا منه أشد الغضب ، كأنما هو أخلّ بواجب احترام العيد نفسه • تلك حالة نفسية لدى السجناء واضحة بارزة بل ومؤثرة • فانهم ، الى جانب

تقديسهم الفطرى لهذا اليوم العظيم ، يحسون أنهم اذا هم أكبروا العيد وأعظموه كانوا يتصلون بباقي العالم ، فلم يظلوا منبوذين ضائعين محتقرين مهملين ، ما دام السجن يحتفل بالعيد كما يحتفل به من هم فى خارج السجن . ان السجناء يشعرون بهذا كله ، رأيت ذلك وأدركته بنفسى .

وقد قام آكيم آكىمتش أيضاً باستعدادات كبيرة للاحتفال بالعيد . ليس لآكيم آكىمتش ذكريات أسرة ، فقد ولد يتيماً فى بيت أناس غرباء ، ودخل الخدمة منذ السة الخامسة عشرة من عمره . ولم يشعر يوماً بأفراح كبيرة ، لأن حياته قد جرت على نسق واحد ووتيرة واحدة فى جو الخوف من مخالفته الواجبات المفروضة عليه . لا ولا هو بالتدين كثيراً ، لأن تقيده بالنظام قد خنق فيه جميع مواهبه الانسانية ، وجميع أهوائه ، وجميع ميوله حسنة كانت أو سيئة . لذلك كان يتهيأ للاحتفال بعيد الميلاد دون لهفة كبيرة أو انفعال قوى أو ضيق شديد . ما من ذكرى كانت تثير حزنه وشجنه . على أن الاستعداد للاحتفال بعيد الميلاد فرصة له من أجل أن يقوم بعمله على نظام دقيق وترتيب معين يفرضهما واجب الاحتفال بعيد مقرر مفروض . ثم ان آكيم آكىمتش لا يحب التأمل كثيراً . انه حين ينفذ القواعد تنفيذاً دقيقاً لا يعنيه الموضوع وانما يعنيه الشكل ، فلو طلبت اليه فى الغداة أن ينفذ نقيض ما نفذه بالأمس ، لرأيته يكب على تنفيذه مظهرأ ذلك الخضوع نفسه وتلك الدقة نفسها التى أظهرها بالأمس . لقد أراد مرة واحدة فى حياته أن يعمل بوحى اندفاعه ، فاذا هو يُرسل الى سجن الأشغال الشاقة . ذلك درس لم ينسه . فرغم أنه لم يكتب له أن يفهم ذنبه وأن يدرك جرمه فى يوم من الأيام ، فقد استخرج من مغامرته تلك قاعدة أخلاقية تضمن له السلامة ، وهى أن لا يفكر يوماً ، فى أى ظرف من الظروف ، لأن فكره لا يؤهله أبداً لأن يقضى برأى فى القضية التى يجب عليه أن يقضى فيها برأى .

انه مكب على القيام بواجبات الاحتفال بالعيد ، اكباباً أعمى ، حتى أنه ينظر نظرة احترام الى الخنزير الرضيع الذى حشاه جريشاً وقلاه بنفسه ( لانه ملم بفن الطهو بعض الامام ) ، فكان هذا الخنزير الرضيع الذى يعده طعاما للعيد ليس خنزيراً عادياً من الخنازير التى يمكن شراؤها وقلها فى كل وقت ، وانما هو حيوان لم يولد الا لعيد الميلاد . لعل آكيم اكيتمش قد ألف منذ نعومه اظفاره أن يرى على المائدة فى مثل هذا اليوم خنزيراً رضيعاً ، فاستتج من ذلك أن الخروف الرضيع شئ لا بد منه ولا غنى عنه للاحتفال بالعيد كما ينبغى الاحتفال بالعيد . وانى لعل يقين من أنه ان لم يأكل هذا النوع من اللحم فى يوم العيد لظل طوال حياته يشعر بعذاب الضمير من اخلاله بالقيام بواجباته . وكان آكيم اكيتمش ، حتى يوم العيد ، يرتدى سترته العتيقة وسرواله القديم اللذين كانا رغم ترفيعهما الدقيق المحكم يشقان عن سداهما منذ زمن طويل . وقد علمت أنه يحتفظ فى صندوقه بالرداء الجديد الذى أعطيه قبل أربعة أشهر ، وأنه لم يمسه لأنه يريد أن يرتديه فى عيد الميلاد . وذلك ما فعله . فما هو ذا ، فى ليلة العيد ، يخرج الملابس الجديدة من صندوقه ، فيفضُّها ، ويفحصها وينظفها ، وينفخ عليها لينفض عنها الغبار ، حتى اذا أتم ذلك كله ، جرَّبها على جسمه . ان الرداء يناسبه تماماً . ان جميع أجزائه لائقة ، فالصدره تعقد أزرارها حتى العنق ، والياقة مستقيمة صلبة كأنها من كرتون ، فهى تسند الذقن وترفعها الى فوق . ان تفصيلا الرداء تشبه تفصيلا الزى العسكرى . لذلك ابتسم آكيم اكيتمش ابتسامة الرضى وهو يدور على نفسه ثم يدور مختلاً أمام مرآته الصغيرة التى أكبرَّ على تزينها باطار مذهب منذ زمن طويل . كان زر واحد من أزرار السترة منحرفاً عن مكانه ، فلاحظ آكيم اكيتمش ذلك فقرر أن يعدله ، فلما فرغ من عمله جرَّب الصدره مرة أخرى ،



فلم يكن عليها في هذه المرة ماخذ • عندئذ طوى اكيم اكيتمش رداءه  
كما كان ، واعاده الى موضعه من الصندوق هادىء البال مرتاح النفس ،  
من أجل ان يرنديه في الغد • ولقد كانت جمجمته مخلوقة حلقة كافيا،  
ولكنه ايقن بعد أن أنعم النظر فيها انها ليست ناعمة كل النعومة ، فان  
سعره قد عاد فنبت على غير شعورٍ منه ، فسرعان ما مضى الى « الميجر »  
ليحلق شعر راسه على نحو ما يوجب النظام ان يحلق • الحق أن  
أحدا لن يخطر بباله ان ينظر اليه في الغد ، ولكن اكيم اكيتمش يفعل  
ما يمليه عليه ضميره تبرئةً للذمة وقياما بكل ما يقع عليه من واجبات في  
ذلك النهار • ان هذا التقديس الذي يشعر به نحو اصفر زر وأيسر  
عروة وآتفه بريم على الكتف ، قد رسخ في عقله على أنه واجب صارم،  
ورسخ في قلبه على أنه صورة أكمل جمال يمكن ويجب أن يبلغه انسان  
محترم • ولما كان اكيم اكيتمش « كبير » سجناء الثكنة من حيث أنه  
أقدمهم ، فقد حرص على أن يأمر بتبين تفرش به أرض الثكنة • كان  
هذا يتم في جميع الثكنات • لا أدري لماذا كانوا يلقون تينا على الأرض  
في عيد الميلاد دائماً • فلما فرغ اكيم اكيتمش من عمله ، تلا صلواته ،  
ورقد على مضجعه ونام ذلك النوم الهادىء الذي هو نوم الطفولة ، من  
أجل أن يستيقظ في ساعة مبكرة من صباح الغد • وهذا ما فعله سائر  
السجناء على كل حال • لقد رقد جميع السجناء في مضاجعهم قبل الأوان  
المألوف ، تاركين أعمالهم العادية في ذلك المساء • أما اللعب بالورق فما  
كان لأحد أن يجرؤ على الكلام عنه • ان جميع من في السجن ينتظر  
صباح الغد •

وجاء صباح الغد أخيراً ! ••• قرع الطبل في ساعة مبكرة جداً،  
حتى قبل أن يطلع النهار • ودخل صف الضابط الذي يعد السجناء  
فجياًهم وتمنى لهم عيداً سعيداً • فردَّ السجناء تحيته بتحية لطيفة ودود

وتمنوا له مثل ما تمنى لهم • وأسرع آكييم آكييمش وغيره ممن كان لهم  
 اوزات وخنازير رُضِعَ ، أسرعوا الى المطبخ بعد أن تلوا صلواتهم على  
 عجل ، من أجل أن يروا في اى مكان كانت ذبائحهم وكيف كانت تقلى •  
 فمن خلال النوافذ الصغيرة التى كان يغطى الثلج والجليد نصفها ، ترى  
 من الثكنة ، فى الظلمات ، النيران القوية التى تتلظى فى المطبخين وقد  
 أشعلت موافدهما الستة ؛ وها هم أولاء السجناء قد ألقوا معاطفهم على  
 أكتافهم أو ارتدوا ثيابهم كاملةً ، وظهروا فى فناء السجن مسرعين فى  
 اتجاه المطبخ • ان عدداً قليلاً منهم قد استطاع أثناء ذلك ان يزور بائعى  
 الخمرة • هؤلاء هم بين السجناء أقلهم صبراً • ان السجناء يتصرفون  
 اليوم فى حشمة وهدوء وأدب أكثر مما عهد فيهم من ذلك فى العادة •  
 فلا مشاجرات ولا شتائم • ان كل واحد يعلم ان هذا اليوم يوم عظيم ،  
 وأنه عيد كبير • حتى لقد كان بعضهم يذهبون الى الثكنات الأخرى  
 بحيون زملائهم ويتمنون لهم عيداً مباركاً سعيداً • لكن نوعاً من الصداقة  
 قد قام بينهم فى هذا اليوم • كنت قد لاحظت عرضاً أن السجناء لا تكاد  
 تنشأ بينهم فى السجن روابط ، لا عامة ولا خاصة • كان يندر أن  
 يرتبط سجين بسجين آخر كما يحدث ذلك فى العالم الحر • كنا ، على  
 وجه العموم ، قساةً خشنين فى علاقات بعضنا ببعض ، باستثناء حالات  
 قليلة نادرة • تلك قاعدة عامة يلتزمها السجناء ولا يجيدون عنها •  
 وخرجت أنا أيضاً من الثكنة • كان النهار قد بدأ يطلع • شجبت النجوم •  
 ان ضباباً خفيفاً متجلداً يعلو فوق الأرض ، وان سحائب حلزونية من  
 دخان المدافىء يتصاعد دائراً • لقينى عدة سجناء فهأنونى بالعيد فى كثير  
 من اللطف والمودة ، فشكرت لهم تهنتهم ورددتها بمثلها ، وكان بينهم  
 أناس لم يسبق أن خاطبونى قبل ذلك بكلمة واحدة •  
 فلما صرت قرب المطبخ أدركنى سجين من سجناء الثكنة العسكرية .

كان ملقياً فروته على كفه • لقد لحنى في وسط الفناء فأخذ يناديني صائحاً : « ألكسندر بتروفتش ! ألكسندر بتروفتش ! » ، وأسرع يركض صوبَ المطبخ • وقفت أنتظره • انه شابٌ مدوّر الوجه ، رقيق العينين ، قليل الكلام مع الناس ، لم يوجه الىّ منذ دخولي الى السجن كلمةً واحدة ، ولا التفت الىّ حتى الآن أيّ التفات ، حتى انى كنت لا أعرف اسمه • هرع نحوى لاهثاً لاهثاً شديداً ، وتسمّر أمامى ينظر الىّ مبتسماً ابتساماً بلهاء وقد لاحت في وجهه معاني السعادة • سألته بشيء من الدهشة :

— ماذا تريد ؟

فظل واقفاً أمامى مبتسماً ، ينظر الىّ بكل عينيه ، دون أن يبدأ الحديث مع ذلك • ثم جمجم يقول :

— كيف ؟ اليوم عيد •••

وأدرك هو نفسه أن ليس عنده ما يقوله لى غير ذلك ، فتركنى ومضى مسرعاً الى المطبخ •

ويجب أن أذكر أننا لم نكد نلتقى بعد ذلك ، وأنا لم تتخاطب حتى ساعة خروجى من السجن •

حول مواعد متأججة بالمطبخ كان السجناء المنهمكون يضطربون ويتزاحمون • ان كل واحد منهم يراقب رزقه • وكان الطباخون يعدون الطعام العادى الذى يقدم للسجناء ، ذلك أن الغداء يُتناول اليوم قبل الموعد المألوف • ولم يكن أحد قد أكل شيئاً بعد ، رغم أنهم كانوا يتمنون جميعاً لو يأكلون ، ولكنهم يراعون المواضعات أمام الآخرين • انهم ينتظرون الكاهن ، فالصيام لا ينتهى قبل وصوله • وما ان طلع النهار حتى سُمع صوت العريف ينادى من وراء باب السجن قائلاً : « الطهاة ! »

وظلت هذه النداءات تتكرر متصلةً غير منقطعة خلال ساعتين • ان الطهارة  
 ينادون لاستلام الصدقات التي كانت تتقاطر من جميع أركان المدينة  
 مقادير ضخمة : هي أرغفة من خبز أبيض ، وفطائر ، ومعجنات ،  
 وحلوى ، وأنواع أخرى من الأطعمة • أعتقد أنه ما من بائعة وما من  
 ساكنة من ساكنات المدينة بأسرها الا وأرسلت شيئاً الى السجناء «التعساء»  
 من قيل المباركة بالعيد • كان بين هذه الصدقات صدقات ثمينة : عدد  
 كبير من أرغفة الخبز المصنوع من فاخر الدقيق ؛ وكان بينها أيضاً  
 صدقات زهيدة : رغيف من خبز أبيض ثمنه كوبكان ، أو رغيفان من  
 خبز أسود دُهنًا بقليل من القشدة • تلك هدية الفقير للفقير انفق فيها  
 الأول آخر كوبك يملكه • وكانت هذه الصدقات تقبل بامتنان واحد ،  
 دون تفریق بينها في القيمة أو في المصدر • وكان السجناء الذين  
 يستلمون الهدايا يرفعون قبعاتهم عرفاناً بالجميل ، ويشكرون لأصحاب  
 الهدايا هداياهم وهم يحيونهم ويتمنون لهم عيداً سعيداً ثم ينقون الصدقات  
 الى المطبخ • حتى اذا اجتمعت أكداس كبيرة من الخبز نودي السجناء  
 القدامى من كل ثكنة ، فتولوا توزيع الخبز على جميع الأقسام أنصبةً  
 متساوية • وهذه القسمة لا تثير أية مشاجرات أو مشاتمات ، وانما هي  
 تتم بالعدل والقسطاس • وقد تولى آكيم آكيمتش ، متعاوناً مع سجين  
 آخر ، توزيع النصيب الذي نالته ثكنتنا ، فقسمه بين السجناء وكان يناول  
 كل سجين ما يستحقه بيده • كان كل واحد من السجناء راضياً مقتبلاً ،  
 فما من احتجاج يسمع ، وما من مطالبة تشب ، وما من حسد يظهر ؛  
 ولا خطر ببال أحد أن يغش أو يختلس • وحين فرغ آكيم آكيمتش من  
 اعماله في المطبخ مضى يعنى بزينته عنايةً شديدة ، فارتدى ثيابه بكثير من  
 الاحتفال والاهتمام والأبهة ، عاقداً جميع أزرار سترته لم يستن منها  
 واحداً ، حتى اذا انتهى من ارتداء ملبسه الجديدة ، طفق يتلو صلواته ،

ودام هذا زمنا طويلاً • ان كثيراً من السجناء كانوا يقومون بواجباتهم الدينية ، ولكن أكثر هؤلاء كانوا من المسنين ، اما الشباب فكانوا لا يكادون يصلون ، وكانوا فى احسن الاحوال لا يزيدون على ان يرسموا اشارة الصليب حين ينهضون من نومهم ، حتى ان هذا نفسه كانوا لا يفعلونه الا فى ايام الاعياد •

حين انتهى اكيمة اكيمة من صلاته اقترب منى ليعبر لى عن التهاني المألوفة • فدعوته الى احتساء الشاي معى ، فردّ لى هذه الملاحظة بدعوتى الى تناول شىء من لحم خنزيره الرضيع • وما هى الا برهة قصيرة حتى هرع الى بتروف يعرب لى عن تحياته وتمنياته • أحسب أنه كان قد شرب قليلاً • ورغم انه قد وصل الى لاهثاً ، فانه لم يكذب على شىء ، بل لبث واقفاً أمامى بضع لحظات ، ثم أسرع يعدو الى المطبخ • كان السجناء فى ثكنة القسم العسكرى يستعدون فى تلك الآونة لاستقبال الكاهن • ان هذه الثكنة لم تكن مبنية على طراز سائر الثكنات • ان المضاجع فيها مصطفة على طول الجدران لا فى وسط القاعة كسائر الثكنات ، فهى بفضل ذلك الثكنة الوحيدة التى لا يزدحم وسطها • ولعلها قد بنيت بهذه الطريقة من أجل أن يتسنى جمع السجناء فيها عند الضرورة • وقد نصب السجناء مائدة فى وسط الثكنة ، ووضعوا على المائدة أيقونة وأشعلوا أمام الأيقونة سراجاً • ووصل الكاهن آخر الأمر ، يحمل الصليب والماء المقدس • فصلّى ورتل أمام الأيقونة ، ثم التفت نحو السجناء فأخذوا يتوافدون بعضاً وراء بعض فيقبلون الصليب • وطاف الكاهن بعد ذلك بالثكنات الأخرى جميعها ، يرشها بالماء المقدس • فلما وصل الى المطبخ امتدح خبز السجن الذى كانت له شهرة فى المدينة ، فسرعان ما أظهر السجناء رغبتهم فى أن يرسلوا اليه رغيفين ما يزالان ساخنين ، وكلفوا أحد مشوهى الحرب بأن يحملهما اليه فوراً • وشيّع

السجناء الصليب بمثل ما استقبلوه به من احترام واعظام وما هي الا برهه قصيرة حتى وصل الميجر وأمر السجن • وكان السجناء يجبنون الامر كثيراً ، حتى لقد كانوا يحترمون به • طاف الامر بالثكنات يصحبه الميجر ، وهنا السجناء بالعيد ، ثم دخل المطبخ وذاق حساء الكرنب • كان الحساء طيباً جداً في ذلك اليوم : لقد كان لكل سجين حق في نحو نصف رطل من اللحم وقد أُعدّ بالإضافة الى ذلك جريش لم يبخل عليه بالسمن • شيع الميجر أمر السجن الى الباب ، وأصدر أمره الى السجناء بتناول طعام الغداء • كان هؤلاء يتحاشون أن يراهم الميجر ، فلقد كانوا لا يجبنون نظرتهم الخبيثة التي لا تتي تفتشهم وتتجسس عليهم من وراء النظارتين ، متجهةً الى اليمين والى الشمال ، كأنها تبحث عن فوضى تقوّم أو عن مذنب يعاقب •

وتغدى السجناء • وكان خنزير آكيم آكيمتش رائح القلى • لم أستطع أن أفهم كيف أمكن بعد خروج الميجر بخمس دقائق أن يكون بين السجناء كل هذا العدد الكبير من السكرارى بينما كان الجميع أثناء حضوره هادئين وادعين • ما أكثر الوجوه الحمراء المتألقة ! وسرعان ما ظهرت آلات الببالايكا • وهذا هو البولندى القصير يتبع سجيناً كان قد استأجره ، فيظل يعزف وراءه على الكمان طول النهار ، ويضرب له ألحان رقص مرحة • وأخذت الأحاديث بين السجناء تزداد صخباً وضجيجاً • ومع ذلك انتهى الغداء دون فوضى كبيرة • شبع الجميع • وهذا عدد من الشيوخ الرضيين الوقورين يمضون يرددون على مضاجعهم فوراً • • • وكذلك فعل آكيم آكيمتش الذى لعله كان يؤمن بأن على المرء أن ينام بعد الغداء حتماً فى أيام الأعياد • وهذا تقيُّ ستارودوب يصعد على المدفأة ، بعد أن غفا قليلاً ، فيفتح كتابه ويأخذ يقرأ فيه طول النهار وجزءاً من الليل ، دون أن ينقطع عن ذلك لحظة واحدة • كان

منظر هذا «العار» يثقل على نفسه ويحز في قلبه على حد تعبيره • ومضى  
الشراكية جميعاً يجلسون على العتبة • كانوا ينظرون بكثير من الفضول  
وبشء من الاشمئزاز الى هؤلاء السكرارى • وصادفت نورا ، فقال وهو  
يهز رأسه ممتعضاً مستاءً : « أمان ••• أمان ••• أمان ••• لسوف  
يغضب الله ••• » • أما أشعيا فومتش فقد أشعل في ركنه شمعة ، وهو  
يصطنع كثيراً من الكبرياء والخيلاء والعناد ، وأخذ يعمل ، حتى يبين  
للناس أن هذا اليوم ليس في نظره عيداً • وانعقدت حلقات اللعب بالورق  
هنا وهناك • كان السجناء لا يخشون الان مشوهى الحرب من الجنود ،  
ومع ذلك وضعوا خفراء يحرسون الباب ، مخافة ان يداهمهم صف  
الضابط على حين فجأة ، ولكن صف الضابط هذا كان يحاول ان لا يرى  
شيئاً • أما ضبط الحراسة فانه لم يقم الا بثلاث جولات : فسرعان ما كان  
السكرارى من السجناء يختبئون ، وسرعان ما كان ورق اللعب يختفى ،  
في مثل ومض البرق • وأغلب ظنى أن ضابط الحراسة كان في قرارة  
نفسه يعتمد أن لا يلاحظ المخالفات التى لا يعدها ذات شأن • ان السكر  
ليس ائماً كبيراً فى ذلك اليوم • واستولى المرح على جميع السجناء شيئاً  
بعد شيء • وبدأت المشاجرات تنشب بينهم • غير أن أكثرهم كان هادئاً  
وديعاً مسالمًا ، والحق أن رؤية السكرارى وحدها كانت تبعث على الضحك •  
كان هؤلاء السكرارى يشربون بغير قصد أو اعتدال • وكانت تبدو على  
جازين أمائر الانتصار ، فهو يتجول راضياً مسروراً قرب مضجعه الذى  
أخفى تحته خمرة ، وكان قد دفن الخمر تحت الثلج وراء الثكنات فى  
موضع سرى • انه يتسم ابتسامات ماكرة وهو يرى المستهلكين يقبلون  
عليه ذرافات • وكان هو صاحباً لم يشرب قطرة واحدة ، لأنه كان ينوى  
أن يقصف فى آخر يوم من أيام العيد ، بعد أن يكون قد أفرغ جيوب  
جميع السجناء • وأخذت الأغاني تدوى فى أرجاء الثكنات • اشتد

السكر اشتداداً رهيباً ، وأصبحت الأغاني تشارف على البكاء • كان السجناء يتجولون جماعات جماعات وهم يوقعون على آلات البالايكا ألحانهم الأثيرة ، وقد ظهرت في وجوههم معنى التائر وألقوا معاطفهم على أكتافهم في غير اكرات • حتى لقد تألفت في «القسم الخاص» جوفة قوامها ثمانية أشخاص أو عشر • فكان هؤلاء يصدحون بأغانهم صداها عالياً ، ترافقهم آلات القيثارة والبالايكا • كانت الأغاني الشعبية حقاً نادرة ، ولست أتذكر منها الآن الا أغنية واحدة أجدوا غناءها اجادة رائعة :

### أنا الفتاة الصبية •

قد كنت في الحفل أمس •••

وفي السجن انما سمعت صورة جديدة لهذه الأغنية لم أكن أعرفها من قبل ، وقد أضيفت الى نهايتها بضعة أبيات :

في منزلي رتبت كل شيء

ملاعقي غسلتها

حساؤنا سكبته

وبابنا نظفته

طعامنا طبخته •

ان الأغاني التي كان يغنيها السجناء خاصةً انما هي الأغاني التي

تسمى « أغاني السجناء » • ان مطلع احبداها هو : « حدث في غابر

الأيام •••• » ، وهي أغنية هزلية تروى قصة انسان كان فيما مضى يلهو

ويعبث ويعيش كما يعيش السادة الكبار ، ثم أُرسل الى سجن الأشغال

الثاقفة • فبينما كان يأكل في الماضي طيب الأطعمة ويشرب فاخر الخمرة

أصبح اليوم يقول :



أشرب اليوم حساء

يملا البطن ويمضى للأذن

وهذه أغنية أخرى معروفة جداً كان يغنيها السجناء أيضاً :

كنت في الماضي صبياً مترفاً

يعشق اللهو ويختال غنياً

ثم ضيقت ثرائي في الصبا

وأنا اليوم أسير في السجون

إلى آخر ما هنالك \*\*\*

وكان بين هذه الأغاني أغاني حزينة أيضاً ، منها هذه الأغنية

المعروفة التي أعتقد أنها من أغاني السجناء حقاً :

• طلع الفجر ، فهذا الطبل يقرع

• لنقوم

• وسمعنا الباب يفتح

• دخل الحارس يدعونا \*\*\* نهضنا

• لا يرانا أحد خلف الجدار

• لا يرى أحد كيف نعيش

• ربنا يرحم من بالسجن يحيا في قبور

• ربنا ينجي ، فلن نفنى هنا \*\*\*

• الخ الخ •••

وهناك أغنية أخرى أبعث على الحزن والكآبة ، أغنية رائعة اللحن

ولكن كلماتها تافهة ركيكة ملأى بالأخطاء اللغوية • اننى أتذكر منها

بضعة أبيات :

لن ترى عيني بلادي

لن أرى مسقط رأسي •

دون ذنب قد جنيته

شاءت الأقدار أن أقضى حياتي كلها

في عذاب وشقاء •

تنعق الغربان في بيتي بأصوات كئيبة ،

فاذا الغابات حوله

ترجع الأصوات أصداء حزينة •

فاض قلبي شجنًا •

لن أرى بيتي يوماً •

كان السجناء يرددون هذه الأغنية كثيراً ، ولكنهم لا يغنونها جماعة بل يصدحون بها فرادى • يفرغ أحد السجناء من عمله مثلاً ، فيخرج من الثكنة ويجلس على درجات المدخل ، ويسترسل في تفكير عميق مسنداً ذقنه الى يده ، ثم اذا هو ينطلق في غنائها ، فيصفي اليه رفاقه ، ويشعرون بشيء يتحطم في قلوبهم • لقد كان بين السجناء من يملكون أصواتاً جميلة رخيمة •

هبط الغسق • ان الضجر والسأم والحزن والألم ، ان ذلك كله يعود الى الظهور الآن من خلال السكر والعريضة • ان السجين الذي كان منذ ساعة يمسك خاصرتيه من فرط الضحك ، يجهش الآن باكياً في ركن من الأركان وقد أخذ منه الثمل كل مأخذ • وهؤلاء سجناء آخرون قد وصلوا الى حد التماسك بالأيدي مراراً ، أو راحوا يطوفون في أرجاء الثكنات مترنحين صفرّ الوجوه يسعون الى مشاجرة ويبحثون

عن مشاتمة • أما الذين يلقيهم السكر الى الحزن فانهم يمضون الى  
 أصدقائهم ليتخففوا من آلام سكرهم بالبكاء • لقد كان هذا العالم البائس  
 كله يريد أن يفرح وأن يمرح ، وأن يقضى يوم العيد العظيم فى بهجة  
 ونشوة ، ولكن ما كان أشق ذلك اليوم على السجباء جميعاً ، سبحان الله !  
 ••• كانوا قد أمضوا ذلك النهار آملين أن يستمتعوا بهناء كبيرة ، ولكن  
 الهناء لم تتحقق لهم • ولقد هرع بتروف الى مرتين : كان صاحباً لأنه  
 لم يشرب الا قليلاً ، ولكنه ظل الى آخر لحظة ينتظر شيئاً لا بد أن  
 يحدث ، شيئاً خارقاً فرحاً مسلياً • لم يعبر عن توقعه هذا بكلمة ، ولكن  
 المرء يدرك ذلك فى نظرتة • كان يركض من ثكنة الى ثكنة بغير تعب  
 ولا كلال ••• ولم يحدث شيء ••• لم يحدث شيء غير السكر شمل  
 الجميع ، وغير الثنائيم البلهاء يتبادلها السكارى ، وغير الطيش يذهب  
 بهذه الرعوس المشتعلة الملتهبة • وكان سيروتكين يتجول هو أيضاً هنا  
 وهناك ، متزيناً بقميص أحمر جديد كل الجدة ، ينتقل من ثكنة الى  
 ثكنة ، فتى جميلاً على العهد به ، نظيفاً نظافة تخطف البصر • وكان هو  
 أيضاً ينتظر وقوع شيء ما ، ينتظر ذلك فى رفق وهدوء ، وسداجة  
 وبراعة • وشيئاً فشيئاً أصبح المشهد لا يُطاق ، أصبح المشهد يثير  
 الاشمئزاز والتقرز ، ويبعث فى النفس الغثيان • كان هنالك ما يحمل  
 على الضحك مع ذلك ، ولكننى كنت حزينا كل الحزن دون أن يكون  
 نمة سبب ظاهر • كنت أشعر بشفقة عميقة على جميع هؤلاء الرجال ،  
 وكنت أشعر أننى بينهم أختق اختناقاً • هذان سجينان يتشاجران فهذا  
 يزعم أن على الآخر أن يسقيه ، والثانى يدعى أن الأول هو الذى يجب  
 عليه أن يسقيه • انهما يتشاجران منذ مدة طويلة • وقد كادا أن يتماسكا  
 بالأيدي • ان لأحدهما سنّاً تركب سنّاً أخرى ، فها هو ذا يتشكى مثاماً  
 ويحاول أن يبرهن لصاحبه على أنه قد ظلمه حين باع فى السنة الماضية

معطفاً وأخفى عنه المال \*\*\* ذلك عدا أمور أخرى \*\*\* ان المشتكى  
 سَاب فارع الطول مفتول العضلات رابط الجأش ، ليس بالغبى ، ولكنه  
 منى سكر أصبح يحب أن يتخذ لنفسه أصدقاء وأن يعبر عن آلامه فى  
 أحضانهم • فيها هو ذا يشى بخصمه ويشهر به ويذكر عيوبه واساءاته  
 اليه وهو ينوى فى قرارة نفسه أن يصلحه بعد ذلك • أما الثانى فرجل  
 يدين قصير قوى البنية مدور الوجه ماكر مكر ثعلب ، ولعله شرب من  
 الخمرة أكثر مما شرب صاحبه ، ولكن لا يبدو أن السكر قد بلغ منه  
 الا قليلاً • ان لهذا السجين طبعاً قوياً واردة صلبة ، وهو يعد بين  
 السجناء على جانب من الغنى • ولعله كان يرى أن من مصلحته أن  
 لا يُحَقِّق رفيقه ، فيها هو ذا يقوده الى بائع الخمرة • ان صديقه الذى  
 يكثر من الكلام يؤكد أنه مدين له بمال ، وأن عليه أن يسقيه « اذا كان  
 ذلى شىء من شرف » •

وهذا بائع الخمرة يتناول قدحاً فيملؤه خمراً ، وهو يظهر للمشتري  
 بعض الاحترام ، ولا يخفى شيئاً من الاحتقار لرفيقه ، لأن الرفيق يشرب  
 على حساب غيره ويقصف بمال غيره • قال الرفيق الذى يكثر من  
 الكلام :

— لا يا ستبكا ، عليك أنت أن تدفع ثمن الشراب ، لأنك مدين لى

• بمال

فأجابه صاحبه :

— طيب طيب ! لا أريد أن أتعب لسانى بالكلام معك !

قال الأول وهو يتناول القدح التى مدّها اليه بائع الخمرة :

— لا يا ستبكا ! أنت تكذب ، انك مدين لى بمال • لا بد أنك خال

من الضمير ، لا شك أنك لا ذمة لك • حتى عينك ليستا لك ، وانما أنت

استدنتهما كما تستدين كل شيء • اذهب يا ستبكا ! أنت وغد •••  
يا ستبكا ••• الخلاصة أنك وغد ! •••

صاح بائع الخمرة يقول للرفيق الذى يكثر من الكلام :

— ما بالك تتباكى ؟ أنظر •• لقد سفحت خمرك •• هلاً شربت  
ما دام أحد يسقيك بماله ! لا يتسع وقتى لأن أنتظر ك الى الغد •  
— سأشرب ، لا تخف ••• ولكن لماذا تصيح هذا الصباح ؟ لك  
أطيب تمنياتى بمناسبة العيد يا ستبيان دوروفتشس !

كذلك قال الرجل فى كثير من الأدب وهو ينحنى أمام ستبكا  
ممسكاً الكأس بيده ، مع أنه كان يصفه منذ دقيقة بأنه وغد ، وأضاف  
يقول :

— أسأل الله أن يمتعك بالصحة والعافية ، وأن تعيش مائة سنة عدا  
السنين التى عشتها حتى الآن !

ثم شرب الخمرة ، وأطلق من صدره زفرة رضى وارتياح ، وجفف  
فمه بيده • ثم لم يلبث أن قال بلهجة رضية وقور ، مخاطباً جميع  
الحضور دون أن يتجه الى واحد منهم بعينه :

— ما أكثر ما شربت فى الأيام الخوالى ، ولكن قد انتهى زمانى !  
شكراً يا ستبيان دوروفتشس !

— العفو •

— والآن دعنى أتم كلامى • أنت فى نظرى وغد كبير ، ولكننى  
سأقول لك عدا ذلك •••

— اليك اذن ما سأقوله لك أيها السكير الحقير •••

كذلك قاطعه ستيكا وقد نفذ صبره ، وتابع كلامه يقول :

- اسمع واتبه : لنقسم العالم نصفين ، فأخذ أنا نصفه وتأخذ أنت نصفه الآخر ، ثم تدعني وشأني هاديء البال •

- ألا تنوى اذن أن تردّ الىّ مالي ؟

- أي مال تريد أيضاً يا سكران ؟

- حين ••••• ستردّه الىّ في العالم الآخر ••••• فلن آخذه • ان أموالنا هي عرق جباهنا وجسأة أيدينا • لنندمنّ على فعلك في الحياة الآخرة ، لسوف تشوى في النادر شيئاً لأنك استوليت على كوبكاتي الخمسة •

- اذهب ••••• شيطان يأخذك ! •••••

- لماذا تهمزني ؟ ما أنا بحصان !

- هيّا امض ! •••••

- وغد حقير !

- سجين قدر !

وأخذت الشتائم تنهمر أغزر مما كانت تنهمر قبل أن يسقى الرجل صاحبه خمراً •

وهذان صديقان قد جلسا منفصلين على مضجعين من مضاجع السجن ، أحدهما طويل القامة قوى البنية بدين الجسم كجزار : ان وجهه أحمر ، وهو يكاد يبكي ، لأنه متأثر متأثراً شديداً • والثاني ضامر نحيل مزهو بنفسه ، له أنف كبير كأنه مصاب بزكام دائم ، وله عينان صغيرتان كعيني خنزير ، مطرقتان الى الأرض : انه رجل مرهف مهذب ،

قد كان في الماضي كاتباً في قلم المحكمة ، وهو يعامل صديقه بشيء من  
الازدراء ، وهذا ما يسوء صديقه • كان الرجلان قد شربا معاً طوال  
النهار •

صاح الرجل البدين يقول وهو يهز بيده اليسرى كتف رفيقه هزاً  
قوياً :

– لقد تجرأ عليّ !

ان قوله « تجرأ عليّ » يعني أنه ضربه • وهذا السجين الذي كان  
في الماضي صف ضابط يحسد جاره في سرته ، لذلك كان الرجلان  
بصطنعان في أحاديثهما الرقة والرشاقة •

قال السجين الذي كان كاتباً في قلم المحكمة ، قال في وقار وهو  
بطرف إلى الأرض اطرافاً عنيداً دون أن ينظر إلى محدثه ، قال بلهجة  
حازمة قاطعة :

– انك أنت المخطيء •••

فتابع الثاني كلامه وهو يهز رأس صاحبه بمزيد من القوة :

– لقد ضربني ! ألا تسمع ؟ انك الانسان الوحيد الذي بقي لي في  
هذه الحياة الدنيا ، هل تفهم ؟ لذلك أقول لك انه تجرأ عليّ •

– وأنا أعود فأقول لك ان اتحال عذر كهذا العذر الواهن لا يزيد  
علي أن يشينك •

هكذا أجاب السجين الذي كان كاتباً في قلم المحكمة ، قائلاً ذلك  
بصوت نحيل ولهجة مهذبة ، وتابع يقول :

– فأعترف يا صديقي العزيز بأن هذه القصة الناشئة عن السكر  
انما مردّها كلها إلى قلة ثباتك •

ترنج الصديق السمين وهو يتراجع الى وراء ، وألقى من عينيه  
النملتين على صاحبه المطمئن الراضى نظرة بلهاء ، ثم اذا هو يهوى بقبضه  
يده الضخمة على خده النحيل فجأة ، باذلاً في هذه اللطمه كل ما اوتى  
من قوة . كذلك انتهت صداقة ذلك النهار . لقد غاب الصديق العزيز  
تحت مضاجع السجن طائش اللب فاقد الوعي .

دخل الى ثكنتنا رجل ممن كنت أعرفهم ، وهو سجين من القسم  
الخاص ، طيب القلب كثير المرح ، رجل ليس بالغنى قط ، بسيط جداً ،  
ساخر بغير سوء نية . انه ذلك الرجل الذى كان عند وصولى السجن  
يبحث عن فلاح غنى ، والذى أعلن أنه امرؤ ذو أنفة وكرامة ، وانتهى  
الى مشاركتى احتساء الشاي . انه فى الأربعين من عمره ، له شفة ضخمة  
وأنف كبير سمين ذو بثور . كان يحمل آلة بالالاىكا فهو ينقر على  
أوتارها فى اهمال وتوان ؛ وكان يتبعه كظله سجين قصير جداً ، ضخم  
الرأس ، لم أكن أعرفه الا قليلاً جداً ، ولا كان ينتبه أحد اليه على كل  
حال . ان هذا الرجل القصير شخص غريب الأطوار ، كثير الشكوك  
والهواجس ، مطبق الفم الى الأبد فلا يتكلم ، مفرط فى الجذ فلا يهزل .  
كان يعمل فى ورشة الخياطة ، ويحاول أن يعيش معتزلاً الناس لا يتصل  
بأحد . لكنه بعد أن سكر الآن قد ارتبط بصاحبنا فارلاموف حتى أصبح  
كظله ، فهو يتبعه حيثما يتوجه ، منفعلاً أشد الانفعال ، محرراً يديه ،  
لاطماً بقبضته جدار الثكنة ومضاجع السجن : انه يكاد يبكى . وكان  
فارلاموف لا يلاحظه ولا ينتبه اليه كأنه لا وجود له . وأغرب ما فى  
الأمر أن هذين الرجلين لا يتشابهان أى تشابه ، فلا قرابة بين مشاغلهما  
ولا بين طبيعتهما . وهما ينتميان الى قسمين مختلفين وقيمان فى ثكنتين  
منفصلتين . وكان هذا السجين القصير يسمى : بولكين .

ابتم فلاموف حين رآنى جالساً فى مكانى قرب المدفأة . ووقف



على بعد بضعة خطوات منى ، وفكر لحظةً ، وترنح ، واتجه نحوى  
بخطى متفاوتة وهو يخال ويتختر ، ثم أخذ ينقر على أوتار آله  
الموسيقية ، وطفق يغنى بلهجة الاشاد وهو يقرع الأرض بقدمه قرعاً  
هيناً خفيفاً :

### حبيبتى

حبيبتى بيضاء مستديرة الوجه  
تغنى بصوت كصوت الشحرور  
ما أجملها فى ثوبها الحريرى المزركش

فما كان من هذه الأغنية الا أن أخرجت بولكين عن طوره ، فاذا  
هو يلوح بذراعيه ، ويصرخ مخاطباً جميع الناس :  
- انه يكذب أيها الاخوة ، انه يكذب ، ليس فى كل ما يقوله ظل  
من حقيقة !

- آيات الاحترام « للشيخ » ألكسندر بتروفتش !

كذلك قال فارلاموف ملجلجاً •  
أحسب أنه أراد أن يقبلنى • لقد كان ثملاً • أما قوله « آيات الاحترام  
للشيخ فلان » فهو تعبير تستعمله عامة الناس فى سيريا كلها ، حتى عند  
مخاطبة رجل فى العشرين من عمره • فكلمة « الشيخ » تعبر عن الاحترام  
أو التبجيل أو المجاملة وتقال لرجل يحظى بالتقدير والاعظام •

- هيه يا فارلاموف ، كيف حالك ؟

- بين بين ! السعيد بالعيد سكران منذ الصباح • عفوك ومعذرتك !  
كذلك قال فارلاموف وهو ينظر الى ضاحكاً ضحكة ماكرة ؛ بل

صاح بولكين وهو يضرب المضاجع مكروباً يائساً :

— انه يكذب ! انه يكذب من جديد !

كان فارلاموف قد آلى على نفسه أن لا يتبته الى بولكين • وذلك بعينه أبعث ما فى المشهد على الضحك ، فان بولكين لم يتبعد عن فارلاموف قيد أنملة منذ الصباح ، دون أن يكون هناك أى داعٍ الى ذلك ، لا لشيء الا لأن فارلاموف « كان يكذب » فيما يتراعى له • كان يتبعه كظله ، ويشاكسه فى كل كلمة ، ويعقف يديه غيظاً ، ويلطم بقبضتيه الباب والسُرُر الى أن تدميا ، ويتألم ، يتألم ألماً واضحاً لاقتناعه بأن فارلاموف « كان يكذب » • ولو قد كان على رأسه شعر اذن لتتفه حتماً من شدة ألمه وعمق حنقه • حتى لكأنه قد تعهد بأن يكون مسئولاً عن أفعال فارلاموف ، فضميره يعانى أشد العذاب حين يرى عيوبه ونقائصه • والأمر المضحك أن فارلاموف ظل لا يبالي تمثيلية بولكين ولا يلاحظها ولا يعباؤها •

— انه يكذب ! يكذب ! يكذب ! لا شيء مما يقوله حق !

كذلك كان يصيح بولكين •

سأله السجناء ضاحكين :

— فيم يعنك هذا ؟

وقال فارلاموف فجأة :

— أؤكد لك يا ألكستدر بتروفتش أنتى كنت فى أيام صباى فتى

بارع الجمال ، وأن البنات كانت تحبنى كثيراً ، كثيراً •••

فقاطعه بولكين يقول متتهداً زافراً :

— انه يكذب ! ها هو ذا يكذب أيضاً !

• وانفجر السجناء يضحكون •

- وكنت أنا أترزين لهن • كان لى قميص أحمر ، وسروال عريض  
من مخمل • وكنت أنام حين أشاء ، مثل الكونت دولابوتيل ، وكنت  
أسكر مثلما يسكر رجل من السويد ••• الخلاصة : كنت أعمل كل  
ما يخطر ببالى أن أعمله •

قال بولكين مصرأ :

- انه يكذب !

- وكنت قد ورثت عن أبى منزلاً مبنياً بالحجارة ، منزلاً ذا طابقين ،  
فما انقضت ستان الا وقوضت الطابقين ، ولم يبق لى الا باب بغير عمودين  
ولا مصراعين ! ماذا تريد ؟ المال يأتى ويذهب كالحمام ، يحط ثم  
يطير ! •••

قال بولكين جازماً مزيداً من الجزم :

- انه يكذب !

- وبعد وصولى الى هنا ببضعة أيام أرسلت رسالةً الى أهلى أطلب  
اليهم فيها أن يبعثوا الىَّ بعض المال • يظهر أننى كنت قد تصرفت  
تصرفاً يخالف ارادة أهلى ، وأننى لم أظهر لهم ما يستحقون من احترام •  
وها قد انقضى على ارسال الرسالة سبع سنين ! •••

سألته مبتسماً :

- وما من جواب حتى الآن ؟

- ما من جواب حتى الآن !

كذلك قال ضاحكاً هو أيضاً ، مقترباً بأنفه من وجهى مزيداً من  
الاقتراب ، ثم أضاف قوله :

- لى هنا خليله يا ألكسندر بتروفتش !

- أنت ؟ لك هنا خليله ؟

- قال أوفوفريف منذ زمن قصير : « لئن كانت خليلتى أنا مجدورة الوجه ديمه ، فهى تملك ثياباً كثيرة ؛ أما خليلتك فهى جميلة ولكنها متسولة تحمل على كنفها خرجاً » •

- أهذا صحيح ؟

- صحيح ! انها متسولة تستعطى الصدقات !

قال ذلك وخنق ضحكاً همّ أن يخرج من صدره ؛ وضحك سائر الحضور أيضاً • كان السجناء يعرفون أنه على صلة بشحاذاة أعطاهها عشر كوبكات فى أكثر تقدير ، خلال ستة أشهر •

- طيب ! ماذا تريد منى ؟

كذلك سأله ، لأننى أردت أن أتخلص منه •

فصمت ثم قال لى بصوت رقيق وهو ينظر الى متوسلاً :

- أن تسقبنى قدحاً من خمر ، فاننى لم أشرب منذ الصباح حتى الآن الا الشاي ؛ وهذا الشاي ( كذلك تابع يقول بصوت عذب وهو يتناول المال الذى مددته اليه ) يؤذنى كثيراً حتى لأكاد أصاب منه بداء الربو • ان بطنى تترقرق من كثرة شرب الشاي ، كما يترقرق الماء فى زجاجة !

حين تناول المال الذى مددته اليه بلغ بولكين من الكرب والكمد حدّاً لا يوصف ، فكان يتواهب ويتحرك كمن مسّه جن ، وصاح يخاطب النكته المبهوته قائلاً :

- أيها الناس الأخيار ، هل رأيتم الى كذبه ؟ ان كل ما يقوله كذب ، ان كل ما يقوله كذب ! ...

فصاح السجناء يسألونه وقد أدهشتهم حماسته الشديدة :

- فيم يعنك هذا ؟ ألا ان أمرك لغريب !

فنابح بولكين يقول وهو يجيل عينيه بينهم ، ويضرب ألواح السرر بقبضه يده بكل ما أوتى من قوة :

- لن أسمح له بأن يكذب ! لا أريد أن يكذب !

ضحك الجميع • وحياتي فارلاموف بعد أن أخذ المال ، وأسرع يمضى الى الخمار مكشراً • وفي تلك اللحظة انما لاحظ بولكين • قال له وهو يقف على عتبة الثكنة ، كأن بولكين شخص لا غنى له عنه في تنفيذ مشروع قائم في ذهنه :

- هيّا بنا !

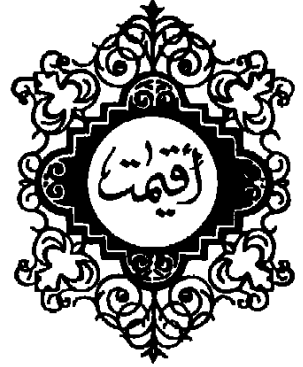
ثم أضاف يقول له باحتقار وهو يدفعه أمامه :

- هيّا أيها الكرة !

وعاد يعذب أوتار آله الموسيقية ، البالالايك •••

فيم استرسل في وصف هذا الجنون كله ؟ لقد انتهى ذلك النهار الخانق أخيراً • نام السجناء على مضاجعهم نوما ثقيلا • انهم يتكلمون ويهدون أثناء نومهم في تلك الليلة أكثر مما كانوا يتكلمون ويهدون أثناء نومهم في غيرها من الليالي • وبقيت حلقات منهم تلعب بالورق • لقد انقضى العيد الذي طالما انتظروه بصبر فارغ • وغداً يُستأنف العمل اليومي ، غداً تُستأنف الأشغال الشاقة •••

## التمثيل



حفلة التمثيل الأولى على مسرحنا في مساء اليوم الثالث من أيام العيد • ولقد بذلت جهود كثيرة في سبيل إقامة هذه الحفلة ، ولكن الممثلين هم الذين أخذوا كل شيء على عاتقهم ، فكان سائر السجناء لا يعرفون الى أين وصل الاستعداد لإقامة الحفلة المقبلة ، ولا كانوا يعرفون ما الذي كان يجري ؛ حتى لقد كنا لا نعرف على وجه الدقة ما الذي سيمثله الممثلون • كان المثلون ، أثناء هذه الأيام الثلاثة ، يتوسلون بأنواع الحيل لجمع أكبر مقدار ممكن من الملابس ، وذلك حين ذهابهم الى العمل • كان باكلوشين ، كلما التقت به ، يطقق أصابعه غبطةً وابتهاجاً ، ولكنه لا يذكر لي شيئاً • أعتقد أن الميجر كان طيب المزاج مشرق النفس • على اننا كنا نجعل جهلاً تاماً هل وصل الى مسامحة شيء عن الحفلة التمثيلية ، وهل أذن بها أم هو قرر أن يصمت وأن يغمض عينيه عن نزوات السجناء بعد أن تأكد من أن كل شيء سيجرى على خير ما يرام ، ولن يخل بالنظام • أظن أنه قد سمع عن الحفلة التمثيلية ، ولكنه لم يشأ أن يتدخل في الأمر ، لأنه كان يدرك أن الأمور قد تجري مضطربة مختلفة اذا هو منع إقامة هذه الحفلة ؛ وأن السجناء قد يعمدون الى الشغب والسكر والعريضة ، فمن الأفضل اذن أن

يشغلوا أنفسهم بشيء ما • ولئن كنت أقدر أن الميجر قد فكّر على هذا النحو ، فلان هذا هو الشيء الطبيعي ، حتى ليتمكن القول ان على ادارة السجن ان تتولى بنفسها ايجاد تسليّة ما اذا لم يقم السجناء حفلة تمثيلية • ولكن لما كان الميجر يتميز باراء تعارض اراء سائر افراد الجنس البشرى ، فان من الواضح اننى اتحمل مسؤولية كبيرة حين اؤكد أنه كان على علم بمشروعنا وانه قد اذن به • ان رجلاً مثله لا بد له دائماً من ان يسحق انساناً ، أن يخلق مخلوقاً ، أن ينتزع شيئاً ، أن يحرم احداً من حق ؛ أى أن يفرض النظم فى كل مجال • وهو معروف بهذا فى المدينة كلها • كان لا يهمه قط أن تثير أعماله حفلة السجناء وأن تحدث فى السجن اضطرابات وعصيانات ، فان لمثل هذه الذنوب التى قد يرتكبها السجناء عقوبات تنزل فيمن يرتكبها ( هناك أناس يفكرون على طريقة هذا الميجر ) ، وما ينبغي أن تستعمل مع هؤلاء السجناء الأوغاد الا قسوة لا ترحم ، وحسب المسؤولين عن تنفيذ القانون أن يطبقوا القانون بلا هوادة وكفى ! ••• ان هؤلاء العجزة المسؤولين عن تطبيق القانون لا يدركون أبداً أن تطبيق نصوص القانون بغير فهم لروح القانون يؤدي الى الاضطرابات رأساً • انهم يقولون : « ذلك ما ينص عليه القانون ، فماذا تريدون زيادةً على ذلك ؟ » ، حتى لقد يدهشهم حقاً أن تطلب منهم ، عدا تنفيذ القانون ، أن يكون لهم شيء من صدق الاحساس وسلامة التفكير • وسلامة التفكير هذه هى التى تبدو لهم زائدة لا محل لها بوجه خاص ، فهى فى نظرهم ترف لا لزوم له ، ترف يثير موجدتهم ويوقف حقهم ويعزز تعصبهم •

مهما يكن من أمر فان صف الضابط لم يعارض فى اقامة الحفلة ، وذلك كل ما كان يرجوه السجناء • وأستطيع أن أقول صادقاً كل الصدق انه ان لم يكن قد حدث فى السجن طوال أيام العيد أى اضطراب ذى

بال ، ان لم يكن قد حدث شيء من مشاجرات دامية أو سرقات ، فيجب أن نعزو ذلك الى أن السجناء قد أذن لهم باقامة حفلة التمثيل • لقد رأيت بعيني رأسى كيف كان السجناء يجمعون الاضطراب الذى يحدثه رفاقهم ممن أسرفوا فى الشراب ، وكيف كانوا يحولون دون نشوب الفتن والمشاحنات ، مخافة أن يؤدى ذلك الى منع اقامة الحفلة التمثيلية • لقد استقطع صف الضابط السجناء عهدا على انفسهم أن يكون سلوكهم حسنا وان يتقيدوا بالنظام وأن يجرى كل شيء هادئاً بغير اضطراب • وارتضى السجناء أن يقطعوا على انفسهم ذلك العهد ، ثم وفوا بالعهد حق الوفاء : لقد كان يسرهم كثيرا ويرضى كرامتهم أشد الارضاء أن تُصدَفَ العهود التى يقطعونها على انفسهم • يُضاف الى هذا أن حفلة التمثيل لا تكلف ادارة السجن أية نفقة على الاطلاق • ولم يكن ثمة حاجة الى اخلاء مكان معين لنصب المسرح ، فقد جعل المسرح قابلاً لأن ينصب وأن يُفك فى أقل من ربع ساعة • وستدوم المسرحية ساعة ونصف ساعة ، فاذا صدر الأمر فجأة بوقف التمثيل كان فى الامكان أن يختفى الديكور فى مثل لمح البصر سرعة • وقد خُبئت الملابس فى صناديق السجناء • وسأعمد الآن ، قبل كل شيء ، الى الكلام على المسرح كيف بنى ، وعلى الملابس كيف كانت ؛ وسأتكلم على البرنامج ، أى على المسرحيات التى يراد تمثيلها •

الحق أنه لم يكن هنالك برنامج مكتوب ؛ ولم يظهر برنامج مكتوب الا للحفلة الثانية أو الثالثة ، وهو برنامج كتبه باكلوشين للسادة الضباط وغيرهم من نبلاء الزوار الذين يتنازلون الى حيث يشرفون حفلة التمثيل بحضورهم ، وهم : ضابط الحرس الذى جاء مرة واحدة ، وأمر سرية الحراسة ، ثم ضابط من سلاح الهندسة • فكريماً لهؤلاء الزوار انما كتب البرنامج •



كان السجّاء يفترضون أن مسرحنا ستذيع شهرته بعيداً في القلعة، حتى لقد تطير سمعته في المدينة كلها ، لا سيما وأن مدينة ن . . . ليس فيها مسرح واحد . كل ما هنالك أن بعض الهواة قد أقاموا حفلة تمثيلية في المدينة ذات يوم . كان السجّاء يعجبون لايسر نجاح يصيونه ، كانوا أطفال صغار ، وكانوا يباهون بأنفسهم ويمدحون أعمالهم . كانوا يقولون لأنفسهم: «لقد يعلم الرؤساء بالامر فيجئون يشاهدون» . وسوف يعرفون عندئذ قيمة السجّاء ، لان الحفلة التمثيلية التي سنقدمها ليست كحفلة يقيمها الجنود ويعرضون فيها مراكب طافية ودبية وتيوساً ، وانما هي مسرحية يقدمها ممثلون ، ممثلون حقيقيون يقدمون تمثيلات هزلية كتبت لعلية القوم . لن يكون في المدينة كلها مسرح كمرحنا ! يقال ان الجنرال أبرويسوف قد أقام في منزله حفلة تمثيلية ، وان حفلة أخرى ستقام أيضاً ! طيب . . . لقد يتفوقون علينا في فخامة الملابس . . . ذلك جائز . . . أما « الحوار » فشأنه شأن آخر . . . وسرى من الذي يتفوق فيه . . . لقد يسمع الحاكم نفسه بالحفلة التمثيلية التي سنقدمها . ومن يدري ! قد يجيء لمشاهدتها . ليس عندهم مسرح في المدينة » . والخلاصة أن خيال السجّاء ، ولا سيما بعد النجاح الأول ، قد مضى بعيداً حتى صور لهم أن مكافآت قد توزع عليهم ، وأن أشغالهم الشاقة سينقص عدد ساعاتها ، فما هي الا لحظة حتى كانوا بعد ذلك أول الضاحكين من هذه الأخيلة التي نبتت في رعوسهم . الحق أنهم كانوا أطفالاً رغم أن بينهم من بلغ الأربعين من العمر . اننى أعرف موضوع التمثيلية التي كانوا يريدون أن يقدموها ، أعرفه على وجه الجملة ، رغم أنه لم يكن ثمة برنامج معلن . ان عنوان المسرحية الأولى هو : «الغريمان فيلادكا وميروشكا»\* . ولقد كان باكلوشين يتباهى أمامى قبل موعد الحفلة بأسبوع على الأقل بأن دور فيلادكا الذي سيتولى تمثيله سينجح نجاحاً

لم ير أحد مثله من قبل ، حتى ولا على مسارح سان بطرسبرج ! كان  
باكوشين يتجول فى الثكنات فى زهو وخيلاء ، وقد بدت فى وجهه  
امارات الطيبة رغم كل شيء . فاذا اتفق أن ألقى بعض الأقوال التى  
ينضمها دوره « على الطريقة المسرحية » انفجر الناس جميعاً ضاحكين ،  
سواء أكانت هذه الأقوال مضحكة أم لم تكن مضحكة ، فانما كان الناس  
يضحكون من هذه الأقوال لأن باكوشين هو فائلها . يجب أن نتعرف  
على كل حال ان السجناء كانوا يحسنون ضبط أنفسهم والمحافظة على  
وفارهم فالذين يتحمسون لأقوال باكوشين انما هم الشبان الأغرار الذين  
لا يعرفون كيف يكظمون مشعرهم أو هم السجناء العظماء الذين  
لا يخشون على سلطتهم القوية ومراكزهم الراسخة أن تتزعزع اذا هم  
عبروا عن احساساتهم أية كانت هذه الاحساسات . أما من عدا هؤلاء  
فقد كانوا ينصتون الى الضججات والمناقشات صامتين لا يلومون ولا  
يعارضون ، وانما يحاولون أن يتصرفوا تصرفاً فيه شيء من الاستخفاف  
والاحتقار ازاء المسرح ؛ ولم يظهر جميع السجناء اهتماماً بما سيرونه على  
المسرح وبما سيفعله رفاقنا الا فى آخر لحظة، أى فى يوم التمثيل نفسه .  
وكانوا يتساءلون : ترى ما عسى يكون رأى الميجر ؟ ترى هل تجح  
الحفلة كما نجحت الحفلة التى أقيمت منذ سنتين ؟ الخ . . . الخ . . .  
وقد أكد لى باكوشين أن جميع الممثلين « قد أحسن اختيارهم على خير  
وجه » وأن المسرح ستكون له ستارة وأن سيروتكين هو الذى سيمثل  
دور خطيبته فيلادكا . وأضاف باكوشين يقول وهو يغمز بعينه ويصفق  
بلسانه سقف فمه : « لسوف ترى كم هو جميل فى ثياب امرأة ! »  
وذكر باكوشين ان الجارة المحسنة سترتدى ثوباً له تخاريم وتخاريج  
وأنها ستحمل مظلة صغيرة وأن الجار سيرتدى بزة ضابط لها على  
الكتفين اشارات وسيحمل بيده عصا . أما المسرحية الثانية التى ستمثل

بعد الأولى فعنوانها : « كدريل الشره » \* . وقد حيرنى هذا العنوان كثيراً . ولكننى رغم جميع ما ألقيته من أسئلة لم أستطع أن أعرف عن التمثيلية شيئاً قبل تقديمها . كل ما عرفته أن هذه المسرحية لم تكن مطبوعة ، وإنما هى نسخة مخطوطة أخذت من صف ضابط محال على المعاش فى الضاحية كان قد اشترك هو نفسه فى تمثيلها حتماً فى الماضى على مسرح عسكري بمكان من الأمكنة . والواقع أن لدينا فى المدن البعيدة والأقاليم النائية تمثيلات كثيرة من هذا النوع لم يعرف بها أحد قط ، ولم تطبع فى يوم من الأيام ، وإنما هى ظهرت من تلقاء نفسها فى الوقت المناسب لتغذى المسرح الشعبى فى بعض الأماكن الروسية .

وإذا قلت « المسرح الشعبى » فإنه من المفيد جداً أن يهتم الباحثون الذين يدرسون الأدب الشعبى بالقيام بدراسات دقيقة مستمضة عن هذا المسرح الذى قد لا يكون تافها الى الحد الذى يتصوره بعض الناس . أنا لا أستطيع أن أصدق أن كل ما رأيته فى سجننا كان من عمل السجناء ، فإن هذا الذى رأيته لا بد له من تقاليد سابقة وقواعد مقررة ومعارف تتناقلها الأجيال . وهى تقليد وقواعد ومعارف يجب التماسها لدى الجنود وعمال المصانع فى المدن الصناعية وحتى لدى أبناء الطبقة المتوسطة فى بعض المدن الصغيرة الفقيرة المجهولة . هى تقاليد حُفِظت فى بعض القرى وفى عواصم الأقاليم لدى خدم بعض كبار السادة من أصحاب الأراضى بل اتى لا أعتقد بأن نسخ كثير من المسرحيات القديمة إنما تعددت وتكاثرت وانتشرت بفضل هؤلاء الخدم . لقد كان لقدماء أصحاب الأراضى ولكبار السادة فى موسكو مسارح خاصة يمثل عليها أقاتهم . وذلك هو أصل مسرحنا الشعبى الذى لا سبيل الى المماراة فى امارات نشأته وملامح أصله . أما مسرحية « كدريل الشره » فاننى رغم فضولى الشديد لم أستطع أن أعرف عنها شيئاً ، اللهم الا أن الشياطين تظهر على

المسرح وتقود كدريل الى الجحيم • ولكن ما معنى اسم « كدريل » هذا ؟ لماذا سمى « كدريل » ولم يُسمَّ « كيريل » ؟ هل أحداث المسرحية روسية أم هي أجنبية ؟ لم أستطع أن أجلو هذا السؤال • وقد أعلنوا أن المسرحية ستتهى بمشهد « تمثيل صامت » تصاحبه موسيقى • ذلك كله يبشر بأن الحفلة ستكون شائقة • كان عدد الممثلين خمسة عشر ممثلاً ، وكانوا جميعاً على جانب عظيم من الخفة والنشاط والعزم • كانوا جميعاً يتحركون كثيراً ، وكانوا يتمرنون على التمثيل كثيراً ، وكانت التمرينات تتم وراء الثكنات فى بعض الأحيان ، والممثلون يتوارون عن الأنظار ، ويادون الناس بمظاهر السر والتخفى • الخلاصة أنهم كانوا يريدون أن يفاجئونا بشيء خارق لا نتوقه •

كانت الثكنات فى أيام العمل تُغلق فى ساعة مبكرة مع هبوط الليل ، ولكن أيام عيد الميلاد تستثنى من هذه القاعدة • فى أيام عيد الميلاد لا توضع الآفال الا فى نحو الساعة التاسعة • وقد سُمح بهذا خاصةً من أجل الحفلة التمثيلية • ولقد ظل المشرفون على التمثيل يرسلون الرسل فى كل مساء من أيام العيد ضارعين الى ضابط الحرس فى كثير من المذلة أن « يأذن بإقامة الحفلة التمثيلية وأن لا يغلق باب الثكنة قبل الأوان » ، مضيفين الى ذلك قولهم ان حفلةً قد أقيمت فى الليلة البارحة فلم يحدث شيء يعكر صفو الأمن أو يخل باستتباب النظام • فكان ضابط الحرس يفكر فى الأمر على النحو التالى : لم تقع أية فوضىء ، ولم تحدث أية مخالفة للنظام فى يوم الحفلة ؟ وما داموا قد قطعوا على أنفسهم عهداً بأن سهرة الليلة ستجرى كما جرت سهرة البارحة ، فسوف يكونون هم أنفسهم شرطةً تحافظ على استتباب الأمن ، وهم فى هذا أقوى شرطة • ثم ان ضابط الحرس كان يعلم حق العلم أنه لو منع الحفلة فان هؤلاء الرجال ( ومن يدرى ما عسى أن يفعله سجناء ! ) قد

يرتكبون حماقات تضع ضباط الحرس فى حرج هم فى غنى عنه • وثمة سبب آخر كان يشجع ضابط الحرس على الاذن باقامة الحفلة التمثيلية ، هو أن الحراسة مملة جداً ، فاذا هو اذن بتمثيل المسرحية الهزلية استطاع أن يسرّى عن نفسه بمشاهدة تمثيلية لا يمثلها جنود بل سجناء ، وذلك أمر شائق ما فى ذلك ريب ، وسيكون فى وسعه أن يشهد الحفلة • فاذا اتفق أن وصل أمر الحرس فسأل عنه كان فى الامكان أن يجاب بأن الضابط قد مضى يعد السجناء ويغلق الثكنات ، وذلك جواب صحيح وتبرير سهل • ولهذا انما سمح مراقبونا باقامة حفلة التمثيل فى جميع أماسى العيد • فكانت الثكنات لا تغلق مساءً الا فى موعد النوم ؛ وكان السجناء يعلمون سلفاً أن الحرس لن يعارضوا فيما عقدوا النية عليه ، وكانوا من هذه الناحية مطمئنين •

فى نحو الساعة السادسة جئنى بتروف ، فذهبنا معاً الى القاعة التى سيجرى فيها التمثيل • كان جميع سجناء ثكنتنا تقريباً حاضرين ، باستثناء متعب تشرنيجوف والبولنديين • فان هؤلاء لم يعزموا أمرهم على حضور التمثيل الا فى آخر مساء ، وهو مساء اليوم الرابع من كانون الثانى ( يناير ) ، بل انهم لم يعزموا أمرهم على ذلك الا بعد أن اقتنعوا بأن كل شىء كان لايقاً مرحاً هادئاً لا مأخذ عليه ولا مطعن فيه • وكان ما يظهره البولنديون من تعالٍ واحتقار لا يثير سخط السجناء قط ، لذلك استقبلهم السجناء فى مساء اليوم الرابع من كانون الثانى ( يناير ) فى كثير من الأدب واللطف ، حتى لقد أجلسوهم فى أحسن الأماكن • أما التراكسة وأشعيا فومتش فقد سُرُوا بالتمثيل أشد السرور ، وابتهجوا له أكبر الابتهاج • وكان أشعيا فومتش يدفع فى كل مرة ثلاثة كوبيكات ، بل لقد أسرف فى اليوم الأخير فوضع فى الصحن عشر كوبيكات لا ثلاثاً ، وكانت السعادة مرسمةً على أسارير وجهه واضحةً كل الوضوح •

كان السجناء قد قرروا أن يدفع كل مشاهد من المشاهدين المبلغ الذى يشاء • وكان المفروض أن يعطى ريع الحفلات نفقات اقامتها، وأن يوزع المصانص على الممثلين • وقد أكد لى بتروف أننى سأخص بمكان من أحسن الامكنة ، مهما يكن المسرح غاصاً بالمشاهدين ، أولاً لأننى أغنى من الآخرين ، فمن الممكن أن أتبرع بأكثر مما يتبرع به الآخرون ، وثانياً لأننى أفهم فى شئون التمثيل أكثر مما يفهم أى واحد • وقد تحققت نبوءة بتروف • ولكن فلأصف القاعة وبناء المسرح قبل كل شىء •

ان ثكنة القسم العسكرى التى جعلت قاعةً للمسرح ، يبلغ طولها خمس عشرة قدماً ؛ ومن فناء السجن ، يدخل المرء اليها على درجات المدخل ماراً بحجرة تقع بعد المدخل • وهذه الثكنة الطويلة مبنية على طراز خاص كما سبق أن ذكرت ذلك ، فالمضاجع تصطف فيها على الجدار ، تاركةً فى الوسط مكاناً خالياً • ولقد جعل النصف الأول من الثكنة للمشاهدين ، أما النصف الثانى الذى يتصل بمبنى آخر فقد جعل مسرحاً • والستارة هى التى أثارته دهشتى وعجيبى أكثر من أى شىء آخر • انها تقسم الثكنة قسمين ، على طول عشرة أقدام ، وهى معجزة من المعجزات يحق للمرء أن يعجب بها أشد الاعجاب • لقد رسمت عليها بألوان الزيت رسوم شتى : أشجار وأكواخ وغدران ونجوم • وهى ملفقة من أقمشة جديدة وملابس قديمة تبرع بها السجناء : قمصان وأعصبة مما يتخذها فلاحونا جوارب لأقدامهم ؛ وقد خيط ذلك كله بعضه ببعض خياطة محكمة فتألف منه بساط كبير ؛ وحيث نقص القماش استعويض عنه بورق استعطاء السجناء قطعةً قطعةً من مختلف الادارات والدواوين • وقد تولى الرسامون منا ( وبينهم برولوف أى آ ••• ف ) زخرفة الستارة كلها ، فكان منظرها رائعاً حقاً ، سرّاً به السجناء سروراً

عظيماً ، حتى لقد حظى باعجاب أكثرهم كآبة وأعظمهم تشدداً وتزمتاً •  
على أن هؤلاء أنفسهم قد ظهروا منذ بداية التمثيل كالأطفال حقاً ،  
يستونون في هذا مع المندفعين والمتحمسين ولا يختلفون عنهم • لقد  
كانوا جميعاً مسرورين ، حتى لقد كانوا يشعرون بغير قليل من الزهو •  
وكانت الاضاءة تتألف من بضع شموع قسمت قطعاً صغيرة • ولقد جرى  
من المطبخ بمقعدين طويلين وضعا أمام الستارة ، كما استعيرت من غرفة  
ضباط الصف ثلاثة كراسي أو أربعة من باب الاحتياط ليجلس عليها  
الضباط الكبار اذا هم حضروا الحفلة • أما المقعدان الطويلان فهما الضباط  
الصف وجنود الهندسة ونظّار الأعمال وسائر الرؤساء الذين يشرفون  
على السجناء دون أن تكون لهم رتب ضباط والذين قد يحيئون لالقاء  
نظرة على حفلة التمثيل • والحق أن المسرح لم يعوزه الزوار • لقد  
كان عددهم يختلف قلة وكثرة باختلاف الايام ، ولكن المقاعد لم يبق  
فيها مكان واحد خالٍ في الليلة الأخيرة • ووراء المقاعد كان يزدحم  
السجناء واقفين حاسري الرؤوس احتراماً للزوار ، مرتدين صدرات أو  
فروان قصيرة ، رغم الحر الخائق الذي يملأ جو القاعة • وكما تتوقعون،  
كان المكان أضيق من أن يتسع لجميع السجناء • فكانوا يتكدسون بعضهم  
فوق بعض ، ولا سيما في الصفوف الأخيرة ، حتى لقد احتلوا المضاجع  
وشغلوا الكواليس • وكان هناك هواة حرصوا على أن يختصوا وراء  
المسرح في الثكنة الأخرى ، فكانوا يشاهدون التمثيلية من آخر  
الكواليس •

اقتادونا أنا وبتروف الى مكان قريب جداً من المقاعد ؛ فمن كان  
في ذلك المكان استطاع أن يشاهد التمثيل خيراً مما يستطيع ذلك من كان  
في آخر القاعة • لقد كنت في نظرهم حكماً ممتازاً ، كنت في نظرهم  
إنساناً خيراً رأي مسارح أخرى كثيرة : كان السجناء قد لاحظوا أن

باكלוشين تداول معنى الرأى فى أحيان كثيرة ، وانه أظهر كثيراً من  
 الاحترام لنصائحي ، فقد روا أن عليهم أن يكرّمونى وان يخصونى  
 بمكان من أحسن الأماكن • ان هؤلاء الرجال أناس مغرورون طائشون ،  
 ولكن ذلك هو من الأمر ظاهره • لقد كانوا يسخرون منى فى العمل ،  
 لأننى كنت عاملاً رديئاً مخفقا • وكان من حق المازوف أن يحتقرنا ،  
 نحن السادة ، وأن يتباهى بحذقه فى حرق الرخام • ان هذه الاستهزاءات  
 وهذه الاستفزازات يرجع سببها الى الأصل الذى تنتمى اليه ، فنحن  
 اناس ننتمى بأصلنا الى طبقة سادته القدامى الذين لا يمكن أن يحتفظ  
 بذكرى حسنة عنهم • ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم يخصونى هنا ،  
 فى المسرح ، بمكان ممتاز ، لأنهم يعترفون لأنفسهم بأننى فى هذا المجال  
 أدرى منهم وأعلم • وحتى الذين كانوا يضيقون بى ويحملون لى شيئاً  
 من الكره ( أعرف ذلك من مصدر موثوق ) كانوا يريدون أن يسمعونى  
 ممتدحاً مسرحهم ، وكانوا ينزلون لى عن مكانهم دون أن يكون فى هذا  
 شئ من مذلة أو خنوع • اننى أقضى فى هذا الأمر الآن على أساس  
 ما أحسست به أيامذاك • لقد أدركت حينئذ أن هذه المعاملة العادلة لم  
 تكن تشتمل على أى استكائة منهم • بالعكس • • • لقد كانت تحمل معنى  
 الشعور بكرامتهم • ان السمة التى يتميز بها شعبنا انما هى احساسه  
 بالعدل وظمؤه اليه • ان الشعب لا يشعر بغرور كاذب ، ولا يحس بكبرياء  
 حمقاء تدفعه الى احتلال الصف الأول دون أن يكون له فى ذلك حقوق •  
 ان الشعب لا يعانى هذه الآفة ولا يتصف بهذا العيب • اتزعوا عنه قشرة  
 الفظاظه الظاهرة وادرسوه بلا أحكام سابقة وانظروا اليه من قرب تروا  
 فيه مزايا لم تخطر لكم يوماً على بال • ليس هنالك الاّ أشياء قليلة  
 يستطيع حكماؤنا أن يعلموها للشعب بل أزيد على ذلك فأقول ان عليهم  
 هم أن يتعلموا فى مدرسة الشعب •



حين قادني بتروف الى المسرح قال لي ببساطة وسذاجة انهم سيخصونني بمكان في المقدمة ، لأنني سأعطي مالاً أكثر مما يعطى غيرى . لم يكن للأماكن أسعار محددة ، بل كان كل مشاهد من المشاهدين يعطى ما يجب اعطائه وما يستطيع اعطائه . وقد وضعوا جميعا قطعة من النقد في الصحن حين جمعت التبرعات . وائني لأتساءل : لئن قدموني على غيرى أملاً في أن أدفع من المال أكثر مما يدفع غيرى ، أفليس يشتمل هذا على شعور عميق بالكرامة الشخصية ؟ لكنهم كانوا يقولون لي : « انت أغنى منا ، فاحتل المكان الأول ! صحيح أننا هنا متساوون ، ولكنك تدفع أكثر من غيرك ، ويترتب على ذلك ان مشاهداً منك يسر الممثلين ، فلك أن تحتل المكان الأول ، لا لأننا نحب هنا المال ونخصه بالتعظيم والاحترام ، بل لأن علينا أن نصنّف أنفسنا ، فاذا كل واحد يحتل المكان الذي يستحقه ! » . يا لها من كبرياء نبيلة تلك التي تشتمل عليها هذه النظرة الى الأمور ، وتشتمل عليها هذه الطريقة في السلوك ! ليس المال كل شيء هنا ، وانما الأمر أمر احترام للنفس في التحليل الأخير ! كن السجناء لا يسرفون في تقدير الثراء . ولست أذكر أن أحداً منا قد أذل نفسه يوماً في سبيل الحصول على مال . أستطيع أن أوكد هذا ولو استعرضت جميع من كانوا في السجن . ولئن استعطاني بعضهم أحياناً فلقد فعل ذلك من باب المكر والدهاء والحيلة أكثر مما فعله في سبيل الربح نفسه . كان ذلك اشارة من امارات مرح النفس وحسن المزاج وبراعة الطبع . لست أدري ، على كل حال ، هل وفقت الى التعبير عما أردت التعبير عنه بجلاء ووضوح . . . ولكن أراني قد نسيت المسرح فلأعد اليه .

كانت القاعة قبل رفع الستارة تمثل مشهداً غريباً مليئاً بالحركة والحياة . الحشد متراس متراحم متدافع في كل جهة من الجهات ،

ولكنه صابر ينتظر ابتداء التمثيل مشرق الوجه متهلل الأسارير • وفي الصفوف الاخيرة تتراكم كتلة مضطربة من السجناء : ان كثيراً منهم قد جاءوا من المطبخ بحطب أسندوه الى الجدار وتسلقوا عليه • لقد فضوا ساعتين كاملتين وهم على هذا الوضع المتعب متكئين بأيديهم على أكتاف رفاقهم راضين كل الرضى عن أنفسهم وعن أماكنهم • وهؤلاء آخرون قد وضعوا أقدامهم فيما يشبه القوس أو القنطرة على آخر درجة من درجات المدفأة ثم لبثوا على هذه الحال طوال مدة التمثيل يسندهم أولئك الذين كانوا أمامهم فى آخر القاعة قرب الجدار • وعلى المضاجع ، فى جانب ، تكدّس كذلك جمهور كثير متراص ، لأن هذه الأماكن كانت خير الأماكن • وهؤلاء خمسة سجناء هم أحسنهم حظاً فد سعدوا فوق المدفأة ورددوا عليها وأخذوا ينظرون الى تحت : لقد كان هؤلاء يسبحون فى غبطة عظيمة ونشوة كبيرة • وعلى الطرف الآخر كان يزدحم المتأخرون الذين وصلوا بعد غيرهم فلم يجدوا أماكن جيدة يستقرون فيها • وكان الجميع يراعون قواعد الحشمة وآداب السلوك فلا ضحة ولا جلبة ولا ضوضاء • وكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهر بمظهر حسن أمام السادة الذين يزورون المسرح • ان انتظاراً ساذجاً بريئاً يرتسم على هذه الوجوه الحمراء التى خضلتها الحرارة الخانقة بعرق غزير • ما أروع هذا الفرح الطفولى ! ما أرقى هذا السرور الخالص الذى لا تشوبه شائبة فى تلك الوجوه المفضنة وعلى هذه الجباه والخدود الموشومة التى كانت قبل ذلك قاتمة مظلمة كالحة جهمة والتى كانت تسطع أحياناً بنار رهيبية ! ولقد كانوا جميعاً حاسرى الرؤوس • واذ كنت فى الجهة اليمنى فقد بدا لى أن رؤوسهم مخلوقة تماماً • وفجأة سمعت على المسرح ضجة وقامت جلبة ••• سوف تُرفع الستارة ••• أخذت الأوركسترا تعزف ••• ان هذه الأوركسترا

تستحق أن أتكلم عنها قليلاً • هم ثمانية موسيقيين جلسوا على المضاجع :  
اثنان يعزفان على الكمان ( ان احدى الكمانين كانت ملكا لاحد السجناء  
أما الكمان الأخرى فقد استعيرت من خرج القلعة ، والفنانون جميعا من  
السجناء ) ، وثلاثة يعزفون على آلات بالالايكا صنعها السجناء بانفسهم ،  
واثنان يعزفان على القيثارة ، وواحد يضرب على دف • فاما الكمانان  
فكانتا لا تزيدان على الاين والصرير ، وأما القيثارتان فلا قيمة لهما :  
ولا نذكر آلات البالالايكا فقد كانت رائعة ! كانت أصابع الفنانين تتحرك  
بخفة ورشاقة يمكن أن يعتر بهما أبرع الحواة • كاد الموسيقيون ان  
لا يعزفوا الاّ ألحان رقص • وكانوا في اللحظات المندفعة من عزفهم  
يقرعون بالاصبع ألواح آلاتهم على حين فجأة ؛ وكان عزفهم كله اصيلاً  
شخصياً ، منسجم الايقاع ، رفيع الذوق ، محكم الضرب ، متسلسل  
النغم • وكان أحد العازفين على القيثارة يملك ناصية الته • انه ذلك  
الفتى الذى قتل أباه • أما الضارب على الدف فقد كان معجزا حقا • كان  
يدير الدف على أصبع من أصابعه أو يجبر ابهامه فوق الجلد فاذا نحن  
نسمع ضربات متكررة واضحة رتيبة سرعان ما تتكسر على حين فجأة  
ثم اذا هي تعود تتدفق نغمات صماء صغيرة موشوشة متواثبة • وقد انضم  
الى هذه الأوركسترا فى آخر الأمر موسيقيان يعزفان على آلتى هارمونيكاه •  
حقاً انى لم أكن أتصور ما يمكن استخراجه من هذه الآلات الشعبية  
الغليظة الفظة • فلما سمعت هذه الموسيقى دهشت أشد الدهشة ! لقد  
استطاع هؤلاء العازفون أن يؤدوا الألحان على أحسن وجه ، فاذا هي  
لا تخلو من براعة الانسجام وحسن التناغم وجمال العزف ، واذا هي  
تمتلئ بالتعبير خاصة ، وتجيد ابراز النغم ابرازاً رائعاً • لقد أدركت  
عندئذ حق الادراك ، لأول مرة ، ما يتدفق فى ألحان رقصاتنا الشعبية  
وأغانينا الرائجة من قوة هائلة واندفاع عظيم • ورفعت الستارة أخيراً •

تحرك كل من فى القاعة • والذى كانوا فى آخر الصفوف اتصبوا على رؤوس الأقدام • وهذا واحد يسقط عن قطعة الحطب التى كان متسلقاً عليها • وفقر الجميع أفواههم وحملقوا بأعينهم : ان صمتاً كاملاً يسود القاعة كلها ••• لقد بدأ التمثيل •

كنت جالساً غير بعيد عن « على » الذى كان فى وسط الحلقة التى تألف من اخوته ومن الشراكسة الأخر • كان هؤلاء مولعين بالمسرح ولما شديدا ، فلم يتخلفوا عن الحضور مرة واحدة • لقد لاحظت ان جميع المسلمين ، من تتر وغيرهم ، كانوا يحبون التمثيل بجميع أنواعه جبا عظيماً • وعلى مقربة من هؤلاء كان يوجد أشعيا فومتش • انه منذ رفعت الستارة أصبح كله عيونا تبصر وآذانا تسمع • كان وجهه يعبر عن انتظار ساذج نهم شره الى معجزات ومباهج ومسرات ومتع ، فلو قد خاب أمله لشعرت من ذلك بحسرة كبيرة ولوعة شديدة • وكان وجه على الفاتن الأخاذ يسطم بفرح يبلغ من التعبير عن براعة الطفولة وطهارتها أنتى كنت سعيداً كل السعادة من مجرد النظر اليه • وكنت كلما ترجعت أصداء ضحكة عامة لنكتة بارعة أو رد هزلى التفت نحوه على غير ارادة منى لأرى وجهه • لم يكن على " يلاحظنى • ان هناك أشياء أخرى تشغله عن التفكير فى " ! وعلى مقربة من مكاني على اليسار كان هناك سجين متقدم فى السن مظلم الوجه ساخط النفس كثير النقد • لقد لاحظ هو أيضا الفتى علياً فكان يختلس النظر اليه من حين الى حين مبتسما بعض الابتسام ، فالى هذا الحد كان الفتى الشركسى فاتنا ! ان هذا السجين كان يطلق على علي دائماً اسم « على سيميووتش » لا أدرى لماذا ! بدأ التمثيل بمسرحية « فيلادكا وميروشكا » • فكان دور فيلادكا الذى مثله باكوشين رائعا كل الروعة • لقد مثل باكوشين هذا الدور على أكمل وجه • كان واضحاً انه يزن كل جملة يقولها وكل حركة يجريها • لقد استطاع أن

بضفى معنى على أيسر كلمة وأيسر حركة ، معنى يصور طبع الشخصية التى يمثلها أصدق تصوير . أضف الى هذه الدراسة الدقيقة مرحاً لا تكلف فيه ، ولا سبيل الى مغالته ومقاومته ، وبساطة لا تعمل فيها وانطلاقاً طبيعياً بغير اصطناع . فلو شاهدتم باكلوشين وهو يمثل هذا الدور لاعترفتم حتماً بأنه ممثل كبير خلق للتمثيل وأوتى موهبة عظيمة . لقد شهدت مسرحية فيلادكا على مسارح موسكو وبطرسبرج غير مرة ، ولكنى أستطيع أن أؤكد جازماً أنى لم أر فى هاتين العاصمتين فناً واحداً يضارع باكلوشين براعةً فى تمثيل هذا الدور . كان الممثلون هنالك يمثلون أدوار فلاحين يمكن أن تنسبهم الى أى بلد من البلاد ، ولا يمثلون فلاحين روسيين حقيقيين ( موجيك ) . كانت رغبتهم فى «تمثيل» أدوار الفلاحين تمثيلاً ، واضحة مسرفة فى الوضوح ، ظاهرة مفرطة فى الظهور . ولا كذلك باكلوشين . وكان التنافس يحض باكلوشين ويشير حماسه ، ذلك أن المشاهدين كانوا يعرفون أن السجين بوتسياكين سيمثل دور كدريل فى المسرحية الثانية ، وكانوا يعتقدون - لا أدرى لماذا - أن بوتسياكين موهوب أكثر من باكلوشين . فكان باكلوشين يتألم من تفضيل صاحبه عليه كما يتألم طفل من الاطفال . كم من مرة جاءنى فى الأيام الأخيرة ليفصح لى عن عوالج نفسه ومرارة قلبه ! وقد انتابت الحمى باكلوشين قبل بدء التمثيل بساعتين . فلما كان الجمهور ينفجر ضاحكاً ويصيح قائلاً : « مرحى باكلوشين ! انك لممثل قدير ! » كان وجهه يتألق سعادة ، وكان يسطح فى عينيه الهام حقيقى . وحين ظهر المشهد الذى يتعاقب فيه ميروشكا وفيلادكا ويقبل كل منهما الآخر ، فيصح فيلادكا قائلاً لصاحبه : « جففى فمك » انفجر الناس ضاحكين ملء صدورهم من براعة الفكاهة . ان المشاهدين هم الذين شدوا انتباهى أكثر من كل شىء ، وهم الذين شاقنى أمرهم أكثر من غيرهم . لقد

استرخوا جميعاً واستسلموا للمرح استسلاماً صريحاً لا تحفظ فيه ، وكانت صيحات الاستحسان ما تنفك تزداد قوة • هذا سجين يلكز رفيقاً بكوعه وينقل اليه مشاعره على عجل دون أن يهمه أن يعرف من ذا الذي كان الى جانبه • حتى اذا بدأ مشهد هزلى ثانٍ التفت سجين آخر الى وراء ، بقوة وعنف ، وهو يحرك يديه ويلوح بذراعيه ، كأنما ليهيب برفاقه أن اضحكوا ، ثم ما لبث أن استدار نحو المسرح • وهذا سجين ثالث يصفق سقف فمه بلسانه ولا يستطيع أن يبقى ساكناً ولا أن يستقر على حال • ولكن المكان ضيق فهو لا يملك أن يغير وضعه فلا يسمعه الاً أن يقرع الأرض باحدى قدميه • ولقد بلغ المرح أوجه فى ختام المسرحية . الناس جميعاً يضحكون مقهقهين • لست أبالغ فى شيء ! تصوروا السجن ، والسلاسل التى تكبل الأرجل ، والأسْر الذى يجسب الرجال ، والسنين الطويلة التى تنقضى نفيماً وسخرة وأشغلاً شاقة ، والحياة الرتيبة التى تجرى على وتيرة واحدة وتتساقط قطرة قطرة ان صح التعبير ، والأيام المظلمة القائمة من أيام الخريف ، تصوروا هذا كله وتصوروا هؤلاء السجناء المكبوتين وقد أُذِن لهم على حين فجأة أن يفرحوا وأن يمرحوا وأن يتنفسوا ملء صدورهم خلال ساعة ، وأن ينسوا كوابيسهم وأن ينظموا حفلة يا لها من حفلة ، حفلة تثير حسد المدينة كلها واعجاب المدينة كلها ، فاذا الناس بالمدينة يقولون : « انظروا الى هؤلاء السجناء ! » لقد كان كل شيء يشوق هؤلاء السجناء ويستثير اهتمامهم شد انتباههم • الملابس مثلاً : ما كان أشد فرحهم حين يرون فائكاً أو تسفياتايف أو باكوشين فى رداء آخر غير الرداء الذى كان يرتديه كل منهم منذ سنين طويلة • « هو سجين •• سجين حقيقى تحلحل السلاسل فى قدميه حين يمشى وها هو ذا مع ذلك يدخل المسرح لابساً ردنجوتاً واضحاً على رأسه قبعة مدورة متدثراً بمعطف كواحد من المدنيين • وقد

اتخذ لنفسه شعراً مستعاراً وشاربين مصنوعين وهو يخرج من جيبه منديلاً أحمر فيفضه كما يفعل سيد من السادة وشريف من الأشراف» • لذلك بلغت حمسة المشاهدين أقصاها ووصلت الى ذروتها • ويظهر « الملاك المحسن » لابساً بزة عسكرية هي بزة عتيقة خلقة رثة والحق يقال ، لكن على كنفها شاربات مذهبة ، وفوقها قبعة ذات ريش : لقد أحدث ظهوره اثراً لا يوصف • هل تصدقون أن اثنين من السجناء قد اختصما وتشاجرا كطفلين ، متنافسين على تمثيل هذا الدور من فرط حبهما لارتداء هذه البزة العسكرية ؟ لقد كانا كلاهما يجبان أن يظهرنا بزة ضابط ذات شاربات ؟ • لقد تشاجر الرجلان حقا واوشكا أن يقتتلا ولكن الممثلين الآخرين فصّلوا بينهم وحالوا دون اقتتالهما ، وقررت أكثرية أصواتهم أن يعهد بهذا الدور الى تسفياتايف ، لا لأنه مؤهل بمزاياه لتمثيل هذا الدور أكثر من صاحبه ، ولا لأنه أقرب منه شياً بسادة من السادة، ولكن لأنه أكّد لهم جميعاً أنه يملك عصا من خيزران سيلوح بها أثناء التمثيل ويديرها هنا وهناك ويقرع بها الأرض كما يفعل شريف من الأشراف ، أنيقاً على آخر موضة ، وذلك أمر لا يستطيع أن يحاوله فانكا أو تسياتين الذي لم يعرف أناساً من طبقة النبلاء في يوم من الأيام • وقد حدث ذلك فعلاً ، فحين دخل تسفياتايف الى المسرح مع زوجته ، طفق يرسم على الأرض دوائر سريعة بعصاه الخفيفة التي لا يدري أحد من أين جاء بها • لا شك أنه كان يمد ذلك علامة المحند والنبيل والتربية الراقية والأناقة الرفيعة • لعله كان في طفولته أيام لم يكن الا قناً حافي القدمين قد أفتن بحذق مسيد من السادة في ادارة عصاه ، فرسخت هذه الذكرى في خياله الى الأبد لا تمحى ولا تزول ، ثم اذا هي الآن تستيقظ في ذاكرته وهو في الثلاثين من العمر ، فيريد أن يفتن بها هو أيضاً رفاق سجنه • لقد بلغ تسفياتايف من استغراقه في

هذه المهمة أنه كان لا ينظر الى أحد حتى لقد كان ينطق بكلامه ويلقى أجوبته دون أن يرفع عينيه ، فان طرف عصاه والدوائر التي كان يرسمها هي التي كانت تشغله وتصرفه عن كل ما عدا ذلك . وكان دور الجارة المحسنة رائعا أيضا . ظهرت على المسرح في ثوب عتيق مهترى من المسلمين ، يشبه أن يكون أسمالا رثة باليه ، وكانت عارينة الذراعين والعنق ، مثقلة الوجه بالمساحيق ، واضعة على راسها قبعة صغيرة من نسيج قطنى تشدها خيوط معقودة عند الذقن ، حاملة باحدى يديها مظلة صغيرة وباليد الأخرى مروحة من ورق ملون ما تنفك تحركها أمام وجهها . لقد استقبل الجمهور ظهور هذه السيدة العظيمة بضحك مجلجل مجنون فلم تملك هي نفسها أن تكظم مرحها فانفجرت ضاحكة غير مرة . ان السجين ايفانوف هو الذى قام بهذا الدور . أما سيروتكين الذى كان يرتدى ثياب فتاة ، فقد كان جميلاً جداً ؛ وقد أحسن الممثلون تبادل الحوار والقاء الشعر . الخلاصة ان المسرحية قد انتهت على رضى الجمهور عنها وابتهاجه بها واغباطه لها ولم يتصد أحد بكلمة نقد واحدة . وأتى لأحد أن يوجه أى نقد على كل حال !

وعزفت الأوركسترا الافتتاحية مرة أخرى « غرفتى الصغيرة ، يا غرفتى الصغيرة » \* . وأعيد رفع الستارة . سيمثلون الان مسرحية « كدريل الشره » . ان مسرحية كدريل تشبه مسرحية دون جوان . وهذا التشبيه صحيح ، لأن الشياطين تخطف السيد والخادم وتمضى بهما الى الجحيم فى آخر المسرحية . ولقد تلى نص المخطوطة كاملاً ، ولكن كان واضحاً أن النص الذى تلى لم يكن الا جزءاً من المسرحية . فأغلب الظن أن بداية المسرحية وخاتمها قد ضاعتا ، لأن ما شهدناه لم يكن له رأس ولا ذنب . ان المشهد يجرى فى نزل يقع فى مكان ما من روسيا . وصاحب النزل يُدخل سيداً من السادة الى غرفة بالنزل ، والسيد يرتدى



معطفاً ويضع على رأسه قبة مدوّرة مشوّهة ؛ والخادم كدريل يتبع سيده ، حملاً حقيبة ودجاجة ملفوفة بورق أزرق • ان الخادم يرتدى فروة قصيرة ، ويضع على رأسه طاقة وصيف • وهذا الخادم هو الرجل الشره • ان السجين بوتسيايكين ، منافس باكوشين ، هو الذى يمثل هذا الدور • أما شخصية السيد فقد مثلها ايفانوف الذى كان يمثل دور السيدة العظيمة فى المسرحية الأولى • ان صاحب النزل ( تسفياتايف ) ينه النزىل الى أن الغرفة يسكنها جن ، ثم يمضى لشأنه • والسيد النزىل حزين مهموم ، وها هو ذا يجمجم قائلاً بصوت عالٍ انه يعرف ذلك منذ زمن طويل ، وها هو ذا يأمر كدريل بفض الحزم واعداد العشاء • وكدريل شره نهم ، وجبان رعديد ، فما ان سمع كلاماً عن الجن الذين يسكنون الغرفة حتى اصفر وجهه وأخذ يرتجف كورقة فى مهب الريح ؛ وهو يتمنى لو يفر ، ولكنه يخشى مولاه ، ناهيك عن أنه جائع • انه انسان يحب اللذات ، وهو غبى ، لكنه ماكر على طريقته الخاصة ، وهو نذل لثيم ، ما ينفك يخدع مولاه فى كل لحظة ، لكنه يخشاه مع ذلك كما يخشى النار • انه نموذج فذ من نماذج الوصفاء ، فيه السمات الأساسية التى يتصف بها ليوريلو ، لكنها مختلطة مبهمه غير متميزة • وقد أحسن بوتسيايكين أداء هذا الدور وتصوير هذا الطبع احساناً كبيراً ، فهو امرؤ يملك موهبة عظيمة لا مرأء فيها ولا يمكن جحودها ، موهبة تتفوق فى رأى على موهبة باكوشين نفسه • غير أننى قد أخفيت رأى هذا عن باكوشين حين التقيت به فى الغداة ، لأننى لو أفصحت له عن هذا الرأى لساء ذلك ولأحزنه حزناً شديداً قاسياً •

أما السجين الذى مثل دور السيد فان تمثيله لم يكن رديئاً جداً • ان كل ما قاله لم يكن له كبير معنى ، ولا يشبه شيئاً من الأشياء ، ولكن الالقاء كان فصيحاً واضحاً ، وكنت الاشارات والحركات مناسبة موفقة •

وبينما كان كدريل عاكفاً على الحقيبة ، كان سيده يذرع الغرفة جيئة  
 وذهاباً ، ويعلن أنه سيكف عن الطواف في العالم منذ اليوم • ويصغى  
 كدريل الى كلامه ، ويصعّر وجهه ، ويضحك المشاهدين بملاحظاته  
 وخواطره التي يعلنها للجمهور على حدة دون أن يسمعا مولاه • انه  
 لا يشفق على سيده ولا يرأف به ، ولكنه سمع كلاما عن الشياطين ، فهو  
 يريد أن يعرف ما هم الشياطين وكيف يكونون ، وها هو ذا يأخذ  
 يسائل في ذلك مولاه ؛ فيذكر له مولاه أنه حين ألمّ به في يوم من الأيام  
 خطر الموت ، استنجد بالجحيم ، فاذا بالشياطين تهب الى نجاته وتتقدمه ،  
 غير أن زمان حرّيته قد انصرم ، فاذا جاءت الشياطين في هذا المساء ،  
 فانما تجيء لتقبض روحه ، كما تم الاتفاق بينه وبينها على ذلك في عهد  
 مقطوع وميثاق مبرم • أخذ كدريل يرتجف خوفاً وفرقا ، ولكن سيده  
 لا يفقد شجاعته ولا تبارحه رباطة جأشه ، وها هو ذا يأمر كدريل باعداد  
 طعام العشاء • فاذا سمع كدريل بالطعام ردت اليه روحه وانبعثت فيه  
 حميته ، فها هو ذا يفيض الورقة التي لُفّت بها الدجاجة ، وها هو ذا  
 يخرج زجاجة من خمر فيأخذ يشرب ويأكل خلصةً • ان الجمهور  
 يغرق في ضحك شديد • ولكن الباب يصير ، فان الرياح قد هزّت  
 مصراعيه ، فيرتجف كدريل ، ويسارع ، على غير شعور منه تقريباً ،  
 فيخفي في فمه لقمة كبيرة من لحم الدجاجة يعجز عن بلعها • وينفجر  
 الجمهور ضاحكا من جديد • صاح يسأله مولاه الذي كان يذرع الغرفة  
 طولاً وعرضاً : « هل أعددت الطعام ؟ » • فيجيبه كدريل قائلاً : « حالا  
 ياسيدي •• أنا •• بسبيل اعداده لك » • يقول كدريل ذلك وهو يجلس  
 الى المائدة ويمضي في التهام العشاء • ان الجمهور مفتون بمكر هذا الخادم  
 الذي يضحك على سيد من السادة بمثل هذا الحذق وهذه البراعة •  
 ولقد عرف كيف ينطق بقوله : حالا يا سيدي •• أنا •• بسبيل اعداده

لك \* \* \* لقد قال كدريل هذه الجملة بمهارة تبعث على أشد الإعجاب \*  
ويمضى كدريل يزدرد الطعام \* ولكنه يرتجف عند كل لقمة يتناولها ،  
مخافه أن ينتبه اليه مولاه ؛ فكلما التفت سيده اختبأ تحت المائدة ممسكاً  
الدجاجة بيده \* فلما هدأ جوعه قليلاً كان عليه أن يفكر فى مولاه \*  
فلما صاح به صاحبه « هلاً فرغت من اعداد الطعام يا كدريل » ، هتف  
كدريل يقول فى جرأة : « الطعام جاهز » ، بعد أن لاحظ أن لم يكد  
يبقى من الدجاجة فى الصحن شىء ، الا فخذاً واحدة \* والسيد ما يزال  
مظلم الوجه مهموم النفس ، فها هو ذا يجلس الى المائدة دون أن يلاحظ  
شيئاً ، وها هو ذا كدريل يقف وراءه حاملاً على ذراعيه منشفة \* ان كل  
كلمة يقولها الخادم ، وكل حركة يجريها ، وكل تكشيرة يصطنعها ،  
متجهماً الى الجمهور ، مستهزئاً بمولاه ، تثير فى هؤلاء المشـ هدين من  
السجناء ضحكاً شديداً لا يغالـ \* وما ان يبدأ السيد الشاب فى تناول  
طعامه حتى يدخل الشياطين \* هاهنا يصبح كل شىء غامضاً مستعصياً على  
الفهم \* ان هؤلاء الشياطين لا يشبهون البشر فى شىء ، ولا يمتون الى  
الأرض بصلة \* لقد فتح الباب الجانبى ، فظهر شيخ متلفع بالياض من  
أعلى الى أدنى ، رأسه مصباح عليه شمعة ، ووراءه شيخ آخر فوق رأسه  
سراج وفى يده منجل \* ترى لماذا تلفع الشبحان بالياض ، ولماذا يحملان  
منجلاً وسراجاً ؟ ما من أحد يستطيع تعليل ذلك \* والحق أن الحضور  
لم يعنوا بهذا كثيراً ، ذلك أمر محقق \* وهبَّ السيد يواجه الأشباح  
بشجاعة ، ويهتف قائلاً انه متأهب وان فى وسعهم أن يأخذوه \* ولكن  
كدريل ، اللجان كأرنـ ، يختبئ تحت المائدة ، ولا ينسى رغم جزعه  
وهلعه أن يأخذ معه زجاجة الخمر \* ويغيب الشياطين لحظة ، فيخرج  
كدريل من مخبئه ، ويشرع السيد فى أكل دجاجته فيدخل الى الغرفة  
ثلاثة شياطين ويقبضون عليه ليقودوه الى جهنـ \* فيصيح : « انقذنى

يا كدريل ! ، ولكن لكدريل هموماً غير هذه الهموم ، فقد أخذ الزجاجة والصحن وحتى الخبز فى هذه المرة واندس تحت المائدة . ها هو ذا الان وحيداً ، فقد مضى الشياطين ، ومضى مولاه أيضاً . ويخرج كدريل من تحت المائدة ، ويأخذ ينظر فى جميع الجهات ، فشرق فى وجهه ابتسامة ، ويغمز بعينه غمزة رجل ماكر مختال ، ويجلس فى مكان مولاه ، ويهمس قائلاً للجمهور بصوت خافت :

— هياً ! . . . أنا الآن وحدى سيد . . . أنا الآن بغير سيد !

ويضحك جميع الناس من رؤيته بغير سيد . ويضيف هو بصوت خافت ولهجة تحمل معنى البوح ، يضيف قائلاً وهو يطرف بعينه فرحاً مبتهجاً :

— أخذته الشياطين ! . . .

اشتدت حماسة المشاهدين الى غير حد ! لقد نطق كدريل بهذه العبارة نطقاً فيه من اللؤم والخبث ، وفيه من تصمير الوجه ومعانى السخرية والانتصار ما يستحيل على المرء معه أن لا يصفق . ولكن سعادة كدريل لا تدوم طويلاً . فما ان تناول زجاجة الخمر وسكب منها كأساً حملها الى شفثيه حتى عادت الشياطين واندست وراءه وقبضت عليه . أعول كدريل كمن مسّه طائف من جنون . ولكنه لا يجرؤ أن يلتفت . انه يود لو يدافع عن نفسه ، ولكنه لا يستطيع ذلك ، فان يديه مشغولتان بالزجاجة والكأس ، وهو لا يريد أن ينفصل عنهما . وها هو ذا يظل ينظر الى الجمهور محمق العينين فاغر الفم ، وفى وجهه هلع وجبن يبلغان من شدة الاضحك أن هذا الوجه خلىق بأن يصوره حقاً رسام . وتجره الشياطين أخيراً ، وتسير به ، وهو يحرك ذراعيه وساقيه ، وما يزال ممسكاً بالزجاجة ، وهو يصرخ ثم يصرخ ؛ ويظل عويله يُسمع من وراء الكواليس . وتُسدل الستارة . والناس جميعاً يضحكون

مقننين معجيين مسحورين ... وتطفق الأوركسترا تعزف رقصة الكارامنسكايَا •

بدأ العزف هادئاً رقيقاً ، ولكن اللحن لم يلبث أن اشتد ، والايقاع لم يلبث أن تسارع ؛ وأخذت ضربات على ألواح البالاياكا تدوى وتجلجل • انها أنغام رقصة الكارامنسكايَا في أقوى اندفاع لها\* • ألا ليت جلنكا يسمع عزف هذا اللحن في سجننا • وبدأ التمثيل الایمائی الصامت بمصاحبة الموسيقى • وكانت أنغام الكارامنسكايَا هي التي تصاحب التمثيل طوال مدة التمثيل • ان المشهد يمثل كوخاً في الداخل • والكوخ يضم رجلا وامرأته ، فاما الرجل فعكف على لباس يرقعه ، وأما المرأة فتغزل خيوط كتان • كان سيروتكين هو الذي يمثل دور المرأة ، وكان تسفياتايف هو الذي يمثل دور الطحان •

كان ديكور المسرح فقيراً جداً ؛ فكان لا بد ، في هذه المسرحية الایمائية كما في المسرحيتين السابقتين ، أن يتولى الخيال اكمال ما يفتقر اليه الواقع • كان المشاهد يرى في آخر المسرح سجادة أو غطاءً ، بدلاً من أن يرى جداراً • وكان في الجهة اليمنى حواجز ، أما في الجهة اليسرى فلم يكن المسرح مسدوداً فكان المشاهد يرى مضاجع السجناء • ولكن المشاهدين ليسوا متشددین في مطالبهم ، فهم يكتفون باليسير ويعملون خيالهم في اكمال النواقص وتدارك الثغرات • وذلك أمر سهل عليهم لأن السجناء أناس ألفوا أن يطلقوا العنان لخيالهم ، وتعودوا أن يحلموا كثيراً ... فمتى قيل هذه حديقة تصوروا حديقة ، ومتى قيل هذه غرفة أو هذا كوخ تصوروا غرفة وتصوروا كوخا ... ليس ذلك بالأمر العسير عليهم ، انهم أناس لا يحفلون كثيراً بالمظاهر ... ولقد كان سيروتكين رائعاً في ثياب المرأة ، التي كان يرتديها ! ويفرغ الطحان من عمله في ترقيع لباسه فيتناول قبعته وسوطه ، ويدنو من المرأة ، ويشير

لها بالايماء أنه سيعرف كيف يتصرف معها اذا هي استقبلت أحداً أثناء  
غيابه . . . فعل ذلك وهو يظهرها على السوط الذى بيده . وتصنى المرأة  
الى كلام زوجها فتعز رأسها مؤمنة عليه . لا شك أنها تعرف هذا السوط،  
ولا شك أنها قاست منه ، فذلك ما تدل عليه هيئة المرأة الفاجرة! ويخرج  
الزوج . فما ان يستدر على عقبيه حتى تشيعه بقبضة يدها وراء ظهره !  
ويقرع الباب ، فتفتح المرأة الباب ، فيدخل الجار . . . انه هو أيضاً  
طحان ، فلاح له لحية ويرتدى قفطاناً . . . انه يحمل للمرأة هدية هي  
منديل أحمر . . . تبسم المرأة . ولكن ما ان يهمّ الرجل بتقيلها حتى  
يُسمع قرع الباب من جديد . أين تراها تخبيء الرجل ؟ ها هي ذى  
تخفيه تحت المائدة ، وتعود الى مغزلها . ان القادم الجديد هو البيطار  
وقد ارتدى بزة صف ضابط . لقد جرت المسرحية الايمائية الصامتة  
حتى ذلك الحين مجرى حسناً جداً ، فالحركات سليمة لا مأخذ عليها  
ولا عيب فيها ، حتى ليتمكن أن يعجب المرء لهؤلاء الممثلين الذين لم  
يتدربوا على التمثيل كيف يستطيعون أن يؤدوا أدوارهم هذا الأداء  
الصحيح الجميل ، ثم اذا هو يقول لنفسه على غير ارادة منه : « ما أكثر  
المواهب التى تضيع هباء فى بلادنا روسيا ، ما أكثر المواهب التى تدفن  
بغير أن تستغل ، فى غياهب السجون وأعماق المنافى ! » . أغلب ظنى أن  
السجين الذى مثل دور البيطار كان قد شهد تمثيلاً فى مسرح من  
مسارح الأقاليم أو فى مسرح هواة . فكان يقدر أن جميع هؤلاء الممثلين  
من السجناء لا يفقهون من أمور التمثيل شيئاً ، ولا يسيرون كما يجب  
أن يسيروا . فما هو ذا يدخل المسرح كما كان يدخله الأبطال القدامى  
من ممثلى المسرح الكلاسيكى القديم ، متقدماً بخطوة عريضة، ثم هاهو ذا  
يرد رأسه وجسمه الى وراء حتى قبل أن يرفع ساقه الأخرى، وما هو ذا  
يجيل طرفه حوله فى كبر واستعلاء ، ويتقدم خطوة أخرى فى عظمة

وأبهة وجلال • لئن كان مشى " كهذا المشى يبدو سخيلاً لدى الأبطال الكلاسيكيين ، فهو أشد سخفاً في مشهد هزلى يمثله عسكري • ولكن جمهور المشاهدين رأى هذه المشية طبيعية جداً فارتضاها ، ولم يجد بأساً في هذا المظهر المتكبر المظفر ، بل عده أمراً ضرورياً فلم ينتقده • وقرع الباب مرةً أخرى بعد دخول القادم بلحظة قصيرة • طاش صواب ربة المنزل • أين عساها تخبيء المعجب الجديد ؟ فلتخبئه في الصندوق ، الذى كان لحسن الحظ مفتوحاً ! اختفى القادم الثانى فى الصندوق ، وأغلقت عليه المرأة الغطاء • ان القادم الثالث عشيق كساتر العاشقين ، ولكنه عشيق من نوع خاص • انه براهمى \* يرتدى مسوح الكاهن • استقبله الجمهور دخوله بضحك شديد هائل • ولم يكن هذا الكاهن الا السجين كوشكين الذى أجاد تمثيل دوره اجادة تامة ، لأن وجهه يشبه وجه كاهن ، ولأنه يعبر عن حبه لزوجة الطحان باشارات كاشارات كاهن ، رافعاً ذراعيه الى السماء ثم ضاماً يديه على صدره ••• ومرة أخرى يطرق الباب ••• انه طرق قوى عنيف فى هذه المرة • هو رب البيت من غير شك • ذعرت امرأة الطحان ذعراً رهيباً وطاش صوابها ، وأخذ الكاهن يركض طائر اللب فى كل جهة من الجهات ، متوسلاً الى المرأة أن تخفيه • وها هى ذى المرأة تساعده على الاندساس وراء الخزانة ، وطفقت تغزل وتغزل ناسيةً أن تفتح الباب • انها ماضية فى عملها دون أن تسمع طرقات الباب التى تتكاثر وتشتد ؛ والحق أنها أصبحت لا تغزل ، وانما هى تقوم بحركات الغزل ، تعقف خيطاً وهمياً وتحرك مغزلاً لا وجود له ، لأن المغزل قد سقط من يديها فهو يرقد الآن على الأرض • لقد مثل سيروتكين هذا الذعر تمثيلاً رائعاً • ويذهب صبر الزوج ، فيقتحم الباب ويقترّب من زوجته وفى يده سوطه • لقد لاحظ كل شيء ، لأنه كان يتجسس على الزوار • وها هو ذا يفهم

زوجته بالايماء أن لديها ثلاثة زوار مختبئين • ثم يأخذ يبحث عنهم •  
 فيعثر أولاً على الجار ، فيطرده من الغرفة بضربات من قبضة يده •  
 ويخاف العسكري فيريد أن يهرب فيرفع برأسه غطاء الصندوق فيفضح  
 نفسه ، فيهوى عليه الطحان بسوطه يجلدده جلدأ ، ويخرج الرجل من  
 الصندوق بحركات ليست كالحركات التي دخل بها المسرح ، بحركات  
 ليس فيها شيء من الخيلاء والغطرسة التي رأيناها منذ قليل • بقي الكاهن  
 البراهمي الذي بحث عنه الزوج طويلاً دون أن يعثر له على أثر ، ولكنه  
 وجده أخيراً في ركنه وراء الخزانة ، فحيّاه تحية مهذبة ، وشده من  
 لحيته الى وسط المسرح ، وأراد الكاهن أن يدافع عن نفسه فصرخ يقول :  
 « لعنك الله ، لعنك الله ! » ( وهي الكلمات الوحيدة التي قيلت طوال  
 المسرحية الايمائية الصامتة ) ، ولكن الزوج لا يسمع له ، ويتصرف  
 لعرضه منه • وأدركت الزوجة أن قد جاء دورها فرمت مغزلهما وولت  
 هاربة من الغرفة ، وفيما هي تجري اصطدمت بأصيص فانقلب فانكسر ،  
 وانفجر السجناء ضاحكين • تناول على " يدي دون أن ينظر الى " وقال لي :-  
 « هل رأيت ؟ هل رأيت ؟ يا لهذا الكاهن البراهمي ! » • كان من فرط  
 اغراقه في الضحك لا يستطيع أن يستقر قائماً • وأسدلت الستارة ، وبدأ  
 مشهد آخر •••••

مُثِّل مشهدان آخران أو ثلاثة • كانت جميع المشاهد مضحكة  
 جداً مرحلة جداً • لم يؤلفها السجناء أنفسهم ، بل اقتبسوها اقتباساً •  
 ولكنهم أضافوا اليها من عندهم • كان كل ممثل من الممثلين يرتجل  
 شيئاً جديداً ، فاذا المشهد الواحد لا يُمثَّل تمثيلاً واحداً في مساءين  
 اثنين • وكان المشهد الايمائي الأخير من نوع خيالي مليء بالتهاويل ، وقد  
 انتهى برقصة باليه • ان موضوع هذا المشهد هو دفن ميت • قام الكاهن  
 البراهمي يتلو الصلوات على جثمان المتوفى • وسمِع أخيراً لحن « الشمس



الغاربة ••• « فاذا بالميت يبعث الى الحياة ، واذا بجمهرة الحضور تاخذ  
ترقص فرحةً جذلى • ويرقص الكاهن البراهمى مع الميت ، ولكنه  
يرفص على طريقته الخاصة ، على الطريقة البراهمية • فهذا المنظر  
تنتهى التمثيلية الايمائية •

تفرق السجناء فرحين مسرورين يمدحون المثلين ويشكرون  
ضف الضابط • لم تُسمع مشاجرة واحدة • كانوا جميعاً راضين ، بل  
أستطيع أن أقول انهم كانوا جميعاً سعداء • مضوا الى مضاجعهم هادئى  
النفس مطمئنى البال ، وناموا نوماً لا يشبه ما ألفوا من نوم • ليس ما أقوله  
الآن طيفاً من أطياف الخيال ، وانما هو الحقيقة ، الحقيقة خالصة • لقد  
أتبح لهؤلاء البؤساء أن يعيشوا بضع لحظات كما يحبون ، أن يستمتعوا  
بتسلية انسانية ، أن يتحرروا ساعةً من ظروف السجن • ان المرء  
لتغير روحه عندئذ ولو بضع دقائق •••

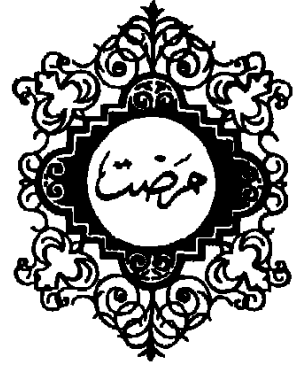
اشتدت ظلمة الليل • شعرت برعدة ، واستيقظت من نومى عرضاً  
ومصادفة : ان المتعبد الشيخ ما يزال على المدفأة يصلى ، وقد ظل يصلى  
حتى مطلع الفجر • ان علياً ينام قربى نوماً هادئاً • تذكرت أنه حين نام  
كان لا يزال يضحك ويتحدث مع اخوته عن المسرح • نظرت الى وجهه  
الوادع على غير ارادة منى • وشيئاً فشيئاً تذكرت كل شيء ، تذكرت  
اليوم الماضى ، وتذكرت أعياد الميلاد ، وتذكرت ذلك الشهر كله •••  
رفعت رأسى مرتاعاً ونظرت الى رفاقى الذين كانوا نائمين تحت ضوء  
مرتجف هو ضوء شمعة وضعتها فى الثكنة ادارة السجن • نظرت الى  
وجوههم الشقية ، الى سرهم الفقيرة ، الى هذا العرى وهذا البؤس •••  
نعم نظرت الى هذا كله ••• وأقنعت نفسى بأن ذلك ليس حلماً ثقيلاً ،  
ليس كابوساً رهيباً ، بل هو الواقع ، الواقع نفسه • نعم انه الواقع نفسه •

وسمعت أنيأ • ان أحد السجناء يثنى ذراعه فى ثقل ، فتجلىل سلاسله •  
وهذا سجين آخر يضطرب فى حلم ويتكلم أثناء النوم بينما الشيخ  
يصلى ويدعو الله لجميع «المسيحيين الأورثوذكس» • سمعت دعاءه المتصل  
المطرد ، الهادى ، العذب ، البطىء ، بعض البطء : « ارحمنا يا يسوع  
المسيح ! » •••

قلت لى : « لن أجا هنا الى الأبد ، بل بضع سنين » ، ثم عدت  
أسند رأسى الى الوسادة •

الجزء الثاني

## المستشفى



بعد عيد الميلاد بقليل ، فاضطرت أن  
أذهب الى مستشفىنا العسكرى الذى يقع بعيداً  
على مسافة نحو نصف فرسخ من قلعتنا • هو  
مبنى ذو طابق واحد ، طويل جداً ، مطلى بلون

أصفر • ان ادارة المستشفى تنفق فى كل صيف مقداراً كبيراً من التراب  
الأصفر لاعادة طلائه • وفى فائه الواسع ملحقات شتى هى مساكن  
للأطباء ، وفيه مباني ضرورية أخرى ، أما المبنى الرئيسى فلا يضم الا  
القاعات المخصصة للمرضى ، وهى قاعات كثيرة • ولكن السجناء ليس لهم  
الا قاعتان اثنتان ، لذلك كانت هاتان القاعتان مزدحمتين فى جميع الأوقات  
تقريباً ولا سيما فى فصل الصيف ، ولم يكن نادراً أن تضطر ادارة  
المستشفى الى أن ترصّ الأسرة فيها • كانت هاتان القاعتان تفتان  
« بالأشقياء » من كل نوع : ففيهما أولاً سجناء قلعتنا ، وفيهما موقوفون  
عسكريون صدرت فى حقهم أحكام ؛ وفيهما آخرون تجرى محاكمتهم ،  
وفيهما معتقلون عابرون ، واليهما يُرسل أيضاً مرضى من المحالين الى  
الفرقة التأديبية وهى فرقة مسكينة تضم الجنود الذين ساء سلوكهم  
وفسدت أخلاقهم ، فهم يلحقون بهذه الفرقة لاصلاحهم ، ولكنهم

يخرجون منها بعد سنةٍ أو سنتين وهم أحط من يمكن أن يحملهم ظهر الأرض من سفلة مجرمين •

كان السجناء الذين يشعرون بأنهم مرضى يلبفون صف الضابط أمر مرضهم منذ الصباح • فيسجل هذا أسماءهم على بطاقات يعطيهم إياها ، ويرسلهم الى المستشفى فى حراسة جندى خفير ، حتى اذا وصلوا الى المستشفى تولى فحصهم طبيب من الأطباء ، فأذن ببقائهم فى المستشفى اذا أيقن أنهم مرضى حقاً • ولقد سجل صف الضابط اسمى على بطاقة ؛ وفى نحو الساعة الواحدة ، حين مضى جميع رفاقى الى الشغل ، ذهبت الى المستشفى • كان كل سجين من السجناء يحمل معه الى المستشفى ما يستطيع حمله من مال وخبز ( اذ يجب عليه أن لا يتوقع أن يتناول طعامه فى المستشفى ذلك اليوم ) ، ويحمل معه غليوناً صغيراً جداً وكيساً فيه تبغ وقداحة وفتيلة • وكان السجناء يخفون هذه الأشياء كلها فى أحذيتهم • دخلت سور المستشفى وأنا أشعر ازاء هذا الجانب الجديد الذى لم أعرفه من حياة المعتقل ، بغير قليل من الاستطلاع •

كان اليوم حاراً متلبداً بالغيوم حزيناً كثيراً • هو يوم من تلك الأيام التى تكسو منازل كالمستشفى بمظهر خاص يبعث على النفور والسأم والاشمئزاز • دخلنا أنا وخفىرى الى غرفة الانتظار • ان فى الغرفة حمامين من نحاس • ووجدنا هنالك سجينين كانا ينتظران فحصهما مع خفيريها • ودخل ممرض من الممرضين فنظر الينا فى غير اكترات ، نظرةً تدل على شعوره بأنه قوام علينا ، ثم مضى يبلغ الطبيب المناوب عن وصولنا بمزيد من قلة الاكترات أيضاً • فما هى الا لحظة حتى وصل الطبيب ، ففحصنا وهو ياملنا معاملة لطيفة ، ثم أعطانا أوراقاً سُجِّلت عليها أسماءنا • ان على الطبيب العادى المعهود اليه بالقاعتين المخصصتين للسجناء أن يشخِّص المرض ، وأن يعين الأدوية الواجب تجرعها ، وأن

يحدد النظام الغذائي الواجب اتباعه ، الخ • ( سبق أن سمعت السجناء يكيلون المديح لأطبائهم ، حتى لقد قالوا لي عنهم حين تقرر دخولي المستشفى : « انهم لنا كالأباء ! » ) • خلعنا ثيابنا لترتدى رداءً آخر ، وأخذوا ملابسنا الداخلية التي كنا نلبسها حين وصولنا ، وأعطونا ملابس من المستشفى أضافوا اليها جوارب طويلة ونعالاً وقبعات من قطن ومعاطف منزلية مصنوعة من جوخ بنى سميك ومبطنة لا بقماش بل بشيء يشبه أن يكون من اللصقات التي تضمد بها الجروح • والحق أن المعطف كان قدراً قدارة رهيبة ، ولكنني سرعان ما أدركت فائدته •

أخذنا بعد ذلك الى قاعات السجناء التي تقع في آخر دهليز طويل عالٍ جداً نظيف جداً • ان النظافة الخارجية مرضية كل الارضاء • ان كل ما يُرى كان يلتمع التماعاً ، أو هذا على الأقل ما تراءى لي بعد القدارة التي كنت أتقلب بينها في السجن • دخل الموقوفان القاعة التي تقع من الدهليز على الشمال ، بينما دخلت أنا القاعة التي تقع على اليمين • ان ديدباناً على كتفه بندقيّة كان يتجول أمام الباب المقفل بقل ؛ وغير بعيد منه كان يقف الحارس الذي ينوب عنه ويحل محله • أمر العريف ( وهو من حرس المستشفى ) بادخالي قاعة المرضى ، فاذا أنا أجد نفسي فجأة في غرفة طويلة ضيقة قد صُفّت أمام جدرانها سُرُرٌ عددها اثنان وعشرون ومنها ثلاثة أو أربعة ما تزال خالية • كانت هذه السرر الخشبية مطلية بلون أخضر ، ولا شك أن البق يسكنها ، كما يسكن سائر سرر المستشفيات ، وذلك أمر معروف في روسيا كلها • استقررت في ركن من الأركان قرب النوافذ •

سبق أن ذكرت أن بعض سجناء قلعتنا كانوا هنالك ، وكان بعضهم يعرفني ، أو كان قد رآني على أقل تقدير • ولكن المرضى الذين تجرى

محاكمتهم والمرضى الذين ينتمون الى فرقة التأديب كان عددهم أكبر كثيراً •

ولم يكن بين السجناء الا قلة قليلة مصابة بأمراض خطيرة تلزمها الفراش • أما أكثرهم فكانوا ناقهين أو كانوا متوعكين قليلاً ، فهم راقدون على مضاجعهم أو متجولون فى القاعة طولاً وعرضاً • ان الفراغ بين صفى الأسرة يتسع لطوافهم ذاهبين آيبين • وكان جو القاعة خاتقاً تملؤه الرائحة الخاصة التى تملأ جو المستشفيات عادة : انه جو موبوء بشتى أنواع الروائح التى تخرج من أجسام البشر ، وهى جميعاً كريهة، ذلك عدا روائح الأدوية والعقاقير ، رغم أن المدفأة تظل مشتتة طول النهار •

كان سريرى مغطى بغطاء مخطط • رفعت الغطاء ، فوجدت تحته بادة من جوخ مبطنة بقماش ، ومفارش وسخة من قطن • والى جانب السرير توجد منضدة صغيرة عليها جرة وكأس من صفيح ، وفوق الكأس منشفة صغيرة عهد بها الى • وللمنضدة رف كان المرضى الذين يشربون الشاي يضعون عليه غلايتهم ، والكوز الخشبي الذى يشربون به شراب الكفاس أو غيره • ولكن هؤلاء الأثرياء قلة قليلة • وكانت الغلابين وأكياس التبغ تحباً تحت الفراش ( ان جميع السجناء يدخلون حتى المصدورون منهم ) • وقلما كان الطيب أو غيره من الرؤساء يقومون بالتفتيش ، فاذا فاجأوا سجيناً من السجناء والغليون فى فمه تظاهروا بأنهم لم يروا شيئاً • وكان السجناء حذرين جداً على كل حال، فهم لا يكادون يدخلون الا وراء المدفأة • انهم لا يسمحون لأنفسهم بالتدخين وهم على أسرّتهم الا فى الليل ، اذا ما من أحد يقوم بجولة تفتيشية أثناء الليل ، الا ضابط الحرس ، وكان هذا لا يقوم بجولته التفتيشية الا فى القليل النادر •

لم يسبق لى حتى ذلك الحين أن دخلت أى مستشفى من المستشفيات مريضاً • لذلك بدا لى كل ما حولى جديداً كل الجدة • لاحظت أن دخولى قد أثار فضول بعض السجناء • كانوا قد سمعوا عنى • وها هم أولاء ينظرون الىّ بغير تحرج ، بل يظهرون شيئاً من ذلك الشعور بالتفوق الذى يحسه تلاميذ مدرسة من المدارس حين يفد اليهم تلميذ جديد ، أو يحسه موظفو دائرة من دوائر الحكومة حين يدخل عليهم مراجع من المراجعين • كان يرقد على يمينى سجين كان فى الماضى سكرتيراً ، وهو ابن غير شرعى لضابط متقاعد ، وقد اعتقل بتهمة القيام بصنع نقود مزيفة : انه يقيم فى المستشفى منذ أكثر من عام • ولم يكن مريضاً البتة ، ولكنه يؤكد للأطباء أنه مصاب بتورم فى شرايين القلب • وقد بلغ من اقناعهم بذلك أنه لم يرسل الى العمل يوماً ، ولا أنزلت فيه العقوبة الجسدية التى حُكم عليه بها • وقد أرسل بعد ذلك بسنة الى مدينة تدمر ، حيث ألحق بمستشفى من المستشفيات • انه فقى قوى البنية فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، مقتول العضل ، شديد المكر والدهاء ، عالم بالقوانين فكأنه محام من المحامين • وهو ذكى حلو العشرة ، لكنه على جانب عظيم من الاعتداد بالنفس ، شديد الأثرة تكاد تكون أنانيته مرضاً • كان مقتنعاً بأنه ليس فى العالم كله انسان أشرف منه ولا أعدل ، فلم يعترف بذنبه ولم يقر بجريمته قط • وقد حافظ على هذه الثقة بنفسه طول حياته • ان هذا الشخص قد خاطبنى أول المخاطبين ، وأخذ يسألنى فى شئونى مستطعاً مستخبراً ، وراح يذكر لى ما يسود المستشفى من عادات وأخلاق • وطبعى أنه قد ذكر لى قبل كل شىء أن أباه ضابط برتبة نقيب • كان يحرص حرصاً شديداً على أن أعده من طبقة الأشراف ، أو من طبقة النبلاء فى أقل تقدير • وبعد ذلك بقليل جاءنى مريض من الفرقة التأديبية فأكد لى أنه يعرف كثيراً من النبلاء الذين كانوا فى المنفى



حتى لقد سماهم لي بأسمائهم وأسماء آباءهم ليزيدني اقتناعاً بصدق ما يقول • انه ليكيفيك أن ترى وجه هذا الجندى الأشيب حتى تدرك أنه يكذب كذباً كريهاً مقيتاً • ان اسمه تشيكونوف • وقد جاء يلاطفي لأنه كان يقدر أن معي مالا • فلما لاحظ أن عندي صرة فيها شاي وسكر أسرع يعرض عليّ خدماته قائلاً انه سيأتي بي بلاية وسيغلي لي الماء • كان • • • كي قد وعدني بأن يرسل اليّ غلايتي في الغداة مع أحد السجناء الذين يعملون في المستشفى ، ولكن تشيكونوف تدبر الأمر فهياً لي كل شيء ، وجاءني بحلة من صفيح أغلي فيها الماء للشاي ؛ وبلغ من فرط حماسه في خدمتي أن ذلك سرعان ما أحق عليه أحد المرضى فأخذ هذا يستهزئ به ويتهمك عليه ، وهو مصدور كان سريره يقع أمام سريري • ان اسمه أوستياتسف ، وهو بعينه ذلك الجندى المحكوم عليه بالجلد ، الذي بلغت شدة جزعه من السوط أنه أفرغ في جوفه زجاجة من الخمر أغلي فيها مقداراً من التبغ ، فأصابه من ذلك مرض السل : لقد سبق أن تحدثت عن هذا السجين • كان الي ذلك الحين صامناً لا يتكلم ، راقداً على سريره يتنفس بكثير من العناء ، ناظراً اليّ يتفرسني بجد واهتمام ، متابعاً ببصره تشيكونوف الذي أحقته مذلتة لي • ان ما يظهر في وجهه من معاني الوقار الشديد يجعل استيائه مضحكاً • وها هو ذا ينفد صبره أخيراً فيقول :

– انظروا الي هذا الخادم الذي عثر على سيده !

قال ذلك مباعداً بين الكلمات ، ناطقاً اياها بصوت مخنوق من الضعف والوهن ، لأن ذلك حدث قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بزمن قصير •

التفت اليه تشيكونوف وسأله مستاءً مفاظاً وهو يلقي عليه نظرة

احتقار :

– من هو الخادم ؟

فأجاب أوستياتسيف :

– أنت الخادم ! اسمعوا أيها الناس ! انه لا يريد أن يصدقني !

انظروا الى الفتى الشجاع كيف يعجب ويدهش !

– ما شأنك أنت ؟ ألا ترى « أنهم لا يعرفون » استعمال « أيديهم » ؟

« انهم لم يتعودوا أن يعيشوا بغير خادم » ! فلماذا لا أخدمه ؟ يا لك من  
أحمق أزغب البوز ؟

– أزغب البوز ؟ من ؟

– أنت !

– أنا أزغب البوز ؟

– نعم أنت أزغب البوز ...

– أما أنت فجميل حقاً ... طيب ... لئن كنت أنا أزغب البوز ،

ان لك وجهاً كأنه بيضة غراب ! ...

– يالأزغب البوز ! لقد أنصفتك الله ، فخير لك أن تبقى هادئاً الى أن

تفطس ! لماذا تتدخل فيما لا يعنيك ؟

– لماذا ؟ اننى أوتر أن أسجد لخداء جيد على أن أسجد لنعل

حقير • ما سجن أبى يوماً ، ولا أمرنى أن أسجد ! ... أنا ... أنا •

أراد المصدر أن يكمل كلامه ، ولكن نوبة شديدة من السعال

هزته هزاً عنيفاً ، وأخذ يبصق دماً ، وتقاطر على جبينه المكدود عرق بارد

من فرط الاعياء • لولا أن السعال منعه من الكلام ، اذن لظل يسب ويدم •

كان ذلك واضحاً فى نظره • ولكنه عجز عن الاستمرار فى الكلام ، فلم

يزد على أن أخذ يلوّح بيده ، فلم يلتفت اليه تشيكونوف بعد ذلك •

أحسست أن حق هذا المصدور كان ينصب على أكثر مما ينصب على تشيكونوف • فما كان لأحد أن يفض من تشيكونوف ولا أن يحتقره بسبب الخدمات التي يقدمها لي والدريهمات التي يحاول أن يقتنصها مني • كان كل مريض يدرك حق الإدراك أن تشيكونوف لا يفعل ذلك كله الا في سبيل الحصول على شيء من مال • ان أبناء الشعب لا يتأذون من هذا الأمر ، فهم يعرفونه على حقيقته • كل ما هنالك أن أوستاتسيف قد استاء مني ، واستاء من الشاي الذي استمتع به ؛ والشيء الذي أحققه خاصة هو أنني انتمى الى طبقة السادة ، رغم السلاسل التي تقيد ساقي ، وأنتى لا أستطيع الاستغناء عن خادم يخدمنى • على أنني لم أرغب فى أن يكون لى خادم ، ولم أسع الى أن يكون لى خادم ؛ بل كنت أحرص على أن أفعل كل شيء بنفسى ، حتى لا أظهر لأحد بمظهر رجل مدلل أبيض اليدين ، وحتى لا أمثل دور السيد العظيم • والحق أن قد كان فى حرصى هذا شيء من أثره • ذلك أنتى كنت كلما أحاط بى المتملقون والمراءون ، وتعلقوا بى من تلقاء أنفسهم ليخدمونى ، أصبح فى آخر الأمر منقادا لهم أسيراً بين أيديهم فاذا أنا الخادم واذا هم المخدمون ( لا أدرى كيف كان يتم ذلك ) • مهما يكن من أمر فقد كنت فى نظر الناس ، شئت أم أبيت ، سيداً لا يستطيع أن يستغنى عن خدمات الآخرين ، ويحرص على مظاهر الأبهة والعظمة • فكان هذا يغيظنى ويحقتنى • كان أوستياتسيف رجلاً مصدوراً ، فكان بسبب ذلك حاد الطبع شديد التأذى • أما المرضى الأخر فانهم لم يظهروا لى الا قلة الاكثرا ، مع شيء من الازدراء • ولقد كان يشغل بالهم أمر يعود الآن الى ذاكرتى : لقد عرفت وأنا أصغى الى أحاديثهم أن سجيناً سيوتى به الى المستشفى فى ذلك المساء نفسه بعد أن يكون قد تم جلده • انه يُجلد الآن ، والسجناء ينتظرون

وصوله الى المستشفى بكثير من الفضول • وقد ذكروا على كل حال أن عقوبته يسيرة : خمسمائة جلدة لا أكثر •••

نظرت حولي • كان أكثر السجناء ، المرضى حقاً ، مصابين بداء الاسقربوط وبعمل في الأعين ، وهي أمراض مستوطنة في تلك البلاد • وكان ثمة سجناء آخرون ، مرضى حقاً ، يعانون الحمى ويشكون من السل ويتوجعون من آلام أخرى • ولم تكن الامراض المختلفة معزولة بعضها عن بعض في قاعات السجناء ، بل كانت مجتمعة كلها في قاعة واحدة ، حتى الأمراض الزهرية • ولئن قلت « المرضى حقاً » ، فلأن بعض السجناء قد جاءوا الى المستشفى دون أن يكون بهم مرض ، جاءوا الى المستشفى « هكذا » من أجل أن « يرتاحوا » • وكان الأطباء يقبلونهم في المستشفى من باب الرأفة وحدها ، لاسيما حين يكون ثمة سرر خالية • ان الحياة في السجون تبلغ من القسوة اذا قيست بالحياة في المستشفى أن كثيراً من السجناء يؤثرون أن يظلوا راقدين رغم الهواء الخائق الذي يتنفسونه ورغم أنهم يمنعون من الخروج منعاً باتاً • حتى لقد كان هنالك هواة لهذا النوع من المعيشة : وهؤلاء ينتمون جميعهم تقريباً الى فرقة التأديب •

أنعمت النظر الى رفاقي الجدد مستطعماً • فخطف أحدهم بصرى على نحو خاص • انه مصاب بالسل ، وانه في حالة نزع • كان سريره أبعد قليلاً من سرير أوستاتسيف ، في مواجهة سريري تقريباً • ان اسمه ميخائيلوف • كنت قد رأيته في السجن قبل ذلك بأسبوعين • وكان مرضه خطيراً منذ ذلك الحين • كان ينبغي له أن يعالج نفسه منذ زمن طويل ، ولكنه تحدى المرض وكابر وعاند ، ولم يذهب الى المستشفى الا قبيل عيد الميلاد ، لموت بعد ثلاثة أسابيع بسلي سريع اختطفه اختطافاً • لكن هذا الانسان قد احترق احترق شمعة • وما أدهشني فيه خاصة

انما هو وجهه الذى تبدل تبديلاً تاماً - لأننى كنت قد رأيتُه منذ دخولى  
 السجن - فخطف بصرى حين رأيتُه الآن • والى جانبه كان يرفد جندى  
 من فرقة التاديب ، وهو شيخ كالح الوجه مقرز المظهر • ولكننى لا اريد  
 أن أعدّد جميع المرضى ••• ولئن تذكرت الان هذا الشيخ فما ذلك الا  
 لأنه أحدث فى نفسى عندئذ أثراً خاصاً ، ولأنه أطلعنى دفعةً واحدة على  
 بعض الخصائص التى تتميز بها قاعة السجناء • كان هذا الشيخ مصاباً  
 بزكام رهيب مزمن فهو يعطس فى كل لحظة ( ظل يعطس اسبوعاً  
 بكامله ) ، حتى أثناء نومه ، خمس مرات متتالية أو ست مرات متتالية ،  
 حتى لكأن عطسه طلقات بندقية ؛ وكان كلما عطس يكرر قوله : « يارب!  
 ما هذا القصاص ! » • وكان يحشو أنفه بذرور التبغ ، جالساً على سريره ؛  
 يفعل ذلك بشراهة ونهم ، من أجل أن يزداد عطسه قوة واطراداً •  
 وكان يعطس فى منديل قطنى ذى مربعات ، منديل هو ملك له ، قد  
 حالت ألوانه من طول ما غُسل • وكان حين يعطس يتجمد أنفه الصغير  
 تجمداً خاصاً ، متخدداً بعدد لا نهاية له من غضون صغيرة ، وكان  
 يكشف عندئذ عن أسنان مثلثة نخرة سوداء كل السواد ، وعن لثتين  
 حمراوين يبللهما اللعاب • حتى اذا انتهى من العطس فض منديله ونظر  
 الى مقدار المخاط الذى خرج من أنفه ، ثم سارع يمسح المنديل بالمعطف  
 المنزل الذى يرتديه ، فاذا بالمخاط كله يتعلق بالمعطف ، بينما المنديل لم  
 يكد يبتل • ان هذه المداراة لمتاع شخصى ، على حساب المعطف الذى هو  
 ملك المستشفى ، لا يوقظ لدى السجناء أى احتجاج ، رغم أن بعضهم  
 قد يضطر الى ارتداء هذا المعطف نفسه فيما بعد • ان المرء لا يكاد يستطيع  
 أن يصدّق أن العامة عندنا يمكن أن يبلغوا هذا المبلغ من قلة التقزز فى  
 هذه الأمور • وقد أزعجنى هذا كثيراً ، فأخذت أفحص ، على غير ارادة  
 منى ، بكثير من الاستطلاع والاشمئزاز ، المعطف الذى كنت قد ارتديته •

كانت تفوح منه رائحة قوية كريهة • فانه ، وقد دفاه جسمي ، أخذت  
تنتشر منه روائح الأضمدة والعقاقير • لكأنه لم يبارح آكتاف المرضى منذ  
عهد سحيق لا أول له • لعل بطاتته قد غسلت في يوم من الأيام ، ولكنني  
لا أستطيع أن أؤكد ذلك جازماً : ومهما يكن من أمر فانه كان حين  
لبسته مبللاً بجميع أنواع السوائل والمراهم واللصقات التي يمكن أن  
يتصورها الخيال • كان السجناء المحكوم عليهم بالجلد يجيئون الى  
المستشفى بعد انزال العقوبة فيهم ، وقد دميت ظهورهم ؛ واذ كانوا يعالجون  
بالمراهم فان المعطف الذي كانوا يلبسونه على القميص المبتل يمتص كل  
شيء ويحتفظ بكل شيء • انني طوال مدة اقامتي بالسجن كنت كلما  
ذهبت الى المستشفى ( وهذا ما كان يحدث كثيراً ) أرتدى المعطف الذي  
أعطاه شاعراً بكثير من الاشمزاز والتخوف والريبة • وكان لهذه  
الريبة منشأ آخر هو القمل الذي كان يتكاثر تكاثراً عظيماً ••• كان  
السجناء يتلدزون بتعذيب هذا القمل اذ يققسونه باظفري الابهامين من  
أصابعهم ، فاذا نظرت الى وجوههم أثناء ذلك رأيت أنهم يشعرون بارتياح  
واضح • واذ كان السجناء لا يجبون البق أيضاً ، فقد كان يحلو لهم أن  
يطاردوه وأن يسحقوه أثناء سهرات الشتاء الكالحة الطويلة التي لا نهاية  
لطولها • ان كل شيء في قاعتنا كان يمكن - باستثناء الرائحة الكريهة -  
أن يبدو من الظاهر نظيفاً نظافة كافية • أما من الباطن فما كان ينبغي للمرء  
أن ينعم النظر ••• وكان المرضى يعدون ذلك أمراً طبيعياً لا غرابة فيه •  
ولم يكن النظام نفسه يحض على النظافة أو يلزم بها كثيراً على كل حال  
••• ولكنني سأعود الى الكلام عن هذا •

ما ان هياً لي تشيكونوف الشاي ( يجب أن أذكر مستطرداً أن ماء  
قاعتنا كان يؤتى به للنهار كله ، فسرعان ما كان يفسد بتأثير الهواء  
الفاسد ) حتى فتح الباب ، فاذا بالجندي الذي أنزلت فيه عقوبة الجلد

يدخل علينا بحراسة خفيرين اثنين • تلك أول مرة أرى فيها انساناً أنزلت فيه عقوبة الجلد منذ قليل •• ولكننى رأيت هذا المنظر مراراً بعد ذلك • كان يؤتى إلينا بالمجلودين حتى حين تكون عقوبتهم شديدة مسرفة فى الشدة • وكان هذا المنظر يسلى المرضى كثيراً فى كل مرة • كان هؤلاء الأشقياء يُستقبلون استقبالاً فيه من الوقار والجد والرصانة ما يختلف باختلاف أوضاعهم • وكان هذا الاستقبال يتوقف دائماً على خطورة الجريمة التى ارتكبتها المجلود ومن ثمّ على عدد الجلدات التى تلقاها • فأما السجناء الذين جلدوا أشد جلد واشتهروا بأنهم مجرمون عتاة فقد كانوا ينعمون باحترام واتباه لا ينعم بمثلهما شخص لم يرتكب من الذنوب الا الفرار من الجندية ، كصاحبنا هذا الذى أتى به الآن • ومهما يكن من أمر ، سواء فى هذه الحالة أو تلك ، لا يظهر السجناء كثيراً من العطف على المجلود أو من المشاركة فى ألمه ، لا ولا يقولون ملاحظات مثيرة أيضاً : انهم يعالجون المسكين فى صمت ، ويساعدونه على الشفاء ، ولا سيما اذا كان عاجزاً عن معالجة نفسه بنفسه • وكان الممرضون أنفسهم يعلمون أنهم يعهدون بهؤلاء المجلودين الى آيدٍ حاذقة متدربة • والمعالجة المعتادة هى الاكثار من وضع قميص أو قماش مبلل بالماء البارد على ظهر المجلود • وينبغى كذلك أن تُستخرج من الجروح ، بحذق ومهارة ، أليافُ العصى التى تكسرت على ظهره • وتلك عملية تؤلم الرجل ايلاماً شديداً • ما أشد ما اذهلتنى قوة الصبر التى كان يظهرها المجلودون فى احتمال آلامهم • لقد رأيت عدداً كبيراً من هؤلاء المجلودين ، وكان بينهم أناس جلدوا قاسياً رهيباً ، أوكد لكم ذلك •• فما أذكر أننى سمعت واحداً منهم يئن مرة • كل ما هنالك أن الرجل بعد مثل هذه العملية يتشوه وجهه ويصفر لونه وتلتصع عيناه وتزيع نظرتة وتختلج شفتاه اختلاجاً يبلغ من القوة أنه يعضهما فى بعض الأحيان عضاً شديداً

حتى تنزفا دما • كان الجندى الذى دخل علينا بعد جلده فى الثالثة والعشرين من العمر : انه قوى العضلات ، وسيم الطلعة ، حسن القامة ، فارغ الطول ، ملوَّح اللون بسمرة : كان ظهره العارى حتى الحصر قد ضرب ضرباً مبرحاً ، وهذا جسمه يرتجف من الحمى تحت القماش المبتل الذى غطى به ظهره • لقد ظل ما يقرب من ساعة ونصف ساعة لا يزيد على أن يسير فى القاعة طولاً وعرضاً • نظرت الى وجهه ، كان يبدو أنه لا يفكر فى شيء • ان فى عينيه تعبيراً غريباً متوحشاً متهرباً • لا تستقر نظراته على شيء الا فى كثير من العناء • خيَّل الىَّ أنه يحدِّق الى الشاى الغالى الذى أعده لى تشيكونوف • ان بخاراً ساخناً يتصاعد من الفنجان المألن : كان المسكين يرتعش وتصطك أسنانه ، فدعوته أن يشرب ، فالتفت نحوى كتلةً واحدة دون أن يقول شيئاً ، فتناول فنجان الشاى وأخذ يشربه واقفاً ، دون أن يضع فيه شيئاً من سكر • كان يحاول أن لا ينظر الىَّ • حتى اذا فرغ من احتساء الشاى ردَّ الفنجان الى مكانه صامتاً ، حتى دون أن يومىء لى بحركة من رأسه ، واستأنف طوافه فى القاعة طولاً وعرضاً : كان ألمه أشد من أن يخطر بباله أن يكلمنى أو يشكرنى ! أما السجباء فقد امتنعوا عن القاء أى سؤال عليه ، فانهم بعد أن وضعوا له كماداته لم يزيدوا على أن يتبهبأوا اليه • لعلمهم كانوا يقدِّرون أن الأفضل أن يدعوهم وشأنه ، وأن لا يضايقوه بأسئلتهم و « شفقتهم » • ولاح لى أن الجندى كان مرتاحاً الى قرارهم هذا راضياً عنه •

وكان الليل يهبط أثناء ذلك ، فأشعل المصباح • ان بعض المرضى يملكون شموعاً خاصة بهم ، غير أن هؤلاء قلة • وجاء الطيب يقوم بزيارة المساء ، ثم جاء صف الضابط فعدَّ المرضى وأغلق القاعة التى حُمِلت إليها قبل ذلك آنية للتبول والتغوط أثناء الليل ••• وعرفت مدهوشاً أن هذه



الآنية ستظل في القاعة طول الليل، مع أن المرحاض يقع على مسافة خطوتين من الباب. ولكن تلك هي العادة التي جرى عليها المستشفى. ففي النهار لا يسمح للسجناء بالخروج الا دقيقة واحدة في أكثر تقدير. أما في الليل فما ينبغي لأحد أن يفكر في الخروج البتة. ان المستشفى بالنسبة الى السجناء لا يشبه مستشفى عادياً: فالسجين المريض ينال فيه عقاب السجن رغم كل شيء. لا أدري من الذي وضع هذه السنة. ولكن الشيء الذي أعلمه حق العلم هو أن هذا الاجراء لا فائدة منه البتة، وان سخف التقيد بالشكليات لا يبدو واضحاً في أى مجال وضوحه في هذا المجال. ليس الأطباء هم الذين سنوا هذه القاعدة أو فرضوا هذه العادة. أعود فأقول ان السجناء كانوا لا يملون من كيل المديح لأطبائهم. انهم ينظرون الى أطبائهم نظرتهم الى آباء، وهم يحترمونهم أعظم الاحترام. كان هؤلاء الأطباء يعرفون دائماً كيف يقولون لهؤلاء المنبوذون كلمة طيبة تواسى قلوبهم، وكان السجناء يقدرون هذه الكلمة الطيبة تقديراً عظيماً لا سيما وأنهم يشعرون بكل ما فيها من صدق.

نعم، لقد كانت هذه الكلمات الطيبة صادقة حقاً؛ اذا ما من أحد كان يمكن أن يؤاخذ هؤلاء الأطباء اذا هم كانوا غلاظاً جفاة، واذا هم تخلوا في معاملتهم للسجناء عن الروح الانسانية: لقد كانوا يحسنون معاملة السجناء بدافع الروح الانسانية وحدها. كانوا يدركون ادراكاً تاماً أن حق السجن المريض في تنفس الهواء النقي لا يقل عن حق أى مريض آخر في ذلك، ولو كان هذا المريض الآخر شخصية عظيمة. كان الناقهون في القاعات الأخرى يجوز لهم أن يتجولوا أحراراً في الممرات، وأن يتروضوا وأن يتنفسوا هواءً أقل فساداً من هواء قاعتنا التي تملؤها العفونة نتيجةً لاغلاقها، والتي تملؤها روائح الغازات تخرج من الأجساد.

لا يمكن أن يتصور المرء ما هو أسوأ من الراححة المقززة التي تشيع في قاعتنا متى وضعت فيها الأنية المخصصة للتبول في الليل • وكلما تقدم الليل شعر المرء مزيداً من الشعور بعناء استنشاق الهواء ، نتيجة لاشتداد الحرارة وكثرة الحاجة الى التبول والتغوط لدى المصابين بأمراض معينة • لئن قلت ان السجين يظل يعاقب حتى أثناء مرضه ، فأننى لا أقول ذلك لأوهم بأن القانون لا يهدف الى غير العقوبة • والا كنت متجنباً ••• فما ينبغى ان يعاقب مريض • ولا بد اذن أن هناك ضرورة صارمة تفرض على الادارة اتخاذ اجراءات قاسية هذه القسوة • ولكن ما هي تلك الضرورة على وجه الدقة ؟ ان الشيء المزعج هو أن المرء لا يستطيع أن يتصور تعليلاً واضحاً • فيم هذه التدابير - وغيرها من التدابير أيضا - التي تتصف بحماقة كاملة وسخف تام ؟ هل يتصورون أن المعتقلين يتمارضون لا لشيء الا لتضليل الأطباء والتسلل ليلاً من المستشفى ومحاولة الهرب ؟ ان هذا الافتراض لا يصمد للاعتراض • فمن أين يستطيع المرضى أن يهربوا وبأى ثياب يهربون ؟ انه لا يسمح للمرضى أن يخرجوا في النهار الى المرحاض الا واحداً واحداً ، فلماذا لا يفعل هذا في الليل ؟ ان أمام الباب ، قرب المراحيض ، خفيراً مسلحاً من حقه أن يتبع المريض وأن لا يدع له أن يغيب عن بصره • أضف الى ذلك أن نافذة المراحيض لها طبقتان من القضبان الحديدية المربعة ، فمن أراد من السجناء أن يهرب منها فلا بد له أن يحطّم هاتين الطبقتين من القضبان • فأى سجين يستطيع ذلك ؟ هب سجيناً من السجناء استطاع أن يقتل الخفير دون أن ينتبه اليه أحد : فأنى له بعد ذلك أن يحطّم تينك الطبقتين من القضبان الحديدية ! ولنتذكر عدا ذلك أن الحرس ينامون على مسافة قريبة جداً من قاعة السجناء ، وأن أمام القاعة الأخرى خفيراً مسلحاً آخر ، مع رديفه ، أفليس هذا العدد كله من المراقبين كافياً

اذن ؟ والى أين عسى يذهب فى جو الشتاء البارد بجوربين وخفين ومبذل وطاقية من قطن ؟ فاذا كان احتمال الهرب ضعيفاً الى هذه الدرجة كما ترون فلماذا هذه القسوة كلها فى معاملة المرضى مع انهم أحوج الى الهواء النقى من الأصحاء ؟ لماذا ؟ اننى لم أستطع أن أفهم هذا الأمر يوماً •

ولكن ما دمت بصدد القاء هذا السؤال : لماذا ؟ فاننى لا أستطيع أن أمتنع عن الاشارة الى مسألة أخرى لم أجد لها حلاً فى يوم من الأيام ، ألا وهى مسألة السلاسل التى لا يعفى منها أى سجين من السجناء مهما يكن مرضه خطيراً • ان المصدرين أنفسهم قد ماتوا أمام بصرى وسيقانهم مكبله بالأغلال • لقد ألفت جميع الناس هذا الأمر فهم يعدونه أمراً طبيعياً لا جدال فيه • وأحسب أنه ما من أحد ، حتى ولا الأطباء ، قد خطر بباله أن يطالب باعفاء السجناء المصابين بأمراض خطيرة أو السجناء المصدرين على الأقل من عناء حمل السلاسل فى أقدامهم • الحق أن السلاسل لم تكن مفرطة فى الثقل ، فان وزنها يتراوح على وجه العموم بين ثمانية أرطال واثنى عشر رطلاً • وذلك ثقل يمكن أن يحتمله انسان صحيح الجسم • ومع هذا قيل لى ان سيقان السجناء تضمر وتهلك بعد حمل الأغلال عدداً من السنين ، ولست أدرى أهذه حقيقة أم لا ، ولكننى أميل الى الاعتقاد بأنها حقيقة ، فان حملاً من الأحمال ، مهما يكن صغيراً ، ولو كان لا يتعدى عشر أرطال ، لا بد له ، اذا هو نُبِتَ فى الساق الى الأبد ، من أن يزيد ثقل العضو زيادة غير طبيعية ، ولا بد بعد زمن من أن يكون له تأثير ضار فى نمو هذا العضو ••• ولنسلم مع ذلك بأن هذا ليس شيئاً ذا بال بالنسبة الى سجين صحيح معافى ، فهل هو كذلك بالنسبة الى مريض ؟ ان أيسر قشة هى بالنسبة الى المصابين بأمراض خطيرة ، كالمصدرين الذين تصوِّح أيديهم وأرجلهم من تلقاء نفسها ، لهى حمل لا يطاق • لذلك أعتقد أن الادارة

الطية تحسن احسانا كبيرا اذا هي طلبت بحل القيود عن أرجل  
المصدورين • فان قيل ان السجناء اناس مجرمون لا يستحقون الشفقة ،  
قلت فهل يجب أن نضاعف العذاب لمن سبقت يد الله الى تعذيبه بالمرض ؟  
ان المرء لا يستطيع أن يصدق أن الغاية من مضاعفة العذاب هي معاقبة  
السجين • ان المصدورين تعفيهم المحكمة من العقوبات الجسدية • لذلك  
فانا لا أفهم تلك الحكمة الخافية العجيبة الهامة التي تملى ابقاء الاغلال  
فى أرجل المصدورين • أن المرء لا يصدق ولا يمكن أن يصدق أن  
المصدور قد يهرب من المستشفى • من ذا الذى يمكن أن تخطر بباله  
هذه الفكرة ، ولا سيما اذا كان المرض قد بلغ درجة معينة ؟ ومن المستحيل  
تضليل الأطباء وايهامهم بأن سجيننا من السجناء الاصحاء رجل مصاب  
بالسل ، فالسل مرض يعرف من أول نظرة • ثم - ولنقل هذا ما دامت  
فرصة الهرب قد تعرض - هل تستطيع القيود أن تمنع السجين من  
الهرب ؟ أبداً ••• ان الأغلال اذلال واهانة وعار يجعل به السجين ، هي  
عبء جسمى وروحى - أو ذلك ما يقدره الناس على الأقل - ولكنها  
لا يمكن أن تعوق أحداً عن الهروب • ان أقل السجناء حذقاً وأقلهم  
ذكاءً يستطيع أن ينشرها بمنشار أو أن يحطم حلقاتها بصخرة فى غير  
عناء • فالقيود اذن احتراس لا فائدة له ولا جدوى منه ، فاذا كان السجناء  
يكبلون بها من باب المعاقبة لهم على جرائمهم أفليس من الواجب أن يعفى  
من هذا العقاب انسان يحتضر ؟

ان صورة رجل محتضر تبرز الآن فى ذاكرتى وأنا أكتب هذه  
السطور • انه رجل مصدور ، هو ميخائيلوف نفسه الذى كان يرقد أمام  
سريرى تقريباً ، غير بعيد من أوستياتسف ، والذى مات بعد وصولى  
الى المستشفى بأربعة أيام فيما أظن • اننى حين تكلمت منذ قليل عن  
المصدورين لم أزد على أن صورت الاحساسات وعبرت عن الخواطر التى

غزت نفسى عند موته • هو فى الخامسة والعشرين من العمر على أكثر تقدير ، قصير القامة نحيل الجسم جميل الوجه جدا • لقد كان يتمى الى « القسم الخاص » ، ويتميز بانه صموت لا يكاد ينطق بكلمة ، ولكنه كان عذب الطبع دمث الخلق حزين النفس : لكأنه قد « ذوى » فى السجن على حد تعبير السجناء الذين حملوا له أجمل ذكرى • أذكر أنه كانت له عينان جميلتان جداً ، ولا أدرى لماذا أنذكر هذا الأمر تذكراً واضحاً هذا الوضوح كله • لقد مات فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، فى يوم مضى جاف • كانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة المواربة من خلال زجاج النوافذ الضارب لونه الى خضرة ، والمتجلد من شدة البرد : ان سيلاً من الضياء كان يغمر هذا البائس الذى غاب عنه شعوره وظل يحتضر عدة ساعات • لقد اضطربت عيناه منذ الصباح فأصبح لا يتعرف على من يقتربون منه • تمنى السجناء لو يخفون عنه ، لأنهم لاحظوا أنه كان يتألم كثيراً • كان تنفسه شاقاً عميقاً مبجوحاً ، وكان صدره يعلو بقوة وعنف كأنما يعوزه الهواء • نضا عنه فى أول الأمر غطاءه وثيابه ورماها بعيدا عنه ثم أخذ يمزق قميصه كأنه حمل ثقيل لا يطاق • نزع عنه القميص • ما كان أشد الارتياح الذى يشعر به المرء حين يرى هذا الجسم الطويل طويلاً خارقاً ، وهاتين اليدين والساقين التى تشبه أن تكون عظماً لا يكسوها لحم ، وذلك البطن الضامر وذلك الصدر النائم الذى تظهر أضلاعه ظهوراً واضحاً كأضلاع هيكل عظمى • لم يبق على هذا الهيكل العظمى الا صليب وكيس صغير ، والا السلاسل التى كان يمكن أن تملص منها ساقاه الداويتان بغير صعوبة • هدأت الضجة فى قاعتنا قبل موته بربع ساعة • أصبح السجناء لا يتكلمون الا همساً ، ولا يسيرون الا على رءوس الأصابع فى كثير من المحاذرة • انهم يتبادلون الكلام بين الفينة والفينة فى مواضع أخرى، ويختلسون النظر الى المحتضر من حين

الى حين • كان المحتضر يحشرج حشرجة ما تنفك تزداد صعوبة ومشقة •  
وها هو ذا أخيراً يتلمس صليبه على صدره بيد مرتعشة متعثرة ، ويحاول  
انتزاعه : كان الصليب يثقل هو نفسه على صدره ويخنقه خنقاً • نزعوا  
عن صدره الصليب • ومات الرجل بعد ذلك بعشر دقائق • وعندئذ قرع  
بعض السجناء الباب من أجل أن يبلغوا الخفير موته • فدخل أحد  
الحرس وألقى على المتوفى نظرة مرتاعة ثم مضى يستدعى الممرض • ان  
الممرض فتى طيب القلب ، لعله مسرف فى الاهتمام بمظهره ، ولكنه دمت  
الطبع على كل حال • وصل الممرض بعد قليل • اقترب من الجثمان  
بخطى كبيرة ، فأحدثت خطاه ضجة فى القاعة الخرساء • وأخذ يجس  
نبض المتوفى وهو يصطنع نوعاً من قلة الاكتراث يوجب الموقف فى  
نظره • ثم حرك يده بإشارة غامضة مبهمة وخرج • أبلغ مركز الحرس  
وفاة السجين ، ذلك أن ميخائيلوف سجين ذو خطر ( انه ينتمى الى القسم  
الخاص ) ، لذلك كان لا بد لاثبات وفاته من التقييد بقواعد خاصة والتزام  
اجراءات معينة • وفيما كنا نتظر دخول العريف قال أحد السجناء بصوت  
خافت ان من المستحسن انغماض عيني المتوفى • وسمع سجين آخر هذه  
النصيحة فاقرب من ميخائيلوف صامتاً وأغمض له عينيه ؛ فلما لمح على  
الوسادة الصليب الذى كان قد نزع عن عنق ميخائيلوف تناوله فنظر اليه  
ثم أعاده الى مكانه من عنقه • وكان وجه الميت يتخشب أثناء ذلك • ان  
شعاعاً من ضياء ساطع يتراقص الآن على هذا الوجه وينير منه صفيين من  
أسنان بيضاء فتيّة تتلألأ بين الشفتين النجبلتين الملتصقتين باللثتين من الفم  
المشقوق • ووصل صف الضابط أخيراً شاكى السلاح واضعاً خوذته على  
رأسه مصطحباً جنديين • اقترب من ميخائيلوف متأقلاً الخطى مضطرب  
المشية ، وتفرس بطرف عينيه فى هؤلاء السجناء الصامتين الذين كانوا  
ينظرون اليه وقد أظلمت وجوههم ؛ حتى اذا صار على بعد خطوة من

الميت وقف فجأة كأن ألاماً مفاجئاً قد سمّره فى مكانه تسميراً • ان هذا  
 الجسد العارى اليابس الثقيل بالسلاسل قد أثر فى نفسه : فها هو ذا  
 يحمل نطاقه ويرفع خوذته ( وذلك أمر لم يكن فى حاجة الى فعله  
 البتة ) ويرسم اشارة الصليب • انه رجل قاسى الوجه أشيب الشعر له  
 رأس جندى خدم فى الجيش زمناً طويلاً • أتذكر الآن أن قد كان الى  
 جانبه تشيكونوف الذى كان هو أيضاً شيخاً أشيب الشعر • كان تشيكونوف  
 ينظر الى العريف طول الوقت ويتابع ببصره حركاته منتبهاً اليها اتبهاً  
 شديداً عجبياً • التقت نظرتا الرجلين ، ورأيت شفة تشيكونوف السفلى  
 ترتجف • عض تشيكونوف على شفته السفلى، وكزّ أسنانه وقال للعريف  
 فيما يشبه المصادفة وهو يومئ برأسه الى الميت :

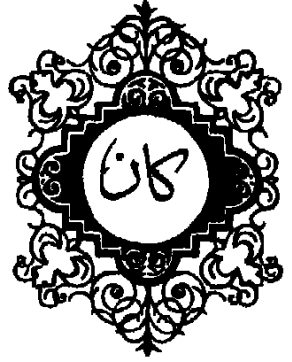
— كان له هو أيضاً أم •••

نفذت هذه الكلمات فى قلبى ••• لماذا قالها وكيف خطرت بباله  
 هذه الفكرة ؟

أنهض الجثمان مع الفراش • خشخش القش، وانفجرت السلاسل  
 على الأرض ترن رنيناً واضحاً ••• فرُفت وأخرج ميخائيلوفتش من  
 القاعة • وفجأة أخذ الجميع يتكلمون بصوت عالٍ • وسمع صوت  
 العريف الذى أصبح فى المر ، سُمع صوته أيضاً يأمر أحدهم صائحاً  
 باحضار الحداد • كان يجب فلك الأغلال عن ساقى الميت •••

ولكننى استطردت خارج الموضوع •••

## المستشفى تمه



الأطباء يزورون القاعات في الصباح ، فهم  
يظهرون في نحو الساعة الحادية عشرة موكباً  
واحداً يتقدمه رئيسهم ، وقبل وصولهم  
بساعة ونصف ساعة يكون الطيب المولج بقاعتنا قد قام بجولته • انه شاب  
جم اللطف دائم المرح كان السجناء يحبونه كثيراً وكان يتقن فه اتقاناً  
عظيماً • ان السجناء لا يرون فيه الا عيباً واحداً هو أنه « مسرف في  
الرقه » • والواقع أنه كان قليل الكلام ، حتى يبدو عليه أنه يشعر أماننا  
بشيء من الخجل والاضطراب ، ولقد يحمر وجهه أحياناً • وهو يأمر  
بزيادة مقدار الطعام متى طالب المرضى بذلك ، وأحسب أنه كان مستعداً  
لأن يصف للمرضى الأدوية التي يرغبون فيها : انه انسان رائع على كل  
حال • ان كثيراً من الأطباء في روسيا ينعمون بحب الشعب لهم واحترامه  
اياهم ، وهم يستحقون هذا الحب وهذا الاحترام ، في حدود ما أتيج لي  
أن ألاحظ ذلك • أنا أعلم أن كلامي هذا قد يبدو مفارقاً ، لا سيما اذا  
تذكرنا ما يشعر به هذا الشعب نفسه من شك في الطب وارتياب في



العقاير الأجنبية • فالحق أن أفراد الشعب ، حتى حين يعانون مرضاً خطيراً ، يظلون يؤثرون خلال سنين عدة أن يتجهوا الى ساحرة أو أن يستعملوا أدوية تصفها لهم امرأة عجوز ( وهي أدوية ما ينبغي احتقارها على كل حال ) على أن يستشيروا طبيباً أو أن يذهبوا الى المستشفى • غير أن علينا ، والحق يقال ، أن نعزو هذا التخوف الى سبب عميق لا شان له البتة بالطب ، ألا وهو شك الشعب في كل ما يتصف بطابع حكومي رسمي • وما ينبغي أن ننسى أيضاً أن الشعب يخشى ويحاذر المستشفيات بسبب ما يسمع من أقاصيص عجيبة عن الأحوال الرهيبة التي يروى أنها تجرى في المستشفيات ( وهذه الاقاصيص تقوم مع ذلك على أساس من صحة ) • غير أن الشيء الذي يكرهه شعبنا أكثر ما يكره انما هو العادات الألمانية الشائعة في المستشفيات ، وتصوره أن أناساً أجانب هم الذين يعالجون المريض في المستشفى ، وتخيله قسوة الحمية التي ستفرض عليه ، وأخيراً ما يُروى له من حكايات عن فظاظة المرضين والأطباء ، وعن بتر الأعضاء وتشريح جثث الموتى وما الى ذلك • ثم ان الطبقة الدنيا من الشعب تقول لنفسها ان أناساً من طبقة السادة هم الذين سيعالجونهم ( ذلك أن الاطباء ينتمون في نظرهم الى طبقة السادة مهما يكن من أمرهم ) • حتى اذا عرفوا هؤلاء الأطباء ( وهناك استثناءات طبعاً لكنها نادرة ) تبذرت جميع المخاوف : فالى أطبائنا انما يجب أن ننسب هذا النجاح ، والى الشباب منهم خاصة ، لأن أكثرهم يعرف كيف ينال من الشعب احترامه وحبّه • واذا قلت ذلك فانما أنا أتكلم ، على الأقل ، عما رأيته وشعرت به مرات كثيرة ، في أماكن شتى ، ولست أحسب أن الأمور تجرى على غير ذلك في أماكن أخرى • صحيح أن الأطباء في بعض المناطق النائية يتناولون الرشوات ويستغلون مستشفياتهم ويهملون مرضاهم ، بل كثيراً ما ينسون فنههم نسياناً تاماً • ان ذلك ما يزال يحدث ،

ولكننى انما أتحدث عن الأكتريه التى تحركها روح كريمه تحيى فن  
الطب فى بلادنا الان • أما المارقون ، أما الذئاب الذين يرتعون فى حظائر  
الحملان ، فانهم مهما يتعللوا بالأعذار الواهية ومهما ينسبوا الدنب الى  
«البيئه» التى تحيط بهم مدعين أنها قد أفسدتهم ، فانهم لايمكن أن تغفر  
لهم خطاياهم ، ولا سيما اذا افتقدوا كل روح انسانية ، فان هذه الروح  
الانساويه وهذا العطف الاخوى على المريض وهذه المحبة له هى خير  
دواء يمكن ان يغفل فيه وأن يحسن اليه • لقد آن لنا أن نكف عن  
الشكوى من البيئه زاعمين انها هى التى أفسدتنا • قد يكون فى هذه  
الشكوى شىء من صدق ، ولكن الأوغاد المكره الذين يعرفون كيف  
يلجون ويخرجون لا يعجزون عن اتهام البيئه التى يعيشون فيها تسويغاً  
لخطاياهم ، ولا سيما اذا كانوا ممن يحسنون استعمال القلم أو اللسان  
فى فصاحة وبلاغة • هأنذا ابتعدت عن موضوعى مرة أخرى : كنت أود  
أن أكتفى بالقول ان عامة الشعب لا يشعرون بالشك والحذر والكره  
نحو الأطباء أنفسهم بل نحو الادارات الطبيه ؛ حتى اذا رأوا الأطباء  
أثناء قيامهم بعملهم تبدد كثير من أوامهم • ان ادارة مستشفياتنا ليست  
على اتفاق وانسجام مع روح شعبنا ، بل قل انها تناقض عاداته • • ولن  
تستطيع ما بقى الأمر كذلك أن تفوز بثقة الشعب ولا باحترامه • ذلك  
على الأقل ما أستطيع أن أستخلصه من مشاعرى الشخصية •

كان طبيينا يقف عادةً أمام سرير كل مريض ، فيسأله بكثير من  
الجد والاهتمام والانتباه ، ثم يصف له الأدوية التى يجب أن يتجرعها  
والحمية التى يجب أن يتبعها • وكان يلاحظ فى بعض الاحيان أنه رب  
مدعٍ مرضاً ما هو بالمريض البتة ، وانما هو سجين جاء يرتاح من الأشغال  
الشاقة ، وينام على سرير فى غرفة مدفأة ، سرير أفضل من المضاجع التى  
تتألف من ألواح خشبية عارية فى ثكنة رطبة تتكدس فيها كتلة كبيرة من

سجناء صفر الوجوه محطمي الأجسام ( يجب أن نذكر أن الأشقياء المعتقلين في روسيا اعتقالاتاً احتياطياً يكادون يكونون دائماً صفر الوجوه محطمي الأجسام ، وذلك دليل على أن العناية الجسمية والنفسية بهم أدعى إلى الرثاء وأبعث على الاشفاق من العناية بأولئك الذين صدرت في حقهم أحكام القضاء ) • لذلك كان طيبينا يسجل على بطاقة التمارض أنه مصاب « بالتهاب في أغشية المعدة » ويأذن له أحياناً بالبقاء في المستشفى أسبوعاً • وكان الجميع يسخرون من «التهاب الأغشية» هذا ، لأنهم كانوا يعلمون حق العلم أن هذه العبارة تعنى تواطؤاً مضمراً بين الطبيب والمريض على أن المرض تمارض وأنه « مفص كاذب » على حد تعبير السجناء الذين كانوا يترجمون عبارة « التهاب الأغشية » هذه الترجمة ؛ بل كثيراً ما كان التمارض يستغل شفقة الطبيب ليقى في المستشفى إلى أن يتم اخراجه عنوة • فياليتكم ترون طيبينا عندئذ ! كان الطبيب يخجل من عناد المريض ، فلا يعزم أمره على أن يعلن له صراحةً أنه قد شفى ، وعلى أن ينصحه بطلب بطاقة الخروج ، رغم أن من حقه أن يخرج به بغير تعليل البتة ، مسجلاً على ورقته باللاتينية : « عوفى » ، وإنما كان يلمح له أولاً إلى أنه قد آن له أن يترك قاعة المرضى ، ويرجوه ملحاً بقوله : « عليك أن تصرف يا صاحبي ، فقد شفيت الآن ، والسرر غير كافية ، والقاعة في ضيق ، الخ ••• » ، إلى أن يشعر السجناء بشيء من الحجل ، فيطلب أخيراً أن يخرج • ولم يكن هذا شأن رئيس الأطباء ، فإنه رغم ما كان يمتاز به من رحمة ورأفة وشرف واستقامة ( ولقد كان جميع المرضى يحبونه أيضاً ) كان أقسى كثيراً وأحزم كثيراً من طيبينا المختص بقاعتنا ؛ حتى لقد كان في بعض الأحوال يظهر قسوةً كبيرةً تجتذب له احترام السجناء • كان يصل إلى قاعتنا مصطحباً جميع أطباء المستشفى بعد أن يكون الطبيب الذي يعمل برئاسته قد قام بجولته ، فيقوم بتشخيص كل

حالة على حدة • وكان يطيل الوقوف على المصابين بأمراض خطيرة ،  
ويعرف كيف يقول لهم كلمة طيبة مشجعة تشد ازهرهم وتثبت جنانهم  
وتترك في نفوسهم أجمل الاثر • وكان لا يطرد السجناء الذين يصلون  
الى المستشفى « بمنص كاذب » ، ولكن اذا أصرت أحدهم على البقاء في  
المستشفى سجل على بطاقته أنه قادر على الخروج ، وقال له : « هلم  
يا رفيق ! لقد أصبت خطأ من راحة ، فامض الان ، وليس يحسن بك ان  
تبالغ ! • • • » • والسجناء الذين كانوا يصرون على البقاء في عناد ، انما  
هم أولئك الذين ضاقوا بالأشغال الشاقة ولا سيما أثناء الحر الشديد في  
فصل الصيف ، أو أولئك الذين حكم عليهم بالجلد فهم ينتظرون ان  
يجلدوا • اذكر ان الأطباء قد اضطروا الى قسوة خاصة لطردهم واحد من  
هنؤلاء • كان قد جاء الى المستشفى لمداواة مرض في عينه اللتين كانتا  
محمرتين احمرارا شديدا ، وكان يقول انه يشعر بالحمى كالم حاد في  
أجفانه • وقد عولج الرجل بطرق شتى ؛ استعملت في مداواته كمادات  
ولبائخ وعلقات وقطرات ومحاليل وغير ذلك ، ولكن شيئا من هذا كله لم  
ينفعه ، فما زال العضو المريض على حاله نفسها لم يتغير • وأدرك الأطباء  
أخيراً أن المرض تمارض ، فان الالتهاب لم يتفاقم ولا تمائل للشفاء ،  
فالحالة اذن مشبوهة • وكان المرضى يعرفون منذ زمن طويل أن المريض  
كان يمثل تمثيلية هزلية ، وأنه يخادع الأطباء رغم أنه لم يشأ أن يعترف  
بذلك • انه شاب قوى البنية حسن الهيئة ، ولكنه أحدث في نفوس جميع  
رفاقه شعوراً بعدم الارتياح • كان شديد التخفي كثير الحذر قائم المزاج  
لا ينظر الا من تحت ولا يكلم أحداً ويظل مبتعداً عنا كأنه يشك فينا  
جميعاً • وانى لأذكر أن كثيراً منا كانوا يخشون أن يقوم هذا الشاب  
بعمل عنيف • كان وهو جندي قد امتدت يده الى سرقة ضخمة ، فحكم  
عليه بأن يضرب بالعصا ألف ضربة ، وبأن ينقل بعد ذلك الى فرقة

تأديبية • وقد سبق أن قلت ان السجناء يقررون أحياناً فى سبيل تأخير لحظة العقاب ، أن يقوموا بأعمال رهيبة ، فاذا بأحدهم يعمد خنجراً فى بطن رئيس أو رفيق ، قبل موعد تنفيذ العقوبة بيوم ، من اجل ان تعاد محاكمته ، فيتأخر تنفيذ العقوبة بذلك شهراً أو شهرين ، فيحققون غايتهم ، لا يعينهم أن يتضاعف الحكم عليهم مثنى أو ثلاث فى ختام هذين الشهرين ، فانما هم يتغنون ارجاء اللحظة الرهيبة الى حين ، مهما يكلفهم ذلك ، فالى هذه الدرجة تعوزهم الشجاعة اللازمة لمواجهة تلك اللحظة الرهيبة !

ارتأى عدد من المرضى أن يراقب القادم الجديد ، لانه قد يعمد الى قتل احد اثناء الليل من فرط يأسه • ولكنهم اكتفوا مع ذلك بالاقوال ، فلم يحترس أحد أى احتراس ، حتى ولا أولئك الذين كانوا ينامون الى جانبه • غير أنهم لاحظوا أنه كان يحك عينه ليلاً بكلس الحائط وبشيء آخر أيضاً حتى تبدوا حمراوين حين يجيء الطيب • وأخيراً أئذره رئيس الأطباء بأنه سيستعمل فى مداواته طريقة الخرم • لقد كان الأطباء حين يستعصى مرض من أمراض العينين على أى وسيلة من الوسائل العلمية ، يعمدون الى استعمال الخرم ، تماماً كما تستعمل هذه الطريقة فى علاج الخيل • ولكن الفتى أصرّ على أن لا يشفى • فاما أنه كان عنيداً شديد العناد واما انه كان جبائلاً شديد الجبن • والخرم مهما يكن أليماً ، فستان بينه وبين الجلد على كل حال • ويتم الخرم كما يلى : يمسك جلد المريض من مكان قرب العنق ، ويشد الى وراء ما أمكن الشد ، ويحدث فيه شق مزدوج عريض طويل ، وتدس فى الشق فتيلة من قطن بشخن اصبع ، وتشد هذه الفتيلة فى ساعة معينة كل يوم الى أمام والى وراء كأنما ليشق الجلد من جديد حتى يظل الجرح متقيحاً فما يلتئم قط • تحمل المسكين هذا العذاب الذى سبب له آلاماً

رهية خلال عدة أيام • ثم قرر أخيراً أن يطلب الخروج من المستشفى •  
فما هو الا يوم أو بعض يوم حتى شفيت عيابه شفاء تاماً ، فلما التأم جرح  
عنقه ارسل الى السجن ، فغادره مع الغد لتنفيذ فيه عقوبه ضربه بالعصا  
ألف ضربة •

ما أشق تلك الدقيقة التي تسبق تنفيذ العقوبة ! لعلى كنت مخطئاً  
حين وصفت الخوف الذي يشعر به السجناء بأنه جبن • لا بد ان يكون  
هذا الخوف رهيباً حتى يقرر السجناء أن يجازفوا ويضاعفوه منى وثلاث  
لا لشيء الا أن يرجئوه • وقد تحدثت مع ذلك عن سجناء كانوا يطلبون  
ترك المستشفى من تلقاء أنفسهم قبل ان تلثم الجروح الناشئة عن الضربات  
الاولى التي نالوها ، وذلك في سبيل ان يوقع فيهم باى العقوبة وان يضربوا  
الضربات الأخيرة فيتخلصوا من حالة الاعتقال التي هم فيها ، ذلك أن  
الحياة في مقر الحرس أسوأ من أية أشغال شاقة ولا شك • ثم ان اعتياد  
تحمل الجلد وتلقى العقوبة يساهم أيضاً في خلق ما نراه لدى بعض  
السجناء من شجاعة وثبات • فالذين جلدوا مراراً كثيرة تقسو ظهورهم  
ونفوسهم ، فاذا هم آخر الأمر ينظرون الى العقوبة على أنها انزعاج عابر ،  
واذا هم لا يخشون بعد ذلك شيئاً • لقد حدثنى أحد سجناء القسم  
الخاص ، وهو كلكموى متنصر اسمه الكسندر أو الكسندرين كما كان  
السجناء يسمونه في السجن ( هو فتى قوى الجسم غريب الأطوار ،  
شديد المكر كأنه الشيطان دهاءً ، شجاع رابط الجأش نبت الجنان ،  
لكنه مع ذلك طيب القلب ) حدثنى كيف أنزلت فيه العقوبة فتحمل أربعة  
آلاف جلدة • كان لا يتكلم عن هذه العقوبة الا ضاحكاً مازحاً ، ولكنه  
حلف لى جاداً كل الجد أنه لو لم يكن قد نشباً في قبيلته على ضربات  
السوط منذ نعومة أظفاره - ولقد كانت الندبات التي تغطي ظهره ولم  
يمكن أن تزول تشهد بصدق ما يقول - اذن لما استطاع أبداً أن يحتمل

هذه الأربعة آلاف جلدة • فهو لذلك يبارك تلك التربية التي أخذ بها  
 منذ طفولته فعلمته تحمل فرعت السوط • قال لى ذات مساء بينما كنا  
 جالسين على مضجعى أمام النار : « كنت أضرب لايسر سبب يا ألكسندر  
 بتروفتشس ! ولقد ضربت بغير سبب البتة خلال خمسة عشر عاماً عدة  
 مرات فى اليوم : كان يضربنى من شاء أن يضربنى ، فتعودت السوط  
 وألفته تماماً • » لا أذكر الآن ما هى المصادفة التي جعلته جندياً ( ولعله  
 كان يكذب ، فلقد كان رجلاً أفاقاً متشرداً ، ولكننى أذكر القصة التي  
 رواها لنا ذات يوم عن الفزع الذي انتابه حين حكم بجلده أربعة آلاف  
 جلدة لأنه قتل رئيسه ، قال : « كنت أقدرّ طبعاً أننى سأعاقب عقاباً  
 قاسياً ، وكنت أقول لنفسى : مهما أكن قد تعودت السوط ، فربما فطست  
 فى مكائى ••• هى أربعة آلاف جلدة ••• ما ذلك بمزاح ••• ثم ان  
 جميع رؤسائى كانوا حاقدين علىّ حقداً شديداً بسبب تلك القصة •••  
 كنت أعلم أن الأمور لن تجرى هينة لينة ••• بل كنت أعتقد أننى  
 سأموت تحت السياط ••• حاولت أولاً أن أعتنق النصرانية قائلاً لنفسى :  
 قد يدفعهم ذلك الى أن يغفروا ، فلنرّ ما عسى يكون ••• وكان رفاقى  
 قد نبهونى قبل ذلك الى أن هذا لن ينفعى فى شيء ، لكننى قلت لنفسى :  
 « من يدرى ؟ فقد يغفرون لى ! لا بد أن رأفتهم بنصرانى أكبر من رأفتهم  
 بغيره • عمّدونى ، وأسمونى الكسندر ، ولكن هذا لم يعفنى من العقوبة  
 ••• ما أظن أنهم كانوا سينقصون عددها ضربة واحدة • أغاظنى ذلك •  
 فقلت لنفسى : « انظروا ••• لأعرفن كيف أخدعكم وأضحك عليكم ! »  
 فهل تصدق يا ألكسندر بتروفتشس ؟ لقد خدعتهم وضحكت عليهم حقاً !  
 كنت أتقن التظاهر بالموت ••• لا أقصد أننى أستطيع أن أظهر بمظهر  
 من مات تماماً ، بل بمظهر من يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه حتماً !  
 أخذونى الى أمام الكتيبة ، فضربونى بالضربات الألف الأولى • حرقنى

الضرب حرقاً • أخذت أعول • ضربوني الضربات الألف الثانية • قلت  
لنفسى : « أذفت نهايتى » • كانوا قد أفقدوني وعيى ، وكانت ساقاى  
كالمنكسرتين ••• كراك ••• هأنذا أسقط على الأرض وعيناي كعيني  
ميت ، وجهى أزرق تماماً ، فمى ممتلىء زبدآ • أصبحت لا أتنفس •  
وصل الطبيب وقال اننى سأموت • حملونى الى المستشفى • صحوت فورآ •

ضربونى بعد ذلك مرتين • ما أكثر ما كانوا غاضبين ! ما أشد  
ما كانوا حائقين ! ومع ذلك استطعت أن أخدعهم فى تينك المرتين  
الأخريين : ضربونى الضربات الألف الثالثة ، ففطست من جديد •  
ولكننى أقسم لك أن كل ضربة من الضربات الألف الثالثة كانت كسلاث  
ضربات ، كانت كسكين تخترق قلبى •• أوف •• ما أكثر ما ضربونى !  
كانوا متحمسين فى ضربى أشد الحماسة • يا لتلك الألف الأخيرة ما كان  
أفطعها ! انها تساوى الآلاف الثلاثة الأولى مجتمعة • فلولا أننى تظاهرت  
بالموت حين بقى منها مائتان ، اذن لأجهزوا علىّ فيما أعتقد • ولكننى لم  
أتهالك بل خدعتهم مرةً أخرى متظاهراً بالموت : ظنوا مرةً أخرى أننى  
أوشك أن ألفظ أنفاسى الأخيرة ؛ وهل كان فى وسعهم أن لا يظنوا  
ذلك ؟ ان الطبيب نفسه كان موقناً أننى مشرف على الهلاك • ولكن بعد  
ذلك ، حين أنزلوا بى المائتى ضربة الباقية لم أكثرث ولم أعبأ ، رغم أنهم  
استعملوا كل ما أوتوا من قوة حتى لكأنها ألفان • لم أحفل اذن بضرباتهم ،  
ولم يستطيعوا أن يقضوا علىّ • لماذا ؟ لأننى نشأت وترعرعت على ضربات  
السياط • هذا هو السبب فى أننى ما زلت حياً ! « آه •• لظالما ضربت  
فى حياتى ! » • كذلك ردد ألكسندر يقول واجماً مطرقاً حين أنهى  
قصته • وكان يبدو فى وجهه أنه يتذكر ويعد الضربات التى تلقاها ! ثم  
أضاف يقول بعد صمت : « لا ••• انها لا تعد ••• لا تكفى الأرقام  
لعدّها واحصائها ! » • قال ذلك ثم نظر الىّ ومضى عنى وهو ينفجر فى



صحكة تبلغ من الطيبة اننى لم املك الا ان اجيبه عليها بابتسامه • « هل تعلم يا الكسندر بتروفتش ؟ انا ان حلمت فى الليل فانما احلم باننى ا ضرب ، ولا احلم بغير ذلك » • كذلك قال • والواقع ان الكسندر كان يتكلم اثناء نومه ، ويعول ملء حلقه ، فيبلغ من شدة الاعوال أنه يوقظ السجناء من نومهم ، فيصيحون قائلين له : « ما هذا الزعيق يا سيطان ؟ » • ان هذا الرجل القوى البنية ، القصير القامة ، البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً ، الخفيف الحركة ، المرح المزاج ، كان على تفاهم مع جميع السجناء ، رغم أنه كان يحب أن تمتد يده الى كل ما ليس له ، ورغم أنه ضُرب بسبب ذلك مراراً • ولكن من ذا الذى كان بين هؤلاء السجناء لا يسرق ، ومن ذا الذى لم يُضرب بسبب سرقاته ؟

يجب أن أضيف الى هذه الملاحظات اننى كنت أظل مذهولاً من البساطة العجيبة والطيبة الخارقة ومن فقدان الحقد لدى هؤلاء الأشقياء حين يتحدثون عن عقوباتهم وعن الرؤساء المكلفين بانزالها فيهم • ان المرء الذى يسمع ما يقصونه عن هذه العقوبات التى كان الحديث عنها كثيراً ما يجعل قلبى يخفق خفقاناً شديداً ، لا يلاحظ عند روايتها ظلاً من كره أو أثراً من حقد ؟ حتى لقد كانوا يضحكون من أعماق قلوبهم حين يروونها ، كما يضحك الأطفال • غير أن هذه الحالة لم تكن حالة ••• كى \* حين حدثنى عن العقوبة التى أنزلت فيه • لقد جلد هذا الرجل ( وليس هو من طبقة النبلاء ) خمسمائة جلدة • ولم يحدثنى عن هذا الأمر يوماً • فلما سألته هل صحيح أنه جلد ، أجاب موجزاً بأن ذلك صحيح ، دون أن ينظر الىّ ، وقد احمر وجهه وبدا أنه يعانى ألماً نفسياً شديداً ، حتى اذا رفع عينيه رأيت فيهما شعلة من حقد ، وكانت شفاته ترتعشان من فرط الاستياء • أحسست أنه لن ينسى هذه الصفحة من حياته وأنه لن يستطيع أن ينساها فى يوم من الأيام • ولا

كذلك رفاقنا الاخر ( لست أضمن انه ليس بينهم استثناءات ) ، فانهم كانوا ينظرون الى هذه المغامرة التي مروا بها نظرة مخلخلة عن هذه النظرة كل الاخلاف . كنت أقول لنفسي احيانا : « انه ليستحيل أن يشعروا بعدالة قصاصهم ، ولا سيما حين لا يكونون قد اجرموا في حق رفاقهم بل في حق رؤسائهم » . وكان اكرهم لا يعترفون بانهم اجرموا قط . وقد سبق ان قلت اني لم الاحظ فيهم ايه ندامه ولم الاحظ انهم يعانون شيئاً من عذاب الضمير حتى حين يكونون قد اترفوا جريمهم في حق أناس من طبقتهم . أما الجرائم التي ارتكبوها في حق رؤسائهم فلست أتكلم عنها . لقد بدا لي أن لهم بالنسبة الى هذه الجرائم رأياً خاصاً بهم ، رأياً عملياً ، فهم يعدونها حوادث طارئة وقعت فضاءً وهدراً ، دون تفكير ودون شعور ، فهي معتفرة ، ولا جناح عليهم فيها . . . كذلك هم يعتقدون . . . ان السجين لا يلوم نفسه على الجرائم التي يرتكبها في حق رؤسائه ، ولا يجعل هذه القضية محلّ تساؤل ، ولا يعدها مشكلة من المشكلات . ولكنه مع ذلك يعترف لنفسه عملياً بأن رؤساءه لا يشاطرونه رأيه وأن عليه من ثمّ أن ينال عقاباً ، وأنه لا يصبح بريئاً الا بعد أن يُنزل فيه العقاب .

ان الصراع بين الادارة والسجين صراع عنيف . ومما يساهم في تسوية جريمة السجين في نظره اعتقاده بأن البيئة التي ولد فيها وعاش فيها لا تدينه ، فهو واثق من أن الطبقة الدنيا من الشعب لن تحكم عليه بأنه ضاع ضياعاً نهائياً ، اللهم الا أن تكون جريمته التي ارتكبها جريمة في حق أناس من هذه البيئة نفسها ، في حق أناس هم اخوته . انه مطمئن من هذه الناحية كل الاطمئنان ؛ وما دام ضميره راضياً فلن يفقد راحة النفس ، وذلك هو الشيء الأساسي . انه يحس أنه واقف على أرض صلبة ، وهو لذلك لا يحقد على السياط التي تنزل على ظهره ،

وانما يعدها أمراً لا مفر منه ؛ وهو يعزى نفسه قائلاً انه ليس أول من يتلقى هذه السياط ولا آخر من يتلقاها ، وأن هذا الصراع السلبي الأصمّ العنيد سيدوم زمناً طويلاً . هل الجندي يكره التركي الذي يقاتله ؟ أبداً . . . ومع ذلك فان هذا التركي يضربه بالسيف ويطعنه بالخنجر ويقتله .

ما ينبغي أن نظن مع ذلك أن رواة هذه الحكايات كانوا جميعاً يروونها بهدوء وبغير اكتراث . فحين كان السجناء يتحدثون عن الملازم جيريياتيكوف ، كانوا يتحدثون عنه دائماً باستياء مكظوم . لقد عرفت هذا الملازم جيريياتيكوف في أول اقامتي بالمستشفى - عرفته من الحكايات التي قصّها علىّ السجناء طبعاً . ورأيت بعد ذلك مرةً بينما كان يقود الحرس الى السجن . انه في الثلاثين من العمر ، طويل القامة ، شديد البدانة ، قوى الجسم ، له خدان أحمران متهدلان من السمعة ، وأسنان بيضاء ، وضحكة رهيبة تشبه ضحكة نوزدريوف\* . اذا رآه الرائي أدرك أنه أقل انسان على وجه الأرض قدرةً على التفكير . كان مولعاً أشد الولع بانزال السياط على الظهور ، وكان يفرحه كثيراً أن يكلف بتنفيذ هذه العقوبة . يجب أن أسارع فأذكر أن الضباط الآخرين كانوا يعدون جيريياتيكوف انساناً شاذاً ، وأن رأى السجناء فيه كان هو هذا الرأى نفسه . لقد عرف الزمان الماضي الذي ليس موغلاً في القدم والذي « ما تزال ذكراه حية ولكن الناس يصعب عليهم أن يصدّقوها » ، عرف جلاًّ دين يعشقون القيام بهذا العمل عشقا قوياً . غير أن أكثر الذين كانوا يتولون تنفيذ عقوبة الجلد كانوا يقومون بعملهم في غير حماسة خاصة ، وفي غير اندفاع شديد ، وانما هم يقومون به هادئين .

ولا كذلك هذا الملازم ، فقد كان يجد فيه لذة مرهفة ومتمعة عظيمة ، وكان يحسن القيام به خبيراً يتقن أسراره ويعرف دقائقه . كان مولهاً

بفنه ، يحبة لذاته • فكأنه واحد من أولئك الجلادين المحترفين الذين عرفتهم روما الامبراطورية ، فهو ينشد في هذا الفن ملذات لطيفة ومباهج تخالف الطبيعة ، دغدغةً واثارةً لنفسه الغارقة في الشحم •

يقاد أحد السجناء لتنفيذ عقوبة الجلد فيه • ان جيرياتكنيوف هو الضابط الذي سيتولى الاشراف على تنفيذ العقوبة ؛ فهو الآن مشرف الوجه ملهم الروح من مجرد رؤية ذلك الصف الطويل من الجنود المسلحين بسياط ضخمة • ها هو ذا يستعرض الجنود منبسط الاسارير مهيباً بكل واحد منهم أن يعنى بالقيام بواجبه على أكمل وجه ، والا ••• والسجناء يعرفون مقدماً ماذا تعنى كلمة « والا » هذه ••• يحضر السجن • فإذا كان لا يعرفون جيرياتيكوف بعد ، وإذا كان غير مطلع على السر ، فان الملازم يمكر به عادة على النحو التالي ( ذلك اختراع من اختراعات جيرياتيكوف البارع جداً في مثل هذا النوع من الاختراعات ) : ان كل سجين ، حين يعرّى ظهره ويربطه ضباط الصف بحمالة البندقية ليشده بها بعد ذلك على طول « الشارع الاخضر » ، يأخذ يتوسل الى الضابط بصوت ضارع داعم أن يأمر بجعل الضرب أقل قوة ، وأن لا يضاعف العقوبة بقسوة لا داعى اليها • فهو يهتف قائلاً : « ارحمنى يا صاحب النبالة ، كن أباً رعوفاً ، اجعلنى أدعو لك الله طوال حياتى ، لا تمتنى ، اشفق علىّ » • وان جيرياتيكوف ينتظر هذا ، فما هو ذا يشرع فى محاورة السجن على النحو التالى بلهجة عاطفية مؤثرة :

- ولكن ماذا يجب علىّ أن أفعل يا عزيزى ؟ لست أعاقبك أنا وانما يعاقبك القانون !

- يا صاحب النبالة ••• فى استطاعتك أن تفعل ما تشاء ، فارحمنى واشفق علىّ ! •••

- أتظن أننى لا أشفق عليك حقاً ؟ أتظن أن رؤيتك وأنت تجلد

شيء يسرنى ويحدث لى لذة ؟ أنا انسان على كل حال • أنا انسان أم لا ؟

- لا ريب فى هذا يا صاحب النبالة ! ان الناس ليعلمون حق العلم ان الضباط آباؤنا وأنا أبناءهم • فكن لى بمثابة أب • كذلك يصيح السجين مؤملاً ان يفلت من العقوبة • فيقول له الملازم :

- أنظر فى الأمر بنفسك يا صديقى ، ان لك دماغاً ففى وسعتك أن تفكر • اننى أعلم حق العلم أن الروح الانسانية تملى على أن أكون بك رءوفاً رحيماً أنت الخاطى •  
- ما تقول يا صاحب النبالة الا الحقيقة •

- نعم •• على أن أكون بك رءوفاً رحيماً مهما تكن مذنباً • ولكن ••• ولكن لست أنا الذى يعاقبك وانما يعاقبك القانون • فكّر قليلاً : اننى أخدم الله والوطن فاذا خفت العقوبة التى حدثها القانون كنت أرتكب اذن اثماً عظيماً •  
- صاحب النبالة ! •••

- ما العمل ؟ على كل حال ، لك هذه المرة ما تشاء ••• سوف أرف بك فأعاقبك عقاباً خفيفاً رغم علمى اننى بذلك اقترف اثماً ••• ولكن ألت أسىء اليك اذا أنا رأفت بك وعقبتك عقاباً خفيفاً ، فظننت اننى فى المرة القادمة سأرف بك أيضاً ، فترتكب حماقات جديدة ؟ هه ؟ ان ضميرى •••

- معاذ الله يا صاحب النبالة ! اننى لاقسم لك أمام عرش رب السماء اننى •••

- طيب طيب \* \* \* تقسم لى أنك ستسلك سلوكاً حسناً \* \* \*  
- ألا فليمتنى الله فوراً ، وليعذبني في الحياة الآخرة عذاباً مقيماً  
إذا أنا \* \* \*

- لا تحلف هكذا \* \* \* ذلك اثم \* \* \* سأصدقك اذا أنت عاهدتني  
فحسب \* \* \*

- صاحب النبالة ! \* \* \*

- طيب ! اسمع ! اننى أرأف بك رحمةً بدموع اليتيم التى تذرّفها .  
أنت يتيم ، أليس كذلك ؟

- يتيم من الأب والأم يا صاحب النبالة ، أنا فى هذا العالم وحيد  
ليس لى أحد \* \* \*

- طيب \* \* \* أنا أشفق عليك رحمةً بدموع اليتيم التى تذرّفها \*  
ولكن حذار \* \* \* هذه آخر مرة \* خذوه !

كذلك يضيف الملازم قائلاً بصوت يبلغ من الرقة والحنان أن  
السجين لا يعرف كيف يشكر لله أنه أرسل اليه مثل هذا الضابط \*  
ويسير الموكب الرهيب ويأخذ الطبل يدق \* ويهزّ أوائل الجنود سياطهم ؛  
ويصيح جيرياتيكوف قائلاً ملء خنجرته : « اضربوه ! ألهبوا ظهره !  
اضربوا اضربوا ! قشّروا جلده ! اسلخوا جلده ! مزيدا مزيدا \* \* \*  
اضربوا هذا اليتيم بمزيد من القوة ، ناولوه ! ناولوا هذا الوغد ! مزيداً  
من القوة ! هشموه تهشيماً ! تهشيماً ! » \*

ويهورى الجنود بضرباتهم على ظهر الشقى بكل ما أوتوا من قوة ،  
ذراعاً بعد ذراع \* \* \* فتقدح عينا الشقى شرراً ، ويأخذ يعول ، بينما  
يجرى جيرياتيكوف وراءه ، أمام الصف ، ممسكاً خاصرتيه من شدة  
الضحك \* انه يختق ضحكا ، ويطرب طرباً عظيماً ، ولا يستطيع أن

يبقى منتصب القامة ، حتى لتأخذك بهذا الانسان العزيز شفقة • انه سعيد بأن يجد الأمر مضحكاً الى أبعد حدود الاضحاك ، فهو يضحك ضحكاً رهيباً مجلجلاً مدوياً ، ويردد من حين الى حين صيحته : « اضربوه ! قشروه ! اسلخوا جلد هذا اللص قاطع الطريق ، هشموا لى هذا اليتيم ! » .

وكان جيريياتيكوف قد ابتكر أنواعاً شتى من هذه الطريقة • فاذا جرىء اليه بأحد السجناء لتنفيذ العقوبة فيه ، وأخذ السجن يتضرع الى الملازم أن يرأف به ، عدل الملازم فى هذه المرة عن الموقف المخادع السابق بل قال له بل رياء ولا تعمل :

- اسمع يا عزيزى ، سوف أعاقبك كما يجب أن تعاقب ، لأنك تستحق العقاب • ولكننى أستطيع أن أنعم عليك بشيء : لن أوثقك بحمالة البندقية ، بل أدعك طليقاً تتحرك كما تشاء ، فما عليك الا أن تركض أمام صف الجنود بكل ما أوتيت من قدرة على الاسراع فى الركض • صحيح أن كل سوط سيصيبك ، ولكنك بذلك ستنتهى من نيل العقوبة بسرعة فما رأيك ؟ هل تريد أن تجرب هذه الطريقة ؟

ان السجن الذى أصغى الى كلامه بكثير من الشك والحدرد يقول لنفسه : « من يدرى ؟ لعل هذه الطريقة خير من الأولى • فاذا ركضت بكل ما أوتيت من قوة دام ذلك مدة أقصر خمس مرات ، وقد لا تصيبنى جميع السياط » ؛ ثم يقول السجن للملازم :

- موافق يا صاحب النبالة !

- وأنا أيضاً موافق •

هكذا يقول له الملازم ثم يصيح بالجنود :

- هيا أتم ، اتبهوا •

ان الملازم يعلم أن ظهر الشقى لن يفلت من سوط واحد ؛ وان كل جندي يعلم أنه اذا أخطأ سوطه ظهر الرجل فلسوف يكون له مع الملازم شان • ويحاول السجين أن يركض في « الشارع الاخضر » • ولكنه لا يتجاوز خمسة عشر زوجاً من الجنود ، فان السياط تنهمر على ظهره المسكين كجبات البرد وفرة ، وكومض البرق سرعه ، فاذا هو يسقط على الأرض والأين يخرج من صدره ، ثم هو لا يتحرك بعد ذلك ، فكأنه سمّر بالأرض أو قتل برصاصة •

فاذا استطاع أن ينهض بعدئذ في كثير من المشقة أصفر اللون مذعور السحنة قال للملازم :

— لا يا صاحب النبالة ! اتنى أوثر أن أضرب على الطريقة التي يوجبها النظام •

والملازم يعرف نهاية هذه المهزلة مقدما ، فهو ممسك بخاصريه منفجر ضحكاً • ولكننى لا أستطيع أن أذكر جميع التسليات التي اخترعها خيال هذا الملازم ، ولا أن أروى جميع ما كان يحكى عنه •

وكان السجناء فى قعتنا يتحدثون أيضا عن ملازم اسمه سميكالوف كان يشغل منصب أمرٍ للموقع قبل وصول الميجر الحالى : ولئن كانوا يتحدثون عن جيرياتيكوف فى غير اكتراث وفى غير كره ، ولكن دون أن يمتدحوا أعماله لانهم كانوا يحترقونه ، فلقد كانوا مجمعين على امتداحه والتناء عليه والتحمس له • لم يكن ذلك الملازم من الناس المولعين بالسياط الهائمين بالعصى ، ولم يكن فيه شئ من طبع جيرياتيكوف ولا من أخلاقه ، ولكنه مع ذلك لم يكن يحترق السيط • فكيف كان السجناء اذن يذكرون عهده ويذكرون تنفيذه للعقوبات فى شئ من الرضا الهادى والارتياح العذب ؟ كيف استطاع أن يفوز برضا السجناء ؟ لماذا



ذلك ؟ كيف أمكنه أن ينال مثل هذه المحبة بين رفاقنا السجناء ؟ لقد كان رفاقنا السجناء ، كسائر الشعب الروسى ، مستعدين لأن ينسوا آلامهم اذا قيلت لهم كلمة طيبة ( اتى أثبت هذه الواقعة دون أن أحللها ودون أن أدرسها ) لذلك لا يصعب الفوز بمحبة هذا الشعب ، ولا يصعب الحصول على احترامه . لقد استطاع سميكالوف أن ينال « شعبية » خاصة . . . . فكان السجناء لا يجيئون على ذكر تنفيذ العقوبات فيهم الا ويشعرون بشيء من الحنين اليه . حتى لقد كانوا فى بعض الأحيان ، حين يقارنون بين رئيسهم القديم والميجر الحالى ، يقولون متهمدين : « كان طيباً كآب » . لقد كان سميكالوف رجلاً بسيطاً ، ولعله كان طيباً على طريقته . ومع ذلك فان بين الرؤساء أناسا ليسوا طيبين فحسب ، بل رحماء أيضا ، ثم هم مكروهون لا يحبهم أحد ، بل يسخر منهم الجميع . ولا كذلك سميكالوف فقد بلغ من حسن التصرف أن جميع السجناء كانوا يعدونه « رجلهم » . تلكم مزية زخرة ، تلكم صفة فطرية لا يشعر بها أصحابها الذين يتصفون بها ، فى كثير من الأحيان . شيء غريب : هنالك أناس ليسوا من الطيبة فى شيء ، ثم هم أوتوا موهبة الحصول على مودة البشر . انهم لا يحقرون الشعب الذى يترأسونه . وأحسب أن هذا هو السبب الذى ترجع اليه « شعبيتهم » . الناس لا يرون فيهم سادة كبارا ، لانهم لا يحسون أنهم من طينة غير طينتهم ، وأنهم طبقة على حدة ؛ ان فيهم رائحة من الشعب . . . . ان فيهم هذه الرائحة بالفطرة . . . وسرعان ما يشم الشعب هذه الرائحة . وهو مستعد لأن يفعل كل شيء فى سبيل هؤلاء . انه يؤثر الرئيس القاسى جداً على أطف انسان وأودع انسان ، متى كان فى ذلك الرئيس شيء من رائحة الشعب . فاذا كان هذا الرئيس ، عدا ذلك ، لين الطبع دمخ الخلق طيب القلب ، على طريقته الخاصة طبعاً ، أصبح فى نظر السجناء انسانا لا يقدر بثمن ! لقد كان

الملازم سميكالوف ، كما ذكرت ، ينزل في السجناء عقوبات فاسيه جدا في بعض الاحيان ، ولكنه كان يبلغ من حسن الصرف حين ينزل فيهم هذه العقوبات انهم كانوا لا يحملون له اى حقد . بالعكس : لقد كانوا يتذكرون « حكايات » سياطه ضاحكين ... على ان هذه الحدايات لم تكن كثيرة والحق يقال ، ذلك أنه لم يكن على جانب كبير من سعه الخيال الفنى ... انه لم يخترع الا مزحة واحدة ، واحدة لا اكثر ، ظل يتتهجج بها قرابه عامٍ كامل في سجننا ، ربما لانها كانت واحدة ، ولم تكن تحلو من مرح وفكاهة . كان سميكالوف يشهد تنفيذ العقوبه بنفسه ، ممازحا السجين ضاحكا عليه ، فهو يلقي عليه أسئله غريبه . كان يسأله عن سئونه الشخصية في السجن . انه لا يفعل ذلك لهدف معين او نيه ميته ، وانما يفعله « لانه يحب أن يكون على علم بشؤون هذا السجين » . كان يؤتى اليه بكرسى ، ويؤتى اليه بالسياط التى ستستعمل فى معاقبه المذنب ، فيجلس على الكرسى ويشعل غليونه الطويل ، والسجين يتوسل اليه ضارعا ، فيقول له الملازم : « هيه ! لا ... يارفيق ... هلم ارقد ... ماذا بك ؟ » . فيتهد السجين ويرقد على الأرض . فيسأله الملازم : « طيب يا عزيزى ! هل تحسن تلاوة الصلوات ؟ » ، فيقول السجين : « كيف لا يا صاحب النبالة ؟ اننى مسيحي ، وقد تعلمتها منذ طفولتى ! » ، فيقول الملازم : « اتل أدعيتك اذن ! » . والسجين يعرف سلفاً ما الذى سيتلوه من أدعية ، وكيف ستتهى هذه التلاوة ، لأن هذه المزحة قد تكررت أكثر من ثلاثين مرة ؛ بل ان سميكالوف يعرف هو أيضاً أن السجين على علمٍ بأمر هذا الاختراع فليست تنطلى عليه الحيلة ، وكذلك الجنود الذين أشرعوا سياطهم فوق ظهر الضحية الشقية . ويأخذ السجين بتلاوة الصلوات ، ويبقى الجنود المسلحون بالسياط وقوفاً ساكنين . وينقطع سميكالوف عن التدخين ، ويرفع يده مرتقباً وصول السجين من

أدعيته الى العبارة التي ينتظرها ؛ ويأخذ السجين في تلاوة صلواته حتى اذا بلغ منها قوله : « ليأت ملكوت السماء » كان ذلك كل ما يريده الملازم فاذا هو يصيح بالسجين قائلاً : « كفى ! » ، وقد احمر وجهه احمراراً شديداً ، واذا هو يقول للجندى المشرع سوطه : « عليك به ! جئه بملكوت السماء ! » ، يقول ذلك وهو يحرك يده باشارة ملهمة ! ...

ثم ها هو ذا ينفجر ضاحكاً • ويتسم الجنود الواقفون ويتسم الجالد ، ويتسم المجلود نفسه ! غفر الله لى ! ... يتسم المجلود نفسه رغم أن السوط ، حين صاح الملازم قائلاً : « انشر ظهره ! » قد صفر فى الهواء صفيراً قوياً ، وهوى على ظهر المذنب الشقى يقطعه كأنه موسى ! ... ان سميكالوف سعيد جداً ، لأنه هو الذى اخترع هذه المزحة ، لأنه هو الذى ابتكر هذه النكته • فاذا انتهى انزال العقوبة فى السجين انصرف الملازم راضياً ، وانصرف السجين نفسه راضياً عن نفسه وعن الملازم ومضى يقص على رفاقه مزحة سميكالوف للمرة الاحدى والثلاثين ، خاتماً كلامه بقوله : « ان قلبه طيب حقاً ... يحب المزاح ويعشق الدعابة ! » •

ما أكثر ما كان المرء يسمع من السجناء ثناءً عاطفياً رقيقاً على الملازم الطيب •

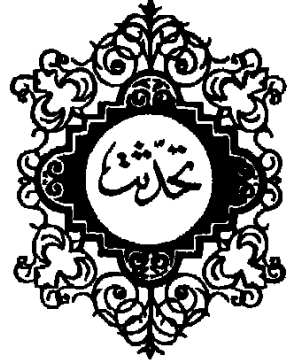
حدث أحد السجناء يقول وقد أشرق وجهه ابتهاجاً بذكرى ذلك الانسان الشهم :

— فى بعض الأحيان ، أثناء الذهاب الى العمل ، رأيت جالساً الى نافذته بثوب المنزل يحسى الشىء ويدخن الغليون • فرفعت قبعتى

احتراما فسألنى : « الى أين أنت ذاهب يا أكسينوف ؟ » فقلت له : « الى  
الشفل يا ميخائيل فاسسيلتش ، ولكن يجب على أن أذهب أولاً الى  
الورشة » ، فكان وهو يسمع كلامى يضحك ضحكا سعيداً كل السعادة •  
ما أطيب قلبه ! ما أطيب قلبه حقاً !  
وأضاف أحد السامعين يقول :

— أمثال هذا الرجل لا يبقونهم مدة طويلة ! •••

# المستشفى تمة



هنا عن العقوبات\* وعن الذين يتولون تنفيذها لأن الفكرة الأولى الواضحة عن هذه الأمور قد قامت في ذهني أثناء إقامتي بالمستشفى • كنت الى ذلك الحين لا أعرف هذه الأمور الا عن طريق السماع • كان يؤتى الى قاعتنا بجميع من صدر الحكم عليهم بالجلد وجميع سجناء الأقسام العسكرية المقيمة في مدينتنا وفي المديرية التابعة لها • وكنت في الأيام الأولى أنظر الى ما يجري حولى بشراهة تبلغ من القوة أن هذه العادات الغريبة وهؤلاء السجناء الذين جلدوا أو الذين سيجلدون قد أحدثوا في نفسى شعوراً رهيباً • كنت مضطرباً أشد الاضطراب ، مروّعاً أعظم الترويع • وكنت اذا سمعت الأحاديث أو الأقاصيص التي يتبادلها السجناء الآخرون حول هذا الموضوع ، ألقى على نفسى أسئلة أحاول أن أجد لها أجوبة • كنت أحرص الحرص كله على أن أعرف جميع درجات الأحكام والعقوبات وجميع طبقاتها ، وأن أعرف رأى السجناء أنفسهم : حاولت أن أتصور الحالة النفسية التي يكون عليها المجلودون • سبق أن ذكرت أن من النادر أن يكون أحد السجناء هائى النفس مطمئن البال قبل اللحظة الحاسمة ، ولو كان قد

ضرب قبل ذلك مراراً • ان السجين يشعر بفزع رهيب ، ولكن هذا الفزع جسمى محض ، فزع لا يعيه صاحبه لأنه يكون قد أطاش لبه وذهب بصوابه • لقد استطعت أثناء السنين التى قضيتها فى السجن أن أدرس ، على مهل، السجناء الذين كانوا يطلبون خروجهم من المستشفى، بعد أن مكثوا فيه زمناً لمعالجة ظهورهم التى أصيبت بجراح من انزال نصف العقوبة فيهم؛ لقد أتيج لى أن أرى عدداً كبيراً منهم يطلب الخروج من المستشفى فى الغداة لانزال باقى العقوبة فيه • ان التوقف عن اتمام انزال العقوبة انما يكون دائماً بأمر الطبيب الذى يشهد التنفيذ • فاذا كان عدد الضربات أكبر من أن يحتملها السجين دفعةً واحدة قسّم هذا العدد نصفين أو ثلاثة ، وفقاً للرأى الذى يديه الطبيب أثناء التنفيذ ، فالطبيب هو الذى يقول هل يستطيع السجين أن يحتمل العقوبة كلها أم أن حياته أصبحت فى خطر • فاذا كانت العقوبة خمسمائة جلدة أو حتى ألف جلدة أو ألفاً وخمسمائة جلدة ، فان السجين يتلقاها دفعةً واحدة، أما اذا كانت ألفى جلدة أو ثلاثة آلاف جلدة فانها توزع على دفتين أو ثلاث • فالذين اندملت جراح ظهورهم وأصبح عليهم أن يتلقوا باقى العقوبة يكونون قبل خروجهم من المستشفى بيوم حزانى النفوس قاتمى الوجوه صامتين لا يتكلمون • ان الناظر اليهم يلاحظ فيهم نوعاً من الانصاع ، وضرباً من الدهول الغريب • انهم لا يشرعون فى أى حديث ، بل يلزمون الصمت طوال الوقت تقريباً • أمر عجيب : ان السجناء يتحاشون أن يخاطبوا أولئك الذين سيجلدون ، وهم خاصة لا يشيرون أية اشارة الى العقوبة التى سيتم انزالها فيهم • انهم لا يحاولون أن يواسوهم وأن يعزوهم وأن يشجعوهم بكلمات زائدة وأقوال لا محل لها ولا داعى اليها ••• حتى أنهم لا يلتفتون اليهم ولا يظهرون شيئاً من الاكتراث بهم ، ولا شك أن السجين الذى سيُجلد يؤثر ذلك ويفضّله •

غير أن هناك استثناءات • مثال ذلك السجين أورلوف الذى سبق أن تحدثت عنه • لقد ساء أورلوف أن جراح ظهره لم تتدمل بسرعة أكبر ؛ انه يستعجل طلب الخروج من المستشفى ، ويريد أن يفرغ من انزال باقى العقوبة فيه ، وأن يُرسل الى السجن ، لأنه ينوى أن يهرب أثناء الطريق • ان أورلوف جامع النفس عنيف الطبع لا يشغله الا الهدف الذى يجب عليه بلوغه ، وهو انسان على جانب عظيم من شدة المكر وسعة الحيلة • كان يبدو عند وصوله مسروراً كل السرور ، وكان فى حالة احتياج شديد ؛ انه رغم اخفائه مشاعره ، قد ظن أثناء توقيع العقوبة فيه أنه لن ينهض من مكانه وأنه ستيقضى نحيبه حتى قبل استيفاء نصف العقوبة • كان قد سمع كلاماً عن الاجراءات التى ستخضعها الادارة فى حقه ، وذلك حين كان لا يزال يحاكم ؛ ولهذا كان يتوقع أن يموت • حتى اذا فرغوا من انزال نصف العقوبة فيه استرد شجاعته واستعاد أمله ورجعت اليه رباطة جأشه • لم أكن قد رأيت فى حياتى جروحاً حين وصل الى المستشفى ، ولكن الرجل كان فرحاً كل الفرح ، فهو يأمل الآن أن يبقى حياً • ان الشائعات التى بلغت مسامعه كانت اذن كاذبة ، ما دام انزال باقى العقوبة فيه قد أرجىء • وأخذ أورلوف أثناء حبسه الاحتياطى الطويل يحلم بالرحلة ، بهربه المقبل ، بالحرية ، بالحقول ، بالغابة ••• وبعد يومين من خروجه من المستشفى عاد الى المستشفى ليموت على ذلك المضجع نفسه الذى شغله طوال مدة اقامته • انه لم يحتمل النصف الثانى من العقوبة • ولكن سبق أن تحدثت عن هذا الرجل •

ان جميع السجناء بغير استثناء ، حتى أشدهم جبناً وأكثرهم جزعاً ، حتى أولئك الذين يضمنهم انتظار عقوبتهم ويمضهم ليلاً ونهاراً ، كانوا يتحملون العقوبة صابرين • كان نادراً أن أسمع أليناً فى الليلة التى

تعقب تنفيذ العقوبة • ان الشعب على وجه العموم يعرف كيف يحتمل  
الالم • وقد سألت كثيراً من رفاقي عن هذا الألم بغية أن أحدد طبيعته  
على وجه الدقة ، وأن أعرف ما هو العذاب الذي يمكن أن يشبهه به •  
لم يكن يدفعني الى ذلك فضول سخييف واستطلاع لاه • فلقد سبق ان  
قلت اننى اضطرت أشد الاضطراب ورؤعت أشد الترويع • ولكننى  
رغم الاسئلة الكثيرة التى القيتها على رفاقي لم اظفر من أحد منهم بجواب  
شافٍ مرضٍ • كانوا يجيبوننى اجمالاً بقولهم : « ذلك يحرق الظهر  
كالنار » : لان هذا جوابهم جميعاً • وقد حاولت فى أول الأمر أن أسأل  
••• كى ، فقال : « ذلك يحرق الظهر كالنار ، كجحيم • يحس المرء  
أن على ظهره فرناً مشتعلًا » • لقد كانوا يعبرون بهذا عن كل شيء •  
ولاحظت فى أحد الأيام ملاحظة غريبة لا أضمن صدقها ولا أكفل  
صحتها ، رغم أن رأى جميع السجناء يؤيدها ، وهى أن عقوبة الجلد  
بالسوط أفظح أنواع التعذيب المستعملة فى بلادنا • قد يبدو هذا فى  
أول الأمر مستحيلاً غير معقول • ومع ذلك فان خمسمائة جلدة بالسوط  
وربما أربعمائة جلدة قد تكفى لقتل انسان • حتى اذا تجاوز العدد  
خمسمائة أوشك الموت أن يكون محققاً ان أقوى الناس جسماً وأصلبهم  
عوداً لا يقدر أن يحتمل ألف سوط ، على حين أن المرء يستطيع أن  
يتلقى خمسمائة ضربة بالعصا دون أن ينهار انهياراً شديداً ، ودون أن  
يتعرض لخطر الموت • ان فى وسع الرجل المتوسط القوة أن يحتمل  
ألف ضربة بالعصا دون أن يتعرض لخطر ؛ ولا يمكن لألفى ضربة  
بالعصا أن تقتل انساناً متوسط القوة سليم الجسم • لقد أكد جميع السجناء  
أن السوط أسوأ من العصى • كانوا يقولون : « ان السياط تكوى وتعذب  
أكثر من العصى • • • وانه لأمر بديهي أن تكون السياط أشد تعذيباً  
من العصى ، فهى تهيج الجهاز العصبى وتثيره اثاره قوية • لا أدرى



ألا يزال يوجد في أيامنا أناس من أولئك السادة ( لكنني أعرف أنه كان  
 يوجد منهم في زمن غير بعيد ) الذين يجدون لذة عظيمة وممتعة كبيرة في  
 جلد ضحية من الضحايا • انهم يذكرون بالمركز ساد وبالمركزية  
 برنقليه\* • أحسب أن مرد هذه اللذة الى اضطراب نفسى ، وأن هؤلاء  
 السادة لا بد أن يشعروا بلذة والم في ان واحد • ان هناك اناسا هم  
 كالنمور شراهة الى الدم ، يحبون ان يلغقوه • ان الذين اوتوا سلطانا  
 لا حدود له على اجسام البشر ودمايهم وارواحهم ؛ الذين اوتوا هذا  
 السلطان على من هم في شريعة المسيح اخوتهم ؛ الذين شعروا بهذا السلطان  
 وامكنهم ان يذلوا ويمتهنوا ويحرقوا الى اقصى الحدود انسانا اخر خلق  
 على صورة الله ••• ان هؤلاء عاجزون عن كبح رغباتهم ومقاومة ضميرهم الى  
 معاناة الاحساسات الشديدة • والطغيان والاستبداد عادة يمكن أن تستفحل  
 وأن تتفاهم حتى تسمى مع الزمن مرضا • اني اؤكد ان خير انسان في العالم  
 يمكن ان يقسو قلبه وان يتوحش طبعه الى درجة لا يمكن معها تمييزه  
 عن حيوان كاسر مفترس • ان الدم والسلطة يسكران ، ويساعدان على  
 نمو القسوة والفحش والفجور ، فاذا الروح والعقل يصابان بالشذوذ  
 واذا هما يجدان في أغرب الأمور عن الطبيعة الانسانية السليمة لذات  
 كبيرة • ان الانسان والمواطن يخفتان الى الابد من نفس الطاغية المستبد،  
 فتصبح العودة الى الكرامة الانسانية وتصبح الندامة والتوبة والانبيات  
 الأخلاقى أموراً يكاد يستحيل تحقيقها • أضف الى ذلك أن هذه الاباحية  
 يمكن أن تسرى عدواها الى المجتمع بأسره : ان مثل هذه السلطة مفرية •  
 والمجتمع الذي ينظر الى هذه الأشياء بغير اكرات يكون قد أصيب بهذه  
 العدوى حتى بلغت منه النخاع • وأقول بايجاز : ان منح أحد الناس  
 حق انزال عقوبات جسمية في أقرانه هو جرح من جروح المجتمع ،  
 وهو أضمن وسيلة الى قتل روح التعاطف مع الناس ؛ وهذا الحق يضم،

على صورة البذور ، عناصر انحلالٍ وشيك لا مفر منه ولا معدى عنه •  
 والمجتمع يحترق الجلاذ المحترف لا « السيد الجلاذ » • لقد أراد  
 بعضهم فى الاونة الأخيرة أن يدعى نقيض ذلك ، ولكن بطريقه نظرية  
 لفظية • والذين عبروا عن هذا الراى لم يكن قد اتسع وفنهم بعد لخلق  
 غريزة السيطرة فى نفوسهم • ان كل صاحب مصنع وكل مقالول لابد أن  
 يكون قد شعر مرارا بنوع من الرضى الشديد والارتياح العظيم حين  
 أحس أن عمالاً عائلين هم رهن به وحده • أنا على يقين من أن جيلاً  
 من الاجيل لا يستطيع ان يستأصل ما فيه من أمور موروثه ، بمثل هذه  
 السرعة • ان الانسان لا يستطيع أن يتخلى عما يجرى فى دمه ، عما  
 رضعه مع حليب أمه • ليس يكفى أن يعترف المرء بذنبه ، بخطيئته  
 الأصلية ••• ذلك قليل ، قليل جداً ••• وانما ينبغى له أن يجتث هذه  
 الخطيئة أيضاً ، وذلك لا يتم بسرعة •

لقد تكلمت عن الجلاذ • واننى لأقول ان بذور غرائز الجلاذ تكاد  
 توجد فى كل فرد من افراد مجتمعنا المعاصر ، ولكن غرائز الانسان  
 الحيوانية لا تنمو نمواً واحداً ، فاذا خنقت هذه الغرائز جميع الملكات  
 الأخرى أصبح الانسان مخلوقاً مشوهاً كريهاً • فالجلاذون نوعان :  
 الجلاذون بارادتهم ، والجلاذون بحكم الواجب ، بحكم الوظيفة • فأما  
 الجلاذ بارادته فهو من جميع النواحي أخط من الجلاذ الماجور الذى  
 يثير مع ذلك كل هذا الاشتمزاز فى نفوس الشعب ، ويوقظ فيه تقززاً  
 شديداً وفزعاً لا شعورياً يوشك أن يكون غيباً • فما مرد هذا الكره  
 الرهيب الخرافى الذى يشعر به الناس نحو الجلاذ المحترف بينما هم  
 يقفون من الجلاذ بارادته موقف من لا يحفل به ولا يكثرث له بل يتسامح  
 معه ؟ اننى أعرف أمثلةً غريبة على أناس شرفاء طيبين يقدرهم مجتمعهم  
 ثم هم يجدون أن من الضرورى أن يعول المحكوم عليه بالجلد اعوالاً

شديداً وأن يتهمل ويتضرع ويطلب الصفح والمغفرة • ذلك في نظرهم أمر مقبول ، بل امر لا بد منه • حتى اذا رفض المجلود ان يصرخ فان الجالد الذى أعده فى أى ظرف آخر انساناً طيباً يرى فى ذلك اهانة لشخصه • لقد كان لا يريد فى اول الامر الا انزال عقوبة خفيفة ، لكنه منذ لم يسمع التوسلات والضراعات المألوفة المعتادة ، كقول المجلود : « رحماك يا صاحب النبالة ، اشفق علىّ وذن لى أبأ ودع لى ان أدعو لك الله طوال حياتى » ، غلا حنقه واستشاط غيظه وامر للمسكين بخمسين جلدة زيادة ، أملاً أن يصل بذلك الى سماع الصرخات والضراعات ، وهو يصل الى سماعها فعلاً • قال لى واحد من هؤلاء ذات يوم فى كثير من الجدد : « مستحيل بغير ذلك • انه وضح مسرف فى الوقاحه » • اما الجلاد بحكم الواجب فانه منفى من المنفيين عهد اليه ان يقوم بهده الوظيفة • انه يتعلم هذه المهنة من جلاد قديم ، حتى اذا اتقنها ظل طون حياته فى السجن فاطناً فى مكان على حدة • ان له غرفة لا يقاسمها اياها أحد ، حتى لقد يكون له فى بعض الأحيان مسكن خاص ، ولكنه يظل مخفوراً طول الوقت على وجه التقريب • وليس الانسان بألة • فهذا الجلاد ، رغم أنه يجلد بحكم الواجب ، يعصف به الغضب أحياناً ، ويشعر حين الجلد بشيء من اللذة • ولكنه لا يحمل لضحيته أى كره • ان رغبته فى اظهار براعته وحذقه ، وابرار علمه وفنه ، تستحث غروره وتشحذ كبريائه وتحرض حبه لنفسه ؛ انه يعمل للفن • هو يعلم حق العلم أنه انسان مكروه ، وأنه يثير فى كل مكان رعباً خرافياً ، فيستحيل أن لا يكون لهذا الظرف تأثير فيه ، وأن لا توظف هذه الظروف غرائزه البهيمية • ان الأطفال أنفسهم يعرفون أن هذا الرجل قد استغنى عن أمه وأبيه ••••• شىء غريب : ان جميع الجلادين الذين عرفتهم كانوا أناساً على جانب من الذكاء والفهم ، وكانوا أناساً مفرطين فى كبرياتهم وحببهم

لأنفسهم • ان الصلف ينمو لديهم نتيجةً للاحتقار الذى يلقونه فى كل مكان ، ولعله يشتد ويقوى من شعورهم بالخوف الذى يوظفونه فى نفوس ضحاياهم ، وبالسلطان الذى يملكونه على هؤلاء الأشياء • ولعل الاخراج المسرحى لقيامهم بوظائفهم العامة هذه يسهم فى نفخهم بشيء من الغرور • لقد أتيج لى خلال مدة من الزمن أن ألقى وأن ألاحظ واحدا من هؤلاء الجلادين • كان رجلاً فى الأربعين من عمره متوسط القامة قوى العضلات جافاً له وجه لطيف ذكى يعلوه شعر مضمفور • انه رزين وفور هادىء مسالم يشبه مظهره أن يكون مظهر شريف من الأشراف • كان يجيب عن الأسئلة التى تلقى عليه اجابات فيها فهم وتعقل وفيها وضوح وجلاء غير أن فيها نوعاً من اظهار التواضع كأنه يتنازل لمحدثه عن شيء من الأشياء • كان ضباط الحرس يخاطبونه بشيء من الاحترام ، وكان هو يلاحظ ذلك ويدركه حق الادراك ؛ ولهذا كان أمام رؤسائه يضاعف تأدبه وجفافه ورزاقته • وكلما تودد اليه هؤلاء مزيداً من التودد ، ازداد هو تكبراً ، دون أن يفقد مع ذلك تأدبه المرهف • انى لعل ثقة من أنه كان فى تلك اللحظات يعد نفسه فوق مخاطبه كثيراً فلا مجال للمقارنة بينه وبينه • ذلك يُقرأ فى وجهه • كان هذا الرجل يكلّف أحياناً ، فى فصل الصيف ، أثناء الحر الشديد ، بقتل كلاب المدينة ، فيرسل الى المدينة مخفوراً ليقتل هذه الكلاب برمح طويل مسنون • كانت هذه الكلاب تتكاثر بسرعة هائلة وتصبح خطرة فى فترة القيظ ، فكان الجلاد مكلفاً بقتلها بقرار من السلطات • ان هذه الوظيفة الحقيرة لم تشعره بشيء من الضعة قط • لبتك رأيت ذلك الوقار الذى كان يبدو فى وجهه حين كان يطوف شوارع المدينة مع حارسه المتعب المكدود المرهق ، وليتك رأيت كيف كن يخيف النساء ويروّع الأطفال بنظرة واحدة ، وكيف كان يلقى على المارّة نظرات استعلاء وعظمة !

والجلادون يعيشون فى بحبوحة ، فهم يملكون مالاً ، ويقومون  
برحلات مريحة ويشربون خمرا • وهم يستمدون مواردهم هذه من  
الرشوات التى يدسُّها فى أيديهم أهل اليسار من المسجونين المدنيين ؛  
والجلادون هم الذين يحددون مقدار الرشوة تبعاً لما يملكه السجين من  
غنى ، فربما طلبوا ثلاثين روبلاً وربما طلبوا أكثر من ذلك • صحيح  
ان الجلاد لا يملك حق الرأفة بالمجلود ، والا كان يعرّض ظهره هو  
للجلد ؛ ولكنه يتعهد ، لقاء رشوة مناسبة ، أن لا يسرف فى القسوة أثناء  
الجلد • والسجناء يستجيبون لمطالبه فى جميع الاحيان تقريباً ، لأنهم  
اذا رفضوا الاستجابة لها عمد فى ضربهم الى وحشية رهيبية ، وذلك أمر  
يملكه • حتى لقد يتفق أن يطلب مبلغاً ضخماً من سجين فقير جدا •  
وعندئذ ترى جميع أقرباء السجين يتحركون ، فهم يساومون الجلاد ،  
ويستعطفونه ويتوسلون اليه • وويل لهم ان لم يستطيعوا أن يرضوه ؛  
ان الخوف الخرافى الذى يثيره الجلادون فى النفوس يفيد الجلادين  
كثيراً • لقد حدثنى بعض الناس ان فى هؤلاء الجلادين وحشية رهيبية •  
حتى لقد أكد لى السجناء أن فى وسع الجلاد أن يجهز على الضحية  
بضربة واحدة • أهذه حقيقة مستمدة من تجربة ؟ ربما ! ••• من  
يدرى ! ••• ان لهجة الذين ذكروا لى ذلك كان فيها من قوة التأكيد  
والحزم ما يجعلنى أستبعد أن لا يكون الأمر أمر حقيقة مستمدة من  
تجربة • وقد أكد لى الجلاد نفسه أن فى وسعه أن يفعل ذلك • وذكر  
لى بعضهم أيضاً أن فى وسع الجلاد أن يحتال فاذا هو يهوى على ظهر  
المجلود بضربة قوية لا تُشعر المجلود بأى ألم ولا تخلف فيه أى أذى •  
ولكن حتى حين يكون الجلاد قد تناول رشوة فى سبيل أن لا يسرف فى  
شدة الضرب فان الضربة الأولى التى ينزلها فى المجلود تكون فى العادة  
قوية جداً • تلك سنة لا تتخلف • وبعد تلك الضربة الأولى التى لا بد

أن تكون قوية ، ينزل الجلاد في المجلود ضربات أقل قسوة ، لا سيما اذا كان قد تقاضى رشوة طيبة • لا أدري لماذا يفعل الجلادون ذلك : أهم يفعلونه من أجل أن يهيئوا المجلود لاحتمال الضربات التالية التي ستظهر له أخف وطأة وأيسر المأمتى كانت الضربة الأولى قاسية ، أم هم يفعلون ذلك لارهاب المجلود بغية أن يعرف شدة بأسهم وفرط سطوتهم ؟ أتراهم يريدون أن يبرهنوا على قوتهم وأن يستمدوا من ذلك زهواً وافتخاراً ؟ مهما يكن من أمر فإن الجلاد يكون قبل انفاذ مهمته مهتساجاً بعض الاهتياج ؛ انه يشعر بقوته وسطوته : هو فى تلك اللحظة ممثل أمام جمهور ، والجمهور يعجب به ويخاف منه • لذلك تراه يصيح بضحيته قائلاً فى غير قليل من الرضى والزهو : « استعد ••• لتسلخك الضربة سلخاً » • تلك كلمات معتادة تسبق الضربة الأولى • ألا ان من الصعب على المرء أن يتصور مدى ما يمكن أن ينحدر اليه انسان من تشوه !

كنت فى الأيام الأولى من افامتى فى المستشفى أصغى بانتباه الى هذه الأفاصيص التى يرويها السجناء فيقطعون بها رتابة الأيام الطويلة التى يقضونها راقدين على مضاجعهم ، والتى تجرى متشابهة على وتيرة واحدة • وكانت الجولة التى يقوم بها الأطباء سلوةً لنا وفرجه • وبعد جولة الأطباء يحين وقت الغداء • لا شك أنك تقدر أن الطعام أمر أساسى فى حياتنا الرتيبة التى تنقضى ساعاتها مطردة رتيبة • ان وجبات الطعام التى تقدم للمرضى تختلف باختلاف طبيعة الأمراض : فبعض السجناء لا يُعطون الا حساءً بيقول ، وبعضهم لا يُعطون الا بقولاً ؛ ومنهم من يعطى برغلاً ••• وذلك طعام له عشاق كثيرون • وكان السجناء يترهلون مع الزمن ويصبحون ذواقين متأقين فى شئون الطعام • وكان الناهيون يعطون قطعة من لحم مسلوق أو من « بقر » على حد تعبير رفاقى • وكان خير الطعام ما يقدم للمرضى المصابين بداء

الاسقربوط : كان هؤلاء يعطون لحماً مقلياً مع البصل والفجل وربما أعطوا في بعض الأحيان شيئاً من خمر • والخبز يكون أسود أو أسمر تبعاً لنوع المرض ، ولكنه حسن النضج في جميع الأحوال • وكانت هذه الدقة التي يلتزمها المستشفى في توزيع وجبات الطعام تضحك المرضى : لقد كان بين المرضى من لا يكاد يأكل شيئاً من قلة شهوته الى الطعام ، وكان بينهم أناس شهور شرهة قوية ؛ فكان بعضهم يتبادل الوجبات الموزعة ، فاذا الطعام المخصص لأحدهم يمضى الى شخص آخر دائماً • والذين فرضت عليهم الحمية من بينهم فلا يعطون الا وجبة خفيفة ، كانوا يشتررون من المصابين بداء الاسقربوط لحماً ، ويحصلون على شيء من شراب « الكفاس » أو من بيرة المستشفى ، من المرضى الذين كانوا يعطون شراباً • كان بعض السجناء يأكل وجبة مضاعفة • وكانت الوجبات تباع بمال • واللحم أغلى المآكل سعرا ، حتى لقد تباع القطعة منه بخمسة كوبيكات • فاذا لم يوجد في وقتنا من يحب أن يبيع نصيبه أرسل المراقب الى القاعة الثانية يسأل عن بائع ، فاذا لم يجد شيئاً في القاعة الثانية مضى الى قاعة الجنود أى الى قاعة « الأحرار » كما كنا نسميهم نحن • كان يوجد دائماً مرضى يسرهم أن يبيعوا نصيبهم من الطعام • وكان الفقر عاماً شاملاً ، لكن الذين يملكون بضع دريهمات كانوا يرسلون من يشتري لهم من السوق خبزاً أبيض او حلوى • وكان الحراس يشترون لهم ما يشاءون غير طمعين في أى نفع •

وكانت أقسى فترة من النهار هي الفترة التي تعقب الغداء • كان بعض السجناء ينامون اذا لم يكن ثمة ما يعملونه ، وكان بعضهم الآخر يثرثرون أو يشتجرون أو يتبادلون رواية الأفاصيص بصوت عالٍ • فاذا لم يؤت الى القاعة بمرضى جدد أصبح الضجر ثقيلاً لا يحتمل ولا يطاق • حتى اذا جىء بمرضى جديد تحركت القاعة واضطربت ، ولا

سيما اذا كان لا يعرفه أحد من السجّناء الراقدين فيها ، فهم الآن  
 بتفرون فيه ويحاولون أن يعرفوا من هو ومن أين جاء وما الذى أتى  
 به الى السجن . وكان المرضى العابرون هم الذين يثيرون الانتباه ويوظفون  
 حب الاطلاع أكثر من غيرهم ، فلقد كان هؤلاء يملكون دائماً ما يقصونه  
 على السجّناء . طبعى أنهم كانوا لا يتكلمون عن شؤونهم الخاصة ، واذا  
 لم يشرعوا فى حديث عن شؤونهم الخاصة من تلقاء أنفسهم ، لم يسألهم  
 أحد فى ذلك ، وانما تلقى على أحدهم أسئلة من هذا القبيل : « من أين  
 جئت ؟ مع من جئت ؟ أى طريق سلكت ؟ الى أين تذهب ؟ » الح . . .  
 وكان رفاقنا حين يسمعون ما يقصه القادمون الجدد يتذكرون الأحداث  
 التى مرت بهم ، فيأخذون يقصون هم أيضاً ما رأوا وما عملوا ، متحدثين  
 خاصة عن القوافل والرؤساء والمراقبين والحراس وما الى ذلك . وفى  
 تلك الفترة أيضاً ، قبيل المساء ، كان يؤتى بالسجّناء الذين تم جلدتهم .  
 سبق أن قلت ان ظهور هؤلاء المجلودين كان يوقظ الانتباه ويشجذ  
 الاهتمام ويحدث أثراً فى النفوس ، ولكن كان لا يؤتى بمجلودين فى  
 كل يوم ، فكنا نشعر بضجر رهيب وسامة قاتلة حين لا يحدث ما يخرجننا  
 من الخمول ويخلصنا من الكسل ، فاذا المرضى عندئذ كأنما يُحرقون كلاً  
 منهم أن يرى جاره ، واذا هم فى بعض الأحيان يختصمون ويشتجرون .  
 وكان يبهج سجّناءنا ويفرحهم أن يؤتى الى الفحص الطبى بمجنون ؟  
 وكان السجّناء الذين يحكم عليهم بالجلد يتظاهرون أحياناً بالجنون ،  
 أملاً فى العفو عنهم ، فكانت حيلتهم تفضح ، أو كانوا يقررون من تلقاء  
 أنفسهم أن يعدلوا عنها ، فاذا هم بعد أن ظلوا خلال يومين أو ثلاثة  
 يقومون بأعمال شاذة غريبة يصبحون على حين فجأة أناساً عقلاء جداً ،  
 واذا هم يهدأون ويطلبون الخروج من المستشفى وقد أظلمت وجوههم ؟  
 ولم يكن أحد لا من بين السجّناء ولا من بين الأطباء يعيب عليهم حيلتهم



أو يذكرهم بجنونهم وانما كانت تسجل أسماؤهم في صمت ويقادون  
 في صمت ، فما هي الا بضعة أيام حتى يعودوا إلينا وقد دميت ظهورهم •  
 على أن الحالات التي من هذا القبيل كنت نادرة ، وفي مقابل ذلك كان  
 وصول مجنون حقيقي كارثة تنزل على القاعة ؛ فاذا كان الجمنون مرحاً  
 فرحاً نشيط الحركة يصرخ ويرقص ويعنى استقبله السجناء في أول  
 الأمر بحماسة قائلين وهم ينظرون الى تصعيراته وتكشيراته وتلويحاته :  
 « سيكون هذا مسلياً ••• » ولكن المنظر أليم محزن رهيب • اتى لم  
 أستطع في يوم من الأيام أن أنظر الى المجانين محافظاً على هدوئي •  
 وها هي ذى تصعيرات المجنون المستمرة وحركاته المضطربة ما تلبث بعد  
 يومين أو ثلاثة أن تثقل على السجناء فيضيقون بها ويتململون منها •  
 لقد احتفظت في قاعتنا بأحد المجانين مدة ثلاثة أسابيع فأصبحنا لا نعرف  
 أين نخبئ • وانا كذلك اذا بهم يجيئوننا بمجنون ثان أحدث وصوله  
 في نفسى تأثيراً شديداً • حدث ذلك في السنة الثالثة من سجنى • كنت  
 في السنة الأولى من اقامتى بالسجن أو فل في الأشهر الأولى - فقد وقع  
 ذلك في الربيع - قد ذهبت الى الشغل مع جماعة من السجناء صنّاع الأجر  
 لأعمل معهم معاوناً ؛ ذهبت مع تلك الجماعة الى ورشة لصنع القرמיד  
 كان ينبغي لنا أن نصلح فرنها اعداداً لأشغال الصيف • وكان ••• كى  
 و «ب» قد عرفانى في ذلك الصباح بمراقبنا العريف أوستروسكى •  
 انه بولندى في نحو الستين من عمره ، طويل القامة نحيل الجسم حسن  
 الهيئة بل وقور مهيب • انه يعمل جندياً في سيبيريا منذ زمن طويل  
 جداً • وكان ••• كى و «ب» \* يجانته ويقدرانه رغم أنه ينتمى الى  
 الطبقة الدنيا من الشعب ( انه من عصاة سنة ١٨٣٠ ) ؛ وكان يرى في  
 جميع الأحيان عاكفاً على التوراة مستغرقاً في قراءتها • تحدثت اليه ،  
 فرأيت في كلامه تعقلاً ورأيت فيه لطفاً • وكانت له في سرد القصص

طريقة شائقة ، وكان شريف النفس طيب القلب • ثم لم أره بعد ذلك خلال سنتين ، ولكننى سمعت أنه رهن التحقيق ، ثم جىء به ذات يوم الى قاعتنا : كان قد جن • دخل علينا صائحاً ضاحكاً مقهقهاً ، وطفق يرقص فى وسط الفرقة وهو يجرى حركات بذيئة تذكر بالرقصة التى تسمى كامارنسكيا ••••• ابتهج السجناء وتحمسوا ••••• أما أنا فشعرت بحزن شديد ، لا أدرى لماذا ! وبعد ثلاثة أيام أصبحنا لا نعرف ماذا نصنع : انه يشاجر الناس ويقتل معهم ، ويثن ، ويعنى فى وسط الليل ، ثم أصبحت أفواله المقرزة تثير فىنا الغيان ••••• كان لا يخشى أحداً ••••• وقد قيّد بالأغلال عنوةً ، ولكن وضعنا لم يتحسن من ذلك ، لأنه ظل يشتجر ويقتل مع جميع الناس • وبعد ثلاثة أسابيع أجمعت القاعة كلها على أن تضرع الى رئيس الأطباء أن ينقله الى القاعة الثانية المخصصة للسجناء • ولكن ما ان انقضى يومان حتى أعيد الى قاعتنا تلبيةً لطلب المرضى الذين كانوا فى القاعة الثانية • واذ كان هناك مجنونان فى آن واحد ، كلاهما يحب المشاجرة ويبر القلق ، فقد أصبحت كل قاعة من القاعتين ترسل مجنونها الى الأخرى ، ثم انتهت القاعتان الى تبادل مجنونهما • ولكن النانى كان أسوأ من الأول • وقد تنفس جميع المرضى الصعداء حين نقل المجنونان لا ندرى الى أين •••••

وما زلت أتذكر مجنوناً ثالثاً غربياً كل الغرابة • فى ذات يوم من أيام الصيف جىء الى قاعتنا برجل يظهر عليه أنه قوى البنية شجاع • انه فى الخامسة والأربعين من عمره • كان وجهه مظلماً حزيناً قد شوهته بثور الجدرى ، له عيان حمراوان محتقتان احتقاناً شديداً • جلس الرجل الى جانبى • انه وديع هادىء مسالم ، لم يخاطب أحداً ، فهو دائم التفكير فى شىء ما كان يشغل باله • فلما هبط الليل اتجه الى الكلام دون تمهيد ، وأسرع يقول لى ، وقد ظهر عليه أنه يفضى الى

بسر كبير ، ان عليه أن يُضرب في الغداة ألفى ضربة بالعصا ، ولكنه  
ليس خائفاً ، لأن ابنة الكولونيل ج . . . . . تقوم بمساعٍ في سبيله . فنظرت  
اليه مدهوشاً وأجبت به بأن حالة كهذه الحالة لا يمكن أن تنفع فيها شفاعاة  
ابنة كولونيل ، في رأيي . . . . . لم أكن قد أدركت بعد أن الرجل الذي  
أحدثه مجنون ، ذلك أنهم قد جاءوا به الى المستشفى مريضاً جسمياً  
لا مريضاً عقلياً . وسألته عندئذ عن مرضه ، فقال انه لا يعرف عنه  
شيئاً ، ولكن صحته جيدة ، وان ابنة الكولونيل قد وقعت في غرامه ،  
ذلك أنها قد مرت بمركز الحرس منذ أسبوعين ، بينما كان هو ينظر  
من خلال القضبان الحديدية ، فما ان رآته حتى هامت بحبه . ومنذ تلك  
اللحظة جاءت الى مركز الحرس ثلاث مرات منتحلةً أعذاراً شتى :  
ففي المرة الأولى جاءت مع أبيها بحجة أنها تريد أن ترى أخاها الذي كان  
ضابطاً مناوباً ، وفي المرة الثانية جاءت مع أمها بحجة توزيع صدقات على  
السجناء ، فلما مرت أمامه همست تقول له انها تحبه وانها ستخرجه من  
السجن . روى لي هذه السخافة ذاكرة تفصيل دقيقة كثيرة ، وكانت  
القصة كلها من اختراع عقله المختل . كان يؤمن ايماناً كاملاً بأنه سيعفى  
من العقوبة ؛ وكان يتكلم بكثير من الهدوء والثقة عن الحب الملتهب الذي  
تضمّره له تلك الأنسة . ان هذا الاختراع الخيالي الغريب ، وهو أن  
تحب فتاة راقية رجلاً في نحو الخمسين من عمره دميماً هذه الدمامة  
متجهماً هذا التجهم مشوها هذا التشويه ، يدلنا دلالة واضحة على مدى  
الفرع الذي أثارته العقوبة في نفس هذا الانسان الوجل . لعله قد  
رأى أحداً من بين القضبان حقاً ، فاذا بالجنون الذي بذره الخوف  
المتعظم في نفسه ، يأخذ عندئذ شكله ؛ واذا بهذا الجندي الشقي الذي  
لعله لم يفكر يوماً في الآساة ، يخترع روايته هذه على الفور ، ثم اذا  
به يتشبث بهذا الأمل تشبث الفريق بقشة . أصغيت الى كلامه صامتاً ،

ثم رويت القصة للسجناء الآخرين • فلما سأله هؤلاء عن حقيقة الأمر مستطلعين مدهوشين لزم الصمت ولم يجب بشيء • واستجوبه الطبيب من الغد فأكد له المجنون أنه ليس بمرضى ، واذ لم يكشف الفحص عن وجود مرض فيه ، سجل الطبيب على بطاقته أنه صالح لمفادرة المستشفى • ولم نعلم بأن الطبيب قد كتب على البطاقة كلمة « معافى » الا بعد خروجه ، فلم نستطع أن نقول له شيئاً • ثم اتنا نحن أيضاً لم نكن نعرف ما به على وجه الدقة ، فانما الذنب ذنب الادارة التي أرسلته الينا دون أن تشير الى السبب الذى أرسل من أجله الى المستشفى • لقد ارتكبت الادارة بذلك اهمالاً لا يغتفر • ان الذين أمروا بنقل المريض الى المستشفى لا بد أن يكونوا قد لاحظوا عليه شيئاً ما ، ما داموا قد أرادوا أن يوضع المسكين تحت المراقبة • مهما يكن من أمر فقد اقتيد بعد يومين للجسد • ويظهر أنه قد بُهت لهذا العقاب الذى لم يكن فى حسبانته ، فقد كان الى آخر لحظة يعتقد أنه سيحظى بعفو ، فلما جعل أمام صف الجنود طفق يصرخ مستجيراً مستنجداً • ولم يعيدوه فى هذه المرة الى قاعتنا التى لم يكن فيها سرير خال ، وانما أخذوه الى القاعة الأخرى • وقد سألت عنه فعلمت انه ظل خلال ثمانية أيام لا ينطق بكلمة واحدة من شدة شعوره بالخجل والحزن ••• فلما شفى ظهره أرسلوه لا أدري الى أين ، ثم لم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك قط •

فيما يتعلق بالعلاج والأدوية ، أستطيع أن أقول اذا صدق حكيمى ان أولئك الذين لم يكن بهم مرض خطير كانوا لا يكادون يتبعون أبداً أوامر الأطباء ولا يتجرعون أدويتهم ، على حين أن المصابين بأمراض ذات بال كانوا يحبون أن يعالجوا أنفسهم ، فهم يتناولون أدويتهم شراباً وسفوفاً بانتظام ، مع ايثارهم المعالجات الخارجية • كانوا يصبرون على الحجامة والعلق والفصد واللبائخ ويشعرون من احتمالها بشيء من اللذة ،

فالى هذا الحد يؤمن الشعب ايماناً أعمى بهذه الأنواع من المداواة • وقد  
 لفت نظرى وأثار اهتمامى أمر آخر: ان بعض الناس الذين كانوا يصبرون  
 صبراً جميلاً على آلام العصى والسياط الكريهة لانوا يعضون على شفهم  
 ويثنون حين تجرى لهم حجمة بسيطة • أتراهم قد ألفوا الدلال أم  
 تراهم يمثلون تمثيلاً ؟ يجب أن نعترف أن الحجمة فى مستشفانا كانت  
 تتم بطريقة خاصة ، فى عهد لا يتذكره الآن أحد ، تلت الآلة التى  
 يُشقُّ بها الجلد فوراً - أتلغها الممرض أو تلت من تلقاء نفسها -  
 فأصبح لا بد من الاستغناء عنها بالمبضع • ان حجمة واحدة تحتاج أن  
 يحز الجلد اثنى عشرة حزة • وهذه الحزات لا تؤلم كثيراً اذا تم  
 اجراؤها بالآلة ، فان للآلة اثنى عشرة شفرة تشق الجلد دفعة واحدة  
 قبل أن يتسع الوقت للمشعور بالألم • ولا كذلك المبضع الذى يشرط  
 الجلد ببطء ويحدث ألماً كبيراً • فاذا احتاج المريض الى الحجمة عشر  
 مرات مثلاً ، كان ينبغى أن يحز جلده مئة وعشرين حزة على التوالى •  
 ولا بد أن يصبح هذا شاقاً أليماً ؟ ولقد عانيت به بنفسى ، فلاحظت أنه مزعج  
 حقاً ، ولكنه ليس مزعجاً الى الحد الذى يستحيل معه على المرء أن  
 يمسك عن التوجع والأين • لا شىء أبعث على الضحك من رؤية رجال  
 أقوياء يتشكون ويتفجعون ويتلوون على هذا النحو • ألا ان فى وسع  
 المرء أن يشبههم بأولئك الرجال الذين لا يهزم انفعال فى شان من  
 الشئون الخطيرة ثم اذا هم فى بيوتهم أصحاب نزوات ، لا يكفون عن  
 الشكاة والشجار لأنفه الأمور ، يرفضون ما يقدم اليهم من طعام ،  
 ويؤنبون ويقرعون وينهرون ، ويعدون كل شىء معوجاً مقلوباً، وتغضبهم  
 وتمينهم وتعذبهم أيسر الترهات ، فكأن فرط الشحم قد أبطرهم كما  
 تقول العامة • ان أصحاب هذه الطباع كثيرون فى السجن ، بسبب الإقامة  
 المشتركة الاجبارية • ولقد كان السجناء يأخذون فى التندر على البطر

من هؤلاء البطرين ، أو يكتفون بانغراقه بسيل من الشتائم ، فاذا هو عندئذ يسكت ، كأنه كان لا ينتظر الا ذلك حتى يلزم الصمت . وكان أوستياتسيف خاصة يكره التصعيرات والتشكيرات ، فلا تعرض فرصة من الفرص الا ويتهزها للتهجم على أصحاب الجلد الرقيق هؤلاء ؛ ثم انه كان لا ينسى قط أن يرد الناس الى التزام النظام واتباع الأصول . تلك حاجة لديه ولدها المرض كما ولدها الغباء . فكثيراً ما كان يتفق له أن ينظر اليك محدقاً ، ثم يأخذ يلقنك الدرس بصوت هادىء مقتنع . وكان يبلغ من اجادة التقرير أن المرء يمكن أن يحسب أنه مكلف بالاشراف على استتباب النظام . كان السجناء يقولون عنه ضاحكين :

— لا بد له أن يدس أنفه فى كل شيء ! ...

ولكن السجناء كانوا يتحاشونه ويتجنبون أن يتشاجروا معه ولا يسمحون لأنفسهم بأكثر من سخرية خفيفة ، بين الفينة والفينة .

— ما أكثر ما يتوجع ! انك لتستطيع أن تملأ بشكاواه ثلاث عربات !

— ان المرء يضع لعابه سدى مع أبله كهذا الأبله . ضربة واحدة بالمبضع تجعله يجأر ... هلاً صبر قليلاً ! بعد الحرّ يأتى البرد ...

— ما شأنكم أتم آخر الأمر ؟

هكذا جرى الحديث ذات مرة ، فاذا بواحد من السجناء يقاطع الآخرين قائلاً على حين فجأة :

— لا يا أبنائى ! ليست الحجامة شيئاً ذا بال ... لقد جربتها ... وانما أصعب التعذيب أن تشد الأذن مدة طويلة ... فانفجر الجميع مقهقهين .

ـ فهل شدّت أذناك مدة طويلة ذلك الطول كله ؟  
ـ طبعاً •

ـ أفسبب هذا تنتصبان اذن عاليتين هذا العلو ؟

ان هذا السجين ، واسمه شابكين ، كان له أذنان طويلتان منتصبتان  
حقاً • انه متشرد قديم ، ما يزال شاباً ، وهو ذكى هادى ، يتكلم مازحاً ،  
ولكن مزاحه اللطيف يخفى تحت مظهر من الجسد ، فيضفى ذلك على  
أقاصيصه كثيراً من الفكاهة والهزل •

وهذا أوستياتسييف ينهض واقفاً ويستأنف كلامه مستاءً فيقول :

ـ كيف أستطيع أن أعرف أن أذناك قد شدت أيها النجى ؟

اتجه اوستياتسييف الى شابكين رغم أن شابكين كان يخاطب الجميع •  
ولكن شابكين لم يرض أن يأبه له أو أن يلتفت اليه •

سأله أحدهم :

ـ من الذى شد أذنيك ؟

ـ من الذى شد أذني ؟ رئيس الشرطة يا عزيزى ، بسبب التشرد  
أيها الرفاق • كنا قد وصلنا الى مدينة ك ••• أنا ومتشرد آخر اسمه  
افيم ( هذا هو اسمه كله فانه لم يكن له اسم أسرة ) • كنا قد استطعنا  
أثناء الطريق أن نسطو على شىء عند فلاح فى قرية تولينا ••• نعم توجد  
قرية تسمى هكذا ••• تولينا ••• فلما وصلنا الى المدينة ، أخذنا ننظر  
حولنا عسى نستطيع أن نضرب ضربة ثم نهرب • ان الانسان فى الحقول  
حر كالهواء ، ولا كذلك فى المدينة ••• دخلنا أولاً الى خمارة •••  
ألقينا نظرة ونحن نفتح الباب ••• هذا فتى يقبل علينا ••• انه يرتدى  
رداءً ألمانياً مثقب الكمين عند الكوعين ••• تكلمنا فى أمور شتى •••  
قال لنا :

– هل عندكما أوراق ؟ \*

– لا ♦♦♦ ليس عندنا أوراق ♦

– ونحن أيضاً ليس عندنا أوراق ♦ ان معى رفيقين يعملان فى خدمة الجبرال « وقواق » \* ♦♦♦ لقد أنفقنا كثيراً فلم يبق معنا فرش واحد ، فهل لى أن أسألكما أن تطلبنا لنا لترأ من الخمر ؟  
أجبناه :

– على الرحب والسعة ♦♦♦

شربنا معا ♦ دلثونا عندئذ على مكان نستطيع أن نضرب فيه ضربه طيبة ♦ هو بيت فى آخر المدينة ، يملكه غنى من الأغنياء ♦ فى البيت أشياء كثيرة ♦ قررنا أن نقتحم البيت فى الليل ، فما ان حاولنا أن نفعل ذلك نحن الخمسة ♦ حتى قبضوا علينا واقتادونا الى المركز ثم الى رئيس الشرطة ♦ قال رئيس الشرطة :

– سأستجوبكم بنفسى ♦

وأخرج غليونته وجيء له بفتجان من الشاي ♦ انه فتى قوى الجسم على عارضيه لحيان جميلتان ♦ جلس رئيس الشرطة ♦ كان هناك ، عدانا نحن الخمسة ، ثلاثة متشردين آخرون قد اقتيدوا الى مركز الشرطة منذ قليل ♦ غريب أمر المتشرد يا رفاق ! انه ينسى كل ما يعمل ؛ ولو هويت على رأسه بهراوة غليظة لأجابتك مع ذلك بأنه لا يعرف شيئاً وبأنه نسي كل شيء ♦ التفت رئيس الشرطة نحوى وسألنى بلهجة حازمة :

– من أنت ؟

فأجبت به بما يجيب به جميع المتشردين ♦ قلت له :

– لا أتذكر شيئاً يا صاحب النبالة ♦



قال :

– انتظر ! ان لى معك لحديثاً ! أنا أعرف هذا الوجه •

وأخذ يتفرسنى محدقاً • لم أكن قد رأيتة مع ذلك فى أى مكان  
واتجه الى الثانى يسأله :

– ما اسمك ؟

– اسمى يا صاحب النبالة هو « اذهب من هنا » •

– اسمك « اذهب من هنا » ؟

– هكذا يسمونى يا صاحب النبالة !

– طيب ••• انت اسمك « اذهب من هنا » وأنت ؟

كذلك سأل الثالث فأجابته :

– اسمى يا صاحب النبالة « معه »

– ولكن ما اسمك ؟

– اسمى يا صاحب النبالة « معه » •

– من سماك بهذا الاسم يا وغد ؟

– أناس طيبون يا صاحب النبالة • ما أكثر الناس الطيبين على هذه

الأرض ! صاحب النبالة يعرف هذا حق المعرفة •••

– ولكن من هم هؤلاء الناس الطيبون ؟

– نسيت قليلاً يا صاحب النبالة ! كن كريماً فاغفر لى هذا النسيان!

– اذن نسيتهم جميعاً هؤلاء الناس الطيبين ؟

– جميعاً يا صاحب النبالة •

– لقد كان لك مع ذلك أهل • كان لك أب وأم فهل تتذكرهما ؟

- لا بد أن قد كن لي أهل يا صاحب النبالة • ولكنني نسيت هذا
- أيضا ! ••• ربما كان لي في الماضي أهل يا صاحب النبالة •
- ولكن أين عشت حتى الآن ؟
- في الغابة يا صاحب النبالة !
- دائما في الغابة ؟
- دائما في الغابة •
- وفي الشتاء ؟
- ليس لي شتاء يا صاحب النبالة •
- طيب وأنت ما اسمك ؟
- اسمي « الفأس » يا صاحب النبالة •
- وأنت ؟
- « الميسن<sup>٢</sup> » يا صاحب النبالة •
- وأنت ؟
- اسمي يا صاحب النبالة « اخرج ولا تخف » •
- ونسيتم جميعا كل شيء ؟
- كل شيء •

ويأخذ رئيس الشرطة في الضحك واقفاً ، ويأخذ الآخرون في الضحك متى رأوه يضحك • غير أن الأمور لا تجرى دائماً على هذه الصورة ، فربما انهالوا عليك أحيانا بقبضات أيديهم يضربونك ضرباً يكسر أسنانك • ما أقواهم وما أسمنهم هؤلاء الرجال ! •••

قال رئيس الشرطة :

- خذوهم الى السجن . . . سألهم بهم فيما بعد .

وأضاف يقول لى :

- أما أنت فابق ! اجلس هناك ! . . .

نظرت فرأيت ورقاً وريشة وحبراً . قلت لنفسى : « ما عساه يريد أن يعمل أيضا ؟ »

كرر يقول لى :

- اجلس ! امسك الريشة و اكتب !

وما هو ذا يقبض على أذنى ويشدها . نظرت اليه كما ينظر الشيطان الى كاهن ، وقلت له :

- لا أعرف الكتابة يا صاحب النبالة !

فقال :

- اكتب .

قلت :

- رحماك يا صاحب النبالة !

قال :

- اكتب كما تستطيع ! اكتب !

وظل يشد أذنى ، يشدها ويعقفها . آه يا رفاق ! لو خيرت بين شد الأذن هذا وبين تلقي ثلاثمائة جلدة لآثرت الثانية . عذاب كعذاب جهنم ! وظل يقول لى : اكتب ! . . .

سأل السجناء صاحبهم شابكين :

- أترأه جن ؟

فأجاب شابكين :

- لا يا أصحابي ! ان أحد الموظفين كان قبل ذلك بزمن يسير قد ضرب ضربة في مدينة توبولسك •• سرق صندوق الحكومة وفسرّ بالمال ! كان له هو أيضاً أذنان طويلتان • وقد أبلغت جميع مراكز الشرطة النبأ فكانت أوصافى تتفق وأوصاف السارق ! ذلكم هو السبب في أنه عذبنى ذلك التعذيب بقوله : اكتب ! أراد أن يعرف هل كنت أحسن الكتابة وكيف كانت كتابتى •••

صاح أحد السجناء يقول :

- يا للماكر ! هل أوجعك ؟

- لا تذكرونى •

وانفجر الجميع يقهقهون • سأل أحدهم :

- وهل كتبت ؟

- ماذا كان فى وسعى أن أكتب ؟ لقد أجريت قلمى على الورق فما زلت أجرّيه حتى كف عن تعذيبى : انهال على بدسته من الصفحات الممتازة ثم تركنى أذهب ••• الى السجن طبعاً •

- وهل تحسن الكتابة حقاً ؟

- نعم كنت أحسن الكتابة • كيف لا ؟ ولكننى منذ استعملت الأقلام

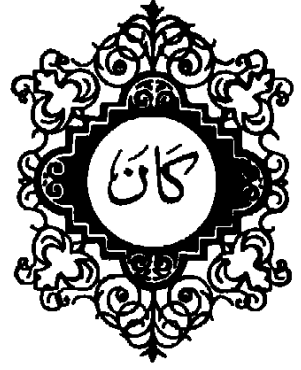
نسيت نسياناً تاماً ! •••

تلکم هى الحكايات أو قولوا الثمرات التى كنا نقتل بها الوقت • رباہ ! ياله من ضجر رهيب ! يا له من سأم مميت ! كانت الأيام طويلة خانقة رتيبة ! كانت متشابهةً تشابهاً فظيماً ! ليتنى كنت أملك كتاباً على الأقل ! ومع ذلك كنت أذهب الى المستشفى أحياناً كثيرة ، ولا سيما فى بداية عهدى بالسجن ، اما عن مرضٍ واما نشداناً للراحة وابتغاء للخروج من السجن • كانت الحياة فى السجن أليمة ، كانت أشد ايلاماً من الحياة

فى المستشفى ، ولا سيما من الناحية النفسية • فى السجن كانت تقابلنى دائماً تلك البغضاء وتلك العداوة وتلك الرغبة فى المشاجرة والاستفزاز والتحدى التى تتأجج فى نفوس السجناء حين يروننا نحن النبلاء ••• كنت أرى دائماً تلك الوجوه المهددة المتوعدة الكارهة المبنضة • أما فى المستشفى فنحن نعيش على الأقل رفاقاً متساوين • وكانت الأمسيات وبدايات الليل أقسى لحظات اليوم • كنا نرقد فى ساعة مبكرة ••• هذا سراج أَدخَن تَهتر أشعته فى اخر القاعة قرب الباب كنقطة ساطعة ، ونحن فى ركننا غارفون فى ظلمة توشك أن تكون تامة • الهواء فاسد موبوء خانق • بعض المرضى لا يجدون سبيلاً الى النوم ، فهم ينهضون ويلبثون جالسين على سررهم ساعة كاملة مطرقين كأنهم يفكرون فى شىء • انى أنظر اليهم وأحاول أن أحزر ما يفكرون فيه بغية أن أقتل الوقت ، ثم آخذ أحلم ، أحلم بالماضى ، فيعرض لخيالى لوحات قوية عريضة ، وأتذكر تفاصيل ما كان لى أن أتذكرها فى ظرف آخر وما كان لها أن تحدث فى نفسى تأثيراً عميقاً كالتأثير الذى تحدثه فى نفسى الآن ؛ وأحلم بالمستقبل فأتساءل : « متى سأخرج من السجن ؟ أين سأمضى ؟ ما الذى سيحدث لى حينذاك ؟ هل أعود الى بلدى مسقط رأسى ؟ ••• » • وأفكر ثم أفكر ويأخذ الأمل ينبت فى نفسى • وفى مرة أخرى أخذت أعد : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، الخ ، بغية أن أنام أثناء العد • كنت أصل أحيانا الى ثلاثة آلاف ثم لا أستطيع أن أغفو ! هذا اوستيانسيف يسعل ذلك السعال الفاسد المتفسخ المعهود فى المصدورين ، ثم هذا هو يثن أننا ضعيفا ويتمم كل مرة قائلاً : « رباه قد أئمت ! » يالهذا الصوت المريض الواهى المضعف المتكسر ما أشد الذعر الذى يثيره سماعه فى النفس وسط الهدوء الشامل ! وهؤلاء مرضى فى ركن من الأركان لم يستطيعوا أن يناموا بعد ، فهم يتحدثون بصوت خافت

مضطجعين على مراقدهم • ان واحداً منهم يقص ماضيه ، يروي أشياء بعيدة منقضية ، يتكلم عن تشرده ، عن أولاده ، عن امرأته ، عن عاداته القديمة • ويدرك السامع من لهجة الرجل أن لا شيء من هذا كله سيعود بعد الآن ، وأن لا شيء من هذا كله سيوجد بالنسبة اليه في يوم من الأيام ، وأنه عضو من الأعضاء بتر ورمى • ان سجيناً آخر يصفى اليه • الحديث يجرى وشوشة ضعيفة ، همساً واهناً ، كخزير الماء في مكان ما ، هناك ، بعيداً جداً ••• أذكر أنني في ذات مرة ، أثناء ليلة طويلة من ليالى الشتاء لا نهاية لطولها ، سمعت قصة بدت لي في أول الأمر حلماً يتمم به رائيه أثناء كابوس ، حلماً يراه صاحبه أثناء نوبة حمى ، أثناء هذيان ••••

# زوج آل الكا قصة



ذلك في وقت متأخر من الليل ، بعد الساعة  
الحادية عشرة • كنت قد نمت منذ زمن فاذا أنا  
أستيقظ منتفضا • ان الضوء الكابى الضعيف  
الذى ينشره السراج البعيد لا يكاد يضىء  
الغرفة ••• وكان جميع الناس تقريبا قد ناموا ، حتى اوستيانيسيف \*  
كنت أسمع فى هدأة الليل تنفسه الشاق الصعب ، وأسمع حشرات  
حلقة عند كل شهيق • لقد ترجع فى حجرة المدخل وقع الأقدام الثقيلة  
البعيدة ، أقدام دورية الحراسة التى كانت تقترب • وهذا أخمص بندقية  
يقرع الأرض قرعاً أصم • فُتح الباب ، وعدَّ العريف المرضى وهو يسير  
محاذراً ، فما هى الاً دقيقة حتى عاد يغلِق الباب • وحل محلّه عسس  
جديد • ابتعدت الدورية وران الصمت من جديد • عندئذ فقط لاحظت  
على مسافة غير بعيدة منى سجيين لم يناما وكأنهما يتهاوسان بشيء • انه  
ليتفق أحيانا لسجينين يرقد أحدهما الى جانب الآخر ، دون أن يكونا قد  
تبادلا كلمة واحدة خلال أسابيع بل خلال أشهر بكاملها ، أن يشرعا فى  
حديث على حين غرة وسط الليل فاذا بأحدهما يقص على صاحبه ماضيه •

لعلهما كانا يتحدثان منذ مدة طويلة • اتنى لم أسمع بدايه  
حديثهما ولا أدركت كل شيء من الوهلة الاولى • ولكننى ألفت هذا  
الهمس شيئاً فشيئاً ففهمت القصة كاملة • لم تكن بى رغبة فى النوم فما  
عساي افعل الا ان أصغى ؟ ••• كان أحد الرجلين يقص على صاحبه  
حكايته بحرارة ، راقدا على سريره نصف رقاد ، رافماً رأسه ، مائلاً  
به نحو صاحبه • كان واضحاً أن فى نفسه غلياناً شديداً واهتياجاً قويا •  
كان يجب أن يتكلم • أما صاحبه فقد كان جالساً على سريره مظلم  
الوجه قليل الاكترات باسطاً ساقيه على الفراش يجيب رفيفه من حين الى  
حين ببضع كلمات من قبيل اللبافة ويستشوق فى كل لحظة شيئاً من  
سعوط يتناوله من علبة خاصة • انه الجندى تشيريفين الذى  
ينتمى الى فئة التآديب ، وهو امرؤ متحذلق متجهم الوجه بارد  
الشعور مباحك غبى أنانى ؟ أما صاحبه الذى كان يروى قصته فهو  
سجين مدنى اسمه شيشكوف ، فى نحو الثلاثين من عمره ، لم التفت ايه  
قبل ذلك فى يوم من الأيام ، ولا شعرت نحوه طول مدة اقامتى فى السجن  
يشيء من الاهتمام ، ذلك أنه كان رجلاً ضحل العقل طائش اللب • كان  
فى بعض الأحيان يلبث صامتاً أسابيع بكاملها كتيب المزاج فظ المعاملة  
شرس الطبع ثم اذا هو يتدخل فى امر من الأمور على حين فجأة فيشير  
الضجة والصخب ويتحمس لأتفه الترهات ويهرف بما لا يعرف ويتنقل  
من ثكنة الى ثكنة يفتاب الناس ويرسل هاجر القول ويبدو خارجاً عن  
طوره ، حتى اذا ضربوه عاد يلزم الصمت من جديد • واذ كان نذلاً  
جباناً فقد كان السجناء يعاملونه باحتقار • انه رجل قصير القامة نحيل  
الجسم له عيان زائعتان أو قل حالمتان على غباوة وبلاهة • كان اذا حكى  
شيئاً من الأشياء اندفع يتكلم بحرارة وحرك ذراعيه ثم اذا هو يتوقف  
عن الكلام فجأة أو ينتقل الى موضوع آخر فيضيع فى تفاصيل جديدة ثم



ينسى أخيراً الموضوع الذى كان يتكلم فيه • وكان شيشكوف كثير المشاجرة ، حتى اذا أخذ يعاتب خصمه تكلم بلهجة عاطفية ، وأوشك أن يبكى • وكان يحسن العزف على البالالايكما ويحبها حباً عظيماً حتى لقد كان يرقص فى أيام الأعياد فيحسن الرقص اذا دعاه الى الرقص أحد أو حضه عليه ••• ( ما أسرع ما كان يستطيع غيره أن يحمله على فعل ما يشاء لا لأنه كان طبعاً بل لأنه يحب ان يكون له رفاق وان يرضيهم ) •

لبثت زمناً لا أستطيع أن أفهم ما كان يقصه شيشكوف • وكان يبدو لى أنه لا ينفك يترك موضوعه ويمضى يتكلم فى موضوع آخر • لعله كان قد لاحظ أن تشيريفين لا يصنى الى قصته كثيراً ولكننى أعتقد أنه كان يريد أن يتجاهل قلة الاكترات هذه من جانب شيريفين وان لا يتأثر بها أو يستاء منها •

تابع كلامه يقول :

- ••• فكان اذا مضى الى السوق حيّاه جميع الناس وعظموه ويجلوه ••• رجل واسع الثراء عريض الغنى ! •••  
- قلت انه كانت له تجارة ؟

- نعم تجارة ! الصناعات عندنا فقراء : هم الفاقة بعينها • النساء يذهبن الى النهر فيجئن بالماء من مكان بعيد جداً يسقين به حدائقهم ويضنين أجسادهن ويرهقن أنفسهن ومع ذلك لا يملكن حين يأتى الخريف ما يصنعن به حساءً بالكرب • هى حالة دمار كامل • ولكن ذلك الرجل كان يملك قطعة كبيرة من الأرض يفلحها عماله الثلاثة ، وكان يملك عمائر نحل يبيع عسلها وكان يتعاطى تجارة الماشية ••• الخلاصة كان الناس عندنا يحترمونه ويكبرونه • وكان طاعناً فى السن أشيب الشعر تماماً • انه فى السبعين من عمره • فعظامه الهرمة تنوء بحمل

هذه السن • كان اذا جاء الى السوق مرتدياً فروته المصنوعة من جلد الثعلب حيّاه جميع الناس قائلين :

« - يومك سعيد يا أنكوديم تروفيمتش •

« - يومك سعيد ، كيف صحتك ؟

« - كذا لا يحتقر أحداً •

« - أطل الله بقاءك يا أنكوديم تروفيمتش !

« - كيف أحوالك ؟

« - حسنة بمقدار ما يكون السخام أبيض وكيف أحوالك أنت

يا أنكوديم تروفيمتش ؟

« - نعيش لخطايانا ••• تعب كامل الأرض •••

« - أطل الله عمرك يا أنكوديم تروفيمتش •

« - كان لا يحتقر أحداً • كانت نصائح ثمينه • كل كلمة من كلماته

تساوى روبلاً • وكان قراء من الطراز الأول ، لأنه كان عالماً ••• كان

لا ينفك يقرأ كلام الله ••• كان ينادى امرأته العجوز فيقول لها :

« - اسمعي يا امرأة ! افهمي ما أقوله لك •••

ثم يمضي يشرح لها • ولم تكن العجوز ماريًا ستبانوفنا عجوزا ان

شئت ، فهي امرأته الثانية تزوجها لينجب منها ، لأن امرأته الأولى لم

تلد • كان له ابنان ما يزلان صغيرين ، فان الثاني فاسيا قد ولد حين

شارف أبوه على الستين ، وكانت ابنته آكولكا ، كبرى أولاده ، في الثامنة

عشرة من عمرها •

سأل تشيريفين صاحبه شيشكوف :

- هي زوجتك ، أليس كذلك ؟

- انتظر لحظة • أخذ فيلكا ماروزوف يضع ويصخب • قال

لأنكوديم :

« - هلمّ نقسم! أرجع الىّ روبلاتي الأربعمائة ! أنا لست أجيرك ، ولا أحب أن أتاجر معك ، ولن أتزوج ابنتك آكولكا ! أريد أن أقصف ، ولأشربنّ خمراً بمالي كله بعد أن مات أبواي ؛ ثم أؤجر نفسي ، أي أخطر جندياً في الجيش ، فما هي إلاّ عشرة سنين حتى أعود الى هنا ضابطاً كبيراً برتبة فيلد مارشال •

رد اليه أنكوديم ماله ، رد اليه كل ما كان له عنده • ذلك انه كان في الماضي يتاجر مع والد فيلكا برأس مال مشترك • رد اليه ماله وقال له :

« - أنت يا بني رجل ضائع •

فأجابه الشاب :

« - سواء أكنتُ ضائعاً أم لم أكن ياذا اللحية الشيباء ، فانك أكبر بخیل عرفته في حياتي ! انك تريد أن تصنع فروة بأربعة كوبيكات ! تضم القرش الى القرش وتلتقط من الأرض كل الأوساخ التي يتصورها الخيال لتستعملها وتتفع بها ! انني أريد أن أبصق على هذا ! انك تدخر وتكنز لا يدرى إلاّ الشيطان لماذا ! أما أنا فصاحب ارادة قوية وعزيمة جبارة ! ولن أتزوج ابنتك آكولكا ! يكفيني أني نمت معها •••

« - كيف تجرؤ أن تلتطح بالعار أباً شريفاً وفتاة شريفة ؟ متى نمت

معها يا شحم أفعى ، يا دم كلب ؟

كذلك قال له أنكوديم وهو يرتجف غضباً ( ان فيلكا هو الذي

روى ذلك فيما بعد ) • وأردف فيلكا يقول للشيخ :

« - لن يكفينى أن لا أتزوج ابنتك بل سأفعل كل ما يجب أن أفعله من أجل أن لا يتزوجها أحد حتى ولا ميكيتا جريجورينش ، لأن شرفها قد تلتطخ ! لقد عاشرتها منذ الخريف الماضى . ولكننى لن أتزوجها بحال من الأحوال . لو أعطيتنى ملك الدنيا ما تزوجتها ! ... »

وأخذ الفتى يلهو ويقصف مستكبراً مستعلياً مدلاً بنفسه ! وصاحت المدينة كلها متفجعة متوجعة . وأصبح للفتى رفاق يحسدون حوله لأنه يملك مبلغاً كبيراً من المال . وظل ثلاثة أشهر ينفق متلفاً مبذراً حتى أتى على آخر قرش فى يده . كان يقول : « أريد أن أرى نهاية هذا المال ، وبعد ذلك سأبيع البيت ، وسأبيع كل شيء ، ثم أنخرط جندياً فى الجيش ، أو أضرب فى الارض متشرداً » . كان يسكر من الصباح الى المساء ويتنزّه فى عربة يجرها حصانان وتجلجل فيها أجراس وكانت الفتيات هى التى تحبه لأنه كان يجيد العزف على التوربا ... »

سأل شيريفين رفيقه :

- هل صحيح أنه كان قد عاشر آكولكا تلك ؟

- انتظر ! رجعت من دفن أبى . كانت أمى حينئذ تصنع كعكاً . كنا نعمل لحساب أنكوديم فكان هذا يدر علينا ما يقيم الأود . غير أن حياتنا كانت شاقة . كن لنا أرض وراء الغابة نزرعها قمحاً . ولكن حين مات أبى رحى ألهو وأقصفت فكنت أجبر أمى على أن تعطينى مالاً بضربها ضرباً مبرحاً ... »

- أخطأت اذ ضربتها ! ذلك اثم كبير ! ... »

- كنت فى بعض الأحيان أظل ثملاً طوال النهار . وكان لنا بيت لا بأس به . صحيح أنه متداع عفن ، ولكنه ملك لنا . وكنا نتصور جوعاً

••• كانت تنقضى أسابيع بكاملها ونحن لا نملك ما نسد به رمقنا • وكانت  
أمي ترهقني بسخافاتنا وتقتلني بحماقاتها ولكنني لم أكن أبالي ••• كنت  
لا أترك فيلكا ماروزوف • وانما نبقى معاً في الليل والنهار • كان  
يقول لي :

« - اعزف لي على القيثارة ، وسأظل أنا مضطجعاً وسأرمي لك مالاً

لأنني رجل غني •

كان لا ينفك يتكرر ويخترع ، ولكنه لا يمد يده الى مال مسروق ،

فهو يقول :

« - ما أنا بسارق ! أنا رجل شريف !

وكان يهيب بنا قائلاً :

« - هلموا نلطنح باب آكولكا بالقطران \* لأنني لا أريد أن تتزوج

ميكيتا جريجوريتش ! أنا أحرص على هذا الآن أكثر مما كنت أحرص  
عليه في أي وقت مضى •••

وكان الشيخ يريد منذ زمن طويل أن يزوج ابنته ميكيتا

جريجوريتش : هو رجل متقدم في السن ماتت عنه امرأته ، يعمل تاجراً

ويضع على عينيه نظارتين ••• فلما سمع ما أشيع عن سوء سلوك آكولكا

قال للشيخ :

« - سيكون ذلك عاراً كبيراً عليّ يا أنكوديم تروفيمتش • ثم انني

لا أريد أن أتزوج الآن فقد تجاوزت سن الزواج •

لطنحنا باب آكولكا بالقطران • وضربوا آكولكا في البيت بسبب ذلك

حتى كادت تموت • كانت أمها ماريا ستيانوفنا تصيح قائلة : « لسوف

يقتلني هذا العار قتلاً • • » وكان أبوها الشيخ يقول : « لو أننا في عهد

البطارقة لكان من حقى أن أقطعها تقطيعاً ولكن كل شيء في هذا الزمان قد استحال عفونة وفساداً على هذه الأرض ، وكان الجيران في بعض الأحيان يسمعون عويل آكولكا من أول الشارع الى آخره . كان أهلها يجلدونها من الصباح الى المساء . وكان فيلكا ينادى في السوق قائلاً لجميع الناس :

« - ما أحسن هذه البنت آكولكا رفيقة سكر ! ... لقد صفتهم على بوزهم ولسوف يتذكروني ما عاشوا !

وفي ذات يوم صادفت آكولكا ذاهبة تملأ قواديسها ماءً فصحت أقول لها :

- نعمت صباحاً يا آكولينا كوديموفنا ! تحية لطهارتك ! قولي لي مع من تعيشين ومن أين تجيئين بالمال حتى تبختری هذا التبخر ؟ قلت لها ذلك ولم أضف شيئاً . فنظرت الى محملقة بعينين واسعتين . . . كانت قد نحلت نحولاً شديداً حتى أصبحت كالعود هزلاً . لم تزد على أن نظرت الى . . . ولكن أمها التي ظنت أنها كانت تمازحني صاحت تناديهما من على عتبة الباب قائلة لها :

- ما حديثك معه يا قليلة الحياء ؟

وعادت في ذلك اليوم تضربها من جديد .

كانت تضربها في بعض الأحيان ساعة كاملة وتقول : « أنا أجلدها

لأنها لم تعد بنتي » .

سأله تشيريفين :

- كانت اذاً فاجرة ؟

- انتظر حتى أحكى لك يا صاحبي ! كنا لا نزيد على أن نسكر

مع فيلكا . وفي ذات يوم ، بينما كنت راقداً ، جاءت أمي وقالت لي :

– لماذا تظل راقداً أيها الوغد ، أيها اللص ؟

شتمتني في أول الأمر ثم قلت لي :

– تزوج آكولكا ! لسوف يسرهم أن يزوجوكها ولسوف يدفعون لك بائنة قدرها ثلاثمائة روبل •

فأجبتها بقولي :

– ولكن جميع الناس يعلمون الآن أن شرفها ملطخ •

– حيوان ! هذا كله يزول متى وضع على رأسها اكليل الزواج !  
ثم ان ذلك سيجعل حياتك معها أفضل ، فستظل ترتعد خوفاً منك طول عمرها ، وسنعيش من مالها في سر وبجسوحة • لقد كلمت ماريًا ستيانوفنا في أمر هذا الزواج واتفقنا •

قلت لها :

– اذا أعطيتني عشرين روبلاً على الفور تزوجتها •

لك أن لا تصدق اذا شئت ، ولكن الحقيقة هي أنني ظلمت سكراناً الى يوم الزواج • وكان فليكا ماروزوف ما ينفك يهددني ويتوعدني ويقول لي :

– لأحطمن أضلاعك أيها الحقير الذي ارتضى أن يكون خطيب

آكولكا ، ولأضاجعنها كل ليلة اذا شئت !

أجبتة بقولي :

– أنت تكذب يا كلب •

لقد جللني بالعار أمام جميع الناس في الشارع • هرعت الى البيت •

أصبحت لا أريد أن أتزوج ما لم أعط خمسين روبلاً على الفور •

قال تشيريفين :

– وهل زوجوك اياها ؟

– زوجوني اياها ؟ لم لا ؟ نحن أناس لم يدنس شرفنا • ان حريقاً هو الذى دمر أبى قبل موته بقليل ، حتى لقد كن أبى أغنى من أنكوديم تروفيمتش • قال لى الشيخ أنكوديم :

– خلىق بمن كان مثلك بلا قميص أن يسعده كثيراً أن يتزوج

• ابنتى

فأجبتة :

– هل نسيت أن بابك قد لطح بالقطران ؟

– ما هذا الذى تقوله ؟ برهن لى على أن شرفها قد دنس •• اليك

الباب على كل حال ، فاذهب ان شئت ! ولكن ردّ الى المال الذى أعطيتك

• اياه

قررنا عندئذ مع فيلكا ماروزوف أن نرسل مترى بيكوف الى الأب

أنكوديم ليقول له اننى سأشهرّ بابنته أمام جميع الناس • وظللت حتى

يوم الزواج لا أفيق من السكر • ولم أصح الا فى الكنيسة • حين

أرجعونا من الكنيسة أجلسونا وقال عمها متروفان ستينانتش :

– لقد تم الأمر وانتهى رغم أنه غير نظيف •

كان الشيخ أنكوديم جالساً يبكى والدموع تسيل على لحيته

البيضاء • واليك أيها الرفيق ما كنت قد فعلته أنا : وضعت سوطاً فى جيبي

قبل الذهاب الى الكنيسة عازماً على أن أبهج قلبى باستعماله بغية أن يعلم

الناس أن أحداً لم يستطع أن يغرر بى وأن يخدعنى وبغية أن يعرفوا

هل أنا غبى حقاً •



قال تشيريفين :

- مرحى ... وبغية أن تدرك هي ماذا ينتظرها \*

- مهلاً يا صاحبي ! لقد جرت العادة عندنا أن يقاد الزوجان بعد حفلة الزواج رأساً الى غرفة على حدة ، بينما يبقى الآخرون يشربون منتظرين عودتهما \* تركونا نختلى \* كنت آكولكا ممتعة الوجه صفراء اللون مذعورة ذعراً شديداً ليس في خديها قطرة من دم \* وكان شعرها ناعم الملمس أشقر اللون وكانت عيناها واسعتين جداً \* ان آكولكاتصمت في جميع الأحيان تقريباً ، لا تكاد تتكلم ، حتى لقد يُظن أنها خرساء \* عجيبة آكولكا هذه ! لك أن تتصور الموقف : كان سوطى مهياً على السرير \* فهل تعلم ما الذى اكتشفته ؟ اكتشفت أنها بريئة ... بريئة كل البراءة ... لا أستطيع أن آخذ عليها شيء ... لقد كانت عذراء ...

- غريب !

- فعلاً ! كانت عذراء كأية فتاة عذراء شريفة \* فلماذا أيها الأخ ، لماذا تحملت ذلك العذاب كله ؟ لماذا شهّر بها فيلكا ماروزوف مقسرياً عليها ؟

- حقاً ! لماذا ؟

- عندئذ نزلت عن السرير ، وركعت أمامها ضاماً يديّ احداهما الى الأخرى ، وقلت لها :

- غفرانك يا آكولينا كوديموفنا ! سامحيني ، فقد كنت في غاية الحماقة والغباء والبلاهة حين صدقت تلك الوشائيات كلها ! عفوك عفوك ... ان أنا الا وغدا ! ...

كانت جالسة على السرير تنظر الىّ ، فوضعت يديها على كتفي ،

وأخذت تضحك ، ومع ذلك كنت الدموع تسيل على خديها . . . . كانت  
تتشنج وتضحك في آن واحد . . . . ثم خرجت الى الناس وقلت لهم  
جميعاً :

- ويل ليفلكا ماروزوف ! لو رأيته لانتقل فوراً الى العالم الآخر !

فرح الأبوان فرحاً لا يوصف حتى أصبحا من شدة الفرح لا يعرفان  
ماذا يقولان . أوشكت أم آكولكا أن ترتمى على قدمي ابنتها وكانت  
تنشج نشيجاً قوياً . وقال الشيخ لابنته : « لو علمنا وعرفنا هذا كله  
يا ابنتنا الحبيبة ، ارتضينا لك مثل هذا الزوج » . لبتك رأيت ملابسنا  
ونحن نخرج من الكنيسة في أول أحد من ايام الأحاد بعد زواجنا .  
كنت أنا أرتدى قفطاناً من فاخر الجوخ وأضع على رأسي فبعة من فراء  
وأزين أكامي برائع المخمل ، وكانت هي تلبس معطفاً جديداً من  
فراء الأرنب وتجلل رأسها بوشاح من حرير . زوجان متكافئان . كان  
الناس جميعاً ينظرون إلينا معجبين . كنت حسن المظهر وسيم الطلعة .  
وكذلك كانت آكولينوشكا . ما ينبغي للمرء أن يمتدح نفسه وأن يفاخر  
بها ولكن ما ينبغي له أيضاً أن يفض من قدره وأن يحط من قيمته . . .  
ليس بين الأزواج دستات كثيرة منا . . . .

- طبعاً

- طيب ! اسمع التتمة . في غداة زواجنا هربت من ضيوفى . رغم  
سكرى وطفقت أركض في الشارع صائحاً : « أين ذلك الوغد فليكا  
ماروزوف ! اتونى بهذا الحقير ؟ ألا فليجىء الى هذا النذل ! كنت أعول  
بهذا الكلام في السوق . يجب أن أذكر لك اننى كنت في حالة سكر  
شديد . قبضوا علىّ مع ذلك قرب منزل أسرة فلاسوف . احتاجوا الى  
ثلاثة رجال من أجل أن يرجعونى الى البيت عنوة . صارت القصة حديث

الناس كلهم فى المدينة • أصبحت الفتيات اذا التقى بعضهن ببعض فى السوق تقول احدهن للأخرى : « هل علمت ؟ ان آكولكا عذراء ! » • وبعد ذلك بزمن قصير صادفت فليكا ماروزوف فقال لى جهاراً على رؤوس الأشهاد أمام غرباء :

– ما عليك الا أن تبيع زوجتك فتشترى بئمنها خمراً • افعلى ما فعله الجندى ياشكا ! انه لم يتزوج الا لهذا الغرض ، حتى أنه لم يضاجع امرأته مرة واحدة ، ولكنه على الأقل حصل على مال وفير يسكر به مدة ثلاث سنين •••

أجبتة :

– نذل •

فقال لى :

– غبى • لقد تزوجت وأنت فى حالة سكر لا تملك عقلك وشعورك ولم يكن فى وسعك أن تفهم شيئاً وأن تدرك الحقيقة •

وصلت الى البيت وصرخت أقول لهم :

– لقد زوجتمونى وأنا سكران •

أرادت أم آكولكا أن تتشبث بى ولكننى قلت لها :

– اليك عنى يا امرأة فانك لا تفهمين الا شؤون المال ! هاتى لى آكولكا ! وعندئذ انما أخذت أضربها ••• ظلمت أضربها يا صاحبى ساعتين كاملتين الى أن تهاويت أنا نفسى على الأرض ولم تستطع هى بعد ذلك أن تبارح السرير خلال ثلاثة أسابيع •

قال تشيريفين ببرود :

- طبعاً اذا لم نضربهن فانهن ... هل وجدتها مع عشيقها ؟

قال شيشكوف بعد صمت وهو يتكلم فى عناء :

- أبدا يا صاحبي ! لم يقع شيء من ذلك فى يوم من الأيام ! ولكننى شعرت بمهانة كبيرة ومذلة شديدة لأن جميع الناس كانوا يسخرون منى . ان فيلكا هو سبب ذلك كله . كان يقول لى :

- انما خلقت امرأتك ليستمتع بها الآخرون .

وفى ذات يوم دعانا الى بيته وها هو ذا يبدأ فيقول :

- انظروا الى هذه المرأة الطيبة ما أعظم رقتها وحنانها ونبلها وأدبها وعاطفتها وكرمها مع جميع الناس ! أتراك نسيت يا صاحبي أننا لطنخنا بابهم بالقطران معاً .

كنت حينئذ فى حالة سكر شديد . وها هو ذا يمسك شعرى ويشدنى شدا قويا يضطرني الى التمدد على الأرض دفعة واحدة وها هو ذا يقول لى : هيا ارقص يا زوج آكولكا . أنا أمسك شعرك وأنت ترقص لتسلينى وتسرى عنى .

- سافل

- سأجىء اليك مع الأصحاب أجلد امرأتك آكولكا ما شاء لى  
هواى ذلك .

هل تصدق يا صاحبي لقد مكثت فى البيت شهراً بكامله لا أجرؤ أن أخرج مخافة أن يجيء الينا فتقع لامرأتى جرسة . وما أكثر ما ضربتها أثناء ذلك !

- وعلام تضربها ؟ ان المرء يستطيع أن يوثق يدي امرأة ولكنه

لا يستطيع أن يعقل لسانها • ما ينبغي الاسراف في ضرب النساء ،  
أضربها أولاً من قبيل التأديب ثم داعبها بعد ذلك ، ان المرأه خلقت  
لهذا •

لبث شيشكوف صامتاً بضع لحظات ثم تابع يقول :

- كنت أشعر بمهانة كبيرة ومذلة شديدة • استأنفت عاداتي  
القديمة • أصبحت أضربها من الصباح الى المساء متعللاً بأتفه الأسباب ،  
أضربها لأنها لم تنهض كما أحب أن تنهض ، أو لأنها لم تمش كما يجب  
ان تمشي ••• صرت اذا لم أضربها أحسن بضجر شديد وسام كبير •  
كانت في بعض الأحيان تمكث جالسة قرب النافذة تبكي بكاءً صامتاً فكان  
يحزني أحياناً أن أراها تبكي ولكنني أظل أضربها مع ذلك • كانت أمها  
تقرعني وتسبني بسبب هذا فتقول لي :

- أيها النذل يا غراب الشؤم •••

فأجيبها :

- اسكتي ! لا تنطقي بكلمة واحدة والا أجهزت عليك ! لقد  
زوجتمونيها وأنا سكران فخذتموني وغششتموني •  
- أراد الشيخ أنكوديم في أول الأمر أن يتدخل في القضية • فقال  
لي ذات يوم :

- حذار حذار ! ما أنت بمن لا يمكن رده الى الصواب •••

ولكنه لم يلبث أن اتنى عن عزمه • وأخذت ماريا ستيفانوفنا تعمد  
الى الرقة واللفظ والدماثة • جاءتني ذات مرة باكية وقالت لي :

- اسمع يا ايفان سيمونتش ! ان قلبي محطم ألماً وحزناً •

ما سأطلبه منك لا قيمة له عندك ، ولكننى أحرص عليه كثيراً • اصرفها  
بالحسنى يا بنى ، دعها تذهب •

قالت العجوز ذلك ثم جث وأضافت تضرع الىّ :

– هدىء روعك • اغفر لها • لقد افترى الأشرار عليها فوصموها  
بما ليس فيها • وأنت تعلم حق العلم أنها كانت عذراء حين تزوجتها •

وظفقت الأم تبكى وأصررت أنا على عنادى فقلت لها :

– لا أريد أن أسمع شيئاً وسأفعل بكم ما يحلو لى أن أفعله لأننى  
خارج عن طورى لا أستطيع كبح جماح نفسى • أما فيلكا ماروزوف فهو  
خير صديق لى ، وهو أعز انسان على نفسى •

قال تشريفين :

– هل استأنفتما السكر معاً ؟

– مستحيل ! لقد أصبح لا يمكن الاقتراب منه ! لقد أدى به الشرب  
الى ما يشبه الجنون • أنفق كل ما يملك وارتضى أن يجند فى الجيش  
بديلاً لفتى من أغنياء المدينة • والعادة عندنا أن الشاب الذى يقبل أن  
ينوب عن شاب آخر فى الجندية يصبح سيد البيت ، ويصبح الأمر  
والناهى ، الى أن يساق الى الجندية • انه يتقاضى المبلغ المتفق عليه  
يوم سفره ، ولكنه بانتظار ذلك يعيش فى منزل مولاه ، وقد يقضى فى  
هذا المنزل ستة أشهر كاملة • وما من فطاعة من الفطاعات يتورع عن  
ارتكابها أمثال هؤلاء الفتيان ! ألا انه لينبغى فى مثل هذه الأحوال أن تنقل  
من البيت جميع الصور المقدسة • ان الفتى من هؤلاء الفتيان حتى قبل  
أن يكون بديلاً لابن رب البيت فى الجندية يعد نفسه صاحب فضل  
عظيم ونعمة كبرى ، ويعتقد أن من حقه أن يحاط بجميع أنواع

الاحترام ، والا نكل عن وعده ونكص على عقيبه • هكذا كان فلنك ماروزوف لا يتورع عن شئ فى منزل ذلك الرجل ، فهو ينام مع الفتاة ويمسك رب البيت من لحيته بعد العشاء ، ويفعل كل ما يخطر بباله أن يفعله • كان على أهل الدار أن يوقدوا له حمام البخار كل يوم ، وأن يضيفوا الى الحمام خمرا • وكان على النساء أن يأخذنه الى الحمام مسنّدا من تحت ابطيه • وكان اذا عاد الى المنزل بعد أن قصف وشرب يتوقف فى وسط الشارع ويجأر قائلا :

- لا أريد أن أدخل من الباب فانزعوا السياج •

فلا يملك أهل الدار عندئذ الا أن يهدوا الحاجز قرب الباب حتى يتيحوا له أن يدخل • غير أن هذا كله قد انتهى أخيرا يوم سيق فلنك الى الجندية • لقد اضطر أن يصحو من سكره فى ذلك اليوم • واحتشد الجمهور فى الشارع كله يقول بعضه لبعض :

- هذا فلنك ماروزوف يقاد الى الجندية •

فكان فلنك يحيى الناس فى كل جهة من الجهات يمنا ويسرة • واتفق فى تلك اللحظة ان كانت آكولكا عائدة من البستان فما أن لمحها حتى صاح يقول :

- قفى

ثم وثب من العربة ووقف أمامها منتحيا وخاطبها بقوله : «ياروحى ! يا حياتى ! يا تفاحتى الصغيرة ! لقد أحبيتك سنتين كاملتين ، وأنا الآن أقاد الى الجندية على أنغام الموسيقى ! اغفرى لى أيتها الفتاة الشريفة يا بنت الأب الشريف ، لأننى نذل حقير ، لأننى مسؤل عن شقائك • • • كله ، وعن عذابك كله •

قال فيلكا ذلك وانحنى أمامها مرة أخرى • جزعت آكولكا في أول الأمر ، لكنها حيته بعد ذلك تحية كبيرة تثنها نصفين ، وقالت له :  
- اغفر لي أنت أيضاً أيها الفتى الطيب • لست غاضبة منك قط •  
رجعت أنا الى البيت وراءها وسألتها :  
- ماذا قلت له يا كلبه •

أجابتي بقولها وهي تنظر الى نظرة جريئة ( لك أن تصدق أو لا تصدق )

- أحبه ••• أحبه أكثر مما أحب أى شىء فى هذا العالم •  
قال تشيريفين :

- عجيب !

- فى ذلك اليوم لم أنطق بكلمة واحدة • غير أنني قلت لها فى المساء : « آكولكا ، سأقتلك » ولم يغمض لى جفن طوال الليل ومضيت أشرب خمر الكفاس فى حجرة المدخل حتى اذا طلع النهار رجعت الى الغرفة • قلت لها : « آكولكا استعدى للذهاب الى الحقل » كنت أنوى الذهاب الى الحقل من قبل ، وكانت زوجتى تعرف ذلك • قالت لى : « أنت على حق ! لقد آن أوان الحصاد ، وقد سمعت أن العامل مريض منذ يومين ، فهو لا يفعل شيئاً » • قرنت الحصان الى العربة دون أن أقول كلمة واحدة • ان فى آخر المدينة غابة طولها خمسة عشر فرسخاً ، وفى نهاية الغابة يقع حقلنا ، فلما قطعنا ثلاثة فراسخ تحت الأشجار أوقفت الحصان • قلت لزوجتى : « هلمى يا آكولكا • انهضى • لقد حان أجلك • نظرت الى مذعورة ذعرا شديدا ونهضت صامته • قلت لها :



« لقد عذبتني تعذيباً كافياً ... هيا صلي صلاتك الأخيرة » • أمسكتُ  
سعرها - كان لها ضفائر طويلة كثيفة - لفتت الضفائر على ذراعي •  
قبضت على زوجتي بين ركبتي • أخرجت سكينى • قلبت رأسها الى  
وراء • شققت عنقها ... صرختُ ... تدفق الدم ... عندئذ رميت  
سكينى وضممت زوجتى بين ذراعى ومددتها على الأرض وقبلتها وأنا  
أعول بكل ما أوتيت من قوة ... أنا أصبح وهى تعول وتلمس وتتخبط  
ودمها ما يزال يتدفق بمزيد من القوة فيصيب وجهى ويخرج يدى •  
عندئذ خفت ، فتركتها ، وتركت حصانى ، وأخذت أركض ، وما زلت  
أركض حتى وصلت الى البيت • دخلت البيت من خلف ، واختبأت فى  
خص كان يستعمل حماماً وأصبح الآن مهجوراً • رقدت تحت المصطبة •  
ولبثت مختبئاً هنالك الى أن جن الليل •

- وآكولكا ؟

- نهضت لترجع الى البيت هى أيضاً ، وعثروا عليها بعد ذلك على  
مسافة مائة قدم من المكان •

- اذن لم تجهز عليها ؟

- كلا •

وصمت شيشكوف لحظة • قال تشريفين :

- نعم هناك وريد ان لم يُقطع بطعنة واحدة فان الانسان يتخبط  
ولكنه لا يموت مهما يتدفق دمه •

- لقد ماتت مع ذلك ، وجدوها فى المساء جثة باردة • أبلغوا  
الشرطة فأخذت الشرطة تبحث عنى • قبضوا علىَّ أثناء الليل فى ذلك  
الحمام المهجور •

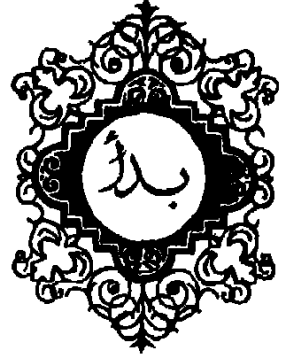
وأردف شيشكوف يقول بعد صمت :

— وهأنذا هنا منذ أربع سنين !

قال تشريفين في وقار وتفخيم وهو يخرج علبة التبغ من جسيده  
وينشق منها نشقاتٍ طويلة متقطعة :

— نعم لا بد أن نضربهن والا لم نتوصل الى شيء • ولكنك أيها  
الفتى قد تصرفت في غباء شديد • أنا أيضاً فاجأت امرأتى مع عشيق فماذا  
فعلت ؟ اقتدتها الى الزريبة فتناولت لجاماً فطويته نصفين وقلت لها : « من  
الذى حلفت له أن تكونى وفيه ؟ من الذى أقسمت له فى الكنيسة ؟ »  
وأخذت أضربها بلجامى ثم أضربها خلال ساعة ونصف ساعة الى أن  
صاحت تقول وقد هدها الضرب هدأً : « لسوف أغسل قدميك وأشرب  
ماءهما ! » • كان اسمها أفدوتيا •

## فصل الصيف



شهر نيسان ( أبريل ) • الأسبوع المقدس  
غير بعيدة أخذنا نقوم بأعمال الصيف • الشمس  
تصبح أكثر دفئاً و سطوعاً يوماً بعد يوم • الهواء  
يحمل أشدّاء الربيع فيحدث أثره في الأعصاب •

ان السجين بالأغلال يهتز هو أيضاً في أيام الصحو • ان هذه الأيام  
الجميلة تبعث فيه رغبات قوية وأشواقاً عنيفة وتثير في نفسه أحزان القرية  
وأشجان الحنين • احسب ان الانسان يأسى لفقد حرّيته في نهار مشمس  
أكثر مما يأسى لذلك في الأيام الممطرة الحزينة من الخريف والشتاء •  
هنالك شيء يلاحظ لدى جميع السجناء : لئن كانوا يشعرون بشيء من الفرح  
في نهار جميل مضى فانهم يصبحون في مقابل ذلك أقل صبراً وأكثر تمللاً  
وأشدّ احتياجاً • لقد لاحظت أن المشاجرات في سجننا تكثر في الربيع ،  
وأن الصخب يشتد ، وأن الصراخ يتفاقم ، وأن الاقتال يزداد • وفي  
أثناء ساعات الشغل يتاح لك أن تلاحظ في بعض الأحيان نظرة واجمة  
نائمة في الفضاء الأزرق على عناد ، هناك ، في مكان ما ، على الضفة  
الأخرى من نهر ارتيش ، حيث يمتد السهل الفسيح مئات الفراسخ  
سهوبا هي سهوب الكيرخيز الواسعة الحرة • وربما سمعت عندئذ  
تهنّات طويلة تخرج من أعماق الصدر كأن ذلك الهواء البعيد الطلق

قد حمل السجناء على أن يتنفسوا ، وكأنه خفف عن نفوسهم الحبيسة المسحوقة . ان السجنين يطلق من صدره آخر الأمر أهة طويله ثم اذا هو على حين فجأة كأنه يريد أن ينفض عنه هذه الأحلام وأن يبددها فيتناول رفته غاضباً أو يحمل القرميد الذي يجب عليه أن ينقله من مكان الى مكان . وما هي الا لحظة بعد ذلك حتى يكون قد نسي ذلك الاحساس العابر الهارب فيعود الى ضحكه أو سببه تبعاً لمزاجه . انه يكب على مهمته المفروضة بحماسة غير معهودة وهمة غير مألوفة ويعمل بكل ماوتى من قوة كأنه يريد أن يخنق بالتعب ألماً يجثم على صدره فيونك أن يقتله . هؤلاء رجال أشداء هم جميعاً في زهرة العمر وهم جيعا يملكون قواهم كاملة . . . ألا ما أثقل الاغلال في هذا الفصل ! لست استرسل هنا مع العواطف . ان هذه الملاحظة صحيحة صادقة . في فصل الدفء، تحت الشمس الساطعة ، حين يحس المرء بالطبيعة تستيقظ من حوله بقوة لا توصف ، حين يحس المرء بذلك في نفسه كلها وفي كيانه كله ، فانه يشق عليه احتمال السجن واحتمال رقابة الحرس واحتمال تحكّم ارادة أجنبية فيه أكثر مما كان يشق عليه ذلك من قبل .

وفي الربيع ، مع غناء أول قُبْرَة ، انما يبدأ التشرّد في سيبيريا كلها وفي روسيا كلها : ان عباد الله يهربون عندئذ من السجون ويفرون الى الغابات ؛ فبعد الأقيية الخائفة والأحكام الصارمة والأغلال الثقيلة والسياط الموجهة يتشرّد هؤلاء حيث يحلو لهم أن يتشردوا ويضربون في الأرض على غير هدى ، ويتوقفون حيث تبدو لهم الحياة أمتع وأسهل . انهم يشربون ويأكلون ما تيسر لهم مصادفة ، وينامون الليل هادئين في الغابة أو في حقل ، لا يقلقهم هم ولا يرعبهم سجن فكانهم طيور من طيور الله لا تقول الا لنجوم السماء تحت بصر الله : طاب ليلك أيتها النجوم ! على أن الحياة لا تصفو لهم كل الصفو فهم يتألمون أحياناً من

الجوع والتعب « فى خدمة الجنرال وقوق » وكثيراً ما يقضون أياماً بأسرها دون أن يقعوا على كسرة خبز يفتاتون بها • ويجب عليهم أن يتواروا عن جميع الناس ، أن يختبئوا تحت الارض ، ويجب عليهم أن يسرقوا وأن ينهبوا بل وأن يقتلوا فى بعض الأحيان • يقول الناس عن المنفيين فى سيبيريا : « ان المنفى أشبه بطفل يهجم على كل ما يرى » ألا ان هذا القول يصدق مزيداً من الصدق على المتشردين • يكاد يكون جميع المتشردين قطاع طرق ولصوصاً ، تدفعهم الى ذلك الضرورة أكثر مما يدفعهم اليه ميل فى نفوسهم ، وتحضهم عليه الحاجة أكثر مما يحصمهم عليه الاحتراف • وهناك متشردون كثيرون تأصل فيهم التشرد • ان بين السجناء رجالاً يتشردون بعد أن قضوا مدة سجنهم وأصبحوا مستوطنين • قد يتوهم المرء أن هؤلاء الذين قضوا مدة سجنهم لا بد أن يكونوا راضين عن حياتهم الجديدة سعداء برزقهم المضمون • ولكن الحقيقة ليست كذلك • ان هناك شيئاً مجهولاً يزهدهم فى الاستقرار ويجذبهم الى التشرد • ان هذه الحياة فى الغابات ان كانت بائسة رهيبة فان فيها حرية ومغامرة وان لها فى نظر من عانوها سحراً مغرياً سرياً • ولقد يدهشك أن ترى بين هؤلاء المتشردين أناساً تصفهم بحسن السلوك وهدوء الطبع ، أناساً كانوا يبشرون بأن يستقروا وأن يصبحوا مزارعين ناجحين ، ثم اذا هم يتشردون • وقد يتزوج أحد المنفيين ، وقد ينجب أطفالاً ، وقد يعيش خمس سنين فى مكان واحد ، ثم اذا هو يختفى فجأة فى ذات صباح تاركاً زوجته وأولاده محيَّراً أسرته والبلدة عليها • لقد دلونى ذات يوم فى السجن على واحد من هؤلاء الهاربين من أسرهم • لم يكن قد ارتكب جريمة ، أو لم تحم حوله أية شبهة على الأقل ، ولكنه هرب من منزله وتشرد وظل يتشرد طول حياته : مضى الى الحدود الجنوبية من الامبراطورية وذهب الى الضفة الأخرى من نهر الدانوب وانتقل الى

سهوب كرخيز وتجول في سيبيريا الشرقية وطاق في أرجاء القفقاس ،  
ما من مكان لم يذهب اليه • من يدري ؟ لعل هذا الرجل الذي يعصف به  
هوى الأسفار قوياً هذه القوة ، كان يمكن أن يصبح مثل روبنسون  
كروزوى ، لو أحاطته ظروف أخرى ! لقد عرفت عنه هذه التفاصيل من  
سجناء آخرين لأنه كان لا يحب أن يتكلم ، ولا يفتح فمه الا فى حالات  
الضرورة القصوى • انه فلاح قصير ضئيل فى نحو الخمسين من عمره ،  
مسالم وديع ، اذا نظرت الى وجهه رأيت فيه هدوءاً بل ورأيت فيه  
بلاهة ••• ان فيه هدوءاً يشبه العته • كان يحلو له أن يظل جالساً فى  
الشمس يدمدم بين أسنانه أغنيةً من الأغاني ، ولكنه يبلغ من الرفق فى  
دمدمتها أنك لو ابتعدت عنه خمس أقدام ما سمعت شيئاً • ان قسمات  
وجهه متجمدة ان صح التعبير ، وهو قليل الطعام يأكل الخبز الأسود  
خاصة • لم يشتر فى يوم من الأيام خبزاً أبيض أو خمرة ؛ بل أحسب  
أنه لم يملك فى يوم من الأيام مالاً ، وأنه ما كان له أن يعرف كيف  
يعد المال • كان لا يبالي بشيء البتة • وكان يطعم كلاب السجن أحياناً  
بيده ، وذلك أمر لم يكن يفعله أحد قط ( ان الروسى عامة لا يحب أن  
يطعم الكلاب ) • ويقال انه كان قد تزوج مرتين ، وان له أولاداً فى  
مكانٍ ما ••• لماذا أرسل الى السجن ؟ لا أدري عن ذلك شيئاً • على أن  
رفاقنا كانوا يعتقدون دائماً أنه سيهرب لا محالة ••• فلئن ارتضى البقاء  
حتى الآن هادئاً فذلك يرجع اما الى أن ساعته لم تحن واما الى أن تلك  
الساعة قد فاتت • لم تكن له أية علاقة بالبيئة الأجنبية التى يعيش فيها انه  
أكثر انطواء على نفسه من أن تتعدق بينه وبين أحد صله • وما ينبغى  
الركون الى هدوئه الظاهر هذا • ولكن ما هو الريح الذى يمكن أن  
يجنيه من الفرار ؟

يجب أن نقول مع ذلك ان حياة التشرد فى الغابات اذا قورنت بحياة السجن هى سعادة فردوسية • صحيح ان حياة التشرد حياة شقاء ، ولكنها حياة حرة على الأقل • ذلك هو السبب فى أن كل سجين ، حيثما يكن من أرجاء روسيا ، يلم به القلق عند أولى أشعة الربيع الباسمة • صحيح أنهم لا يتتوون جميعاً أن يهربوا • ان واحداً من مائة فحسب يقرر أن يهرب ، أما الباقون فلا يعتقدون العزم على الفرار ، وذلك خوفاً من العقبات التى سيصادفونها أو من القصاص الذى سيلقونه • على أن جميع الباقين وهم تسعة وتسعون لا يزيدون على أن يسترسلوا فى الأحلام متسائلين متى يستطيعون أن يهربوا وكيف ؟ ان التفكير وحده فى احتمال نجاح مثل هذه المغامرة يعزيهم ويخفف عنهم ••• وهم لذلك يتذكرون فراراً سبق أن حدث ••• لا أتكلم الآن الا عن السجناءالذين صدرت أحكام فى حقهم ، أما الذين لم تصدر بعد فى حقهم أحكام فانهم يتخذون قرار الهروب بسهولة أكبر كثيراً • والذين صدرت فى حقهم أحكام ، لا يهربون الا فى أول عهدهم بالسجن ؛ حتى اذا انقضت على اقامتهم فى السجن ستان أو ثلاث أذعنوا للواقع وأدركوا أن من الخير لهم أن يتموا مدة سجنهم وفقاً للقانون وأن يصبحوا مستوطنين ••• فذلك أولى بهم من التعرض للضياع عند الاخفاق ، والاخفاق ممكن دائماً فليس هناك الا سجين من عشرة سجناء ينجح فى محاولة « تغيير مصيره » • والذين يحاولون ذلك انما هم السجناء الذين حكم عليهم بالسجن مدداً طويلة • ان من حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً يحس أن هذه المدة أبداً لا نهاية له ••• ويجب أن نذكر أخيراً أن الوسمالذى يدمغ السجناء عقبه من العقبات الكأداء فى طريق الهرب • وقولنا « تغيير المصير » انما هو اصطلاح تكنيكي • فالذين يُضبطون متلبسين بجرم محاولة الفرار يُستجوبون على أساس أنهم أرادوا أن « يغيروا مصيرهم »

•• ان هذا التعبير ، الأدبى بعض الشيء ، يصوّر الفعل الذى يدل عليه تصويراً كاملاً • ما من هرب يأمل أن يصبح حراً كل الحرية ، فهو يعلم أن ذلك، مستحيل تقريباً ، ولكنه يريد أن يُرسل الى سجن آخر أو أن يوطّن فى مكانٍ ثانٍ من البلاد ؟ يريد أن يحاكم مرة أخرى لجريمة يرتكبها أثناء تشرده ؟ انه يريد أن يُرسل الى أى مكان ••• شريطة أن لا يكون ذلك المكان هو هذا السجن الذى احتبس فيه فأصبح لايطيقه! ان جميع أولئك الهاربين، اذا هم لم يجدوا أثناء الصيف مأوى يستطيعون أن يقضوا فيه الشتاء ، اذا هم لم يصادفوا أحداً ينجى من اخفائهم نفعاً ما، أو اذا لم يحصلوا بالجريمة أحياناً على جواز سفر يمكنهم من أن يعيشوا آمنين فى كل مكان ، أقول ان جميع أولئك الهاربين يتكاثرون أثناء الخريف فى المدن والسجون ، يعترفون بتشردهم ويقضون الشتاء فى الحبس آمليين أملاً خفياً أن يهربوا فى الصيف المقبل •

وقد أحدث الربيع أثره فى نفسى أنا أيضاً • ما أزال أتذكر كيف كنت أنظر الى الأفق البعيد من خلال شقوق السياج فى شراة عظيمة ! كنت ألصق رأسى بأوتاد السياج فما أزال أتأمل العشب الذى يخضوضر فى خندق السور ، وأتأمل السماء الزرقاء البعيدة التى تتكاثف شيئاً بعد شيء ، دون أن أشبع من هذا المنظر ودون أن يصينى كلال أو ملال • وكان غمى وحزنى يزدادان يوماً بعد يوم ، وكان كرهى للسجن ونفورى منه وابتئاسى به يتفاقم مزيداً من التفاقم شيئاً بعد شيء • والبغض الذى كان يشعر به السجناء نحوى خلال السنين الأولى لأننى أتمى الى طبقة السادة كان يسمّم حياتى كلها • فكنت أطلب الذهاب الى المستشفى فى كثير من الأحيان دون أن تكون بى حجة الى المستشفى ، وانما أطلب ذلك حتى لا أكون فى السجن وحتى أفر من هذا البغض الحاقد العنيد • كان السجناء يقولون لنا : « ان لكم مناقير من حديد يا معشر النبلاء •• لقد



مزقتم جلودنا بمناقيركم حين كنا لكم أقناناً \* \* \* » لشد ما كنت أحسد أبناء الطبقة الدنيا من الشعب حين كانوا يصلون الى السجن ! كان هؤلاء يصبحون رفقاً وأصحاباً للسجناء على الفور ! هكذا كنت ازداد حرنا واهتياجاً عصبياً حين يحل الربيع فاستشرف الحرية وأطل على فرحة الطبيعة كلها \* وفي نحو الاسبوع السادس من الصوم الكبير قمت بشعائري الدينية \* كان صف الضابط قد قسم السجناء ست فئات ( بعدد أسابيع الصوم تماماً ) ، من أجل أن يقوموا بشعائريهم الدينية فئة بعد فئة . ان كل فئة تتألف من ثلاثين رجلاً على وجه التقريب \* ما كان أعظم عزائي أثناء ذلك الاسبوع ! كنا نذهب ، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم ، الى الكنيسة التي لا تبعد كثيراً عن السجن \* لم آكن قد ذهبت الى الكنيسة ، منذ زمن طويل \* ان قداس الصوم الكبير ، هذا القداس الذي كنت أعرفه معرفة جيدة منذ نعومة أظفاري ، لاني سمعته كثيراً في بيتنا ، ان هذا القداس مع ما يصاحبه من صلوات وأدعية وانحناء وركوع ، قد هزني في نفسي ماضياً بعيداً ، بعيداً جداً ، وأيقظ فيها أقدم المشاعر \* ما زلت أتذكر مدى سعادتي حين كنا نذهب في الصباح الى بيت الله سائرين على الأرض التي تجلدت أثناء الليل \* كنا نذهب الى الكنيسة ومعنا حرس قد شحنوا بنادقهم بالرصاص \* وكان الحرس لا يدخلون الكنيسة \* حتى اذا صرنا في داخل الكنيسة تجمعنا عند الباب ، في الصفوف الأخيرة ، فما نكاد نسمع الا الصوت العميق الذي يخرج من صدر الكاهن صادحاً بالصلوات ؛ ومن حين الى حين نلمح من فوق المصلين جبهته السوداء أو رأسه العاري \* تذكرت عندئذ كيف كنت أثناء طفولتي أنظر الى أبناء الشعب يزدهمون عند باب الكنيسة كتله متراصة ويتقهقرون في خضوع حين يدخل ضابط كبير أو نبيل أكرس أو سيدة رائعة الثياب لكنها من شدة تدينها وتقها مسرعة تشق طريقها

الى الصف الأول وتوشك أن تشاجر جميع الناس فى سبيل أن تحظى  
بشرف احتلال الأماكن الأولى • لقد كان يخيّل الى أثناء طفولتى أن  
ذلك المكان الذى يقع عند مدخل الكنيسة هو المكان الذى يمكن أن يصلى  
فيه الانسان خاضعاً لله ساجداً على الأرض شاعراً بحرارة الايمان وروعة  
الخشوع •

وهأنذا الآن أقف فى ذلك المكان نفسه الذى كان يقف فيه أبناء  
الشعب ، لا بل ان حالى تختلف عن حال أبناء الشعب ، فأنا مكبل بالأغلال  
مجلل بالخزى والعار • ان الناس يتحاشوننا ويخشوننا ويتصدقون  
علينا • ما زلت أذكر أننى كنت أجد فى ذلك احساساً مرهفاً ولذة  
غريبة • كنت أقول لى نفسى : « لتكن مشيئة الله ! » • وكان السجناء يصلون  
بحرارة وحمياً • وكان كل منهم يجىء الى الكنيسة بقرشه ليشتري به  
شمعة أو ليضعه فى صحفة الاحسان • ولعلمهم كانوا يقولون لأنفسهم حين  
يقدمون هذه القروش : « البشر جميعاً سواسيه أمام الله • • • • » • وكنا  
تناول القربان بعد صلاة الساعة السادسة • حتى اذا تلا الكاهن ، وهو  
يرفع حقة القربان ، الآية التى تقول : « ارحمنى يا رب كما رحمت  
اللص الذى خلصته • • • • » ، سجد جميع السجناء تقسريباً على الأرض  
فجلجلت من ذلك أغلالهم • أحسب أنهم كانوا يفهمون هذه الآية فهماً  
حرفياً ويعدونها خاصة بهم •

وأقبل الأسبوع المقدس • فوزعت علينا ادارة السجن بيضة من  
بيض عيد الفصح ، وقطعة من خبز معجون بالحليب • وغمرتنا المدينة  
بالصدقات • وكما حدث فى عيد الميلاد حدث فى عيد الفصح : زيارة  
الكاهن حاملاً الصليب ، زيارة الرؤساء ، توزيع حساء الكرنب المطبوخ  
بشحم الخنزير ، وكذلك السكر والتجول ، مع فرق واحد هو أننا  
أصبحنا نستطيع منذ الآن أن نتروض فى الفناء وأن نتدفأ بأشعة الشمس •

كل شيء يبدو الآن أكثر ضياءً وأعظم اتساعاً ولكنه أشد حزناً كذلك •  
نم ان النهار في الصيف ، وهو نهار طويل ، يكون في أيام الأعياد أثقل  
على الصدر منه في أيام العمل ، لأن التعب في أيام العمل يجعله أقصر •  
وأشغال الصيف أشق كثيرا من أشغال الشتاء • ان السجناء يعملون  
صيفاً في الأشغال الشاقة التي يأمر بها المهندسون ، فهم يبنون أو يحفرون  
الأرض أو يصنعون القرميد ، أو يساقون لاصلاح الابنية الحكومية  
حدادة أو نجارة أو دهاناً ؛ ومنهم من يذهب الى مصنع الاجر يشوى  
الآجر وذلك كان في نظرنا أشق الأعمال طرا • كان هذا المصنع يقع  
على بعد أربعة فراسخ تقريباً من قلعتنا • وكان تُرسل اليه ، طوال  
الصيف ، في الساعة السادسة من كل صباح ، جماعة من السجناء عددها  
خمسون • وكان يُختار لهذا العمل أولئك الذين لا يجيدون أية مهنة  
و لا يتمون الى أية ورشة • وكان السجناء الذين يذهبون الى مصنع  
الآجر يحملون معهم خبز يومهم ، لأنهم بسبب بُعد المسافة لا يستطيعون  
أن يعودوا للغداء حين يعود غيرهم ، ولا أن يسيروا ثمانية فراسخ في غير  
طائل ، وانما هم يأكلون في المساء حين يرجعون الى السجن • وكان يعهد  
اليهم هنالك بأعمال للنهار كله ، ولكن هذه الأعمال تبلغ من الضخامة  
أن أحداً لا يكاد يستطيع انجازها • كان عليهم في أول الأمر أن يحفروا  
الأرض فيخرجوا الفضار ثم ينقلوه ويحبلوه بأرجلهم في الحفرة ، وان  
يصنعوا منه بعد ذلك مقدارا كبيرا من القرميد ، مائتي قرميدة وربما مائتين  
وخمسين • لم أذهب الى مصنع الآجر الا مرتين • كان السجناء الذين  
يُرسلون الى هذا المصنع يعودون منه في المساء وقد تشعثت وجوههم  
وانهدت قواهم ، فهم لا ينفكون يأخذون على الآخرين أنهم تركوا لهم  
أقسى عمل • أغلب ظني أن مأخذهم هذه كانت تعزيبهم وتسرى عنهم  
وتلذ لهم • وكان منهم أناس يحبون هذا العمل ويؤثرونه على غيره من

الأعمال ، أولاً لأنه يمكنهم من الذهاب الى خارج المدينة على شاطئ نهر ارتيش في مكان رحب مريح ، فالضواحي أجمل منظراً من المباني الحكومية الكريهة ؛ وتانياً لأن في وسعهم أن يدخلوا هنالك بحرية تامة، بل وأن يلبثوا راقدين نصف ساعة فيشعروا من ذلك بأعظم رضى .

أما أنا فقد كنت أعمل في ورشة ، أو أعمل في تكسير الجص ، أو في نقل الآجر الذى يستعمل فى البناء . وقد وقع على عاتقى هذا العمل الأخير شهرين كاملين . فكان على أن أنقل حملي من الآجر من شواطئ نهر ارتيش على مسافة مائة وأربعين متراً ثم أقطع خندق القلعة حتى أصل الى الثكنة التى كانت بسبيل البناء . وكان هذا العمل يناسبني تماماً رغم أن الجبل الذى أحمل به الآجر كان ينشر كفى نشراً . والشئ الذى كان يعجبني خاصةً هو أن قواى كانت تنمو نمواً واضحاً . . . كنت فى أول الأمر لا أستطيع أن أحمل ثمانى أجرات دفعة واحدة، وكانت كل آجرة تزن حوالى اتنى عشر رطلاً . فأصبحت أستطيع أن أحمل اتنى عشرة آجرة ، وبل وخمس عشرة ، وابتهجت من ذلك أشد الابتهاج واغتبطت له أعظم الاغتباط . لم تكن حاجتى الى القوة الجسمية أقل من حاجتى الى القوة النفسية من أجل أن أستطيع احتمال جميع المتاعب والمكاره فى تلك الحياة اللعينة .

وكنت أريد أن أحيا حين خروجي من السجن . اتنى أجد لذة فى نقل الآجر لا لأن هذا العمل يقوى جسمي ، فحسب ، بل لأنه يمضى بى الى ضفاف نهر ارتيش . ولئن كنت أتكلم كثيراً عن هذا المكان فلأنه المكان الوحيد الذى يمكن أن أرى منه دنيا الله ، أن أرى الأفق البعيد المضى ، أن أرى السهوب الفسيحة الحرة المقفرة الذى كان عريها يحدث فى نفسى أثراً غريباً . أما ميادين العمل الأخرى فكانت كلها فى القلعة أو ما حولها ، وكننت منذ الأيام الأولى قد كرهت هذه القلعة ، وكرهت

مبانيها خاصة • كان منزل الميجر مثلاً يبدو لى مكاناً كريهاً لعيناً منفراً ،  
و كنت كلما مررت به أنظر اليه نظرة تفيض بغضاً ومقتاً • ولا كذلك  
الشاطيء • فان المرء يستطيع هنالك أن ينسى نفسه على الافل وهو ينظر  
الى الفضاء الواسع المقفر ، كما ينسى السجين نفسه وهو ينظر الى العالم  
الحر من خلال القضبان الحديدية فى سجنه • كان كل شىء فى ذلك  
المكان حيباً الى قلبى عزيزاً على نفسى : الشمس الساطعة فى السماء  
الأزرق اللانهائى ، والاغاني البعيدة التى يصدح بها الكرخيزيون الآتون  
من الضفة الأخرى •••

ما أكثر ما كنت أطيل النظر الى كوخ فقير مسودٍ من السخام ،  
يسكنه بايجوشى ما ! ••• ما أكثر ما كنت أطيل النظر الى الدخان المزرق  
الذى ينتشر فى الهواء ، والى المرأة الكرخيزية التى تعنى بخروفها ! ••  
ذلك منظر متوحش فقير ، ولكنه حر •• كنت أتابع ببصرى طيراً يشق  
بتحليقه الهواء الشفاف الصافى ••• انه يلامس الماء ثم يخطفى فى السماء  
اللازوردية ثم يعود فيظهر صغيراً كقطعة ••• حتى الزهرة الصغيرة  
المسكينة التى تذوى فى شق من شقوق الشاطيء ، والتى أراها فى مطلع  
الربيع ، كانت تجذب انتباهى وتوقظ حنانى ••• ان الحزن الذى يجم  
على صدرى فى هذه السنة الأولى من سجن الأشغال الشاقة كان لا يطاق  
وكان يثير أعصابى • معنى هذا القلق فى أول الأمر من ملاحظة الأشياء  
التي تحيط بى • كنت أغمض عيني ولا أريد أن أرى شيئاً • وبين الناس  
الفاستدين الذين كنت أعيش معهم لم أستطع أن أميّز الرجال الذين  
كانوا رغم القشرة الظاهرة المنفرة قادرين على أن يفكروا وأن يحسوا •  
لا ولا استطعت أن أسمع وأن أتبين كلمةً فيها شىء من عاطفة ، وسط  
السخریات المسمومة التى كانت تنهال على انهيار المطر ••• مع أن هذه  
الكلمة كانت تقال ببساطة تامة ، دون غاية مخبأة أو هدف ميت ، وكانت

تصدر عن الأعماق من قلب انسان تألم كثيراً واحتمل أكثر مما احتملت  
وقاسى أكثر مما قاسيت • ولكن علام الافاضة في هذا ؟

كان التعب الشديد مصدر رضى لى وغبطة ، لأنه يجعلنى أمل فى  
نوم عميق • كان النوم فى فصل الصيف عذاباً ممضاً أكثر مما كان كذلك  
فى فصل الشتاء • على أن هناك أمسيات كانت رائعة والحق يقال •••  
ان الشمس التى ظلت تغرق فناء المنزل طولك النهار تغيب أخيراً •••  
فاذا الهواء طرى ، واذا الليل بعد ذلك بارد بعض البرودة ••• فكذلك  
هى لىالى السهوب ••• كان السجناء ، بانتظار أن يُحبسوا فى الثكنات ،  
يتجولون فى الفناء جماعات ، ولا سيما قرب المطبخ ••• فهناك كانت  
تناقش المسائل التى تهتم السجناء ، وهناك كان يعلّق على الشائعات  
الواردة من خارج السجن ، وهى فى كثير من الأحيان شائعات سخيفة  
مستحيلة ولكنها تثير دائماً انتباه هؤلاء الرجال الذين اجتمعوا من المجتمع •  
من ذلك أن نسمع فجأة أن المجير قد طُرد • كان السجناء كالأطفال  
سرعة تصديق • انهم يعلمون حق العلم أن النبأ ملفق ، وأن طرد الميجر  
ليس معقولاً ، وأن ناقل الخبر كذاب محنك هو كفاسوف ؛ ولكنهم مع  
ذلك يتعلقون بهذه الشائعة ويناقشونها ويتعجبون لها ، ويعززون أنفسهم  
بها ، ثم ما يلبثون أن يخجلوا من أنهم أتاحوا لرجل مثل كفاسوف أن  
يخدعهم ويضلّهم • هذا سجين يصيح قائلاً :

— ومن ذا الذى يستطيع أن يطرده ؟ لا تقلق عليه ! انه رجل  
يعرف كيف يحافظ على مركزه !

وهذا سجين آخر يحسن الجدل ويتحمس للنقاش ، سجين خبر  
الحياة ورأى العالم وطاف فى البلاد ، هذا هو يجب قائلاً :

— ولكن أليس له رؤساء ؟

وهذا ثالث يقول عابسَ الوجه مكفهر السحنة كأنه يحدث نفسه :

– الذئاب لا يأكل بعضها بعضاً •

ان هذا السجين الثالث رجل أشيب الشعر كان قابلاً في أحد

الأركان يأكل حساء المصنوع من مخلل الكرنب •

وهذا سجين رابع يقول في غير اكتراث البتة ، وهو ينقر على آلة

البلايكا التي كانت في يده :

– هل تظن أن الرؤساء سيسألونك رأيك ويطلبون نصحتك من

أجل أن يطردوه أو أن لا يطردوه ؟

فيجيب الثاني قائلاً في حماسة وغضب :

– ولم لا ؟ اذا سئلتهم أيها الرفاق فعليكم أن تجيئوا بصراحة •

ولكن لا ••• نحن هنا نظل نصيح ما شاء لنا هوأنا أن نصيح حتى اذا

آن أو ان العمل تنصلنا ونكصنا على أعقابنا •

فيقول عازف البلايكا :

– طبعاً ! ••• فمن أجل هذا انما وجد سجن الأشغال الشاقة ! •

استأنف الآخر كلامه حتى دون أن يسمع ما أجيبَ به :

– منذ أيام بقي قليل من دقيق ••• هو نفايات لا قيمة لها •••

جمعناها وأردنا أن نبيعها لنتتفع بثمنها ••• فماذا فعل حين علم بذلك

وجيء بها اليه ؟ لقد صادرها لنفسه ••• من باب التوفير طبعاً ! •••

أصحيح هذا أم لا ؟

– ولكن الى من عساك تشكوه ؟

– الى من عساي أشكوه ؟ أشكوه الى المفتش الذي سيصل قريباً •

— أى مفتش ؟

— حقاً يا رفاق ، ان مفتشاً سيصل فى القريب !

كذلك قال سجين آخر هو شاب فوى الجسم قرأ كتاب « دوفه دى لافالير » أو قرأ كتاباً آخر من هذا القليل ، وكان فى الماضى عريفاً فى كتيبة بالجيش • انه رجل هازل مازح ، ولكن السجناء كانوا يحترمونه بعض الاحترام لسعة اطلاعه • فما ان قال جملة تلك حتى نهض دون أن يتبه أى اتباه الى الجدل الذى كان يهز السجناء جميعا ، ومضى الى الطباخ رأساً يطلب منه شيئاً من كبد ( كثيراً ما كان طباخونا يبعون أطعمه من هذا النوع ، فهم يشتركون كبداً كاملاً فيقسمونه ويبيعونه للسجناء الآخرين قطعاً ) • سأله الطباخ :

— بكم ؟ بكوبكين أم بأربعة ؟

— بأربعة كوبكات • فليجسدنى الآخرون • نعم يا رفاق ، ان جنرالاً ، جنرالاً حقيقياً ، سيصل من بطرسبرج للتفتيش فى سيبيريا • صحيح • قيل ذلك فى منزل الأمر •

أحدث هذا النبأ انفعالاً شديداً خارقاً • ظل السجناء ربع ساعه يتساءلون عن الجنرال من يكون وما لقبه وهل هو أعلى رتبة من جنرالات مدينتنا ؟ ان السجناء يعشقون الكلام على الرتب والرؤساء ، وأن يعرفوا من هو الذى يملك من هؤلاء الرؤساء منزلة أعلى ، من الذى يستطيع أن يحنى ظهور الموظفين الآخرين ومن الذى يحنى ظهره للموظفين الآخرين ؟ انهم فى سبيل هؤلاء الجنرالات يتشاجرون ويتشاحنون حتى لقد يصلون من ذلك الى التماسك بالأيدى والتضارب • أية مصلحة يمكن أن تكون لهم فى هذا ؟ انك حين تسمع السجناء يتكلمون عن الجنرالات والرؤساء تستطيع أن تقدّر درجة النمو والذكاء لدى هؤلاء الرجال كما



كانوا فى المجتمع قبل دخول السجن • ويجب أن نذكر أن الحديث عن الجبرالات والادارة العليا كان يُعدّ عندنا أهم حديث وأجمل حديث • قال ماسوف ، وهو رجل قصير القامة ، أحمر الوجه ، مندفع الطبع ، محدود العقل ، كان هو الذى أشاع أن الميجر سيستبدل به آخر ؟ قال :

– هأتم أولاء ترون أنهم يريدون طرد الميجر •

فقال الشيخ المكثب وقد فرغ من تناول حسائه ، قال بصوت متقطع :

– سوف يرشوهم •

وقال آخر :

– سوف يرشوهم حتماً • لقد سرق هذا اللص مالا كثيراً ، لاسيما وأنه كان ميجراً قبل أن يأتى الى هنا • ومنذ زمن غير طويل خطب ابنة الأسقف •

– ولكنه لم يتزوج • لقد طرد • وهذا يدل على أنه فقير • يا للخطيب الرائع ! انه لا يملك الا الثياب التى يرتديها ! فى السنة الماضية ، أثناء عيد الفصح ، خسر فى القمار كل ما كان معه ! ان فدكا هو الذى قال لى ذلك •

– صحيح • انه ليس بالمبذر المتلاف • ولكنه لا يملك الآن قرشاً •

هنا انبرى سكوراتوف يشارك فى الحديث فقال :

– صدقونى يا شباب : ليس يحسن بالمرء أن يتزوج حين يكون

فقيراً • لقد عرفت هذا بنفسى • المرء يستعجل الزواج ، ولكن اللذة لا تطول •

قال الفتى المتحمس الذى كان نائب عريف فى الجيش :

— أتحسب أننا سنتلهى بالحديث عنك الآن ؟ وأما أنت يا كفا سوف فانك غبى كبير ! اذا كنت تظن أن الميجر يمكن أن يرشو جنرالاً مقتشاً، فأنت تخطيء خطأ فاحشاً ! وهل تتصور أن يرسل الجنرال من بطرسبرج خصيصاً ليفتش صاحبك الميجر ؟ ألا انك ما تزال على جانب عظيم من الغباء يا فتى ! أنا أقول لك ذلك ...

قال واحد من الجمهور بلهجة الشك :

— هل تظن أنه لا يأخذ رشوات لأنه جنرال ؟

— طبعاً ... واذا أخذ رشوات فهو يأخذ رشوات ضخمة •

— حتماً ... الرشوة على قدر الرتبة ، فكلما كانت الرتبة أعلى

كانت الرشوة أضخم !

قال كفا سوف بلهجة جازمة :

— ما من جنرال يرفض رشوة !

فقاطعها باكلوشين فجأة ليسأله باحتقار :

— هل رشوتهم أنت حتى تقول هذا الكلام جازماً ؟ بل هل رأيت

فى حياتك كلها جنرالاً !

— نعم يا سيدى !

— كذاب !

— أنت الكذاب !

— طيب يا أولاد ! ما دام قد رأى جنرالاً فليقل لنا أى جنرال

رأى ! هيا قل ! اننى أعرف جميع الجنرالات !

قال كفا سوف بلهجة مترددة :

- رأيت الجنرال زيبرت \*

- زيبرت ؟ لا يوجد جنرال بهذا الاسم ! لعل هذا الجنرال قد شاهد ظهورك حين جلدوك \* لعل زيبرت هذا لم يكن الا ليوتنان كولونيل ، ولكنك كنت قد بلغت من شدة الفزع عندئذ أنك حسبته جنرالاً \*

صرخ سكوراتوف يقول :

- لا ... اصغوا الىّ يا أصحاب ، لأننى رجل متزوج \* حقاً لقد كان يوجد فى موسكو جنرال باسم زيبرت \* انه ألمانى أصبح روسياً \* كان هذا الجنرال يعترف كل سنة للقس بالخطايا التى قارفها مع سيدات صغيرات ... وكان يشرب كما يشرب البط \* كان يشرب أربعين كأساً على الأقل من ماء نهر موسكوفيا \* كان يستشفى بذلك من مرض لا أدرى ما هو \* ان خادمه هو الذى قال لى ذلك \*

قال السجين صاحب البالالاىكا :

- لا شك أن السمك كان يسيح فى بطنه \*

وكان هناك سجين اسمه مارتينوف هو شيخ كثير الحركة دائم الانشغال كان قد خدم فى سلاح الفرسان ، فها هو ذا يتدخل فى الحديث سائلاً :

- هلاً هدا تم قليلاً ؟ أنكون فى جدٍ تم تأخذون تقولون سخافات؟  
أى مفتش سيصل يا رفاق ؟

فقال واحد من المشككين :

- هؤلاء أناس كذابون ! الله يعلم من أين جاءوا بهذا النبأ ! ما هذا

الكلام كله الا هراء ...

قال كوليکوف بلهجة قاطعة ، وكان قد لزم حتى ذلك الحين صمتاً مهياً وقوراً :

- لا . . . ليس هذا الكلام هراء .

ان كوليکوف رجل ذو وزن ، فى نحو الخمسين من عمره ، له وجه متناسق القسما ، يصطنع فى سلوكه آداباً فيها عظمة واحتقار ، ويستمد من ذلك غروراً وأبهة . ان فى عروقه دماً غجرباً ، وهو يعمل بيطرباً ، ويبنى أرباحاً من معالجة الخيول ، ويبيع فى سجننا خمرأ ؛ ليس هو بالغبى ، حتى ليمن أن يعد ذكياً ، هذا الى ذاكرة زاخرة . وهو يساقط أقواله بعناية كبيرة كان كل كلمة من كلماتها تساوى روبلاً .

تابع يقول بلهجة هادئة :

- هذا الكلام صحيح . سمعته فى الأسبوع الماضى . انه جنرال ذو شارات ضخمة ، سيفتش سبيريا كلها . لا شك أنه يأخذ رشوات ، ولكن ميجرنا « ذا العيون الثماني » ليس هو الذى سيرشوه : انه لن يجرؤ أن يتسلل قربه ، ذلك ان هناك جنرالات وجرالات ، يرافق ، كما هنالك حزم وحزم من الحطب . أتم تعرفون هذا . ليس جميع الجنرالات سواء . ولكننى أؤكد لكم أن ميجرنا سيقى فى مكانه . نحن بلا ألسن . نحن لا يحق لنا أن نتكلم . أما رؤساؤنا فليسوا من سيشى به . سوف يصل المفتش الى سجننا ، فما ان يلقى عليه نظرة حتى ينصرف ؛ وسيقول ان كل شىء يجرى فى سجننا كما يجب أن يجرى .

- صحيح . ولكن هذا لا ينفى أن الميجر قد خاف . انه سكران منذ الصباح .

- وفى هذا المساء طلب عربتين . . . ان فدكا هو الذى قال ذلك .

– لا يصير الزنجى أبيض اللون مهما تغسله • أهذه أول مرة ترونه فيها سكران ؟

اضطرب السجناء وتاروا فقال بعضهم لبعض :

– لسوف يكون ظلماً شديداً أن لا يُصنع بهذا الميجر شيء •

انتشر خبر وصول المفتش فى السجن كله • أخذ السجناء يطوفون فى الفناء ويرددون النبا الخطير • فبعضهم يصمتون ويحافظون على هدوئهم ليظهروا بمظهو الوقار وليسبغوا على انفسهم شانا وخطرا وبعضهم لا يبالي ولا يكثرث • وعلى عتبة الابواب جلس بعض السجناء ليعزفوا على البيالالايدا ، بينما راح بعضهم الآخر يتابع ترثرتة • وهذه جماعات منهم تغنى فى استرخاء • ولكن فناء السجن مضطرب مهتاج بوجه عام •

وفى نحو الساعة التاسعة عددنا وأودعنا الثكنات التى تغلق علينا أبوابها فى الليل • هو ليل قصير من ليالى الصيف • ونحن لذلك نوقظ فى الساعة الخامسة من الصباح • غير ان احدا منا لا يستطيع ان ينام قبل الحادية عشرة من المساء ، لان الاحاديث لا تنقطع حتى تلك الساعة ، وكذلك الحركة والذهاب والاياب ••• حتى لقد يتحلق السجناء للمقامرة فى بعض الأحيان كما يفعلون ذلك فى ليالى الشتاء • الحر خانق لا يطاق • صحيح ان النافذة المفتوحة تدع لطرارة الليل أن تدخل ، غير أن السجناء لا يزيدون على أن يضطربوا فوق سررهم الخشبية كأنهم فى هذيان • ما أكثر الهوام والحشرات ! لقد كان عندنا منها كثير فى الشتاء • غير أنها تتكاثر حين يأتى الربيع تكاثرا رهيبا ما كان لى أن أصدقه لولا أن قاسيت منسه بنفسى • وكلما تقدم الصيف ازدادت الهوام والحشرات • ان المرء يستطيع أن يتعود على الحشرات فقد لاحظت ذلك ، غير أنها تظل عذابا لا يطاق ، عذابا يبلغ من الهوال أنه يبعث فى الجسم

حمى ! ••• ان المرء يحس أثناء النوم أنه غير نائم ، وانما هو يهذى •••  
وأخيراً ، عند الصباح ، حين يتعب عدوك ، فتنام نوماً هنيئاً فى طراوة  
الفجر ، تسمع الطبل الظالم الذى لا يرحم ، يقرع على حين فجأة •••  
انك تسمع ضربات العصا على الطبل وهى تزداد كثرة وقوة ••• فتلن  
هذه الضربات ، ولا تملك وأنت تملو فى معطفك الا أن تخطر ببالك  
هذه الفكرة على غير ارادة منك : سوف يتكرر هذا غدا ، وبعد غد ،  
سنين متتالية ، الى أن يفرج عنك وتتمتع بحريتك • متى تأتى هذه  
الحرية ؟ أين هى هذه الحرية ؟ ••• ولا بد أن تهض ، فان السجناء  
قد أخذوا يسيرون حولك ، وعاد الصخب المألوف يعلو ••• ويرتدى  
السجناء ثيابهم ، ويسرعون للذهاب الى العمل • على أنك ستستطيع أن  
تنام ساعة بعد الظهر •

ان ما قيل عن قدوم المفتش كان هو الحقيقة بعينها • كانت الشائعات  
تتأكد يوماً بعد يوم ، وعلم أخيراً أن موظفاً كبيراً برتبة جنرال قد جاء  
من بترسبرج ليفتش سبيرييا كلها ، وأنه وصل الى توبولسك فهو الآن  
هناك • كنا نطلع كل يوم على شىء جديد • كانت الشائعات توافينا من  
المدينة • قيل ان الجميع خائفون • وان كل واحد يقوم باستعداداته من  
أجل أن يظهر بأحسن مظهر • السلطات تنظم استقبالات وحفلات راقصة  
ومهرجانات وأعياداً من كل نوع • وأرسلت جماعات من السجناء لتمهيد  
سوارع القلعة ، وانتزاع ثمر الأرض ، وطلاء الأسبجة والأوتاد ، وتطين  
الجدران ، وصبغ الأبواب ، واصلاح كل ما هو ظاهر للعيان • كان  
السجناء يفهمون الغاية من هذا العمل فهما تماماً ، وكانت مناقشاتهم ماتفك  
تزداد حرارة وحدة وشدة • أصبحت أخيلتهم لا تعرف حدوداً • حتى  
لقد أصبحوا يهثون أنفسهم لتقديم بعض المطالب متى وصل الجنرال ،  
ولكن ذلك لا يمنعهم قط من أن يتشائموا ويتشاجروا • وكان ميجرنا

على مثل نار الجمر فلقاً • انه يزور السجن بغير انقطاع ، يصرخ مزيداً من الصراخ ويتهجم على السجناء أكثر مما كان يتهجم عليهم من قبل ، ويرسلهم لأنفه الأسباب الى مقر الحرس من أجل ائزال عقوبة من العقوبات فيهم ، ويهتم اهتماماً خاصاً بنظافة الشكنات وترتيبها وحسن مظهرها • وفى تلك الآونة وقعت قصة صغيرة لم تهز هذا الضابط ولم تؤثر فيه قط ، كما كان يمكن أن يتوقع ذلك ، بل أرضته ارضاء كبيراً وأحدثت له بهجة عظيمة • ان واحداً من السجناء قد طعن سجيناً آخر بمخرز فى صدره عند القلب تقريباً •

الجانبى اسمه لوموف • أما المجنى عليه فقد فكان يسمى فى سجننا باسم جافريلكا : انه واحد من أولئك المتشردين العتاة الذين سبق أن تكلمت عنهم • لا أدرى هل كان له اسم آخر ، ولكننى لم أعرف له فى يوم من الأيام اسماً غير اسم جافريلكا •

كان لوموف فلاحاً ميسوراً من سكان تومسك باقليم ك ••• هو من أسرة عدد أفرادها خمسة : أخوان وثلاثة أبناء • انهم فلاحون أغنياء كان يقال فى المقاطعة كلها ان ما يملكونه يربو على ثلاثمائة ألف روبل نقداً • كانوا يفلحون ويدبغون الجلود ، ولكن الأعمال التى كانوا يتعاطونها خاصة انما هى الاقراض بالربا ، واخفاء المتشردين والمسروقات وما الى ذلك من أمور ••• وكان نصف سكان المقاطعة مدينياً لهم بمال ، فهو واقع بين برائتهم • وكانوا يُعدون أذكياء ماكرين ، وكانوا يصطنعون مظاهر الأبهة والعظمة • وقد اتفق أن حلّ ضيفاً على الاب فى ذات مرة موظف من كبار الموظفين فأحب الموظف فيه جسارته وبراعته ودهائه ، فتخيل أفراد أسرة لوموف عندئذ أن فى وسعهم أن يفعلوا ما يحلو لهم ، فتمادوا فيما كانوا يقومون به من أعمال يحرّمها القانون • وكان جميع الناس يدمدمون متذمرين ، ويتمنون لو يرونهم غائرين تحت الأرض

مائة قدم • غير أن أفراد أسرة لوموف ما برحوا يتمادون في استهتارهم حتى أصبحوا لا يخشون لارؤساء الشرطة ولا قضاة المحاكم في المقاطعة • وأخيراً خانهم الحظ ، فإذا هم يضيعون لا بسبب الجرائم السرية التي كانوا يرتكبونها بل بسبب تهمة ملفقة ووشاية كاذبة • كان لهم على بعد عشرة فراسخ من منزلهم مزرعة يعيش فيها أثناء فصل الخريف ستة عمال كرخيزيين كانوا قد استعبدهم منذ زمن طويل • وفي ذات يوم ، وجد هؤلاء الكرخيزيون قتلى ، وكشف التحقيق الذي دام مدة طويلة عن أشياء فظيعة • واتهم أفراد أسرة لوموف بأنهم هم الذين قتلوا هؤلاء العمال الستة • ان لوموف وابن أخيه هما اللذان قضا هذه القصة فعرفها جميع السجناء ؛ قالوا ان السلطات قد قدرت أن الكرخيزيين كانوا مدينين لأفراد أسرة لوموف بمبالغ طائلة من المال ، وأن هؤلاء بسبب شدة بخلهم وطمعهم ، ورغم ثرائهم العريض ، قد قتلوا الكرخيزيين حتى لا يدفعوا لهم دينهم عليهم • وفي أثناء التحقيق والمحاكمة ذابت ثروتهم وتبددت • ومات الأب • ونفى الأبناء • وحكم على أحدهم مع عمه بسجن الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً • الحق أن أفراد أسرة لوموف كانوا ابرياء كل البراءة من الجريمة التي نسبت اليهم • وفي ذات يوم ، اعترف جافريلكاف ، وهو انسان حقير وغد دنىء ، عرف بأنه متشرد ايضاً ، ولكنه شديد المرح كثير النشاط ، اعترف بأنه هو القاتل • لست أدري في الواقع هل اعترف هو نفسه بذلك ، ولكن السجناء كانوا يعدونه هو قاتل الكرخيزيين ، لقد كان لجافريلا هذا شأن مع أفراد أسرة لوموف أيام تشرده ( وهو لم يجرى الى سجننا الا لقضاء فترة قصيرة جداً بتهمة الهرب من الجندية والتشرد ) ؛ وقد ذبح الكرخيزيين متعاوناً مع ثلاثة متشردين آخرين أملاً في نهب المزرعة •

لم يكن السجناء يحبون لوموف وابن أخيه ، لا أدري لماذا ! ان



ابن الأخ فتى خشن الطبع ، لماح الذكاء ، يحب معاشرته الناس ، ولكن عمه الذى طعن جافريلكا بمخرز ، فلاح غبى مندفع لا ينفك يشاجر السجناء فيضربه هؤلاء ضرباً مبرحاً . وكان جميع من فى السجن يحبون جافريلكا بسبب مرح مزاجه ولين عريكته وسهولة معشره . وكان لوموف وابن أخيه لا يجهلان انه مقترف الجريمة التى حكم عليهم بسببها ، ولكنهم لم يشاجراه فى يوم من الايام . وكان جافريلكا لا يلتفت اليهما أى التفات ولا يهتم بهما أى اهتمام . أما المشاجرة التى أدت الى الطعن بالمخرز فقد شبت بين لوموف وجافريلكا بسبب امرأة مقززة كان جافريلكا ينافس العم لوموف عليها ، فلما تباهى جافريلكا ذات يوم بما ناله من حظوة لديها ، جن جنون الفلاح غيرةً ، فاذا هو يغمد مخرزه أخيراً فى صدر جافريلكا .

وكان أفراد أسرة لوموف ، رغم أن الحكم الذى انتزع منهم جميع املاكهم قد أصابهم بالخراب والدمار ، كانوا يعدّون فى السجن أغنياء جداً . لقد كانوا يملكون مالاً ، وكان عندهم سماور ، وكانوا يشربون شايًا . وكان الميجر لا يجهل ذلك ، وكن يكره لوموف وابن أخيه ، ويحاول ازعاجهما . وكان الرجلان يفسران سلوكه معهما بأنه يرغب فى أن يقدمها لها رشوةً ، ولكنهما لم يشاء أن يفعلا .

ولو قد أغمد لوموف مخرزه فى صدر جافريلكا بمزيد من القوة اذن لأجهز عليه حتماً ، ولكنه لم يستطع أن يحدث فى جسمه الا خدشاً . وأبلغ الميجر النبأ . فما هو ذا يصل الى الثكنة لاهتاً وقد ظهر فى وجهه الرضا والارتياح . ما زلت أراه الى الآن مقبلاً علينا . اتجه الى جافريلكا يسأله بلهجة لطيفة ودود أبوية ، كأنه يخاطب ابنه :

— هل تستطيع يا صديقى أن تذهب الى المستشفى وحدك ، أم أنت

في حاجة الى نقلك اليه ؟ لا ... أعتقد أن من الأفضل أن يوتي لك  
بحصان • هيّا أسرجوا حصاناً على الفور •  
قال جافريلكا :

— ولكنني لا أحس بشيء يا صاحب النبالة الرفيعة • انه لم يزد  
على أن خدشني هنا يا صاحب النبالة الرفيعة •

— أنت لا تعلم يا صديقي ، أنت لا تعلم ... سوف ترى ... لقد  
أصابك في موضع خطر ... كل شيء متوقف على موضع الاصابة ...  
لقد أصابك هذا اللص تحت القلب تماماً !

قال الميجر ذلك ثم أضاف يخاطب لوموف :

— انتظر ... انتظر ... لسوف أقص منك ! خذوه الى مقر  
الحرس !

وبرّ الميجر بوعده • حوكم لوموف • ورغم أن الجرح كان  
طفيفاً ، فان التعمد ظاهر واضح ، لذلك زيدت مدة سجن لوموف بضع  
سنين ، وجلد ألف جلدة بالعصا • وسرّ الميجر بذلك سروراً عظيماً •  
وصل المفتش أخيراً •

وجاء يفتش السجن غداً وصوله • كان اليوم يوم عيد • وكان  
كل شيء قد أصبح منذ بضعة نظيفاً لامعاً أحسن غسله • وكانت رعوس  
السجناء قد حلقت ، وكانت ملابسهم الناصعة البياض خالية من كل بقعه  
( ان النظام يوجب أن يلبسوا في الصيف صدرات وسراويل من قطن ،  
وعلى ظهر كل واحد منهم رقعة مربعة سوداء مخططة الى الصدر ، قطرها  
ثمانية سنتيمترات ) • وكان السجناء قد تلقوا درسا خلال ساعة كاملة :  
فتعلموا ما الذي يجب عليهم أن يجيبوا به ، وبأى ألفاظ يجب عليهم أن

يحييوا ، اذا خطر ببال هذا الموظف الكبير أن يحييهم ؛ حتى لقد أجزيت  
تجارب للتأكد من أن السجناء قد تلقوا الدرس وحفظوه . وكان الميجر  
كمن فقد صوابه . اصطف الجنود في أماكنهم قبل وصول الجنرال بساعه  
كاملة ، ووقفوا ساكنين جامدين كالتماثيل ، مسبلين أذرعهم ، جاعلين  
أصابعهم ملاصقة لخياطة السروال . وأخيراً ، في الساعة الواحدة بعد  
الظهر ، دخل المفتش . انه جنرال مهيب الطلعة ، في هيئته أبهة تبلغ  
من القوة أن قلب جميع الموظفين في سبيريا الغربية لا بد أن تخفق من  
الذعر خفقاناً شديداً متى رآته . دخل الجنرال بادي القسوة ظاهر  
العظمة ، يتبعه رهط من جنرالات وكولونيلات هم الذين كانوا يشغلون  
وظائف كبيرة في مدينتنا . وكان هنالك أيضاً مدني طويل القامة متسفي  
القسمات يرتدى فراكاً ويتعل حذاءين . كان هذا الشخص يتصرف  
تصرفاً فيه حرية وطلاقة ، وكان الجنرال يتجه بالكلام اليه كل لحظة  
في كثير من الأدب واللفظ . ان هذا المدني أت كذلك من بطرسبرج .  
وقد حير أمره السجناء كثيراً ، بسبب ما كان يظهره له الجنرال العظيم  
من احترام . وقد عُرف اسمه وعُرفت وظائفه بعد ذلك ، ولكن ما أكثر  
الكلام الذي دار عليه قبل أن يُعرف اسمه وتعرف وظائفه ! أما صاحبنا  
الميجر الذي كان متأقماً في ملبسه أشد التأق ، وكان يحيط عنقه بياقة  
برتقالية اللون . . . فانه لم يحدث في نفس الجنرال أثراً حسناً ، وذلك  
بسبب ما لاحظته الجنرال من احتقان في عينيه ، وتورد في وجهه وقسوة  
في ملامحه . وكان الميجر قد نزع نظارتيه احتراماً لرئيسه ، ووقف على  
مسافةٍ منتصباً كوتد ، منتظراً على أحراراً من الجمر اللحظة التي يؤمر  
فيها بشيء ليسارع الي تنفيذ رغبة صاحب السعادة . ولكن أحداً لم يشعر  
بالحاجة الي خدماته . طاف الجنرال بالسكنات صامتاً ، وألقى نظرة على

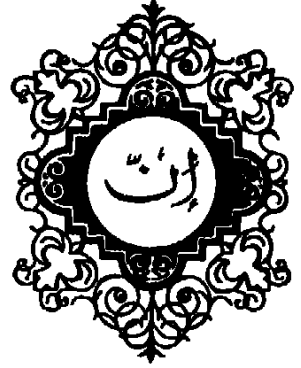
المطبخ ، حيث ذاق حساء الكرب الحامز • وقد دلوه على ، وذكروا له  
أنتى نبيل سابق ، وأنتى فعلت كيت كيت ••• فقال الجنرال :

- آ ••• وكيف سلوكة ؟

فقبل له :

- سلوكة الآن مرضٍ يا صاحب السعادة ، سلوكة الآن مرضٍ •  
فأوما الجنرال برأسه وخرج من السجن بعد دقيقتين • كان السجناء  
مبهورين حائرين مضطربين أشد الاضطراب • أما أن يشكوا الميجر  
فذلك أشد أمر ما كان يمكن أن يخطر ببال أحد منهم • ولقد كان  
الميجر واثقاً من ذلك كل الثقة سلفاً •

## حيوانات السجن



شراء جنيدكو ( الحصان الكميت ) ، وقد تم بعد ذلك بزمن قصير، كان للسجناء تسليمةً أمتع كثيراً من زيارة الشخصية الكبيرة التي تحدثت عنها. كنا في السجن في حاجة الى حصان لنقل الماء ورمي الأوساخ وغير ذلك. وكان أحد السجناء هو الذي يهتم بالحصان ويجره، تحت الحراسة طبعاً. كان حصاننا يعمل من الصباح الى المساء تقريباً. انه حيوان جيد، ولكنه أصبح ضعيفاً مهترئاً من طول ما عمل. وفي ذات يوم، عشية عيد القديس بطرس، بينما كان يحمل برميلاً من الماء، سقط على الأرض ونفق بعد بضعة لحظات. أسف السجناء عليه كثيراً. وهامم أولاء يحتشدون حوله، فيناقشون أمر موته ويعلقون عليه. وبرهن الذين سبق لهم العمل في سلاح الفرسان، والغجر، والبيطرة، وغيرهم، على معرفة عميقة بالخيل عامة، واختلفت آراؤهم في الأمر واختصموا عليه. ولكن ذلك كله لم يردّ حصاننا الكميت الى الحياة، بل ظل ممتداً على الأرض منتفخ البطن. وأحس كل سجين أن من واجبه أن يجسّه باصبعه. وأعلم الميجر أخيراً بالحادث الذي

وقع للحصان فضاءً وفدراً • فقرر الميجر أن يأمر بشراء حصان آخر على الفور •

وفى ساعة مبكرة من صباح الغد ، يوم عيد القديس بطرس ، حين اجتمع السجناء جميعاً بعد الصلاة ، جرى الى السجن بخيول لبيعها • كان امر اختيار الحصان موكلاً الى السجناء ، لان بينهم رجالاً خبيرين حقاً ، ولان من الصعب خداع مائتين وخمسين رجلاً كان تعاطى الخيل اخصاصهم • وصل رجال من الفجر ورجال من الكرخيز ، وسماصرة حيل ، واناس من سكان المدينة • كان السجناء ينتظرون بفارغ الصبر وصول كل حصان جديد ، ويشعرون من ذلك بفرح كفرح الاطفال • ان الشيء الذى كان يسرهم خاصة هو انهم يستطيعون ان يشتروا دابة كما يفعل اناس احرار ، فكانهم يشترون « لانفسهم » وكان المال من جيوبهم «هم» • جرى بثلاثة آحصنة قبل ان يستقر الراى على شراء الرابع • كان البائسون ينظرون بدهشة وبشئ من الخوف الى جنود الحراسه الذين كانوا يرافقون السجناء • وخليق بمائتى رجل محلوقى الرؤوس موسومين بالحديد مكبلى الأقدام بالسلاسل أن يوحوا الى من يراهم بشئ من التهيب ، لا سيما وأنهم فى منازلهم ، انهم فى عرينهم الذى لا يدخله أحد يوماً • لم ينضب معين المكر والدهاء لدى السجناء • كان عليهم أن يعرفوا بالمكر والدهاء ثمن الحصان الذى جيئوا به • ها هم أولاء يفحصون الحصان ويجسونه وقد ظهر فى وجوههم جد كبير واهتمام شديد ، كأن رخاء السجن رهن بشراء هذه الدابة ؛ بل ان الشراكسة قد وثبوا على صهوة الجواد ، فكانت أعينهم تسطح وكانوا يتمنون تمتمةً سريعة بلغتهم التى لا يفهمها أحد ، كاشفين عن أسنانهم البيضاء محرّكين مناخيرهم المتسعة من أنوفهم السمراء المحقوفة • وكان هناك روس يتبهنون الى مناقشاتهم اتبهاً شديداً حتى ليكادوا يلتهمونهم

بأعينهم التهاما • انهم لا يفهمون شيئاً من الكلام الذى كان يتبادلده رفاقهم ،  
 ولكن كان واضحاً انهم يتمنون لو يعرفون من تعبير أعينهم هل الحصان  
 جيد ام لا • ترى لماذا يهتم سجين ، ولا سيما سجين مبهوت مقهور ما كان  
 له أن يجرؤ يوماً على أن ينطق بكلمة أمام رفاقه ، لماذا يهتم سجين كهذا  
 بأن يتم شراء هذا الحصان أو ذاك كأنما هو يشتريه لنفسه ، وكأنما  
 يعنيه أن يشتري هذا الحصان أو ذاك الآخر ؟ ان السجناء الذين أنزلوا  
 المنزلة الاولى فى اتمام هذه الصفقة وأعطوا حق الكلام أكثر من غيرهم  
 انما هم الشراكسة ثم العجبر ومن كانوا فى الماضى يتعاطون تجارة الخيل •  
 وقد نشب نوع من المبارزة بين سجينين ، فأما الأول فهو كوليكوف الذى  
 كان سمسار خيل وسارق أحصنة ، وأما الثانى فهو بيطرى موهوب ،  
 فلاح سيبرى ماكر كان قد أرسل الى سجن الاشغال الشاقة منذ زمن  
 قصير فنافس كوليكوف فى البيطرة ، وأفلح فى أن ينتزع منه ما كان  
 يقوم به من أعمال بالمدينة • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن الناس  
 كانوا يقدرّون كثيراً بياطرة سجننا الذين لا يملكون شهادة الطب  
 البيطرى ، فكان سكان المدينة والتجار بل وكبار الموظفين يتجهون اليهم  
 اذا مرضت خيولهم ويؤثرونهم على كثير من البياطرة أصحاب الشهادات •  
 فكن للسجين كوليكوف ، الى أن وصل الفلاح السيبرى يولكين ، زبائن  
 كثر فى المدينة يدفعون له المال عرفاناً بفضلته ، ولم يكن ينافس فى ذلك  
 أحد • وكان يعمل كما يعمل عجبرى حق ، فهو يغش ويخدع ، لأنه لم  
 يكن يعرف مهنته بمقدار مباحاته • وقد جعلته ايراداته أشبه بأرستقراطى  
 بين نزلاء سجننا ، فكان السجناء يصغون اليه ويطيعونه ، ولكنه كان قليل  
 الكلام ، فهو لا يعلن رأيه الا فى المناسبات الكبرى • انه رجل مزهو  
 بنفسه ، ولكنه ينعم بنشاط عظيم وطاقة جبارة حقاً • وهو متقدم فى  
 السن ، جميل جداً ، على جانب كبير من الذكاء خاصة • كان يكلمنا ،

نحن النبلاء القدامى ، بكثير من الأدب واللفظ والكياسة ، مع احتفاظه بوقاره وكرامته احتفاظاً كاملاً . يقينى أنه لو ألبس لباساً مناسباً ، وأخذ الى نادٍ من نوادى العاصمة ، وقدّم الى الناس على أنه كونت ، لاستطاع أن يظهر بهذا المظهر وأن يرقى الى هذه الرتبة ، وأن يلعب التويست ، وأن يتحدث حديثاً يقتن الألباب كما يفعل رجل ذو شان خطير يعرف كيف يصمت حين يجب الصمت ، ولما استطاع أحد طوال السهرة أن يحزر أن هذا الكونت ليس الا متشرداً من المتشردين . لقد كان يحسن التأدب بالأداب الاجتماعية الراقية ، فلعله رأى كثيراً . . . أما ماضيه فلقد كنا نجهله جهلاً تاماً ، وكان الرجل يتسمى الى القسم الخاص . فما ان وصل يولكين - وهو فلاح بسيط ينتمى الى الملة المنسقة ، ملة « قدامى المؤمنين » ، ولكنه ماكر كأمر موجدك - حتى أقل نجم كوليكوف من حيث هو بيطرى حاذق ؟ فاذا بالبيطرى الجديد يتزع منه ، فى أقل من شهرين ، جميع زبائن المدينة ، لأنه أخذ يشفى ، خلال برهة قصيرة جداً ، خيولاً كان كوليكوف قد أعلن أن أمراضها لا تشفى ، وكان البيطرة الذين يحملون شهادات الطب البيطرى قد عدلوا عن علاجها وتركوا مداواتها . كان هذا الفلاح قد أودع سجن الأسفالى الشاقة لأنه صنع نقوداً مزيفة ، متعاوناً مع شركاء . ترى ما الذى أغراه باقتحام هذا الميدان وتعاطى هذه الصناعة ؟ لقد ذكر لنا هو نفسه ، ساخراً ، كيف أنهم احتاجوا الى ثلاث قطع ذهبية صحيحة من أجل أن يصنعوا قطعة واحدة مزيفة !

استاء كوليكوف استياءً شديداً من النجاح الذى أصابه هذا الفلاح بينما كان مجده هو يأفل أقولاً سريعاً . انه ، وهو الذى كان له خلية فى الضاحية ؟ وكان يرتدى معطفاً من فراء رائع ويتعل حذاءين طويلين فاخرين ، قد وجد نفسه على حين فجأة مضطراً الى أن يصبح خماراً .



لذلك كان جميع السجناء يتوقعون أن تشب بين الرجلين مشاجرة قوية عند شراء الحصان الجديد • ان حب الاطلاع قد تأجج في جميع النفوس • ولكل رجل من الرجلين أنصاره ، والمتحمسون منهم قد أخذوا يضطربون ، بل أخذوا يتبادلون الشتائم منذ الآن • وكان وجه يولكين المعبر عن الدهاء والمكر قد قبض على ابتسامة ساخرة • غير أن الأمور جرت على غير ما كان يتوقع المتوقعون : ان كوليكوف لا يريد أبداً أن يشاجر صاحبه ، وقد تصرف تصرفاً بارعاً يجنبه المشاجرة • سلم لصاحبه في أول الأمر بكل شيء ، وأصغى باحترام الى الآراء النقدية التي أدلى بها خصمه ، ولكنه لم يلبث أن انتهر فرصة كلمة زلّ بها لسان يولكين فاذا هو يقبض على هذه الكلمة فيقول لصاحبه بلهجة متواضعة جازمة انه على خطأ • وقبل أن يتسع وفت يولكين لأن ينوب الى نفسه ويعدل عن رأيه أخذ يبرهن له على انه قد وقع في غلطة فاحشة ، وهكذا حوصر يولكين محاصرة بارعة لم تكن في الحسبان ، فسراً بذلك حزب كوليكوف سروراً عظيماً • قولوا :

– هل رأيتم يا شباب ؟ انه لا يمكن أن يخطيء ! انه يعرف ماذا يفعل !

فقال الآخرون ، ولكن بلهجة لينة لا تحدى فيها :

– يولكين أعلم منه •

• وكان الحزبان مستعدين للتنازل والتصالح •

قال أنصار كوليكوف :

– عدا أن كوليكوف لا يقل عنه علماً ، فان يده أخف ••• انه فيما

يتعلق بالماشية لا يخشى أحدا •

– وكذلك يولكين !

- كوليكون لا يضارعه في هذا مضارع !

وأخيراً اختير الحصان الجديد الذي تم شراؤه بعقد ذلك • انه  
حصان ممتاز ، صغير السن قوى الجسم جميل المنظر : دابة لا مأخذ عليها  
من ناحية من النواحي • بدأت المساومة : صاحب الحصان يطلب ثلاثين  
روبلًا ثمنًا له ، والسجناء لا يريدون أن يدفعوا الا خمسة وعشرين •  
وطالت المساومة وحمت ، فطرف يزيد قليلاً ، وطرف يتنازل قليلاً ،  
ثم اذا بالسجناء يأخذون يضحكون من تلقاء أنفسهم •

قال بعضهم :

- لماذا المساومة ؟ أنت تدفع الثمن من كيسك ؟

وصاح آخرون :

- أنت تريد أن تحقق للخزنة وفرأ ؟

- هذا المال ملك مشترك !

- ملك مشترك ! صحيح أن أحداً لا يزرع حمقى وأغبياء ، ولكن

الحمقى والأغبياء ينتون من تلقاء أنفسهم دون أن يزرعهم أحد ! ...

وتم الاتفاق أخيراً على أن يُدفع ثمن الحصان ثمانية وعشرين  
روبلًا • وأبلغ الميجر نتيجة المساومة فوافق على الشراء • فسرعان  
ما جرى ببخبز وملح ، واقتيد الحصان الجديد الى السجن في عظمة  
وأبهة • أحسب أنه مامن سجين لم يربت على عنق الحصان أو لم يداعب  
أنفه • وقد قام الحصان بنقل الماء الى السجن في ذلك اليوم نفسه : فكان  
جميع السجناء ينظرون اليه في كثير من الاستطلاع وهو يسحب أول  
برميل ؛ وكان سقاؤنا ، السجنين رومان ، يتأمل دابته في كثير من الرضى  
والغبطة والحبور • ان هذا السجنين الذي كان في الماضي فلاحاً ، والذي

يبلغ من العمر نحو خمسين عاماً ، كان امرءاً جاداً صموتاً ، كسائر  
الحوذيين الروس تقريباً ، كأن استمرار معاشرته الخيل تسبغ على طبع  
المرء شيئاً من الوقار والجد حقاً . كان رومان هادئاً ، لطيفاً في معاملته  
جميع الناس ، قليل الكلام . وكان يستنشق سعوطاً يتناوله من علبة  
خاصة للسعوط . وهو مولج بخيول السجن منذ زمن بعيد لا تعرف  
أوله . والحصان الذي تم شراؤه أخيراً هو ثالث حصان يعهد به إليه  
منذ دخوله السجن . وكان كل سجين من السجناء مقتنعاً بأن الكميت من  
بين الخيول هو الحصان الذي يناسب « منزلنا » . وذلك ما كان يؤكد  
رومان أيضاً . فما كان يمكن أن يشتري حصان أبلق مثلاً ! . . .

ان وظيفة الحوذى وقف على رومان لا يمكن أن ينازعه فيها أحد.  
وحين فطس « الكميت » الاول لم يخطر ببال أحد ان يتهم رومان بشيء  
من الاهمال أو قلة التبصر ، حتى ولا الميجر . فقد عدّوا موت الحصان  
قضاءً وقدرا لا أكثر . وكان رومان حوزيا ممتازا في الواقع .

سرعان ما أصبح الكميت الجديد أثير السجن كله . فكثيرا ما كان  
السجناء يقبلون عليه : يداعبونه ويلاعبونه ، رغم ما قد يوصفون به من  
ضعف الاحساس وقلة العاطفة . وفي بعض الأحيان ، حين كان رومان ،  
بعد عودته من النهر ، يخلق الباب الكبير الذي فتحه له صف الضابط ،  
كان الحصان جنيدكو يقف جامداً بانتظار سائقه ، ناظراً اليه من جانب ،  
فيصيح به رومان قائلاً : « اذهب وحدك ! » فاذا بالحصان يمضي هادئاً  
حتى المطبخ فيتوقف هنالك ، منتظراً أن يأتي الطباخون والخدم فيمتحوا  
الماء بقواديسهم ؛ فيصيح السجناء عندئذ قائلين :

— ما أروع حصاننا جنيدكو ! لقد جاء بالبرميل وحده ! انه مطيع !

ما أسعدنا به ! . . .

— حقاً ••• هو حيوان ولكنه يفهم ما يقال له ! •••

— ما أذكى جنيدكو !

فيهز الحصان عندئذ رأسه ويصهل ، كأنه فهم الأمايح وقد رها •  
ويجيئه أحدهم بخبز وملح ، فاذا فرغ الحصان من التهام الخبز والملح  
هز رأسه مرة أخرى كأنه يريد أن يقول : « أنا أعرفك ، أنا أعرفك ،  
أنا حصان جيد وأنت رجل طيب شهم ! » •

وكنت أحب أنا أيضاً أن أدلل جنيدكو باطعامه خبزاً • كنت أجد  
لذة في أن أنظر الى بوزه الجميل ، وأن أحس في راحة يدي شفتيه  
الدافئين الطريتين اللتين تتلفان أعطيتي بشراة • كان نزلاء سجننا  
يحبون الحيوانات ، فلو قد سمح لهم ، اذن للثوا الثكنات بالطيور  
والحيوانات الأهلية •

أى شاغل يمكن أن يرتقى بالطبعا المتوحشة التي يتصف بها  
السجناء ، وأن يلفها ويلينها ، أكثر من هذا الشاغل ؟ ولكن ذلك لم  
يكن مباحاً • فلا النظام يأذن به ، ولا المكان يتسع له •

ومع هذا كان قد استقر في سجننا عدد من الحيوانات ابان اقامتي  
فيه • كان لدينا ، عدا جنيدكو ، كلاب وأوز وجدى ( هو فادكا ) ونسر  
لم يعيش طويلاً •

أحسب أنني سبق أن ذكرت أن كلبنا كان يسمى « شاريك »  
( السمين ) • وأضيف الآن أنه كان حيواناً ذكياً ، وأثنى كنت على صداقة  
معه • ولكن لما كان الشعب يعد الكلب حيواناً نجساً ما ينبغي الالتفات  
إليه ، فان أحداً لم يكن يهتم به • كان هذا الكلب لا يفارق السجن ،  
ينام في الفناء ، ويأكل فضلات المطبخ ؛ ولم يجتذب إليه شيئاً من عاطفة  
السجناء الذين كان يعرفهم جميعاً مع ذلك وينظر الى كل منهم على أنه

صاحبه • فاذا عاد السجناء من عملهم ، وسمعهم يصيحون « يا عريف ! » هرع نحو الباب الكبير واستقبل القادمين فرحاً ، يهز ذيله ، وينظر فى عينى كل واحد ، كأنه ينتظر شيئاً من مداعبة وملاطفة • ولكن جميع ما بذله من جهود للتودد اليهم والتقرب منهم خلال عدة سنين لم يجده نفعاً • فما من أحد رضى أن يلاطفه وان يداعبه غيرى • لذلك كان يؤثرنى على جميع السجناء • اما الكلب الثانى ، واسمه « بايلكا » ( التلج ) فانى لا أذكر الان كيف جاء الينا • واما الكلب الثالث ، كوليئابكا ، فقد أتيت به أنا السجن صغيراً •

ان كلبنا « بايلكا » مخلوق عجيب غريب • كانت عربة من العربات فد داسته فاحت عموده الفقرى من داخل ، فمن راه يركض من بعيد ، خيل اليه أنه يرى كلبين توأمين ولدا ملتصقين • وكان عدا ذلك أجرب اعمص العينين له ذيل زال عنه شعره وتهدل متدليا بين قائميه • لقد ظلمه القدر فقرر أن يبقى فى كل مناسبة هادئاً ساكناً لايهتز ولا يهتاج ؛ فهو لا ينبج على أحد كأنه يخشى ان يهشم من جديد • وكان يبقى خلف الثكنات فى جميع الاحيان تقريباً ، فاذا اقترب منه أحد ، سارع ينقلب على ظهره كأنه يقول : « اصنع بى ما تشاء فلست أفكر فى مقاومتك قط ! » • وكان كل سجين لا يفوته حين ينقلب الكلب على ظهره أن يركله برجله كأنه يقوم بواجب من الواجبات قائلاً له : « يا للكلب قدر ! » ولكن الكلب لا يجرو حتى ان يثن ، فاذا تألم الماء سديدا لم يزد على أن يصدر صوتاً أصم مخفقاً • وكان ينقلب على ظهره أيضاً أمام الكلب السمين ( شاريك ) أو أمام أى كلب آخر يجيى الى المطبخ طلباً للرزق • وكان ينبطح متى هجم عليه كلب من الكلاب الشرسة نابحاً • ان الكلاب تحب من أقرانها الذل والخضوع • لذلك ترى الكلب المهتاج سرعان ما يهدأ متى رأى استكانة قرينه ، فيتوقف

ساهماً أمام الكلب الذليل المنبطح على الأرض ضارعاً متوسلاً ، ثم يأخذ يشم جميع اجزاء جسمه فى استطلاع . ترى فيم يفكر بايلكا فى مثل هذه اللحظة وهو يرتعد خوفاً ؟ أغلب الظن أنه يقول لنفسه : «هل سوف يعضى هذا الوغد ؟ » . ومتى فرغ الكلب الشرس من تشممه تركه ومضى فى سبيله ، لانه لم يكتشف فيه شيئاً يثير اهتمامه . فسرعان ما كان بايلكا ينهض ثم يأخذ يجرى وراء جماعه من أقرانه تلاحق كلبه لعوباً ما .

ان بايلكا يعلم حق العلم أن الكلبة اللعوب لن ترضى أن تنزل الى مستواه ، فهى اكبر شهما واعظم انفةً من ان تنزل الى هذا المستوى الوضع ، غير أن جريه وراها من بعيد عرجاً كان يسرى عنه ويخفف بلواه ويعزيه عن أنواع الشقاء التى يعانيتها . اما الكرامه فقد فقد الاحساس بها حتى اصبح لا يعرفها . واذ ضيغ كل أمل فى المستقبل ، فقد اصبح لا يطمع فى اكثر من أن يملأ بطنه ، وكان يملأ بطنه فعلاً فى كثير من الاستهتار . حاولت مرة أن أداعبه ، فكان ذلك أمراً جديدا لا عهد له به من قبل ، فاذا هو يتكور على الأرض مستلقياً على قوائمه الأربع ، واذا هو يأخذ يرتعش ويحشرج من فرط اللذة ؛ ولما كنت أشفق عليه فقد كنت أداعبه أحياناً كثيرة . ولذلك صار كلما رآنى يقبل علىّ ويثن آينا ساكياً وتكاد عيناه تدمعان . وفى ذات يوم ، وُجد ميتاً وراء السجن فى الخندق ، قد مزقته كلاب أخرى شراً ممزق .

أما كوليئابكا فقد كان له طبع آخر مختلف عن طبع بايلكا كل الاختلاف . لا أدرى لماذا جئت به من أحد المواضع التى كنا نعمل فيها ، وهناك وُلد . كنت أجد لذةً فى اطعامه وفى تتبع نموه . وسرعان ما تولى شاريك حمايته ورعايته ، فأصبح ينام معه ، حتى اذا كبر الكلب الصغير ظل صاحبه الكبير يشعر نحوه بعطف خاص ، فهو يسمح له بأن

يعضه من أذنيه ، وأن يشد شعره ، وهو يلعب معه كما تلعب الكلاب  
الكبيرة مع الجراء الصغيرة • والشئ الغريب أن كوليئابكا كان لا يكبر  
علوا ، وانما يكبر عرضا وطولاً فحسب • وكان كوليئابكا غزير الشعر ،  
وكان شعره بلون شعر الفار • وكانت احدى اذنيه متدلية متهدلة بينما  
ثابت الأذن الاخرى قائمة منتصبه • وكان شديد الحميا كثير الحماسة  
كسائر الكلاب الفتية التي تتواهب فرحة وتبجح مسرورة حين ترى مولها  
حتى لتقفز الى وجهه لتلعبه • انه لا يخفى عواطفه وكأنه يقول لنفسه :  
« حسبي أن يلاحظ فرحي ، فأما المواضع فلا قيمة لها ولا شأن ! » •  
كان يكفي أن أناديه بقولي كوليئابكا حتى أراه يخرج من ركن من  
الاركان ، كأنه انبجس من تحت الارض ، وحتى يسرع نحوي راكضا  
صاخبا متحمسا ، وحتى يتدحرج بين قدمي كما تتدحرج كرة أو ينقلب  
على ظهره منبطحا • كنت احب هذا الشيطان الصغير جداً • كان  
يبدو أن القدر لم يخبىء له في هذه الحياة الدنيا الا المسرة والفرح ،  
ولكن السجين نوسترويف الذي يصنع احذية للنساء ويحضّر جلودا ،  
قد لاحظته ذات يوم ، لان شيئاً قد لفت نظره فيه حتما ، فاذا هو ينادى  
كوليئابكا ويبجس شعره ، ويقبله على الارض في تحبب وتودد ، واذا  
الكلب ، الذي لم يراوده شئ من شك ولا خطر بباله سوء ، ياخذ يسبح  
فرحاً وسروراً ، فما ان جاء الغد حتى كان الكلب قد اختفى • بحثت عن  
الكلب زمناً طويلاً دون أن أعثر له على أثر ، ولكن كل شئ قد اتضح  
بعد أسبوعين • ان فراء كوليئابكا قد أغرقتي نوسترويف ، فعمد الى سلخه  
ليطن به حذاءين كانت زوجة أحد الموظفين قد طلبت منه أن يصنعهما  
لها • لقد أراني نوسترويف الحذاءين حين فرغ من صنعهما ، فكان  
فراؤهما الداخلى رائعا • مسكين كوليئابكا ! •••

لقد كان كثير من السجناء يعملون في دباغة الجلود ، فكثيراً ما كانوا يجيئون الى السجن بكلاب جميلة الفراء سرعان ما تختفى . كان السجناء يشتررون هذه الكلاب أو يسرفونها . أذكر أنني رأيت في ذات يوم وراء المطبخ سجينين يتشاوران ويتناقشان . كان احدهما يمسك مقود كلب أسود جميل جداً ينتمى الى جنس رائع من أجناس الكلاب . ان خادماً من الخدم كان قد سرف الكلب من سيده وباعه لخدائنا هذين بثلاثين كوبكاً . وكان الرجلان يستعدان لخلق الكلب ، وذلك عمل سهل يعمدان بعده الى سلخ الجلد ، ثم يريان الجنة في الحفرة التي أعدت لرمى الاقدار والتي كانت تنشر روائح كريهة فظيعة في ايام الحر الشديد من الصيف ، لانها لم تكن تنظف الا نادرا . احسب ان الحيوان المسكين قد أدرك المصير الذي ينتظره ، فكان ينظر الينا نظرة قلقة فاحصة ، بعضا بعد بعض ؛ وكان لا يجرؤ الا من حين الى حين أن يهز ذيله الكثيف المتدلى بين فائتيه كأنما ليرقق فلوبنا بما يظهره لنا من نقه بنا واطمئنان الينا . أسرعت أبتعد عن هذين السجينين اللذين أنجزا عملهما بغير حرج .

أما أوز سجننا فقد استقر فيه عرضاً ومصادفة . لا أدري من كان يعتنى به ومن كان صاحبه ، ولكننى أعلم أنه كان لسجنائنا سلوةً وبهجةً ، وانه نال شهرة في المدينة . لقد ولدت أوزاتنا في السجن واتخذت المطبخ مقرا لها تخرج منه جماعات متى ذهب السجناء الى الشغل ، فما أن يقرع الطبل فيتجمهر السجناء عند الباب الكبير حتى تجرى الأوزات وراءهم مصوِّتةً صافقةً جناحيها، ثم اذا هي تثب واحدة بعد أخرى ، فتجتاز دكة الباب المرتفع ، فاذا أخذ السجناء يعملون طفقت ترعى على مسافة قصيرة منهم ، حتى اذا انتهوا من عملهم وفضلوا راجعين الى السجن انضمت الى موكبهم من جديد فكان المارة يقولون : « انظروا



الى السجناء يمرون مع أوزاتهم » • وقد سألتنا أحدهم يوماً قائلاً :  
« كيف علمتموها أن تتبعكم ؟ » • وقال رجل آخر وهو يضع يده فى  
جيبه : « خذوا هذا المال لاوزاتكم » • وقد ذبح السجناء هذه الأوزات  
رغم اخلاصها لهم ، احتفالاً بالعيد الكبير بعد الصوم فى سنة من  
السنين •

أما الجدى فاسكا فما كان لأحد أن يقرر ذبحه لولا مناسبة خاصة •  
لا أدرى كيف وجد هذا الجدى فى سجننا ولا أعرف من الذى أتى به :  
انه جدى أبيض جميل جداً لم تمض على وصوله ايام جنى أحبه جميع  
السجناء ، وأصبح لهم تسليّة وعزاء • واذ كان لا بد لهم من عذر  
ينعللون به للاحتفاظ بالجدى فى السجن ، فقد أكدوا انه لا بد من  
تيسر فى الاصطبل \* • ومع ذلك لم يسكن الجدى الاصطبل بل سكن  
المطبخ وانتهى أخيراً الى أن يكون السجن كله مسكنه يطوف فيه على  
ما يشاء له هواء • كان هذا الحيوان الرشيق مرحاً لعبوا يتب على الموائد  
ويصارع السجناء ويركض اذا نودى ويحتفظ دائماً بمزاجه الفرح  
وطبعه الفكه • فى ذات مساء كان اللزخينى باباى جالسا على درجات  
مدخل الثكنة وسط جماعة من السجناء الآخرين فخطر بباله ان يصارع  
فاسكا الذى كان قرناه طويلين بعض الطول • أخذ الرجل والجدى  
يتضاربان بجبهتهما ، وكان هدا اللعب أحبّ التسليات الى قلوب  
السجناء • وها هو ذا فاسكا يشب الى الدرجة العليا من درجات المدخل ،  
فما أن تنحى باباى قليلاً حتى انتصب الجدى فجأة على قدميه الخلفيتين ،  
وقرب حافريه من جسمه ثم لبط اللزخينى على قذاله بكل ما أوتى من  
قوة ، فاذا بالرجل ينقلب متدحرجاً على الدرجات ، فيشيع الفرح فى جميع  
الشهود وفى باباى نفسه • الخلاصه أننا أحيينا جدينا فاسكا حباً عظيماً ،  
فلما أدرك سن البلوغ ، أجرى له البيطريون من نزلاء سجننا ، بعد

مؤتمر عام هام ، عملية كانوا يحسنون اجراءها على أنم وجه ، أعني عملية الخصى . وقال السجّاء عندئذ معلقين : « فبذلك لن يسمرنا بانه نيس على الاقل . » . اخذ فاسكا منذ ذلك الحين يسمن سمته مدهله . يجب أن نذكر على كل حال أن السجّاء كانوا يسرفون في اطعامه . أصبح فاسكا تيساً جميلاً جداً له قرنان رائعان وأصبح مفرطاً في السنه ، حتى صار يتقق له في بعض الأحيان أن يتدحرج على الأرض ثقيلآ أثناء المشي . وكان يرافقتنا هو أيضاً الى العمل ، وكان ذلك يسر السجّاء ويسر المارة الذين كانوا يعرفون جميعا تيس السجن فاسكا ؛ فاذا كان السجّاء يعملون على شاطئ النهر قطعوا أعصاناً من أشجار الصمغاف وطففوا أوراقاً وجنوا أزهاراً يزينون بها فاسكا ، فهم يصنعون على قرنيه غصونا وازهارا ، ويضعون على صدره الأكاليل ، فكان فاسكا يعود الى السجن على رأس القافلة متبرجاً متزيناً ، وكان السجّاء يسرون وراءه معتزين بجماله فخورين بحسنه ؛ وقد بلغ بعض السجّاء من حبه تيسنا أنهم قدموا هذا الاقتراح الطفولي : وهو أن يطلى فرنا فاسكا بالذهب ولكن اقتراحهم بقي مشروعا في الهواء ولم يكتب له أن يوضع موضع التنفيذ . سألت أكيم أكيمتش وهو خير مذهب في سجننا بعد انسيا فومتش هل يمكن حقاً تذهيب قرني تيس ، فأخذ يفحص قرني فاسكا باتباه شديد ، وفكّر برهة ثم أجابني بان تذهيبهما ممكن ولكن الطلاء الذهبي لن يبقى مدة طويلة ، ولا داعي اليه على كل حال . ووقف الامر عند هذا الحد .

كان يمكن أن يعيش فاسكا في سجننا سنين طويلة ، ولعله كان سيموت مصاباً بضيق التنفس لولا أنه في ذات يوم أثناء عودته من العمل على رأس قافلة السجّاء ، قد صادف الميجر جالساً في عربته . كان التيس مزدانا بالأزهار . زأر الميجر قائلاً : « قف ! لمن هذا التيس ؟ » .

فأوضحوا له الأمر فقال غاضباً : « كيف هذا ؟ أ يوجد تيس فى السجن ويكون ذلك بدون اذنى ؟ يا عريف ! » • وأصدر الميجر أمره الى العريف بذبح التيس فوراً وسلخه وبيع جلده فى السوق وايداع ثمنه صندوق السجن ، أما لحمه فيطبخ مع حساء الكرنب الحامز الذى يأكله السجناء • تكلم السجناء كثيراً عن هذا الحادث ، وأسفوا كثيراً على التيس ، ولكن ما كان لاحد ان يعصى امر الميجر • ذبح فاسكا قرب حفرة القاذورات واشترى أحد السجناء لحمه كله ، ودفع ثمنه روبلا وخمسين كوبيكاً • واشترى بهذا المال خبز أبيض للجمع • والسجين الذى اشتراه قام ببيعه بعد ذلك شرائح مقلية • كان لحمه لذيد الطعم صيب المذاق !

كان فى سجننا أيضاً خلال فترة من الوقت نسر من نسور السهوب ( كاراجوش ) التى تنتمى الى فصيلة تتصف بانها صغيرة الحجم • لقد جاء به أحد السجناء جريحاً يشبه أن يكون ميتاً • أحاط به جميع السجناء • كان النسر عاجزاً عن الطيران ، فجناحه اليمنى متهدلة معطلة ، واحدى قائمته مخلوعة • كان ينظر الى الجمهور المستطلع المحتشد حوله نظرة غاضبة ، ويفتح مناقره المعقوف مستعداً لأن يدفع ثمن حياته غالباً • فلما انصرف عنه السجناء بعد أن تأملوه طويلاً ، مضى الطائر الأعرج متواثباً على قائمته السليمة ، صافقاً جناحه ، مضى يختبئ فى أقصى مكان من الفناء ، فقبع فى ركن من الأركان ملتصقاً بأوتاد السياج ، ثم لم يبارح ركنه ذاك خلال الأشهر الثلاثة التى قضاها فى فناء سجننا • كان السجناء فى البداية يجيئون من حين الى حين فينظرون اليه ويهيجون عليه الكلب شاريك الذى كان يهجم نحوه مستعر الحنق ، ولكنه يخشى أن يقترب منه كثيراً ، فكان ذلك يسلى السجناء ويضحكهم ، فيقول بعضهم لبعض : « حيوان كاسر ، هه ! لا يسمح لأحد أن يغيظه ! » •

ولكن الكلب شاريك أصبح بعد ذلك لا يهاسبه وأخذ يتحرش به ويناوشه ، فاذا حرصه السجناء عليه أمسك الجناح المريض من جناحي النسر فكان النسر يدافع عن نفسه بمنقاره ومخالبه ، ويلطو في ركنه متعالياً متغطرساً كملك جريح ، ويحدّق الى من حوله مستطلعاً ومل السجناء أخيراً من هذا المنظر ، فسرعان ما نسوا النسر نسياناً تاماً . ومع ذلك كان يجيئه في كل يوم واحد منهم ، فيضع قربه قطعة من لحم طرى وائاء مكسورا فيه ماء . ظل النسر في الايام الاولى يرفض ان ياكل شيئاً من يد أحد ، أو أن يأكل على مرأى من الناس . استطعت ان اراقبه مراراً من بعيد . كان اذا لم يرا أحداً ، وحسب انه وحيد ، جازف فترك الركن الذي يقبع فيه وأخذ يسير عارجاً على طول السياج ، مسافه اثنتى عشرة خطوة تقريباً ، ثم قفل راجعاً ، ثم استدار فمشى هذه المسافه نفسها مرة أخرى ، ثم عاد ، وهكذا دواليك ، تماماً كما لو ان طيبيا قد أمره بالقيام بهذه الرياضة الصحية ! ولكنه ما يكاد يلمحنى حتى يركض نحو ركنه عارجاً متواثباً بأقصى سرعة يستطيعها . وكان عندئذ يرد راسه الى وراء ، ويفغر منقاره ، ويشعث ريشه ، كأنما هو يتها لمركة . حاولت أن أداعبه ، ولكن جهودى كلها لم تفلح فى ان تؤنسه : كان يعض ويتخبط متى لمس . ولم يقبل مرة واحدة أن يتناول اللحم الذى أحاول أن أقدمه اليه ؛ وكان يحدّق الى بنظرة شريرة ثاقبة ما بقيت قريباً منه . كان النسر الشقى يحب العزلة ويمتلىء قلبه حقداً ، فهو ينتظر الموت مستمراً على تحدى جميع الناس ، مصراً على أن لا يصلح أحداً . وتذكره السجناء أخيراً بعد شهرين من نسيان ، فأظهروا نحوه عطفاً لم يكن فى الحسبان ، واتفق رأيهم على أن ينقلوه من السجن . قال بعضهم : « فليفطس ، ولكن فليفطس حراً طليقاً على الأقل » .

وأضاف آخرون :

- حتماً ••• فان طائراً حراً مستقلاً مثله لن يتعود السجن في  
يوم من الأيام •

وقال أحدهم :

- انه لا يشبهنا ! •••

فأجاب ثان :

- طبعاً ، هو طائر ونحن بشر ! •••

وانبرى سكوراتوف يقول :

- النسر ، يا رفاق ، مك الغابات •••

ولكن أحداً لم يستمع اليه يومئذ •

وبعد الظهر من أحد الأيام ، حين قرع الطبل مؤذناً بالذهاب الى

العمل ، جاء بعض السجناء الى النسر ، فأوثقوا منقاره ، لانه كان يدافع  
عن نفسه بضراوة ، ونقلوه الى خارج السجن فوق السور • ان السجناء  
الذين تولوا هذا العمل ، وكان عددهم اثني عشر سجيناً ، كانوا في أشد  
الشوق الى معرفة الجهة التي سيمضى فيها الطائر • شيء غريب : لقد  
كانوا جميعاً مسرورين ، كأنهم هم الذين يفرج عنهم ، كأنهم هم الذين  
يفوزون بالحرية !

قال السجين الذي كان ممسكاً به ، قال وهو ينظر الى النسر فيما

يشبه المحبة والحنان :

- يا للحيوان الشرير ••• تريد له الخير ثم هو يمزق يدك ليشكر

لك صنيعك !

- دعه يطير يا ميكيتكا !

- الأسر لا يناسبه • هب له الحرية ، هب له الحرية الجميلة !

رُمى النسر من على السور الى الفلاة • كان ذلك في يوم اسهب  
بارد من آخر الخريف • كانت ريح السهوب العاربية تصفر وتثن في  
العشب الاصفر المصوّح • مضى النسر قدماً لا يلوى على شيء ، صافقاً  
بجناحه المريضة ، كأنه يستعجل أن يتركنا وأن يختبئ عن أنظارنا •  
وجعل السجناء يتابعون بأبصارهم رأسه الذي يبرز من العشب •

قال أحدهم ساهماً :

- هل ترون ؟

وأضاف آخر :

- انه لا ينظر الى وراء ! لم ينظر مرة واحدة الى وراء !

فأجاب ثالث :

- وهل تظن أنه سيعود ليعبر لنا عن شكره وامتنانه ؟

- هو الآن حر • لقد ذاق طعم الحرية !

- نعم الحرية !

- لن نراه بعد اليوم يا رفاق !

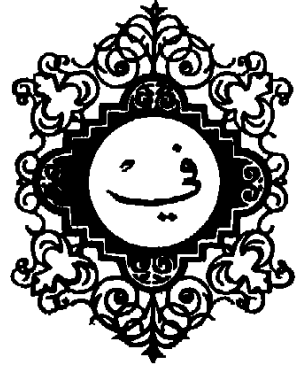
- ما توقفكم هنا ؟ هيئاً امشوا ! ...

كذلك صاح الحرس من الجنود ، فسار السجناء يذهبون الى العمل

بخطى بطيئة •

## الفصل

مطلع هذا الفصل يشعر ناشر « ذكريات منزل الأموات » التي كتبها المرحوم ألكسندر بتروفتشس جورياتشيكوف ، ان من واجبه أن ينقل الى القراء ما يلي :



« لقد تحدث كاتب ذكريات منزل الأموات ، في الفصل الأول من كتابه ، عن جريمة ابن قتل أباه ( وهو نبيل الاصل ) \* ، واتخذ الكاتب من هذه الجريمة مثلاً على ما يلاحظ في السجناء من فقدان الاحساس حين يجيئون على ذكر الجرائم التي ارتكبوها . وقد ذكر كاتب المذكرات أيضاً أن الابن لم يشأ أن يعترف أمام المحكمة بشيء ، غير أن ما رواه للكاتب أشخاص يعرفون جميع تفاصيل القصة قد جعل ارتكاب الابن جريمة قتل أبيه أمراً لا يتطرق اليه الشك . ولقد روى هؤلاء الأشخاص لكاتب « ذكريات منزل الأموات » أن الابن المجرم كان شاباً فاسقاً مثقلاً بالديون ، وأنه قد قتل أباه استعجالاً للحصول على ميراثه منه ؛ ثم ان المدينة كلها التي كان يخدم فيها قاتل أبيه قد روت القصة على هذا النحو نفسه ، وهكذا حصل كاتب الذكريات على معلومات مستفيضة . وذكر الكاتب أيضاً أن هذا القاتل كان حتى في السجن مرحح الطبع فرح المزاج ،

طائش السلوك أهوج التصرف ، رغم أنه ذكى ، وأن كاتب الذكريات لم يلاحظ في يوم من الأيام أنه يتصف بقسوة خاصة ، وأضاف الكاتب يقول : « لذلك لم أصدق يوماً أن يكون مجرماً » •

« وقد تلقى ناشر هذا الكتاب « ذكريات من منزل الأموات » ، تلقى من سييريا نبأً يقول ان هذا الشاب الذى اتهم بقتل أبيه كان بريئاً من هذه الجريمة كل البراءة ، وأنه فضى فى سجن الاشغال الشاقة عشرة سنين بغير حق ، وأن براءته قد ثبتت رسمياً ، وأن المجرمين الحقيقيين قد عرفوا واعترفوا ، وأن الشاب المسكين قد أفرج عنه • ولا يملك ناشر هذا الكتاب أن يشك فى صدق هذه الأنباء •••

« لا جدوى من اضافة شىء الى هذا • علام الافاضة فى الكلام على ما فى هذه الواقعة من عنصر المأساة ؟ ما فائدة التحدث عن هذه الحياة التى حطمتها ودمرتها تهمة كتلك التهمة ؟ ان الواقعة تتحدث من تلقاء جهاراً •••

« وفى تقديرنا أن أمثال هذه الأخطاء يمكن أن تقع ، وأن امكان وقوعها يضيف الى قصتنا سمةً بارزة جديدة ، ويساعد على اكمال المشاهد التى يعرضها كتاب « ذكريات من منزل الأموات » ، ويعين على توضيح هذه المشاهد مزيداً من التوضيح ••• » •

ولنعد الآن الى حيث كنا من « الذكريات » التى كتبها المرحوم ألكسندر بتروفتش جورياتشيكوف :

سبق أن قلت اننى تعودت هذه الظروف أخيراً ، غير أن « أخيراً » هذه لم تحن الا بعد عناء كبير وزمن طويل • لقد احتجت الى ما يقرب من السنة حتى أتعود السجن ، وسأظل أنظر الى تلك السنة الأولى على



أنها أفضح سنى حياتى • ولذلك انحفرت فى ذاكرتى كاملة حتى فى أدق تفاصيلها : بل اننى لاعتقد اننى اتذكر كل ساعة من ساعاتها واحدة بعد أخرى • سبق ان قلت ايضا ان السجناء الاخرين لم يستطيعوا ان « يتعودوا » هذه الحياة اكثر منى • لقد ظلت أتساءل طوال تلك السنه الاولى هل كانوا هادئين حقا كما كان يبدو عليهم ؟ وكانت هذه الاسئلة تشغل بالى كثيرا وتلج على الحاحا شديدا • كان جميع السجناء ، كما ذكرت من قبل ، يحسون فى السجن أنهم غرباء • كانوا لا يشعرون فى السجن انهم فى منزلهم ، بل فى فندق نزلوه عابرين فى مرحله من مراحل الطريق • ان هؤلاء الرجال ، المنفيين الى الابد ، كان يبدو بعضهم مضطربا وبعضهم مصعوقا ، ولكن كل واحد منهم كان يحلم بتحقيق مستحيل ما • فان هذا القلق الدائم الذى لا يكادون يظهرونه ولكن العين البصيرة لا تخطئه ، وان كانوا يعبرون عنه على غير ارادة منهم من الحماسة ونفاد الصبر فى آمالهم وأحلامهم وأمانهم التى لا سبيل الى تحقيقها والتى تشبه أن تكون هديانا ، ان ذلك كله كان يسبغ على هذا المكان هيئة خارقة ويطبعه بطابع عجيب ، حتى يمكن القول ان كل ما يميزه من أصالة انما يرتد الى هاتين السمتين • ان المرء ليحس حين يدخل الى السجن أن ليس فى خارج السجن شئ يشبهه • جميع الناس هنا يستسلمون لأحلام اليقظة ويهيمنون فى تهاويل الخيال • ذلك شئ يخطف البصر ويثب الى العين وثوباً • وهذا احساس يثير النفس ويهز الأعصاب ، لأن هذه الاحلام التى يترسل فيها السجناء تسبغ على وجوه أكثرهم مظهراً قاتماً كثيباً ، متجهماً مكفهراً ، مظهراً يشبهه أن يكون مرضاً • كان جميعهم على وجه التقريب صامتاً لا يتكلم ، مهتاجاً يوشك أن ينفجر فى كل لحظة • وكانوا لا يجبنون أن يظهروا ما يقبع فى قرارة قلوبهم من آمال مستسرة • لذلك كانوا يحترقون البساطة والصراحة .

وكلما كانت الأمانى أقرب الى الاستحالة ، وكلما كان السجين يتترف  
لنفسه باستحالتها اعترافاً أوضح ، كان يحرص على دفنها فى أعماق نفسه  
مزيداً من الحرص ، دون أن يستطيع التنازل عنها والزهد فيها . ترى  
هل كانوا يستحيون من هذه الأمانى التى تراود اخيلتهم ؟ ان الروسى  
واقعى فى نظرته الى الأمور ، لا يتهيب أن يسخر من عيوبه وأن يتهمك  
على نقائصه ! ...

ولعل هذا الاستياء من النفس هو سبب ما يلاحظ فى العلاقات  
اليومية بين السجناء من فقدان التسامح وشدة التعصب ، ولعله سبب  
ما يلاحظ لديهم من قسوة السلوك وكثرة السخر . فاذا إتفق لواحدٍ  
منهم ، هو أكثر سذاجة وتململاً ، أن عبّر بكلام مسموع عما يفكر  
فيه كل واحد صامتاً ، واذا اتفق له أن استرسل فى الأحلام ، وفى بناء  
قصور باسبانيا ، أسرع رفاقه يصدونه بفظاظة وغلظة ، وراحوا يطاردونه  
بالسخر والتهكم . واغلب ظنى أن أعتى هؤلاء الساخرين انما هم أولئك  
الذين كانوا اثر من صاحبهم استرسالاً فى الأحلام الطائشة والامانى  
المجنونة . سبق أن ذكرت أن نزلاء سجننا كانوا ينظرون الى البسطاء والى  
السذج نظرتهم الى أناس حمقى أغبياء ، وكانوا لا يحملون لهم الا  
الازدراء والاحتقار . لقد كان السجناء يبلغون من شدة المرارة وسرعة  
التأذى أنهم كانوا يبنضون من كان مشرق المزاج قليل الكبرياء . والى  
جانب فئة المهذارين البسطاء هؤلاء ، يمكن أن نقسم السجناء الى ائخيار  
وأشرار ، الى مرحين وعابسين . والعايسون هم السواد الاعظم ، فاذا  
اتفق أن كان بينهم ثرثارون ، كان هؤلاء الثرثارون أناساً ندمين وشاةً  
حسودين يتدخلون فى جميع شئون الآخرين ، رغم أنهم يحاذرون أن  
يكشفوا عن أنفسهم وأن يعلنوا ما خفى من أفكارهم ، لأن ذلك أمر غير  
مقبول ، ولأنه يخالف ما جرى به العرف . أما الأئخيار - وهم قلة - فهم

هادثون موادعون مسالمون يخفون آمالهم صامتين ، ويصدّقون أحلامهم وأوهامهم أكثر من العابسين المتجهمين . ويخيّل الى أنه قد كان في سجننا مع ذلك فئة اخرى من المنفيين هي فئة الياثسين من أمثال شيخ ستارودوب ، ولدن هؤلاء قلة قليلة جداً .

كان هذا الشيخ هادثاً في الظاهر ، ولكن كان من حقى استناداً الى بعض العلائم ان افترض ان حالته النفسية كانت رهيبية لا تطاق . ان له ملجأً يلوذ به ، وسلوى يفزع اليها ، ألا وهي الصلاة وقناعته بأنه شهيد . ولعل السجين الذي كان دائم الاستغراق في قراءة التوراة ، والذي سبق أن تكلمت عنه ، أعنى السجين الذي أصبح مجنوناً وهجم على الميجر بأجرة في يده ، لعله كان هو أيضاً واحداً من اولئك الذين هجرهم كل امل ؛ فلما كان يستحيل على الانسان تماماً أن يعيش بلا امال ، فقد سعى الى الموت سعياً باستشهاد مقصود متعمد . لقد صرح هذا الرجل بأنه هجم على الميجر لا لاذي لحقه منه ولا لحقد يضمّره له وانما هجم عليه في سبيل ان يتالم لا أكثر . من ذا الذي يعرف ما هي العملية النفسية التي تمت في أعماق روحه حينذاك ؟ ما من انسان يحيا بدون هدف يسعى اليه ، وبدون جهد يبذله في سبيل الوصول الى ذلك الهدف ؛ فمتى غاب الهدف وزال الأمل ، فان القلق كثيراً ما يجعل من الانسان عندئذ مخلوقاً شاذاً غريباً . . . . ولقد كانت غايتنا نحن جميعاً هي أن ننال الحرية ، هي أن نخرج من السجن .

اننى أحاول أن أصنف سجناءنا في زمر شتى ، في فئات مختلفة : هل هذا ممكن ؟ ان الواقع يبلغ من كثرة التنوع أنه يُفُلت من جميع استنتاجات التفكير المجرد مهما تكن بارعه . ان الواقع لا يحتمل التصنيفات الواضحة الدقيقة . ان الواقع يميل دائماً الى التبعض في تنوع لا نهاية له ، و لا يمكن حصره . لقد كان لكل منا حياته الخاصة ، الداخلية ،

الشخصية ، فى خارج كل حياة رسمية ، فى خارج كل حياة توحيتها  
الأنظمة وتفرضها القوانين •

ولكننى ، كما سبق أن قلت ، لم أستطع النفاذ الى أعماق هذه  
الحياة الداخلية فى بداية عهدي بالسجن ، لان جميع المظاهر الخارجيه  
كانت تصدمنى وتجرحنى وتملؤنى حزنا لا سبيل الى مغالته • كان  
يتفق لى فى بعض الأحيان ان ابغض هؤلاء الشهداء الذين كانوا يتألمون  
مثلا كنت أتألم • وكنت أحسدهم لانهم يحيون بين اقرانهم ويفهم بعضهم  
عن بعض • الحق أن هذه الصلة التى تجمع السجناء فتجعلهم رفاقا ،  
أعنى صلة السوط والعصا ، وهذه الحياة المشتركة الاجبارية ،  
كانت تثير فى نفوسهم من الكره والبغض مثل الذى كانت تثيره فى نفسى ؛  
فكان كل واحد منهم يحاول أن يعيش منتحيا • ولكن ذلك الحسد الذى  
كان يستبد بى فى لحظات الاهتياج والحق قد كانت له أسباب مشروعه  
وبواعث مقبولة • ان الذين يدعون أن السيد الذى نال قسطاً من ثقافة  
لا يتألم فى سجن الاشغال الشاقة أكثر مما يتألم فلاح بسيط ، هم على  
خطأ كامل • لقد قرأت وسمعت دعوى كهذه الدعوى • والفكرة عادله  
وكريمة من حيث المبدأ : فالسجناء جميعاً بشر • ولكنها مجردة مسرفة  
فى التجريد : هنالك تعقيدات عملية يجب أن لا تغيب عن بالنا ، وهى  
تعقيدات عملية لا نستطيع أن نفهمها ما لم يتح لنا أن نعاينها بأنفسنا فى  
الحياة الواقعية • لست أريد أن ادعى بذلك ان السيد المثقف ارهف  
شعوراً وألطف احساساً ، لأنه أكثر تطوراً وأعلى تحضراً • ولكن المساواة  
بين النفوس أمر مستحيل • وحتى الثقافة نفسها لا يمكن اتخاذها معياراً  
لتوزيع العقوبات • اننى أول من يشهد بأننى رأيت بين هؤلاء الأشقياء  
المعذبين الذين يعيشون فى أحط بيئة بعيدة عن الثقافة ، آثار نمو روحى  
مرهف • لقد كان فى سجننا أناس عرفتهم عدة سنين ، وكنت أظنهم

حيوانات كاسرة مفترسة وكنيت لذلك أحتقرهم أحتقاراً شديداً ، ثم اذا بنفوسهم تتكشف فجأة ، فى لحظة ليست فى الحسبان ، وعلى غير ارادة منهم ، عن غنى عاطفى ومودة انسانية وفهم قوى لالام الاخرين وأمالهم، واذا هم يبلغون من ذلك كله أنك تراهم رؤية جديدة كأن غشاوة سقطت عن عينيك • ويبلغ بك الذهول فى بعض الاحيان انك تتردد عن تصديق ما رأيت وما سمعت • وقد يحدث عكس هذا أيضاً : فرب انسان مثقف يبرهن فى بعضَ الأحيان على وحشية رهية واستهتار فظيغ يثيران فى نفسك الاشمئزاز ويبعثان فى جسمك الغثيان ، فاذا أنت لا تستطيع مهما أحسنت الظن أن تجد له أى عذر أو أن تتحلل له أى مبرر •

لن أقول شيئاً عن تغير العادات وطراز الحياة ونوع الطعام وما الى ذلك ، وهو تغير يشق على رجل من الطبقة الراقية أكثر مما يشق على فلاح سبق له ان جاع حين كان حرا طليقا فاذا هو فى السجن يادل حتى يشبع • لا ، لن أناقش هذا الامر ! لنسلم بان الانسان الذى يملك ارادة قوية لا يعبأ بهذه الترهات ولا يابه لهذه السفاسف التى ليست شيئاً المذكورا اذا قيست بأنواع الحرمان الاخرى • ولكن لابد لنا من الاعتراف بأن تغير العادات المادية ليس أمراً سهلاً لا قيمة له • على أن فى حياة السجن فظاعات يهون بالنسبة اليها كل شئ ، ويتضاءل بالقياس اليها كل أمر ، حتى الهوان الذى يحيط به ، والغربة التى يشعر به والطعام القدر الذى يأكله ، والأغلال القاسية التى تخنقه وتسحقه • ان أكثر الرجال رقة وتختنا وأكثرهم بياض يدين ونعومة جلد لا تطرف عيناه حين يعود الى السجن بعد أن ظل يعمل طول النهار ، فيأكل خبزهِ الاسود ويزردد طعامه الذى تسبح فيه الهوام • تلك أمور يتعودها المرء كلها ويألفها كلها، كما تذكرَ بذلك أغنية ساخرة يغنيها السجناء عن « سيد » مدلل آل أمره الى السجن :

طعامى حساء الكرنب مطبوخاً بالماء  
ألتهمه وأتلمظ

وانما الأمر المهم أن كل قادم جديد الى السجن يصبح بعد ساعتين  
اثنين فريناً لسائر السجناء : فهو فى منزله ، بين أهله وذويه ، يتمنع  
بجميع الحقوق التى يتمتع بها رفاقه . انه يفهمهم وانهم يفهمونه ، وهم  
جميعاً يعدونه واحداً منهم ، وذلك ما لا ينعم بمثله نبيل من النبلاء حين  
يودع السجن . ان السجن الذى يتسمى الى طبقه النبلاء ، مهما يكن  
طيب القلب ذكياً ، لا بد أن يكرهه وأن يحقره جميع السجناء سنين  
طويلة ؛ انهم لن يفهموه ، وانهم لن يصدقوه خاصة . لن يكون صديفهم  
ولا رفيقهم ، واذا استطاع أن يحملهم على أن لا يهينوه وأن لا يسيئوا  
اليه ، فسيظل مع ذلك غريباً ، وسيظل يعترف لنفسه متألماً بأنه وحيد وبأنه  
بعيد عنهم جميعاً . وهذا الفراغ الذى يخلقه السجناء حوله ، انما  
يخلقونه بدون سوء نية ، بل يخلقونه على غير شعور منهم بما يفعلون .  
كل ما فى الأمر أن هذا السجن الذى يتسمى الى طبقه النبلاء ليس منهم ،  
ليس يتسمى اليهم ، ليس عضواً فى جماعتهم . . . ان أقطع شىء هو أن  
لا يعيش المرء فى بيئته . فالفلاح الذى ينقل من تاجانروج\* الى ميناء  
بتروبافلوفسك يجد هنالك فلاحين روسيين فماهى الا ساعتان حتى يرتبط  
بهم ويرتبطوا به ، فاذا هم يعيشون معاً فى سلام وهدوء فى عربة واحدة  
أو خص واحد . ولا كذلك النبلاء . فان هوة سحيفة لا قرار لها تفصل  
بينهم وبين عامة الشعب . وهذا لا يلاحظ واضحاً الا حين يفقد نبيل من  
النبلاء حقوقه الأولى ويصبح هو نفسه فرداً من أفراد الشعب . وهبك  
ظلمت طول حياتك على علاقات يومية بالفلاح ، وهبك ظلمت على صلة  
دائمة به كل يوم بخدمتك فى الوظائف الادارية مثلاً ، وهبك كنت لهذا  
الشعب انساناً محسناً وأباً رحيماً ، فانك لن تفهم فهماً عميقاً فى يوم من

الايام • وكل ما ستظن أنك عرفته لن يكون الا وهما وضلالاً • ان  
 الذين سيقراون هذا الكلام سيقولون عنى حتما اننى أبالغ وأغالى ، ولكننى  
 على يقين من ان ملاحظتى هذه صحيحة صادقة • وهذا اليقين ليس يقينا  
 نظريا رسخ فى نفسى من قراءة هذا الرأى فى موضع ما ، بل هو يقين  
 ناشىء عن الحياة الواقعية التى اتاحت لى كل الوقت اللازم لامتحان ارائى  
 ومراقبة قناعاتى • ولعل جميع الناس سيعرفون مدى صدق ما أقول •••

لقد جاءت الاحداث تصدق ملاحظاتى منذ الايام الاولى ، وتؤثر  
 فى جسمى تاثيرا مرضيا • كنت فى الصيف الاول اطوف فى ارجاء  
 السجن وحيدا منعزلاً • وقد سبق أن قلت اننى كنت عندئذ فى حالة  
 نفسية لا تتيح لى ان أحكم على السجناء ولا أن أتبين بينهم أولئك الذين  
 كان يمكن ان يحبوني دون أن يقفوا منى مع ذلك موقف الند من الند •  
 لقد كان لى رفاى هم اناس كانوا فى الماضى من طبقة السادة ، ولكن  
 صحبتهم لم تلق هوى فى نفسى • حتى لقد تمنيت ان لا ارى أحداً •  
 ولكن الى اين المفر ؟ اليكم حادثا من الحوادث التى افهمتنى منذ اللحظة  
 الاولى اننى فى السجن وحيد غريب . فى ذات يوم من شهر اب  
 ( أغسطس ) ، يوم شديد الحر ، فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ،  
 وتلك لحظة يقيل فيها جميع السجناء قبل استئناف العمل ، قام السجناء  
 فومة رجل واحد واحتشدوا فى فناء السجن • كنت حتى تلك اللحظة  
 لا أعرف شيئاً • ومن شدة استغراقى فى أفكارى ، لم أكد ألاحظ ما كان  
 يجرى حولى • وكان السجناء مع ذلك يضطربون ويتحركون منذ ثلاثة  
 أيام • ولعل هذا الاضطراب كان قد بدأ قبل ذلك بزمن طويل ، كما  
 افترضت ذلك من بعد ، حين تذكرت شذرات من أحاديث سمعتها، وحين  
 تذكرت خاصة ما كان يظهر على السجناء من مزيد من اعتكار المزاج  
 واهتياج النفس وشدة الحنق واستمرار السخط منذ زمن • لقد كنت

أعزو ذلك الى قسوة الأشغال الشاقة في فصل الصيف ، والى طول النهار المرهق في هذا الفصل ، والى ما يسترسل فيه السجناء من احلام تعلمهم الى الغابات والحريرية على غير ارادة منهم ، والى فيصر الليالى التى لا يصيرون فيها حظاً كافياً من النوم • ولعل ذلك كله قد انصهر بعضه فى بعض فتألفت منه كتلة كبيرة من السخط كانت تحاول أن تنفجر ، متخذة من الطعام عذراً وتعلة • ان السجناء يشكون من سوء الطعام جهارا منذ عدة أيام ، فيأخذون يتذمرون حين يكونون فى الثكنات ، ولا سيما حين يجتمعون فى المطبخ للغداء أو العشاء • وقد حاولوا ان يستبدلوا باحد الطباخين طباًخاً آخر ، ولكنهم لم يلبثوا أن طردوا الطباخ الثانى بعد يومين وأعادوا الطباخ الاول • الخلاصة أن جميع السجناء كانوا فى حاله قلق شديد وتململ كبير •

كان أحدهم يدمدم قائلاً :

– نهلك من كثرة العمل ، ثم لا يطعموننا الا أسوأ الطعام !•••

فيجيبه سجين آخر :

– اذا لم يعجبك هذا الطعام فأمر لنفسك بطعام فاخر !

فيصيح ثالث قائلاً :

– حساء مطبوخ بأمعاء البقر ، ذلك طعام طيب جداً ، أحب أنا

مذاقه حباً عظيماً !

– واذا لم يطعموك الا أمعاءً ، فهل تظل تجد هذا الطعام طيب

المذاق !

قال رابع :

– حقاً ! يجب أن يطعمونا لحماً ••• انا نضنى أنفسنا بالعمل فى



مصنع الآجر ♦♦♦ والمرء يشتمد جوعه بعد أن ينجز عمله ♦♦♦ ولا يمكن  
أن تقيم الأمعاء أوده وأن تسد رمقه ♦

- وإذا لم يطعمونا أمعاء أطعمونا كروشاً ♦

- حقاً ♦♦♦ انه لطعام ردىء ♦

- لا شك أنه يملأ جيوبه !

- ليس هذا شأنك !

- إذا لم يكن شأنى أنا ، فشأن من هو ؟ ان بطنى ملكى ♦ وإذا

أجمعنا على الشكوى ، فسترون ♦♦♦

- الشكوى ؟

- نعم ♦♦♦

- يظهر أنك لم تصب حظاً كافياً من الضرب بسبب مثل هذه

الشكاوى ! يا لك من غبى أحمق ! ♦♦♦

قال سجين آخر متأففاً معتكراً المزاج :

- صحيح ! فى العجلة الندامة ♦♦♦ قل لنا يا صاح : ممّ ستشكو ؟

ما هى ظلامتك ؟ يجب أن نعرف هذا قبل كل شيء ♦

- سأقول : اذا ذهب الجميع يعرضون ظلامتهم ، فسأذهب أنا

أيضاً ، لأننى أكاد أفطس جوعاً ♦ ان الذين يأكلون على حدة ، من حقهم

أن يقبوا قاعدين ، وأن لا يحركوا ساكناً ♦♦♦ أما الذين يأكلون طعام

السجن ♦♦♦

- يا للحسود ! ان عينيه تسطعان متى وقع بصره على ما لا يملك !

- طيب يا رفاق ! لماذا لا نعزم أمرنا ؟ أما كفانا عناباً ؟ ان هؤلاء.

اللصوص يسلخون جلدنا سلخاً ! هلموا نقدم شكوانا ! هيا نحتج !

- فيم الاحتجاج ؟ أظن أن عليهم أن يمضفوا اللقم نيابة عنك وأن

يدسوها في فمك بعد ذلك ؟ هه ؟ يا للفتى النشيط ، انه لا يريد أن

يأكل الا ما يُمضغ له ! نحن في سجن الأشغال الشاقة يا رجل ...

ذلك سبب كل شيء . \*

- الشعب يموت جوعاً والرؤساء يملئون بطونهم ، بهذا جرت

العادة !

- صحيح ، لقد سمن صاحبنا « ذو العيون الثماني » ، وقد اشترى

لنفسه مؤخراً حصانين أشهين . \*

قال أحد السجناء بلهجة ساخرة :

- وهو لا يجب أن يشرب الخمر ! ...

- لقد غُلب في القمار منذ زمن حين لعب بالورق مع البيطرى ،

فظل يلعب ساعتين دون أن يكون في جيبه قرش واحد . \*

- هذا هو السبب في أننا نطعم حساءً بالكربن والأمعاء !

- أتم جميعاً أغبياء ! ما شأننا نحن وهذا ؟

- اذا قدمنا الشكوى مجتمعين فكيف يستطيع أن يسوغ سلوكه ؟

يجب أن نعزم أمرنا . \*

- كيف يستطيع أن يسوِّغ سلوكه ؟ الأمر سهل : يهوى على

وجهك بصفعة قوية ... ذلك كل ما سيفعله !

- وسيحيلك الى المحاكمة أيضاً ...

كان السجناء مضطربين اضطراباً شديداً • والحق أن طعامنا كان رديئاً جداً • ومما زاد حدة هذا الاستياء العام والحق الشامل أن السجناء كانوا في حالة من قلق متأجج وآلم مستمر وانتظار متصل • ان السجناء مشاجر متمرد بطبعه ، ولكن من النادر جداً أن يثور السجناء جماعةً ، لانهم لا يتفقون يوماً في رأى ولا يجمعون على أمر • وكل واحد منا يشعر بذلك شعوراً قوياً ، لذلك فان السجناء يتبادلون الشتائم أكثر مما يعملون فعلاً • ومع ذلك لم ينقض الاضطراب في هذه المرة دون نتائج • تشكلت في الثكنات جماعات تناقش وتلوم وتقرع وتشتتم وتعدّد عيوب ادارة الميجر حاتقة كارهة ساخطة ، وتحاول أن تسبر خفاياها وأن تفضح أسرارها • والمعروف أن كل قضية كهذه القضية تخلق زعماء ومحرضين • والزعماء في مثل هذه الظروف رجال يمتازون بصفات خاصة بارزة ، لا في السجنون فحسب ، بل في جميع فئات العاملين ، وفي فصائل الجيش ، وغير ذلك • ان نموذج الزعيم واحد في كل زمان ومكان : هم أناس متأججو الحماسة ، ظمأى الى العدل ، شديدي السذاجة ، مقتنعون اقتناعاً صادقاً شريفاً بالقدرة المطلقة على تحقيق رغباتهم • ليسوا أعجبى من الآخرين ، بل ان بينهم أناساً ينعمون بذكاء متفوق ، ولكنهم أعظم حماسة وأشد تأججاً من أن يكونوا دهاةً مكرةً ، ومن أن يكونوا حذرين متردّدين • واذا صادفنا أناساً يعرفون كيف يوجهون الجماهير وكيف يقوودونها ، وكيف يحققون ما يريدون ، فيجب أن نعلم أن هؤلاء ينتمون بهذا وحده الى نموذج آخر من الزعماء الشيعيين يندر وجودهم كثيراً في بلادنا • والذين أتحدث عنهم الآن ، وهم زعماء العصيان والمحرضون على التمرد ، هم أناس يخسرون قضيتهم في جميع الأحيان تقريباً ، ناهيك عن أنهم يمثلون السجنون • ان العيب الذى يضعهم انما هو الاندفاع ، ولكن هذا الاندفاع هو الذى يمكنهم

من التأثير في الجماهير : فالناس تتبعهم ، لأن النار التي تتأجج في نفوسهم والاستياء الصادق الشريف الذي يشب في قلوبهم يفعل فعله في جميع البشر ، فاذا أكثر المأ تردها يتحمس ويندفع • ان تقههم العمياء في النجاح والنصر تفرى حتى الشكاكين الريابين ، رغم أن هذه الثقة التي تفرض نفسها قد تكون في كثير من الأحيان قائمه على أسس تبلغ من الضعف والوهن والسذاجة الطفولية أن المرء يدهشه ان يرى الناس قد صدقوها • ان سر تأثيرهم في الناس هو انهم يسيرون اول السائرون لا يهابون ولا يخافون شيئاً • انهم يندفعون الى الأمام خافضين رؤوسهم الى تحت ، مقدمين قرونها الى أمام ، كالثيران ، دون ان يعرفوا في كثير من الأحيان ما يشرعون فيه من عمل ، ودون أن يساورهم شيء من تلك الروح اليسوعية العملية الماكرة التي بفضلها يستطيع انسان دنيء سافل في أحيان كثيرة أن يربح قضية وأن يبلغ هدفه وأن يخرج ناصع البياض من برميل حبر • ان عليهم أن يحطموا قرونها • ان هؤلاء الأفراد هم في الحياة العادية أناس شديداً الاندفاع سريعوا الاهتياج قليلو التسامح كثيروا الاحتقار ، وهم في كثير من الأحيان محدودون ، وذلك عامل من عوامل قوتهم على كل حال • والمؤلم في الأمر أنهم لا يهجمون أبداً على الشيء الاساسى ، على الشيء الهام ، وانما يتلبثون دائماً عند تفاصيل ، بدلا من المضي قدما الى الهدف ، وذلك ما يضيعهم • ولكن الجمهور يستمع لهم ويفهم عنهم ، وهم بذلك رهييون •

يجب أن أقول الآن بضع كلمات عمماً قصدته بكلمة « الظلامه » أو

الشكوى •

ان بعض السجناء كانوا قد نفوا الى سيربيا وأودعوا السجن لا لشيء الا لأنهم قدموا شكوى أو رفعوا ظلامه • ان هؤلاء هم أكثر السجناء حركة واضطراباً • أذكر بينهم رجلاً اسمه مارتينوف كان قد خدم في سلاح

الفرسان ، وهو على شدة اندفاعه وقلقه وغضبه انسان شريف صادق •  
وأذكر منهم أيضا فاسيلي آتونوف ، وهو رجل شديد الالتهياج وقع النظرة  
ساخر الابتسامة ولكنه شريف صادق أيضاً ، كما أنه ذكي يقظ • وحسبي  
ذكر هذين الاسمين ، لأن عدد هؤلاء الرجال كبير • وكان بتروف يذهب  
ويجيء من جماعة الى أخرى ، يتكلم قليلاً ولكنه مهتاج من غير شك ،  
لأنه وثب أول الوثائين الى خارج الثكنة حين تجمهر الآخرون في الفناء •  
سرعان ما وصل صف الضابط الذي كان برتبة وكيل ، مروّعاً مذعوراً •••  
فما أن اصطف السجّاء حتى رجوه في لطف وأدب أن يبلغ الميجر أنهم  
يرغبون في أن يتحدثوا اليه وأن يسأله عن بعض الأمور • ووراء صف  
الضابط وصل جميع الجنود المشوّهين فاصطفوا في الجهة الأخرى أمام  
السجّاء • ان الرسالة التي عهد السجّاء الى صف الضابط بنقلها الى الميجر  
أمر خارق لا عهد له بمثله من قبل ، فامتلاً الرجل جزعا وهلعاً ، ولكنه  
لا يجرؤ أن لا يقدم تقريره الى الميجر ، فلو تمرد السجّاء وقاموا  
بمعيان ، لكان يمكن أن تحدث أمور لا يعلمها الا الله ••• لقد كان جميع  
رؤسائنا جنباء غاية الجبن في علاقتهم بالسجّاء • وهبّ لم يحدث شيء  
أسوأ مما حدث ، هب السجّاء عدلوا عن رأيهم وتفرقوا فسوف يكون  
على صف الضابط أن يبلغ الادارة جميع ما وقع • وها هو ذا يسرع الى  
الميجر ، ممتع اللون مرتعد الجسم من الفزع ، حتى دون أن يحاول رد  
السجّاء الى الصواب واقتناعهم بالتزام جانب الحكمة والرشاد • لقد أدرك  
حق الادراك أن السجّاء لن يتسلوا بمناقشته هو •

وكنت أجهل ما يجري كل الجهل ، فاصطففت مع المصطفين ( اننى  
لم أعرف تفاصيل هذه القصة الا فيما بعد ) • كنت أظن أن الهدف هو  
تفقدنا وعدنا ، فلما لم أر حرساً يراقبون التعداد ، ألت بي دهشة  
وأخذت أنظر فيما حولى • كانت الوجوه تعبر عن انفعال شديد وحق

مستعر • وكان بينها وجوه شاحبة صفراء • ان السجناء مهمومون صامتون ، يفكرون فيما يجب عليهم أن يقولوه للميجر • ولاحظت أن كثيراً منهم كانوا مدهوشين من رؤيتي الى جانبهم ، ولكنهم سرعان ما تحولوا عني • لقد استغربوا أن أصطف معهم ، وأن أريد أنا أيضاً أن أشارك في شكواهم ، فلم يصدقوا ذلك • وما هي الا لحظة حتى التفتوا الى من جديد وقد بدت في وجوههم علامات السؤال •

قال لي فاسيلي آتونوف بلهجة فظة وصوت عالٍ ، وكان الى جانبي بعيداً عن سائرهم ، وكان يخاطبني قبل ذلك دائماً بصيغة الجمع في كثير من اللطف والتأدب ، قال يسألني في هذه المرة بصيغة المفرد ( أنت ) :

- ما مجيئك أنت الى هنا ؟

ف نظرت اليه مرتبكاً أشد الارتباك متحيراً أشد التحير ، محاولاً أن أفهم ماذا يعني • كنت قد حذرت منذ تلك اللحظة أن شيئاً خارقاً ما كان يجري في سجننا •

قال لي سجين عسكري شاب لم أكن أعرفه حتى ذلك الحين وهو فتي طيب مسالم مواع :

- نعم ! ما بقاؤك هنا ؟ اذهب الى الثكنة ، فالأمر لا يعينك !

أجبت قائلاً :

- رأيتمكم تصطفون فاصطففت ، أليس تفتيشنا هو الغرض ؟

صاح أحد المنفيين يقول :

- جاء يحشر نفسه !

وقال آخر :

- يا للأنف الحديدى !

وأضاف ثالث يقول باحتقار لا يوصف :

- قتلة ذباب !

فما كان من هذا اللقب الذى لقبنى به الرجل الا أن جعل الجميع  
ينفجرون ضاحكين •

وأضاف آخر :

- ما أحلى منظرهم فى المطبخ ، هؤلاء الناس !

- هم فى كل مكان مترفون ! ألسنا فى السجن ؟ ومع ذلك  
يشترون خبزا أبيض وخبازير رضًا كما يفعل سادة عظام ! أأنت  
تأكل على حدة ؟ فما مجيئك هنا ؟

وقال لى كوليكونف بغير تحرج ، وهو يمسك يدى ويخرجنى من  
الصف ، ويخاطبني بصيغة الجمع :

- ليس مكانكم هنا •

لقد كان شاحباً كل الشحوب ، وكانت عيناه السوداوان تسطعان ،  
وكان بعض شفته السفلى حتى ليكاد يدميها • انه ليس من أولئك الذين  
كانوا ينتظرون وصول الميجر هادئى النفس ثابتى الجنان •

كنت أحب كثيراً أن أنظر الى كوليكونف وهو على مثل هذه الحال  
أى حين يضطر أن يكشف عن نفسه كاملاً بحسناته وسيئاته ، بمزاياه  
وعيوبه • لئن كان كوليكونف يصطنع أوضاعاً ومظاهر ، فلقد كان أيضاً  
يفعل • وأحسب أنه لو اتقيد يوماً الى الموت لمثى اليه رشيقياً أنيقاً ،

كسيد صغير • لقد ضاعف تأدبه معي وملاظفته لى بينما كان الآخرون جميعاً يخاطبوننى بصيغة المفرد ، ويكيلون لى الالهات ، ولكنه كلمنى بلهجة قاطعة جازمة لا تسمح بمقاطعة أو رد أو جواب • تابع يقول :

- نحن هنا لسان خاص بنا يا ألكسندر بتروفتش ، فليس عليك أن تتدخل فى هذا الشأن • اذهب حيث شئت ••• انتظر حيث أردت ••• اسمع : ان جماعتك فى المطبخ فامض اليهم ••• وقال آخر :

- هم هنالك على خير حال !

نظرت الى داخل المطبخ من خلال النافذة ، فلمحت البولنديين فعلاً ، كما لمحت كثيراً من السجناء أيضاً • ومضيت أدخل المطبخ مرتبكا أشد الارتباك ، ترافقنى قهقهات وشتائم ، وتشيعنى صيحة خاصة كانت تقوم فى سجننا مقم صغير الاستهزاء والسخر :

- لم تعجبه الحل ! •• تيو - تيو - تيو ! •• هاتوه ! أمسكوه !••

لم تلحق بى اهانة كهذه الالهانة خطورة منذ دخولى السجن • كانت تلك اللحظة أليمة جداً ، ولكن كان فى وسمى أن أتوقعها ، فلقد كانت النفوس مهتاجة مفرطة فى الاحتياج • وفيما أنا ألج حجرة المدخل التفت بالفتى : ••• سكى ، وهو شاب من طبقة النبلاء ليس على حظ كبير من الثقافة ، ولكنه صلب الارادة كريم النفس كن السجناء يستثنونه ولا يضمرون له ما كانوا يضمرونه لسائر السجناء النبلاء من بغض وكره حتى ليكادون يحبونه • ان كل حركة من حركاته تدل على أنه انسان شهم شجاع قوى •

صاح يقول لى :

- ماذا تفعل يا جورياشيكوف ؟ تعال الى هنا ! •••



سأله :

- ولكن ما الذى يجرى ؟

- يريدون تقديم شكوى ، ألا تعلم ذلك ؟ وان يظفروا بطائل  
طبعاً ، فمن ذا الذى يصدق سجناء ؟ وسوف تبحث الادارة عن  
المحرّضين ، فاذا كنا معهم ، ألفت التبعة علينا وعدتنا مسؤولين عما وقع .  
تذكر لماذا نفينا الى هذا المكان ! ان الادارة اذا أرادت معاقبتهم لم ترد على  
أن تأمر بجلدهم ، أما نحن فسوف تحيلنا الى المحاكمة . ان الميجر  
يكرهنا جميعاً ، وسوف يسعده جداً أن يضيقنا . سوف يتخذنا عذرا  
لتسويغ أعماله وتبرئة نفسه !

فلما دخلنا المطبخ ، أضاف . . . . كى يقول :

- أما السجناء فسوف يبيعوننا موثقى الأيدي والأرجل ! . . .

فقال ت . . . . سكى \* :

- لن تأخذهم بنا شفقة .

وكان فى المطبخ ، عدا السجناء الذين ينتمون الى طبقة النبلاء ،  
نحو " من ثلاثين سجيناً آخر كانوا لا يريدون الاشتراك فى تقديم  
الشكاوى ، فبعضهم عن جبن ، وبعضهم عن اقتناع مطلق . بأن هذه  
الشكاوى لا جدوى منها . وكان آكيم آكىمتش - وهو عدو طبيعى لجميع  
الشكاوى ولكل ما يمكن أن يخل بالنظام ويعرقل الخدمة - ينتظر نهاية  
هذه القضية هادئاً دون أن يعبأ بها أو يكثر لها أو يقلق منها . لقد كان  
مقتنعاً اقتناعاً كاملاً بأن النظام والسلطة ستتم لهما الغلبة فوراً . أما أشعيا  
فومتش ، فكان خافضاً أنفه مضطرباً أشد الاضطراب ، يصغى الى ما كنا  
نقوله ، باستطلاع مذعور . انه قلق أشد القلق . وقد انضم الى البولنديين

النبلاء سجناء من العامة ينتمون الى الجنسية البولندية ، وانضم اليهم كذلك روسيون من ذوى الطبائع الخائفة الوجلة وهم أناس مبهوتون صامتون دائماً ، لم يجسروا أن يعتصموا مع الآخرين فهم ينتظرون خاتمة هذه القضية حزائى مبشسين • وكان هنالك أيضاً عدد من السجناء المتجهمين المستائين لبثوا فى المطبخ لا عن خوف بل لاعتقادهم بأن هذا النمرد سخيف لا طائل تحته ولا أمل فى نجاحه • وأحسب أننى لاحظت أنهم كانوا فى تلك اللحظة محرجين متضايقين ، وأن نظراتهم كانت مضطربة قلقة • كانوا يحسون احساساً قوياً بأنهم على حق ، وبأن نتيجة الشكوى ستكون هى النتيجة التى تنبأوا بها، ولكنهم كانوا يعدون أنفسهم متكرين لمبادئهم حتى لكأنهم خانوا جماعتهم وباعوا رفاقهم للميجر •

وكان فى المطبخ أيضاً ذلك الفلاح السيبرى الداهية يولكين الذى أودع سجن الأشغال الشاقة لأنه اشترك فى صنع نقود مزيفة ، والذى انتزع من كوليكوف ما كان ينعم به كوليكوف من زبائن فى المدينة يلجئون اليه لتطيب بهائمهم • وكان فى المطبخ أيضاً ذلك الشيخ الوافد من ستارودوب • ولم يترك أحد من الطباخين مكانه ، ربما لأنهم كانوا يعدون أنفسهم جزءاً من الادارة ، فلا يجمل بهم أن يشاركوا فى تمرد عليها •

قلت أخاطب مـ ••• كى بلهجة مترددة :

– ولكن جميع السجناء قد خرجوا ما عدا هؤلاء •

فجمعهم ب يقول :

– ما شأنا وهذا ؟

– لو شاركتناهم لتعرضنا لمخاطر أشد كثيراً من المخاطر التى يتعرضون هم لها • اننى أكره هؤلاء اللصوص • وهل تظن أنهم

سيعرفون كيف يشتكون ؟ ألا انى لا أرى ما هى اللذة التى يجدونها فى  
توريط أنفسهم بأنفسهم •

قال شيخ عنيد شرس :

- لن يظفروا بطائل •

وأسرع ألامزوف ، الذى كان معنا أيضاً ، يقول كلاماً كهذا

الكلام •

- سيُجلد منهم خمسون ••• تلك هى الفائدة التى سيجنونها •

صاح واحد يقول :

- وصل الميجر •

فأسرع الجميع الى النوافذ •

كان الميجر قد وصل واطعاً نظارتيه على عينيه ، منقلب السحنة ،  
حانق النفس ، محمر الوجه ؛ واتجه نحو صف السجناء رأساً بقدم  
ثابتة دون أن يقول كلمة واحدة • انه فى ظرف كهذا الطرف يكون  
جسوراً جريئاً فى الواقع ، لا يفقد حضور بديته • يجب أن نذكر أن  
الميجر ثمل فى جميع الأحيان تقريباً • وفى تلك اللحظة كان لقبته  
المتسخة ذات الشريط البرتقالى اللون ، وكان لشاراته الفضية الصدئة  
منظر يوحى بشيء من الشؤم • ووراءه وصل الموظف دياتلوف ، وهو  
شخصية هامة جداً فى السجن ، لأنه هو الذى كان يحكم السجن ويدير  
شؤنه فى حقيقة الأمر • لقد كان لهذا الفتى الكفاء القدير الداهية  
سلطان كبير على الميجر • ولم يكن شريراً ، فكان السجناء راضين عنه  
على وجه العموم • وكان يتبعه الوكيل وثلاثة جنود أو أربعة ، لا أكثر  
من ذلك • وكان الوكيل قد نال نصيباً كبيراً من التقرير والتأنيب ولا شك

أنه يتوقع أن ينال المزيد أضعافاً مضاعفة • كان السجناء قد حسروا رؤسهم منذ أرسلوا يستدعون الميجر ، فهام أولاء الآن يتقاربون ويتراصون ، ويثبت كل منهم جسمه على الساق الأخرى • انهم ساكنون لا يتحركون ، ينتظرون أول كلمة سينطق بها رئيسهم الأعلى أو قل أول صرخة ستصدر عنه •

ولم يطل انتظارهم ، فما ان قال الميجر كلمته الثانية حتى أخذ يصرخ مسعوراً بأعلى صوته • لقد كان خارجاً عن طوره • ورأيانه من نوافذنا يركض من أول الصف الى آخره ويهجم على السجناء يلقي عليهم الأسئلة تلو الأسئلة • واذ كنا بعيدين ، فاتنا لم نسمع أسئلته ولا سمعنا أجوبة السجناء ، وانما كنا نسمعه يصيح صيحاً شديداً يصاحبه نوع من الأنين •

— عصاة ! متمردون ! ••• ستجلدون ! هناك محرضون !

ثم صرخ يقول وهو يهجم على سجين من السجناء :

— أنت واحد من المحرّضين ! أنت أحد المحرّضين !

لم نسمع جواب السجين ، ولكننا رأينا هذا السجين يخرج من الصف بعد دقيقة ويتجه نحو مقر الحرس ••• وتبعه سجين ثان ، فسجين ثالث !

— ستحاكمون جميعاً ! لسوف ••• من هنالك فى المطبخ ؟

كذلك قطع كلامه حين لمحنا فى النوافذ المفتوحة ••

وتابع يصرخ :

— تعالوا جميعاً هنا ! جيئوني بهم جميعاً !

اتجه دياتوف نحو المطبخ • فلما قلنا له اتنا لا تشكو من شيء ولا  
نعرض أية ظلامة عاد يبلغ الميجر ذلك على الفور •

قال الميجر وهو يخفض صوته طبقتين ، فرحاً كل الفرحة :

- آه ••• أولئك لا يشتكون • لا بأس ••• جيئوني بهم جميعاً !

خرجنا من المطبخ • كنت أشعر بنوع من الخزي والعار • ثم ان  
الجميع يسرون خافضين رؤوسهم •

- آه ••• بروكوفيف ! يولكين أيضاً ! وأنت كذلك يا آمازوف !  
هنا ! تعالوا هنا دفعة واحدة !

كذلك قال لنا الميجر بصوت لاهت لكنه ملطف ، حتى لقد كان  
في نظرتة شيء من تودد •

وتابع الميجر يقول :

- وأنت بينهم أيضاً يا م ••• سكي ••• سجلوا أسماءهم !  
يا دياتوف ، سجل جميع الأسماء ، أسماء الراضين على حدة ، وأسماء  
الساخطين على حدة ••• سجل جميع الأسماء بغير استثناء • ستقدم الى  
كشفها بالأسماء ••• ستمثلون أمام المجلس ••• سوف أفل كل ما يحسن  
أن أفعله أيها الأوباش !

أحدث الأمر باعداد الكشف أثره • فهذا واحد من الساخطين  
يصيح قائلاً بصوت أجش متردد :

- نحن راضون •

- آه ••• راضون ••• من هو الراضى ؟ فليخرج الراضون من

الصف !

هتفت أصوات أخرى تقول :

- نحن ! نحن !

- أأنتم راضون عن الطعام ؟ لقد حرّضوكم اذن ؟ كان هناك اذن  
محرّضون ! ويل للمحرّضين !

قال صوت من بين الجمهور :

- ما معنى هذا يا مولانا ؟

فزأر الميجر يسأل وهو يهجم نحو الجهة التي صدر منها الصوت :

- من ذا الذي صاح بهذا السؤال ؟ من ؟ أنت الذي صرخت ،

يا راستوجوييف ؟ هلم الى مقر الحرس !

خرج راستوجوييف من الصف وسار متجهاً نحو مقر الحرس

بخطى بطيئة • انه شاب ممتلىء الوجه طويل القامة • ليس هو الذي  
صرخ • ولكنه لم يحاول أن يعترض حين سمّاه الميجر •

زأر الميجر يقول :

- ان السمنة هي التي تجعلكم غاضبين مسعورين ! انتظر أيها

البوز الضخم ! هي ثلاثة أيام ثم لا تستطيع أن ! ••• انتظروا ! لسوف  
أكشف عنكم وأقبض عليكم جميعاً • فليخرج الذين لا يشتكون !

قال بعض السجناء وقد أظلمت وجوههم :

- نحن لا شكوى لنا يا صاحب النبالة الرفيعة !

وصمت الآخرون • ان الميجر لا يتمنى أكثر من ذلك • كان يرى

أن من مصلحته أن ينهى هذه القضية بأقصى سرعة ممكنة ، وباجتماع  
السجناء • قال متمتماً :

- آ ••• الآن لا يشكو أحد شيئاً • رأيت ذلك • وكنت أعرفه  
المعرفة • ولكن هنالك محرّضين ! نعم ، لا شك أن هنالك محرّضين !  
وتابع يقول مخاطباً ديالتوف :

- يجب أن يُعرف جميع المحرّضين • أما الآن فقد حان موعد  
الذهاب الى العمل • اقرعوا الطبل !

وشهد الميجر بنفسه تشكيل فرق العمل • تفرق السجناء في  
حزن ، دون كلام ، وقد أسعدهم أن يغيّبوا • فما ان فرغ الميجر من  
توزيع فرق العمل حتى مضى الى مقر الحرس ، حيث اتخذ اجراءات في  
حق المحرّضين • ولكن لم يسرف في القسوة • كان واضحاً انه يريد  
أن يحل المشكلة بأقصى سرعة • وقد حدثنا أحد الذين ذهبوا الى مقر  
الحرس ، حدثنا بعد ذلك فقال انه استغفر الضابط ، فسرعان ما أفرج  
عنه • لا شك في أن الميجر لم يكن مرتاح البال • لعله كان خائفاً • ان  
العصيان أمر شائك دائماً ، رغم أن تمرد السجناء لم يكن في حقيقة  
الأمر تمرداً (وهو لم ينقل خبره الا الى الميجر ، أما الأمر فقد كتم عنه)،  
فانه قضية مزعجة على كل حال • والشئ الذي أقلق الميجر خاصةً انما  
هو اجماع السجناء على العصيان • فكان لا بد اذن من قمع مطالبهم باى  
ثمن ، مهما كلف الأمر • وما لبث الميجر أن « أخلى سبيل » المحرّضين •  
وفي الغد تحسن الطعام بعض التحسن ، ولكن هذا التحسن لم يدم  
طويلاً • وأصبح الميجر في الأيام التالية يزيد زيارته للسجن ، ويفرض  
عقوبات على من يخالفون النظام • وأصبح الوكيل يذهب ويجي مضطرباً  
قلقاً مهموماً ، كأنه لم يستطع أن يثوب الى رشده وأن يتخلص من  
ذهوله • أما السجناء فانهم لم يهدأوا الا بعد زمن طويل ، غير أن  
اضطرابهم يختلف الآن عن اضطرابهم في الأيام الأولى • هم الآن قلقون

مختارون مرتبكون • بعضهم يخفضون رؤوسهم ويصمتون ، وبعضهم يتكلمون عن هذه المجازفة مدممين كأنما على غير ارادة منهم ، وكثير منهم يسخرون من أنفسهم بمرارة كأنما ليعاقبوا أنفسهم على هذا العصيان الذى لم يكن فى محله •

يقول أحدهم :

– خذ يا رفيق ، خذ وكل ! ...

– أين الفأرة التى تريد أن تعلق جرساً فى ذنب الهرة ؟

– نحن أذس لا يمكن اقناعنا الا بالعصا ... ذلك مؤكد • ألا فلنغبط أنفسنا على أنه لم يأمر بجلدنا جميعاً !

– فكّر أكثر ، وثرثر أقل ! ذلك خير وأبقى !

– ما بالك تلقننى درساً ؟ أتراك معلمَ مدرسة ؟

– طبعاً يجب تلقينك درساً !

– من أنت حتى تلقننى درساً ؟

– أنا رجل ، أما أنت فماذا أنت !

– ما أنت الا عظمة كلب • ذلك أنت !

– هيا ! كفى ! ما هذا العياط والزياط ؟

كذلك كانت تتعالى الصيحات من كل جانب تحاول أن تسكت

المتشاجرين •

وقد التقيت فى مساء اليوم الذى حدث فيه التمرد ، التقيت بصاحبى بتروف بعد عمل النهار • كان بتروف يبحث عنى • وسمعتة يجمجم



بهتافات غير مفهومة وهو يقترب مني ، فما ان وصل الىّ حتى صمت  
وسار يتنزه معي بخطى آليّة • كنت ما أزال مثقل النفس من هذه  
القضية كلها ، واعتقدت أن في وسع بتروف أن يفسّر لها لي •  
سألته :

- قل لي يا بتروف : هل أصحابك غاضبون منا حاقنون علينا ؟

فأجاب كمن تاب الى نفسه على حين فجأة :

- غاضبون ؟ من ؟

- السجناء ... هل هم غاضبون من النبلاء ؟

- فيم يفضبون ؟

- لأننا لم نؤيدهم ، لأننا لم نشاركهم اعتصامهم !

قال بتروف محاولاً أن يفهم ما أقوله له :

- ولكن علام تعصبون أتم ؟ انكم تأكلون على حدة •

- ولكن بين أصحابك من لا يأكلون طعام السجن المعتاد ، ثم

شاركوكم الاعتصاب مع ذلك ... لقد كان علينا أن نؤيدكم وندعمكم

ونشد أزركم ... ألسنا رفاقاً لكم ؟

- أأنتم رفاق لنا ؟

كذلك سألتني بتروف مدهوشاً •

نظرت اليه • انه لم يستطع أن يفهم أو أن يدرك ما قلته له أبداً •

أما أنا فقد فهمته حق الفهم • ان فكرة كانت تتحرك في رأسي غامضة

وكانت تحاصرني منذ زمن طويل قد تبلورت الآن نهائياً • أدركت

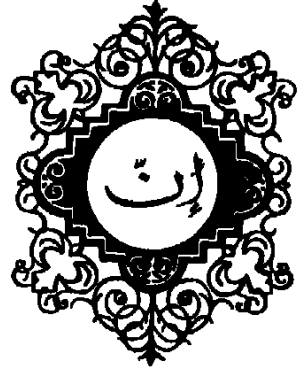
ادراكاً واضحاً ما كنت أحزره قبل ذلك حزراً مبهماً • أدركت أنني لن

أصبح في يوم من الأيام رفيقاً للسجناء ، ولو حكم عليّ بالسجن المؤبد ،

ولو أصبحت اتسمى الى سجناء « القسم الخاص » ، وانحفرت هيئة  
تروف فى ذهنى فى تلك اللحظة ، وظلت ماثلة فى ذاكرتى الى الأبد .  
اقد كان فى قوله : « أأنتم رفاق لنا ؟ » ، كان فى فوله هذا من السداجة  
الصريحة والدهشة البريئة ما جعلنى أتساءل ألا يخفى كلامه شيئاً من  
سخرية ، ألا يخفى كلامه شيئاً من خبث مستهزىء متهمك ؟ أبدأ . أنا  
لست رفيقهم . . . . هذا كل شيء . . . . اذهب أنت يسرة ، ونذهب نحن  
يمنة . . . . لك شأنك ولنا شأننا . . . .

واعتقدت حقاً أنهم بعد هذا العصيان سيمزقوننا تمزيقاً ، وأن حياتنا  
ستصبح جحيماً لا يطاق . غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث ! لم نسمع أى  
لوم ، لم نسمع أى غمز خبيث ! ظلوا يناكدوننا كما كانوا يناكدوننا من  
قبل ، اذا عرضت فرصة أو طرأت مناسبة . . . . ذلك كل شيء . لم  
يضمّر أحد حقداً على الذين لم يشاءوا أن يعتصبوا وظلوا فى المطبخ ،  
لا ولا حمل أحد حقداً على الذين صاحوا أول الصائحين بأنهم لا يشتكون  
من شيء ! لم ينطق أحد بكلمة واحدة فى هذا الأمر . وأذهلنى ذلك  
ثم لم تنقض دهشتى منه يوماً !

## رفائي



الذين اجتذبوني أكثر من غيرهم، كما تقدر،  
 انما هم المتمون الى طبقة النبلاء ، ولا سيما في  
 الآونة الأولى • ولكن ، من بين النبلاء الروس  
 الثلاثة ، وهم آكيم آكيمتش ، والجاسوس

آ • • • ف ، والشاب الذي كان يُظن أنه قاتل أبيه ، لم تتصل أسبابي  
 الا بأسباب آكيم آكيمتش ، فكنت لا أكلم غيره • والحق أنني كنت  
 لا ألتجئ اليه وأخطبه الا في حالة اليأس والقنوط ، في لحظات الحزن  
 التي لا تطاق ، حين يترامى لي أنني لن أقرب من أحد غيره في يوم من  
 الأيام • لقد حاولت في الفصل السابق أن أصنف نزلاء سجننا في فئات  
 شتى • ولكنني اذ أتذكر الآن آكيم آكيمتش أحسب أن عليّ أن أضيف  
 الى تصنيفي فئة ثالثة ، وهذه الفئة لا تضم أحداً سواه • ان هذه الفئة  
 هي فئة السجناء الذين لا يبالون بشيء قط ، ويستوى عندهم أن يعيشوا  
 أحرارا وأن يعيشوا في سجن الأشغال الشاقة وذلك أمر لا يمكن أن  
 يكون عندنا استثناء من القاعدة • لقد استقر آكيم آكيمتش في سجن  
 الأشغال الشاقة استقرار امرئ سيقضى فيه حياته كلها : ان كل ما يخصه،  
 من فراشه الى وسائله الى أوانيه ، كان مرتباً ترتيباً ثابتاً وطيداً نهائياً •  
 كان على آكيم آكيمتش أن يمكث في سجن الأشغال الشاقة عدة سنين

أخرى، ولكننى أشك أن يكون قد فكّر في الإفراج عنه وإطلاق سراحه •  
لقد تلائم مع الواقع، وتصالح مع الظروف التى يعيش فيها، ولم يكن ذلك  
من باب الخضوع والاذعان والاستسلام ، وإنما كان صدرا عن نفسه  
نابعا من قلبه ، وسيان عنده الأمران على كل حال • ان آكيم آكىمتش  
انسان طيب السريرة شهم ، وقد ساعدنى فى الآونة الأولى بنصائحه  
وخدماته ، ولكن يجب أن أعترف أنه كان فى بعض الاحيان يوظف فى  
نفسى حزناً عميقاً لا شبيه له ، حزناً يزيد ويفاقم ما اتصف به من ميل  
الى القلق والهم والغم • وكنت اذا اتحدرت الى حضيض الكمد والكرب  
والياس أتحدث اليه متمنياً أن أسمع منه كلاماً فيه حرارة ومرارة ، فان  
كلاماً كهذا الكلام كليل بأن يجعلنا نسخط معاً على مصيرنا المشترك فى  
أقل تقدير ، فيكون لى من ذلك بعض العزاء • ولكن آكيم آكىمتش كان  
يصمت ويمضى يعمل هادئاً فى الصاق مصابيحته ، ويقص على أثناء ذلك  
أنهم قاموا باستعراض سنة كذا ، وأن أمر الفرقة كان اسمه فلاناً ، وان  
اشارات جنود المدفعية كانت قد غيّرت ، وهلم جرا ••• يقول ذلك كله  
بصوت رصين متساوٍ ، كأنه الماء يتساقط قطرة قطرة • كذا لا يتحمس  
حتى حين كان يروى لى كيف أنه فى قضية من القضايا التى وقعت فى  
القفقاس ( لا أذكر الآن ماذا كانت تلك القضية ) قد منح وسام «القديسة  
حنة» ، وأن سيفه قد ازدان بشريط هذا الوسام • كل ما هذلك أن صوته  
يصير عندئذ أشد رصانة ووقاراً ، فهو اذا نطق اسم « القديسة حنة »  
خفض صوته طبقةً ، وأسبغ على نبرة كلامه طابع السر ، ثم ظل بعد  
ذلك صامتاً جاداً خلال ثلاث دقائق على الأقل ••• وكانت تتابنى أثناء  
تلك السنة الأولى كلها حالات فظيعة أكاد أكره فيها آكيم آكىمتش  
دون أن أعرف لماذا ، وكانت تعترينى سوريات يأس شديد ألعن فى ابانها

القدر الذى رمانى الى سرير فى السجن يلاصق سريره حتى ليتلامس  
رأسانا • على أن هذه التويات لم تصبنى الا خلال السنة الأولى من اقامتى  
بالسجن • ثم تعودت على طبع آكيم ! كيمتش وألفت أخلاقه ، وصرت  
أشعر بالخجل حين أتذكر اندفائتى السابقة • ولست أذكر أننا اختصمنا  
صراحةً فى يوم من الأيام •

عدا هؤلاء الروس الثلاثة الذين كانوا يتمون قبل دخولى السجن  
الى طبقة النبلاء ، كان لى ثمانية \* رفاق آخرين ، انعقدت بنى وبين بعضهم  
صداقة قوية • كان خيرهم أناسا يشبهون أن يكونوا مرضى من فرط  
تفردهم وتعصبهم ، حتى أن بينهم اثنين كفت آخر الأمر عن مخاطبتهم  
وقطعت صلتى بهم • ولم يكن بينهم الا ثلاثة مثقفون هم : • • • سكى \*  
و • • • كى و الشيخ ز • • • سكى \* الذى كان فى الماضى أستاذا  
للرياضيات ، وهو رجل طيب القلب شاذ الطبع محدود الفكر رغم علمه •  
ولا كذلك • • • كى و ز • • • سكى • لقد تفاهمت مع • • • كى  
من أول وهلة ، ولم أختصم معه مرةً واحدة ، وقد قدرته واحترمته  
كثيراً ، ولكن دون أن أحبه ودون أن أرتبط به ، ولم أستطع فى يوم  
من الأيام أن أصل الى ذلك • لقد كانت نفسه تفيض مرارة وشكاً  
وارتياباً وخذراً ، وكان شديد السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه ،  
وذلك بعينه هو مالم يعجبني فيه ، فان المرء يشعر أن هذا الرجل لن يفتح  
نفسه يوماً لأحد • على أتنى قد أكون مخطئاً • وانما المهم أن الرجل  
كان على جانب عظيم من الرفعة • أما شدة ارتياحه فكانت تتجلى براعةً  
خارقة وخذراً كبيراً فى تعامله مع من يحيطون به • والحق ان نفسه  
كانت مزدوجة ، فلقد كان يجمع بين الشك الشديد والايان العميق •  
لقد كان يؤمن ببعض الآمال وبعض القناعات ايماناً لا يتزعزع • وكان

رغم كل براعته العملية ، فى حرب سافرة مع ب . . . . سكى وصديقه  
: . . . سكى .

أما ب . . . . سكى فقد كان رجلاً مريضاً ، وكان فيه استعداد للاصابة  
بالسل ، وكان شرس الطبع ضيق الصدر عصبى المزاج ، ولكنه طيب  
القلب كريم . وكان اھتياجه العصبى يجعله ذا نزوات كأنه طفل .  
ولقد كنت لا أستطيع أن أحتمل طبعاً كهذا الطبع ، لذلك انقطعت عن  
رؤية ب . . . . سكى ، دون أن أكف عن حبه مع ذلك ، تماماً على عكس  
ب . . . . سكى الذى لم أنتجر معه يوماً ، ولكننى لم أحبه . وحين قطعت  
جميع علاقاتى بصاحبنا ب . . . . سكى اضطررت أن أقطع جميع علاقاتى  
أيضاً بصديقه : . . . . سكى الذى تحدثت عنه فى الفصل السابق ، وذلك  
ما أسفت له أشد الأسف ، لأنه كان رجلاً ممتازا يتصف بشجاعة  
عظيمة ، ولكنه يبلغ من حبه واحترامه وتقديسه لصديقه ب . . . . سكى أن  
كل من يقطعون علاقاتهم بصديقه يصبحون أعداءه . وهكذا ساءت صلته  
مع ب . . . . سكى بسبب ب . . . . سكى ، رغم أنه فإوم ذلك مدة طويلة .  
ومهما يكن من أمر فلقد كان هؤلاء الرجال جميعاً يتصفون بأنهم شديدي  
الغضب سريعو التأذى كثيرو الشك مفرطو الحساسية . وذلك أمر له  
ما يفسره . لقد كان وضعهم أليماً شاقاً ، وكان أقسى من وضعنا نحن ،  
لأنهم أبعدوا من بلادهم ونفوا عشر سنين أو اثنتى عشرة سنة ؛ والشىء  
الذى كان يجعل اقامتهم بالسجن شاقاً مشقة خاصة انما هو ما وقع فى  
وهمهم ورسخ فى اعتقادهم من أحكام سابقة فى حق السجناء ، وما سيطر  
عليهم من نظرة خاصة جاهزة ينظرونها اليهم . كانوا لا يرون فى  
السجناء الا حيوانات كاسرة مفترسة ، وكانوا يأبون أن يسلموا بأى شىء  
انسانى فيهم . ولقد تورطوا فى هذه النظرة بحكم الظروف وبحكم  
مصيرهم . لقد كانت حياتهم فى السجن عذاباً لا يطاق . كانوا لطافاً مع

الشراكسة والتتر وأشعيا فومتش • ولكنهم كانوا لا يحملون لسائر السجناء الا الاحتقار • والشخص الوحيد الذى فز باحترامهم كله انما هو الشيخ الذى ينتمى الى الملة المنشقة • ومع ذلك فما من سجين ، طوال المدة التى أقمتها فى السجن، قد عاب عليهم اصلهم أو عاب عليهم عقيدتهم الدينية ، أو عاب عليهم مبادئهم ، أو غير ذلك مما نعرفه لدى الطبقة الدنيا من الشعب فى علاقاتها بالأجانب ، ولا سيما الألمان ، والحقيقة أن الشعب انما يسخر من الرجل الألماني لأنه يعده دجالاً فقطاً • لقد كان سجنائنا يحترمون النبلاء البولنديين أكثر كثيراً مما يحترمونا نحن النبلاء الروس • كانوا لا « يمسون » أولئك ، ولا يتعرضون لهم بسوء • ولكننى أعتقد أن البولنديين لم يشاءوا أن يلاحظوا هذه الواقعة وأن ينظروا اليها بعين الاعتبار • لقد تكلمت عن ••••• سكى ، فلأعد اليه • انه، حين بارح مع صديقه أول محطة على طريق المنفى لينتقل الى سجننا، قد حمل صديقه ب طول الوقت تقريباً ، لأن ب كان ضعيف البنية سقيم الصحة ، فأصبح منهوك القوى مرهقا بعد نصف مرحلة من مراحل السفر • لقد نُفيا فى أول الأمر الى أو - جورسك \* ، فكانا هنالك مرتاحين • ان الحياة هنالك أقل قسوة من الحياة فى قلعتنا • ولكن السلطات ارتأت على أثر مراسلات بريئة قامت بينهما وبين المنفيين فى مدينة أخرى، أن يُنقلا الى سجننا حتى يكونا تحت المراقبة المباشرة للسلطة العليا • ولقد ظل ••••• كى اذن وحيدا حتى وصلا ، فلك أن تتصور مدى ما كان يشعر به من تعاسة أثناء السنة الأولى من منفاه !

ان ز ••••• سكى هو ذلك الشيخ الذى كان يكب دائماً على الصلاة والدعاء ، والذى سبق أن تحدثت عنه • لقد كان جميع السجناء السياسيين شبابا ، بل كانوا فى ريعان الشباب ، على حين أن ز ••••• سكى كان فى الخمسين من عمره على الأقل •

لا شك في أنه كان انساناً شريفاً جداً ، ولكنه كان غريب الأطوار .  
حتى لقد كان رفيقه ت . . . سكي و ب . . . سكي يكرهانه ولا يكلمانه  
قط ؛ وكانا يصفانه بأنه عنيد مشاكس ، واني لأشهد بأنهما كانا على حق .  
أعتقد أن الناس حين يكونون في معتقل - أو في أى مكان آخر اجتمعوا  
فيه عنوةً بغير ارادة منهم - يختصمون ويشتجرون ويكره بعضهم بعضاً  
أكثر مما يفعلون ذلك حين يكونون أحراراً طلقاء . هنالك أسباب كثيرة  
تسهم في خلق هذه المشاحنات بينهم . ولقد كان ز . . . سكي انساناً  
مزعجاً محدوداً في الواقع . فما من أحد من رفاقه كان على علاقة - سنه  
به . ولئن لم تسؤ صلتى به يوماً ، فاننا لم تنشأ بيننا صداقة في لحظة من  
اللحظات . أحسب أنه كان قديراً في الرياضيات . لقد شرح لى في ذات  
يوم ، بلغته الركيكة التى نصفها روسى ونصفها بولندى ، نظريةً فلكية  
كان قد أوجدها ، وقيل لى انه ألّف في هذا الموضوع كتاباً متعالماً سخر  
منه جميع الناس . أعتقد أن حكمه على الأمور قد فسد قليلاً . ولقد  
كان يعكف على الصلاة راکعاً على كوعيه أياماً بكاملها ، وذلك أمر جلب  
له احترام السجناء ، وظل السجناء يحترمونه الى أن مات ، ذلك أنه مات  
فى السجن تحت سمعى وبصرى على أثر مرض أليم شاق . ولقد فاز  
بتقدير السجناء منذ وصوله ، وذلك فى أعقب قصة حدثت له مع الميجر .  
فحين جىء بهؤلاء السجناء من أوجورسك الى قلعتنا ، على مراحل ، كان  
شعر رءوسهم ولحاهم طويلاً جداً ، لأنه لم يحلق لهم ، فلما مثلوا أمام  
الميجر ثارت نائرة الميجر وغضب غضباً شديداً من هذه المخالفة للنظام  
التى لم يكن الذنب فيها ذنبهم مع ذلك . زأر الميجر يقول :

- ما هذه الهيئة ! هؤلاء متشردون ، هؤلاء قطاع طرق ! . . .

واذ كان ز . . . سكي لا يحسن فهم الروسية فقد ظن أنهم يُسألون  
هل هم قطاع طرق أو متشردون ، فما كان منه الا أن أجاب بقوله :



- بل نحن سجناء سياسيون لا متشردون •

فزأر الميجر يقول :

- كيف ؟ ماذا ؟ أتوافق ؟ خذوه الى مركز الحرس •• واجلدوه

مائة جلدة •• فوراً ••

وعوقب الشيخ • رقد على الأرض تحت السياط دون أن يبدي أية مقاومة ، واضعاً يده بين أسنانه ، وتحمل القصاص بلا شكاة ، بلا انين ، ساكناً جامداً لا يتحرك بينما تهوى على ظهره الضربات • وقد وصل ••••• سكى و ••••• كى فى تلك اللحظة الى السجن ، حيث كان م ••••• كى ينتظرهما عند باب الدخول ، فما ان رآهما حتى ارتمى على عنقيهما رغم انه لم يرها قبل ذلك قط ، وجرى الحديث بين هؤلاء الرجال عن المشهد القاسى الذى وقع ، فكانوا ثائرين حائقين من استقبال الميجر • وقد ذكر لى م ••••• كى فيما بعد أنه خرج عن طوره حين علم بالأمر • قال : « أصبحت من شدة حنقى لا أشعر بنفسى ، وأخذت أرتعد من الحمى • انتظرت ز ••••• سكى عند الباب الكبير ، لأنه كان سيعود من مركز الحرس بعد نيل العقاب رأساً • ففتح الباب ، فرأيت ز ••••• سكى يمر أمامى وقد ابيضت شفاه تماماً وأخذتا ترتعشان ، كما شحب لونه وامتقع وجهه • كان لا ينظر الى أحد ، واجتاز جماعات السجناء المحتشدين فى وسط الفناء - وكانوا يعلمون أن نبيلاً قد عوقب - ودخل الثكنة ، ومضى قدماً الى مكانه لا يلوى على شىء ولا ينطق بكلمة ، ثم ركب وطفق يصلى • دُهِس السجناء بل تأثروا تأثراً شديداً • فلما رأيت هذا الشيخ الأشيب الذى ترك فى وطنه زوجته وأولاده ، لما رأيت بعد ذلك العقاب المزرى راکعاً يصلى ، أصبحت كالمجنون ، وأصبحت كالسكران • • • منذ ذلك الحين أصبح السجناء يحترمون ز ••••• سكى • والشىء الذى أعجبهم فيه خاصةً هو أنه لم يصرخ تحت ضربات السياط •

يجب علىّ مع ذلك أن أكون منصفاً وأن أقول الحقيقة : اننا لا نستطيع أن نحكم على علاقات الادارة بالمنفيين النبلاء ، سواء أكانوا روسيين ام كانوا بولنديين ، على أساس هذا المثال • ان القصة التي رويتها تدل على أن من المملد أن تقع على انسان شرير ، فاذا كان هذا الانسان الشرير حاكماً بأمره لسجن من السجن ، فكره أحد المنفيين عرضاً ، فان حاله هذا المنفى تصبح حالة سيئة لا يحسد عليها • أما الادارة العليا لسجون الأشغال الشاقة في سيبيريا ، وهي التي تزود الأمرين التابعين لها بتعليمات عامة ، فانها تميّز السجناء النبلاء ، حتى انها في بعض الاحيان نسمح في معاملتهم أكثر مما تتسامح مع غيرهم • واسباب ذلك واضحه : اولها أن هؤلاء الرؤساء أنفسهم ينتمون الى طبقة السادة ؛ ثم انه يروى ان هناك نبلاء رفضوا أن يرقدوا تحت ضربات السياط وهجموا على من ينفذون فيهم عقوبة الجلد ، وكانت عواقب هذه العصيانات سيئة دائماً ؛ والسبب الاخير - وهو السبب الاساسي في رأيي - أنه قد حدث منذ زمن بعيد ، منذ خمسة وثلاثين عاما على وجه التقريب ، أن سجن عدد كبير من المنفيين النبلاء دفعة واحدة\* ، فأظهر هؤلاء المنفيون من الرصانة والوقار وحسن السلوك ما جعل رؤساء سجون الأشغال الشاقة ينظرون ، بحكم العادة ، الى النبلاء من المجرمين نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم الى السجناء العاديين • وافتفى الأمر من المرءوسون اثر رؤساؤهم فأخذوا ينظرون هذه النظرة نفسها خاضعين خضوعاً أعمى • ولئن كان كثير منهم ينتقدون هذه الاجراءات التي يتخذها رؤساؤهم ، ويأسفون لها ويُسْرُن حين يُسمح لهم بأن يتصرفوا على مايشاء لهم هواهم ، فان حرية التصرف التي تتاح لهم لم تكن واسعة • ان هناك ما يسمح لي أن أعتقد بذلك • واليكم الأسباب • ان « الفئة الثانية » من سجناء الأشغال الشاقة ، وهي الفئة التي انتمى اليها والتي تتألف من سجناء خاضعين للسلطة العسكرية،

كانت ظروفها أقسى كثيراً من ظروف سجناء « الفئة الأولى » ( المناجم )  
 و « الفئة الثالثة » ( المصانع ) ؛ كانت ظروفها أقسى لا بالنسبة الى النبلاء  
 فحسب ، بل بالنسبة الى سائر السجناء أيضاً ، لأن الادارة والتنظيم  
 عسكريان تماماً ، وهما يشبهان الادارة والتنظيم فى معتقلات روسيا •  
 ان الرؤساء أكثر قسوة والاعداد أشد صرامة فى هذه الفئة الثانية مما هى  
 فى الفئتين الأخرين : السجناء هنا مكبلون بالأغلال دائماً ، مخفرون  
 دائماً ، محبسون دائماً ، وذلك ما لا وجود له فى غيرها ، فيما كان يقوله  
 السجناء على الأقل ، وبينهم أناس مطلعون • ان سجناء هذه الفئة ليمنون  
 أن يذهبوا الى العمل فى المناجم ، وهو العمل الذى يعده القانون أقسى  
 عقوبة • انهم يحلمون بأن يذهبوا الى العمل فى المناجم • ان جميع الذين  
 كانوا فى المعتقلات الروسية يتحدثون عنها جزعين ، ويؤكدون أنها  
 جحيم لا يشبهه جحيم ، وأن سيريا جنة اذا قيست بالاعتقال فى قلاع  
 روسيا • واذن فاذا كنا نحن النبلاء نحظى بشيء من المداراة أكثر مما  
 يحظى بمثل ذلك سائر السجناء فى سجننا الذى كان يخضع لاشراف  
 الجنرال الحاكم والذى كانت ادارته عسكرية تماماً ، فلا بد أن يكون  
 سجناء الفئة الأولى وسجناء الفئة الثالثة يتمتعون بمزيد من هذه المداراة •  
 اننى أستطيع أن أتحدث حديث علم ودراية عما كان يجرى فى سيريا  
 كلها فى هذا المجال : ان الأفاضل التى سمعتها من منفيين ينتمون الى الفئة  
 الأولى والى الفئة الثالثة تأتي مصدقةً للنتيجة التى خلصت اليها • لقد كنا  
 نراقب هنا مراقبة أشد من المراقبة التى تتم فى أى مكان آخر : لم يكن  
 لنا أية حصانة لا فيما يتعلق بالأشغال ولا فيما يتعلق بالحبس • كنا نقوم  
 بنفس الأعمال التى يقوم بها المعتقلون الآخرون ، وكنا نحمل نفس  
 الأغلال التى يحملون ، وكنا نخضع لنفس أنواع التوقيف والمصادرة التى  
 لها يخضعون • وكان يستحيل استحالة تامة أن نُحمى ، ذلك أن

الوشايات والمكائد والسعايات، التي تريد الايقاع ببعض الموظفين كانت في عهد قريب جداً قد بلغت من التكاثر أن الادارة كانت تخشى أن تقع ضحيةً لتلك الوشايات ... والتسامح مع طبقة من طبقات السجناء كانت تعد في ذلك الزمان جريمة لا تغتفر ... لذلك كان كل موظف من الموظفين يخاف على نفسه ... وهكذا أنزلنا الى مستوى سائر السجناء ، باستثناء أمر واحد هو العقاب الجسدى ... ومع ذلك كان يمكن أن نُجلد لو ارتكبنا ذنباً من الذنوب ، لأن الخدمة العسكرية توجب أن نكون سواسية أمام العقاب ، ولكننا لا نُجلد عن خفة وطيش بغير سبب من الأسباب كما يُجلد سائر المسجونين . وحين علم أمر السجن بالعقوبة التي أنزلت في ز ... سكى ، غضب من الميجر غضباً صادقاً وأمره بأن يكون أكثر انتباهاً وحذراً بعد الآن . وقد علم الجميع بذلك . وعلموا أيضاً أن الجنرال الحاكم الذي كان يثق ثقة كبيرة بالميجر والذي كان يحبه لشدة تقيده بالقانون ولما يتصف به من مزايا الموظف المطيع ، قد أتته تائباً شديداً حين علم بالنبا . وقد اتعظ الميجر بهذه الحادثة . فلقد كان يتمنى ، مثلاً ، أن يتمتع نفسه بجلد ... كى الذي كان يكرهه الميجر كرهاً بالغاً ، على أساس وشايات آ ... ف ، ولكنه لم يستطع أن يحقق هذه الأمنية ، ولم يستطع أن يحظى بهذه اللذة رغم كل ما سعى اليه من اتحال عذر يتعلل به ، ورغم اضطهاده له وتجسسه عليه . وانتشر نبأ قضية ز ... سكى في المدينة ، واستاء الرأى العام من الميجر ، فبعض الناس لاموه وبعضهم أنبوه وقرعوه .

اننى أتذكر الآن أول لقاء لي بالميجر . كانوا قد روعونا - أنا وسجين نيل آخر - منذ وصلنا الى توبولسك ، بأقاصيص كثيرة عن سوء طبع هذا الرجل . ان منفيين قدامى ( سبق الحكم عليهم بخمس وعشرين سنة فى سجن الأشغال الشاقة ) \* ، وهم نبلاء مثلنا ، قد زارونا زيارة

كريمة أثناء اقامتنا في سجن توبولسك عابرين ، وحذرونا من هذا  
الامسان الذي سيكون رئيسنا في السجن ؛ ووعدونا أيضاً بأن يفعلوا كل  
ما في وسعهم أن يفعلوه في سبيلنا لدى الأشخاص الذين يعرفونهم حتى  
يقفونا اضطراداته . وبالفعل كتبوا رسائل الى بنات الجنرال الحاكم الثلاث  
اللواتي تشفعن لنا فيما أعتقد . ولكن ماذا كن في وسع الجنرال الحاكم  
أن يفعل ؟ لقد اقتصر على أن قال للميجر ان عليه أن يكون عادلاً في  
تطبيق القانون . وصلنا الى المدينة في الساعة الثالثة بعد الغداء ، أنا  
ورفيقي ، فمضى بنا الخفير الى عند الميجر رأساً . لبثنا في حجرة المدخل  
نتظر وصول صف الضابط الذي يعمل في السجن والذي أرسلوا  
يستمعونه . فما ان وصل صف الضابط حتى دخل علينا الميجر . ان  
وجهه المصطبغ بحمرة قانية ، المبرّ عن الشر والخبث ، قد أحدث في  
نفسنا أثراً أليماً . لكأنه عنكبوت يهم أن يهجم على ذبابة مسكينة وقعت  
في نسيجه وأخذت تضطرب فيه .

اتجه الميجر الى رفيقي يسأله :

— ما اسمك ؟

ان صوته خشن متقطع ، وهو يريد أن يؤثر فينا ويسيطر علينا

ثم اتجه نحوي ، وحدّق الىّ من تحت نظارتيه وسألني :

— وأنت ؟

ذكرت له اسمي . فقال يخاطب صف الضابط :

— يا وكيل ... فليؤخذنا الى السجن ، وليخلق شعرهما في مركز

الحرس كما يخلق للمدنيين ... أي نصف الجمجمة ... وليكبلا

بالأغلال غداً ! ما هذان المطفان اللذان ترتديان ؟ من أين جئتما بهما ؟

كذلك سألنا فجأة اذ لمح المعطفين الرماديين المرقعين بدوائر صفراء  
فى الظهر ، وهما المعطفان اللذان أعطيناهما فى توبولسك • وتابع يقول:

– هذا زى موحد جديد ••• لا شك أنه زى موحد جديد •••  
انهم ما يزالون ينوان أن ••• هذا آتٍ من بطرسبرج •••

هكذا قال وهو يفحصنا واحداً بعد آخر • ثم قال يسأل الخفير  
فجأة :

– أليس معهما شئ ؟

فأجابه الخفير وهو يضع سلاحه على كتفه احتراماً ، ويرتجف  
بعض الارتجاف خوفاً ، فقد كان جميع الناس يعرفون الميجر ويخشونه ،  
اجابه الخفير يقول :

– معهما ثيابهم الخاصة يا صاحب النبالة الرفيعة !

– اتزع منهما كل هذا ما ينبغي أن يحتفظا بغير الملابس الداخلية،  
البيضاء ••• أما الملابس الداخلية الملونة فبعها بالزاد اذا كان معهما منها  
شئ •

ثم أضاف يقول لنا وهو يلقي علينا نظرة قاسية :

– لا يحق لسجين الأشغال الشاقة أن يملك شيئاً • ولتكونا على  
حذر ! ليكن سلوككما حسناً ! لا أحب أن أسمع شكاوى ! والا •••  
فالعقاب الجسدى ينتظركما ! ما ان ترتكبا أيسر ذنب حتى امر  
بجلدكما !

كدت أمرض فى ذلك المساء من ذلك الاستقبال الذى لا عهد لى  
بمثله من قبل ، وتفاقم شعورى وازداد ألمى حين دخلت الى ذلك الجحيم!  
ولكن سبق أن تحدثت عن هذا كله ، فلا داعى الى تكراره الآن •

قلت اننا لم يكن لنا شيء من حصانة ، ولم يكن يخفف عنا العمل  
 أى تخفيف بحضور السجناء الآخرين • غير أنهم حاولوا أن يساعدونا  
 فأرسلونا ثلاثة أشهر ، أنا ورفيقي ••• سكى ، الى مكاتب المهندسين  
 كناسخين ، ولكن ذلك تم سرّاً لا علانية ؛ وجميع الذين كان يجب ان  
 يعلموا به قد علموا به ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئاً • ان الرؤساء  
 المهندسين هم الذين تفضلوا علينا بهذه المنة ، أثناء الوقت القصير الذى  
 كان فيه الليوتنان كولونيل ج ••••• كوف آمراً لنا • ان هذا الرئيس  
 ( الذى لم يبق أكثر من ستة أشهر ، لأنه لم يلبث أن عاد الى روسيا )  
 قد بدا لنا نعمة كبرى هبطت علينا من السماء ، وقد خلف فى نفوس  
 جميع السجناء أثراً طيباً • كان السجناء لا يحبونه حباً بل يعبدونه عبادة  
 ان صح هذا التعبير • لا أدري كثيراً ما الذى صنعه ، ولكنه فاز بمحبتهم  
 منذ الوهلة الأولى • « هو أب حقاً » كذلك كان السجناء يقولون فى كل  
 لحظة من اللحظات طوال المدة التى ظل فيها مديراً لأشغال الهندسة • كان  
 انساناً فرحاً مرحاً مقبلاً على الحياة محباً لمباهجها ومسراتها • هو رجل  
 قصير القامة ، جرىء النظرة ، قوى الثقة بنفسه ، لطيف السلوك مع  
 جميع السجناء ، وكان يحب السجناء حباً أبويّاً حقاً ! لا أدري على وجه  
 الدقة لماذا أحبوه ذلك الحب كله ، ولكننى أستطيع أن أقول انه كان  
 لا يستطيع أن يرى سجيناً دون أن يقول له كلمة تودد ، ودون أن  
 يضحك له وأن يمازحه • ولم يكن فى أمازيحه شيء من تعال وتسلط ،  
 لم يكن فى أمازيحه شيء يُشعر بأنه سيد ، بأنه رئيس • لقد كان  
 للسجناء رفيقاً ، كان لهم نداء • ورغم هذه الملاطفة كلها ، لا أذكر أن  
 السجناء قد استباحوا لأنفسهم يوماً أن يقللوا احترامهم له أو أن يرفعوا  
 الكلفة بينهم وبينه • بالعكس • كل ما هنالك أن السجين كان يشرق  
 وجهه فجأة حين يصادف هذا الرئيس ؛ ان السجين يتسم ابتسامة عريضة

ويمسك طاقته بيده متى رآه يقترب • فإذا وجه له الرئيس كلمة عدّ  
 ذلك شرفاً عظيماً له • هنالك اناس من هذا النوع يفوزون « بشعية »  
 كبيرة ! لقد كان ج • • • كوف مهيب الطلعة ، واسع الحطى ، منتصب  
 القامة • « انه نسر » كذلك كان يقول السجناء • ولم يكن فى وسعه أن  
 يساعدهم لأن القيام باعمال الهندسة كان يتم فى عهد جميع الرؤساء  
 السابقين وفقاً لأصول قانونية مرسومة لا يملك هو أن يبدلها • ولكنّه اذا  
 التقى بجماعة من السجناء انهوا عملهم ، كان يسمح لهم بالعودة قبل قرع  
 الطبل • كان السجناء يجبونه لانه يوليهم ثقته ، ولانه يكره التأكيد  
 والتنقيص الذى يثير اعصاب السجين فى علاقته بالرؤساء • انى لعل يقين  
 من أن اكبر لص بين السجناء لو عثر على ألف روبل ضاعت من هذا  
 الرجل ، لردّها اليه كاملةً غير منقوصة • نعم ، أنا من ذلك على يقين •  
 وما كان أشد تعلق السجناء به وتعاطفهم معه حين علموا بأنه اشتجر  
 اشتجاراً عنيفاً مع الميجر الكريه المقيت ! حدث هذا بعد وصولنا بشهر •  
 وقد بلغ فرح السجناء عندئذ أوجه ! كان الميجر فى الماضى رقيقاً له فى  
 السلاح • فلما التقيا بعد طول فراق ، عشا فى أول الأمر حياة فرحة  
 معاً ، ولكنهما لم يلبثا أن فقدا ما انعقد بينهما من علاقه صميّة ؛ ثم  
 تخاصما وأصبح ج • • • كوف عدواً لدوداً للميجر • حتى لقد قيل انهما  
 تضاربا ، فلم يثر ذلك شيئاً من الاستغراب لدى من كانوا يعرفون الميجر •  
 لقد كان الميجر يحب الاقتتال والتضارب • فلما علم السجناء بأمر هذه  
 المشاجرة طفح فرحهم ، فكان يقولون : « لا يصلح لهذا الميجر الا مثل  
 هذا الكومندان • • • ان الكومندان نسر ، أما الميجر فهو • • • » انى  
 أستحى أن أذكر الكلمة البذيئة التى كانوا يصفون بها الميجر • وكانوا  
 فى أشد الشوق الى أن يعرفوا من الذى كانت له الغلبة فى هذا الصراع  
 الذى قام بين الرجلين ، وأيهما أشبع الآخر ضرباً ! ولو قد كذّبت هذه



الشائعة اذن لشعر السجناء بكثير من الالاف والحسرة ! كانوا يقولون :  
« مؤكّد أن الكومندان هو الذى بطّحه • فلئن كان قصيراً انه لشجاع  
باسل مقدام ! ولا شك ان الثانى قد اختبأ تحت السرير من سده خوفه  
وجزعه ! » • ولكن ج •• كوف لم يلبث ان عاد تاركاً فى السجن اسفاً  
شديداً وحسرة كبيرة ! ولقد كان جميع المهندسين اناساً طيبين ابدلوا  
خلال اقامتى فى السجن ثلاث مرات او اربعا • كان السجناء يقولون :  
« لن نرى مثله أبداً • لقد كان نسراً ••• كان نسراً وحامياً فى ان  
واحد ••• » •

ان ج •• كوف هذا هو الذى ارسلنا انا و ب ••• سكى للعمل فى  
مكتبه ، لانه كان يحب المنفيين النبلاء • فلم سافر ظل وضعنا مقبولاً  
محتماً بعض الشيء ، لان هناك مهندسا كان يشعر نحونا بكثير من  
المودة • وكنا بسبيل نسخ تقارير منذ مدة ، وذلك حسن خطنا ، حين  
صدر امر عالٍ يقضى بعودتنا الى اشغالنا السابقة • والحق اننا لم نستأ  
من ذلك كثيراً ، لاننا كنا قد سئنا عمل النسخ هذا ومللناه • وظللت  
سنتين كاملتين أعمل بغير انقطاع مع ب ••• سكى ، دائماً فى الورشات على  
وجه التقريب • فكنا نثرثر كثيراً ، نتحدث عن آمالنا وتنافس فى ارائنا •  
وكانت اراء صاحبي الممتاز ب ••• سكى غريبة ساذة متفردة • ان هناك  
اناساً أوتوا حظاً كبيراً من الذكاء ، ثم تكون آرائهم فى بعض الاحيان  
عجيبة مفارقة ، ولكنهم يكونون قد بلغوا من فرط احتمال الالم والعداب  
فى سبيلها ، ومن فرط التمسك بها والتضحية من اجلها ، أن اتزاعها  
من عقولهم يصبح أمراً مستحيلاً وقاسياً • لقد كان ب ••• سكى يتالم  
من كل اعتراض أو اوجه به ، فيرد على هذا الاعتراض بأجوبة عنيفة •  
لعله كان على حق ، ولعله كان على حق أكثر منى فى بعض النقاط •  
ولكننا اضطررنا أخيراً أن نفترق ، فشعرت من ذلك بأسف شديد ، كنا

قد اتفقنا في كثير من الأمور ، و كنت لنا آراء مشتركة كثيرة •

وأصبح م • • • كى ، بمضى السنين ، ينحدر الى مزيد من الحزن والتجهم • لقد أرقه الياس • دان في الأوقات الاولى من دخولى السجن أكثر تواصلًا وأكثر افصاحاً عما يدور فى فكره • كان حين وصلت أنا الى السجن قد أنهى السنة الثانية من اقامته فيه • فاهتم فى أول الأمر كثيراً بالأبناء التى حملتها اليه ، لأنه كان لا يعرف شيئاً عما يجرى خارج السجن : أخذ يلقي على أسئلة كثيرة ، ويصغى الى أجوبتى باتباه شديد ، وينفعل انفعالاً قوياً ، ولكنه عاد ينطوى على نفسه شيئاً بعد شيء ، ولا يفصح عمّا يدور بخاطره ويجول فى فكره • وكان أثناء ذلك يزداد نزقاً وحدة • كان ماينفك يكرر لى ، وهو يتحدث عن السجناء الذين كنت قد أخذت أحسن معرفتهم : « اننى أكره هؤلاء اللصوص قطاع الطرق ! » فاذا حاولت أن أدافع عنهم لم تؤثر فيه حججى وآرائى أى تأثير • كان لا يفهم ما أفوله له ، فاذا اتفق أن وافقنى على رأى مرة كان يفعل ذلك ذاهلاً غير متبته ، ثم اذا هو يعود يكرر فى اليوم التالى قوله : « اننى أكره هؤلاء اللصوص قطاع الطرق » (يقول ذلك باللغة الفرنسية ، فلقد كنا نكلمه بالفرنسية فى كثير من الأحيان ، ولهذا كان درانشيكوف ، وهو أحد جنود سلاح الهندسة ، يسمينا دائماً « مساعدى الجراحين » ، لا يعلم الا الله لماذا ! ) • وكان م • • • كى لا ينتعش ولا يتحمس الا حين يتكلم عن أمه • كان يقول لى : « انها عجوز ومقعدة ، وهى تحبنى أكثر مما تحب أى شيء فى هذا العالم ، ولست أدرى أهى الآن حية ! آم لو علمت أنهم جلدونى ! • • • • • لم يكن م • • • كى من طبقة النبلاء ، وقد جلد قبل نفيه ، فكان اذا وافته هذه الذكرى يكرز أسنانه ويشيح وجهه • وصار فى آخر عهده بالسجن لا يكاد يتنزه الا وحيداً • وفى

ذات يوم ، عند الظهر ، دعى الى مقابلة الكومندان ، فاستقبله هذا بابتسامة عريضة على شفثيه ، وسأله :

- قل لى يا م . م . كى : بماذا حلمت هذه الليلة ؟

وقد حدثنى م . م . كى عن هذه المقابلة فيما بعد فقال لى : « حين سألتى الكومندان هذا السؤال ارتعشت ، وخيّل الىّ أن قلبى يُشق شقاً » .

قال م . م . كى يجب الكومندان :

- حلمت بأننى تلقيت رسالةً من أمى .

فقال له الكومندان :

- بل هناك ما هو خير من ذلك ! هناك ما هو خير من ذلك . أنت منذ اليوم حر طليق . . . . لقد توسلت أمك الى الامبراطور . . . . فاستجاب الامبراطور لتوسلها . خذ . . . . اقرأ هذه الرسالة . . . . انها أمر بالافراج عنك . سوف تبارح السجن فى هذه اللحظة نفسها .

عاد الينا أصفر الوجه ممتقع اللون لا يكاد يصدق السعادة التى هبطت عليه .

هناؤه . صفحنا بيديه الباردتين المرتعشتين . هناه كثير من السجناء أيضاً . لقد سعدوا لسعادته .

أصبح مستوطناً واستقر فى مدينتاه، وعيّن موظفاً بعد ذلك بقليل . فكان يأتى الى السجن زائراً فى كثير من الأحيان ، ينقل الينا أنباء شتى متى استطاع الى ذلك سبيلاً ، وكانت الأنباء السياسية هى التى تعنيه خاصة .

عدا البولنديين الأربعة الذين تكلمت عنهم ، وهم سجناء سياسيون ،  
 كان هنالك اثنان آخران في مبة الشباب نفيًا فترة قصيرة جداً . لم  
 يكن لهما حظ من ثقافة ، ولكنهما شريفان بسيطان صريحان . وكان  
 هنالك ثالث اسمه آ . . كزوكوفسكى ، وهو شاب مسرف في البساطة  
 لا يمتاز بشيء يلفت النظر . ولا كذلك ب . . م ، وهو رجل متقدم في  
 السن قليلاً ، فقد أحدث في أنفسنا أسوأ انطباع . لا أدري لماذا نفي  
 الى سيريا ، رغم أنه قد روى من تلقاء نفسه سبب نفيه . انه انسان صغير  
 النفس ، بورجوازي الطبع ، له من الآراء والعادات ما لصاحب دكان  
 أصاب ثراءً وأصبح غنياً . ليس على شيء من ثقافة البتة ، فهو لا يهتم  
 اى اهتمام بكل ما لا يتعلق بمهنته كدهان رسام . يجب أن نعرف أنه  
 كان دهاناً ممتازاً . وسرعان ما سمع رؤسائنا عن مواهبه في هذا الفن ،  
 فاذا المدينة كما تستخدمه في تزيين الجدران والسقوف . فما انقضت  
 ستان حتى كان قد دهن جميع مساكن الموظفين تقريباً ، وكان الموظفون  
 يدفعون له أجراً حسناً ، فكان لا يعيش حياة مسرفة في البؤس . وكان  
 يرسل للعمل مع ثلاثة من رفاقه أتقنوا تعلم مهنته ، حتى أصبح أحدهما  
 وهو ت . . . ريزيفشكى لا يقل مهارة عنه . وكان الميجر يقيم في مسكن  
 تملكه الدولة ، فاستدعى ب . . م وأمره بدهن الجدران والسقوف ،  
 فبذل صاحبنا من العناية بهذا العمل وأنفق فيه من الجهد ما جعل مسكن  
 الجنرال الحاكم لا يعد شيئاً مذكوراً اذا قيس بمسكن الميجر . كان  
 المسكن قديماً هرمياً مؤلفاً من طابق واحد ، وكان مظهره من الخارج  
 وسخاً جداً ، فاذا هو يصبح من الداخل رائع الزينة كقصر من القصور .  
 فرح الميجر أشد الفرح . . . فكان يفرك يديه ويقول لجميع الناس انه  
 سيتزوج . « كيف لا يتزوج من كان يقيم في مسكن كهذا المسكن ؟ » .  
 كذلك كان يقول جاداً كل الجدد . وكان سروره أشد من سرور ب . . م

ومساعديه • لقد دام العمل فى دهان مسكن الميجر شهراً • وفى أثناء ذلك الشهر كله غيّر الميجر رأيه فينا ، حتى لقد أخذ يحمينا ويرعانا نحن السجناء السياسيين • وها هو يستدعى ز ••• سكى فى يوم من الأيام فيقول :

- اسمع يا ز ••• سكى ! لقد أسأت أنا اليك وأهنتك بغير سبب •  
اننى نادم على ذلك • هل فهمت ؟ أنا ، أنا نادم !  
أجابه ز ••• سكى بأنه فهم •  
فعاد الميجر يقول له :

- هل فهمت أننى أنا ، أنا ، أنا رئيسك ، قد استدعيتك لأطلب منك الصفح والمغفرة ؟ هل تتخيل هذا ؟ ما أنت بالنسبة الىّ ؟ أنت بالنسبة الىّ دودة من دود الأرض ، بل أنت بالنسبة الىّ أقلّ شأنًا من دودة ! أنت سجين ، أما أنا فبحمد الله ميجر \* ••• ميجر ، هل فهمت ؟  
أجابه ز ••• سكى بأنه فهم أيضاً •  
فقال له الميجر :

- طيب ••• أريد أن أصالحك • ولكن أنت تدرك حق الادراك ما أفعله ؟ أنت تدرك كل ما يتصف به عملى هذا من نبل وعظمة ورفعة ؟ أنت قادر على أن تشعر بهذا وعلى أن تقدّره ؟ تصور ••• اننى ، أنا الميجر ، أنا الميجر ، أصالحك ••• الخ الخ •••

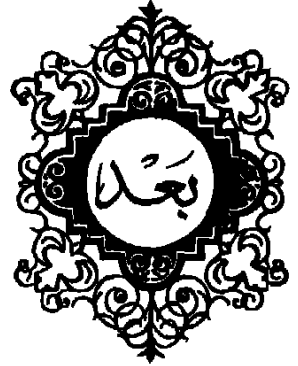
لقد قصّ علىّ ز ••• سكى هذا المشهد • اذن كان هذا الانسان الفظ الغليظ الذى لا ينقطع عن السكر ولا يكف عن الازعاج ولا تعرف حياته الا الفوضى ، كان اذن لا يخلو من عاطفة انسانية • يجب أن نعرف ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى آرائه والى نموه العقلى ، بأن

هذا الفعل الذى صدر عنه كان فيه شيء من الكرم حقاً • ولعل السكر الدائم الذى كان لا يفارقه قد ساهم فى اقدمه على هذا الفعل الكريم •

لم يتحقق حلم الميجر • انه لم يتزوج رغم أنه عقد النية على أن يتزوج متى تم تزوين مسكنه • وبدلاً من ان يتزوج ، فقد أحيل على المحاكمة ، وأجبر على الاستقالة • وعرفت عندئذ أثم قديمة سبق أن ارتكبها حين كان مديراً للشرطة بالمدينة فيما أظن • صعقته هذه الضربة التى لم تكن فى حساباته • وفرح السجناء أشد الفرح حين علموا بالنبأ الجديد • كان ذلك اليوم عيداً لهم • قيل ان الميجر أخذ يبكى كامرأة عجوز ويعول احوالاً شديداً • ولكن ما حيلته ؟ لقد اضطر أن يقدم استقالته ، وباع خيوله الثمباء الجميلة ، وباع كل ما كان يملك ، وانحدر الى هوة البؤس والفقر والشقاء • أصبحنا نلتقى به أحياناً فيما بعد ، فكنا نراه فى رداء مدنى مرقع وطاقيه متسخة ، وكان يلقي على السجناء نظرة شزراء • ولكن الهالة التى كانت تحيط به فى الماضى والمهابة التى كان يتمتع بها قد زالتا منذ خلعت عنه بزة الميجر • كان أثناء ارتدائه بزة الميجر أشبه باله ، حتى اذا ارتدى الرداء المدنى فقد كل شيء ، وأصبح أشبه بخادم •

ان البزة العسكرية هى التى تصنع قيمة أمثال هذا الرجل ! ...

## الفرد



استقالة الميجر بزمن قصير ، أعيد تنظيم سجننا  
تنظيماً جديداً كل الجدة • أُلغيت الأشغال  
الشاقة واستعُض عنها باعتقال عسكري على  
طراز المعتقلات في روسيا • وبعد ذلك أصبح  
لا يُرسل اليه المنفيون الذين يتمون الى الفئة الثانية ، وأصبح من  
الواجب أن لا يضم الا المعتقلين العسكريين أى سجناء يحتفظون بحقوقهم  
المدنية • هم جنود كسائر الجنود ، وانما صدرت في حقهم أحكام •  
وهم لا يسجنون الا مدداً قصيرة جداً ( أقصاها ست سنين ) ، حتى اذا  
قضوا مدة سجنهم عادوا الى قطعاتهم جنوداً كما كانوا من قبل • أما  
أصحاب السوابق فيحكمون بالسجن عشرين سنة • لقد كان في سجننا  
حتى ذلك الحين قسم عسكري ، ولكن ذلك يرجع الى عدم توفر إمكانية  
أخرى • أما الآن فان ما كان استثناءً قد أصبح هو القاعدة • فالسجناء  
المدنيون ، المحرومون من جميع الحقوق ، والموسومون بالحديد الحامي ،  
والمحلوقة رؤوسهم ، أصبح عليهم أن يبقوا في السجن الى أن تنصرم  
المدة المحكوم عليهم بها • واذ أصبح لا يصل الى هذا السجن سجناء جدد  
من هذا النوع ، واذ أن القداماء منهم قد أصبح يُفرج عنهم بعضاً بعد

بعض ، فان السجن لن يضم سجيناً واحداً من هذا النوع بعد عشر سنين • وقد أُبقي على القسم الخاص • فمن حين الى حين كان يصل الينا مجرمون عسكريون خطيرون يودعون سجننا بانتظار انشاء سجون الأشغال الشاقة فى سييريا الشرقية • ولم يتغير طراز حياتنا • فالعمل والنظام ظلا كما كانا من قبل • كل ما هنالك ان الادارة قد تجددت وتعقدت : عيّن ضابط كبير برتبة كومندان رئيساً للسجن ، وجعل تحت امرته أربعة ضباط مرعوسين يتناوبون العمل • وصرف الجنود مشوهو الحرب ، وأحل محلّهم اثنا عشر رجلاً من ضباط الصف ومراقب ترسانة • ووزّع السجناء زمراً تضم كل منها عشرة أشخاص ، واختير من بينهم عرفاء لا يملكون فى حقيقة الأمر الا سلطة اسمية على رفاقهم ، وأصبح آكيم آكيمتش بذلك عريفاً • وظل هذا التنظيم الجديد كله خاضعاً لاشراف الحاكم • ولم تمض التغييرات الى أبعد من هذا الحد •

اضطرب السجناء فى أول الأمر كثيراً ، فكانوا يناقشون ، وكانوا يحاولون أن ينفذوا الى أعماق رؤسائهم الجدد • ولكنهم حين رأوا أن كل شيء قد بقى فى حقيقة الأمر على ما كان عليه من قبل ، لم يلبثوا أن هدأوا وعادت حياتنا تجرى فى مجراها العادى المألوف • لقد تحررنا من الميجر على الأقل • فتنفس كل منا الصعداء ، واسترد كل منا شجاعته • زال عنا الذعر • وأصبح كل واحد يعلم أن من حقه عند الحاجة أن يشكو أمره الى رئيسه ، وأن لا يعاقب اذا كان على حق ، اللهم الا خطأ •

ظلت الخمرة تهرب الى السجن كما كانت تهرب اليه من قبل ، رغم أن المشرفين أصبحو الآن ضباط صف لا جنودا من مشوهى الحرب • انهم أناس شرفاء على جانب من حصافة الرأى ، مدركون وضعهم • ولئن أراد بعضهم أن يمارس شيئاً من التسلط والتحكم وأن



يعاملونا كما يعامل الجنود ، فى أول الأمر ، فانهم سرعان ما انساقوا مع التيار العام • والذين طال عليهم الأمد حتى يتعلموا عادات سجننا ، تولى السجناء أنفسهم تعليمهم هذه العادات • حتى لقد وقعت حوادث ظريفة • من ذلك أن يغرى السجناء أحد ضباط الصف بشرب الخمرة ، فإذا هو يسكر ، حتى إذا أفاق من سكره شرح له السجناء بطريقة مقنعة أنه ما دام قد سكر هو نفسه فليس له بعد الآن ان يعترض ••• وانتهى ضباط الصف الى غض أبصارهم عن تجارة الخمرة • واصبحوا يذهبون الى السوق ، كما كان يذهب الجنود من مشوهى الحرب ، فيسترون للسجناء خبزاً أبيض ولحماً وكل ما كان يمكن ادخاله الى السجن دون التعرض لخطر من الاخطار • لذلك لم استطع ان افهم لماذا ثم ذلك التغيير كله ، ولماذا أصبح السجن سجنًا عسكرياً • وقد حدث ذلك قبل خروجى بستين • فكان علىّ أن أعيش فى ظل هذا النظام ستين آخرين ••

هل يجب علىّ أن أصف فى هذه المذكرات كل الوقت الذى قضيته فى المعتقل ؟ لا ••• فلو اردت أن أقص بالترتيب كل ما رأيت اذن لضاعفت عدد الفصول متى وثلاث ، ولجاء الوصف رتيباً متشابهاً ، لأن كل ما قد أرويه عندئذ سيكون قد ورد حتماً فى الفصول السابقة التى استمد القارىء من تصفحها فكرةً كافية عن حياة السجناء الذين ينتمون الى الفئة الثانية • لقد أردت أن أصف سجننا وأن أعرض حياتى فيه عرضاً دقيقاً واضحاً ، فلا أدرى هل وقّعت الى تحقيق هذا الهدف • اننى لا أستطيع أن أحكم بنفسى على هذا العمل الذى قمت به • ولكننى أحسب أن فى وسعى أن أختمه هنا • اننى حين أهرز هذه الذكريات القديمة أشعر بالعذاب القديم يستيقظ فى نفسى ويخفق صدرى • أنا واثق من أننى نسيت أشياء كثيرة • ان ما أتذكره مثلاً هو أن هذه السنين

قد انقضت بطيئة حزينه وأن الأيام كانت طويلة مضجرة مملّة تمضي  
 قطرةً قطرة • وأتذكر أيضاً أن رغبةً عنيفة قوية في أن أبعث بعثاً  
 جديداً وان احيا حياة جديدة قد وهبت لى القدرة على ان اصمد وان أنتظر  
 وأن آمل ؛ وان نفسى قد قست أخيراً ، فانا أنتظر صابراً ، واعد الأيام  
 يوما يوما ، ويفرحنى ، حتى حين يكون قد بقى على أن امكث فى السجن  
 ألف يوم أخرى ، أنتى سأستطيع أن أقول لنفسى فى الغداة انه لم يبق  
 الا تسعمائة وتسعة وتسعين يوماً ، لا ألف يوم • وأتذكر أيضاً أنتى  
 كنت ، وأنا محاط بمئات من الرفاق ، أشعر بوحدة هائلة وعزلة رهية ،  
 وأنتى وصلت من ذلك الى أن أحب هذه الوحدة وهذه العزلة • كنت  
 وأنا معتزل فى وسط جمهرة السجناء أستعرض حياتى السابقة، واحلل  
 أدق تفاصيلها ، وأطيل التفكير فيها ، وأحكم على نفسى بغير رحمة ولا  
 شفقة • حتى لقد كنت فى بعض الاحيان اشكر للقدر أنه فرض على  
 هذه العزلة التى لولاها لما استطعت أن أحكم على نفسى ولا أن أنفذ الى  
 قرارة حياتى الماضيه • وما أكثر الآمال التى كانت تنبت فى قلبى حينذاك!  
 كنت أفكر ، وأقرر ، وأحلف أن لا أقارف فى المستقبل ما قارفت فى  
 الماضى من أخطاء ، وأن أتجنب السنقطات التى حطمتنى • ووضعت  
 برنامجاً لمستقبلى ، وآليت على نفسى أن ألزم هذا البرنامج فلا أخرج  
 عنه بل أبقى وفياً له • وكنت أو من ايماناً أعمى بأننى سأنفذ كل ما أردت،  
 وبأننى أستطيع أن أنفذ كل ما أردت • كنت أنتظر حريتى ، وأناديها فى  
 حرارة وحماسة • كنت أريد أن أجرب قواى مرة خرى فى كفاح  
 جديد • وكان يلم بى فى بعض الاحيان شوق محموم ينفذ له صبرى  
 ويخنقنى خنقاً • أنتى أتألم الآن من مجرد ايقاظ هذه الذكريات • ذلك  
 لا يهم أحداً غيرى بطبيعة الحال • وانما أنا أكتب ذلك لاعتقادى بأن كل

انسان سيفهمنى ، وبأن كل انسان سيشعر شعورى اذا شاء حظه العائر  
أن يُحكم عليه وأن يُسجن وهو فى زهرة العمر وكمال القوة •

انتى أقدّر أنه رب سائل يسأل هل الفرار من السجن مستحيل ،  
وهللاً وقعت محاولة هروبٍ طوال المدة التى قضيتها فيه ؟ لقد سبق أن  
قلت ان السجن الذى قضى فى السجن سنتين أو ثلاث سنين ، يحسب  
حساب هذا الرقم ، ويقدر أن الافضل أن يمضى المدة الباقية بلا متاعب  
ولا مخاطر ، وأن يصبح بعد الافراج عنه مستوطناً • غير أن الذين  
يجرون هذا الحساب انما هم السجناء الذين حكم عليهم بالسجن مدةً  
قصيرة بعض القصر : أما الذين حكم عليهم بالسجن مدةً طويلة فانهم  
مستعدون للمخاطرة فى كثير من الأحيان ••• ومع ذلك كانت محاولات  
الهرب نادرة • أيجب أن نعزو ذلك الى جبن السجناء أم الى قسوة النظام  
العسكرى ، أم الى ان وضع مدينتنا لا يسهل الفرار كثيرا ( لانها تقع  
وسط سهوب مكشوفة ) ؟ لا أدرى ••• أحسب أن هذه الأسباب جميعها  
كان لها أثرها ••• لقد كان الهروب من سجننا صعباً • وهناك اثنان من  
السجناء حاولا الهروب فى زمانى ، وهما من المجرمين العتاة •

حين استقال الميجر أصبح آ ••• ف ( جاسوس السجن ) وحيداً  
بلا حامٍ يحميه • ان آ ••• ف ما يزال شاباً ، وان طبعه يزداد صلابة  
كلما تقدم فى السن • انه شديد الجرأة ، قوى العزيمة ، ذكى جدا •  
ولو أفرج عنه لاستمر يتجسس ويتعاطى أعمال النصب والاحتيال بجميع  
الوسائل مهما تكن خسيصة معية ، ولكنه لن يُقبض عليه بعد الآن  
بسهولة ، فقد استمد من السجن خبرة واسعة • لقد تمرن على صنع  
جوازات سفر مزوّرة • غير أننى لا أؤكد ذلك ، لأننى سمعته من سجناء  
آخرين ، حتى لقد قالوا انه كان يمارس هذه المهنة فى مطبخ الميجر أيام  
كان يذهب اليه ، وان ذلك عاد عليه بأرباح طائلة • أحسب أنه كان

مستعداً للمخاطرة بكل شيء فى سبيل أن يغير مصيره • لقد أتيح لى أن  
أنفذ الى قرارة نفسه وأن أرى كل ما فيها من بشاعة وقبح ودمامة • ان  
استهتاره البارد الذى لا يتورع عن شيء ، يثير النفس ويبعث فيها اسمنزازا  
لا يقاوم وتقززاً لا سبيل الى مغالته • وأحسب أنه لو اشتهى أن يشرب  
خمرة وكانت السبيل الوحيدة الى ذلك هى أن يقتل انساناً ، لما تردد عن  
ذلك لحظةً ، على شرط أن تبقى جريمته سراً مكتوماً لا يعلم به أحد •  
ولقد تعلم فى سجننا أن يحسب كل شيء • وعليه انما وقع اختيار  
كوليكوف ، سجين « القسم الخاص » •

سبق أن تكلمت عن كوليكوف هذا ، لقد تجاوز سن الشباب ،  
ولكنه يفيض حرارة وحماسة وحياء وقوة ، وينعم بملكات خارقة فذة •  
كان كوليكوف يحس بقوته ويريد أن يعيش طويلاً • ان أمثال هذا  
الانسان يجبون أن يعيشوا حتى حين تكون الشيوخوخة قد ألت بهم  
واستولت عليهم • فلو أن كوليكوف لم يحاول الفرار لاستغربت منه  
ذلك • ولكن كوليكوف كان قد عقد النية على الفرار • لا أدري أى  
الرجلين كن أكثر تأثيراً فى صاحبه : كوليكوف أم آ • • ف ؟ ولكن  
أغلب الظن أنهما متكافئان ، وأنهما متوافقان من جميع النواحي • لذلك  
لم يلبثا أن ارتبط كل منهما بالآخر • أظن أن كوليكوف كان يعوّل على  
آ • • ف من أجل أن يصنع له جوازاً مزوراً • ثم ان آ • • ف يرجع  
أصله الى طبقة النبلاء ، وينتمى الى المجتمع الراقى ، وذلك يهيء للرجلين  
فرصاً كثيرة ويتيح لهما حظوظاً سعيدة اذا هما استطاعا أن يعودا الى  
روسيا • لا يعلم الا الله ما الذى تفاهما عليه وماذا كانت آمالهما • ولكن  
لا شك أن هذه الآمال تخرج عن دائرة الآمال التى تراود أحلام  
المشردين السبيريين • ان كوليكوف ممثل بارع يستطيع أن يقوم فى  
الحياة بأدوار شتى ، ومن حقه أن يعقد على مواهبه آمالاً كثيرة • ان

السجن يضمنى أمثال هؤلاء الناس ويخفقهم خنقاً • المهم أن الرجلين توطأ على الفرار من السجن •

ولكن كان استحيل الفرار دون خفير فلا بد لهما اذن أن يضما اليهما خفيرا • وكان في احدى الفصائل العسكرية فى القلعة رجل بولندى متقدم فى السن قليلاً ، ولكنه جم النشاط جاد شجاع كان يستحق مصيراً خيراً من المصير الذى انتهى اليه • انه حين وصل الى سيبيريا فى الماضى شاباً ، كان قد فرّ من الجندية لأن الحنين الى الوطن قد أضنى نفسه ، فقبض عليه وجُلد ، وأُلحق بفرق التأديب سنتين • حتى اذا رجع الى فوجه بلغ من حماسه فى العمل ودأبه على الخدمة بهمة ونشاط أنه كوفىء بمنحه رتبة عريف • وكان الرجل معتداً بذاته، يتكلم بلهجة انسان يقدر نفسه تقديراً عظيماً •

كنت ألاحظه أحيانا بين الجنود الذين يراقبونا ، لأن البولنديين كانوا قد حدثونى عنه • أحسب أن حنيه الى وطنه كان قد استحال الى كره شديد وبغض لا يهدأ • ما كان له أن يحجم عن شيء ، ولا أن يتهققر أمام أية عقبة • ولقد أدرك كوليكوف ذلك بما أوتى من بصيرة نافذة ، فاختاره شريكاً فى الهرب • كان هذا العريف يسمى كوهلر • اتفق مع كوليكوف ، فضربا للفرار موعداً وحدداً له يوماً • كنا فى شهر حزيران ( يونيه ) • هذه أيام القيظ الشديد • ان المناخ فى مدينتنا متساوٍ ولا سيما فى فصل الصيف ، وذلك أمر يناسب المتشردين كثيراً • ما كان ينبغى التفكير فى الهرب من القلعة رأساً ، فالمدينة تبعد عنها مسافة كثيرة • وكان لا بد من تكرر • ومن أجل هذا التكرر يجب الوصول الى الضاحية حيث كان كوليكوف قد أعدّ منذ زمن طويل مكاناً يلتجئ اليه • لا أدري هل كان أصحابه فى الضاحية مطلعين على السر • يجب أن نعتقد أنهم كانوا مطلعين على السر ، رغم أن هذا الأمر بقى غامضاً

غير مؤكّد • فى أثناء تلك السنة ، كانت قد أقامت فى ركن من الضاحية فتاة " مشبوهة السمعة جميلة المنظر اسمها فانىكا مانىكا • كانت هذه الفتاة تبشر بآمال كثيرة جاءت الأحداث بعد ذلك مصدقة لها • وكان الناس يطلقون عليها لقب « النار واللهيب » • أظن أن هذه الفتاة كانت على تفاهم مع الهاريين ، لأن كوليكون قد قام فى سبيلها بأعمال جنونية أثناء تلك السنة •

حين شكّلت فصائل العمل فى الصباح ، رتب أصحابنا الثلاثة أمورهم بحيث يرسلون الى العمل مع السجين شيلكين - ومهنته مبيض - فى نبيض الثكنات الخالية التى غادرها سجناء المعسكر • كان على ا • • ف وكوليكون أن يساعده فى نقل المواد اللازمة • وافلح كوهلر فى أن يعيّن خفيراً عليهم • ولما كان النظام يقضى بأن يعين جنديان اثنان لحراسة ثلاثة سجناء ، فقد ألحق بكوهلر مجتد شاب كان على كوهلر أن يدرّبه على الخدمة بصفته عريفاً • لا بد أن يكون هذان السجينان اللذان عقدا النية على الفرار قد أثرا فى كوهلر تأثيراً كبيراً حتى ارتضى أن يقرر الفرار معهم هو الرجل الجاد الذكى الحيسوب الذى لم يبق عليه أن يقضى فى الخدمة العسكرية الا بضع سنين •

وصل السجناء الثلاثة والخفيران الى الثكنات فى الساعة السادسة من الصباح ، وكانوا وحدهم لا يرافقهم أحد آخر • فبعد أن عملوا نحو ساعة قال كوليكون و آ • • ف لزميلهما شيلكين انهما ذاهبان الى الورشة لاحضار أداة من أدوات العمل هما فى حاجة اليها • كان لا بد لهما من أن يعمدا الى المكر مع شيلكين ، ومن أن يقولوا له هذا الكلام بلهجة طبيعية جداً لا تثير فى نفسه أية شبهة • ان شيلكين رجل من موسكو ، مهنته بناء المواقد ، وهو ذكى ماكر قليل الكلام ضعيف البنية معروق الجسم • ان هذا الرجل الذى كان ينبغى أن يقضى حياته لابساً صدره

وقطفاناً في دكان من دكاكين موسكو ، ينتمى الآن الى « القسم الخاص »  
 في عداد أعتى المجرمين العسكريين بعد طول ترحل . هكذا شاء له  
 القدر! لا أدري ما الذي فعله حتى استحق عقوبة قاسية كل هذه القسوة .  
 كان شيلكين لا يظهر شيئاً من نزق أو شراسة ، وكان يعيش في السجن  
 هادئاً مسالماً موادعاً . انه يسكر من حين الى حين كما يسكر اسكافي .  
 ولكن سلوكه فيما عدا ذلك سلوك ممتاز . لم يطلعه أصحابنا على سرهم  
 طبعاً ، وكان عليهم أن يضلوه . قال له كوليكوف وهو يغمز بعينه انهما  
 ذاهبان لاحضار خمرة قد خبأها في الورشة منذ البارحة ، وذلك أمر  
 شاق شيلكين كثيراً . لم تراوده أية شبهة ، وبقي وحده مع المجند  
 الشاب ، بينما مضى كوليكوف و آ . . ف الى الضاحية بحراسة كوهلر .  
 انقضى نصف ساعة ولم يرجع الغائبون . أخذ شيلكين يفكر .  
 برقت في ذهنه فكرة . تذكر أن كوليكوف كان يبدو عليه شيء غير  
 مألوف ، وأنه كان يوشوش آ . . ف غامزاً بعينه . لقد رآه يفعل ذلك ،  
 وهو الآن يتذكر كل شيء . ثم ان كوهلر قد لفت انتباهه أيضاً . فحين  
 ذهب العريف مع السجنين شرح للمجنّد ما كان عليه أن يعمل أثناء  
 غيابه ، وذلك أمر لم يكن من عادته أن يفعله . أصبحت شكوك شيلكين  
 تزداد وتقوى كلما أوغل في نبش ذكرياته . وكان الوقت آنس ذلك  
 يمضى والسجينان لا يعودان . بلغ شيلكين أقصى حد من حدود القلق ،  
 فقد أدرك أن الادارة قد تشبه فيه وتعهده متواطئاً مع الهاربين ، وأن  
 جلده معرض اذن للخطر . لقد كان يمكن أن يُظن أنه كان متواطئاً  
 معهم وأنه سمح لهم بالذهاب ، فاذا تأخر في الابلاغ عن غيابهم ، فان  
 هذه الشبهات ستعزز وستقوى . كان عليه اذن أن لا يضيع وقتاً .  
 وتذكر عندئذ أن كوليكوف و آ . . ف قد أصبحا رفيقين حميمين منذ  
 مدة . وأنهما كانا كثيراً ما يأتيران وراء الثكنات بعيدين عن الأنظار .

وتذكر أيضا أن هذه الفكرة قد راودته قبل الآن ، فتصور أنهما لعلهما  
ييتان أمراً يتفقان عليه . . . ألقى شيلكين نظرة على حارسه . كان  
الحارس يتأهب متكئاً على بندقيته ، ويحك أنه ببراءة . لذلك لم يقدر  
شيلكين أن عليه أن يطلعه على خواطره . فاكتمى بأن طلب منه أن  
يصحبه الى ورشة الهندسة . كان يريد أن يسأل هناك عن رفيقه هل  
رآهما أحد . فلما سأل هذا السؤال تبين له أن أحداً لم يرها . تأكدت  
شكوك شيلكين . أتراهم ذهباً يسكران ويعربدان في الضاحية كما كان  
كوليكوف يفعل ذلك في كثير من الأحيان ؟ ولكن شيلكين رفض هذا  
الافتراض . فلو قد كانا يريدان ذلك اذن لاطلعا على نيتهما ، فلا داعي  
الى اخفاء هذه النية عنه . فما ان وصل شيلكين من تفكيره الى هذه النقطة  
حتى ترك العمل ومضى الى السجن رأساً حتى دون أن يعود الى الثكنة  
التي كان يعمل فيها .

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حين وصل شيلكين الى رئيس  
العرفاء ، فأطلعه على شكوكه وشبهاته . ذُعر هذا ، ولم يشأ في أول  
الأمر أن يصدق . ان شيلكين لم ينقل اليه فكرته الا في صورة شبهة .  
وسرعان ما جرى رئيس العرفاء الى الميجر يطلعه على الأمر ، وسرعان  
ما جرى الميجر الى الكومندان يبلغه النبأ . فما انقضى ربع ساعة الا كانت  
جميع الاجراءات اللازمة قد اتخذت . رُفع تقرير الى الجنرال الحاكم .  
ان هذين السجينين هم من السجناء الخطرين ، فمن الممكن والحالة هذه  
أن تعاقب ادارة السجن عقاباً قاسياً على فرارهما . لقد كان آ . . ف يعد  
من السجناء السياسيين خطأً أو صواباً . كما أن كوليكوف ينتمي الى  
« القسم الخاص » ، أي أنه مجرم عريق ، عدا أنه عسكري قديم . ولم  
يسبق لأحد أن استطاع أن يفر من « القسم الخاص » . وتذكر  
المشرفون على السجن عندئذ أن النظام يقضى بأن يحرس كل سجين من



سجناء « القسم الخاص » خفيران اثنان حين يذهب الى العمل • وهذه القاعدة لم تلتزم ، فمن الممكن أن يسيء هذا الاخلال بقواعد النظام الى جميع موظفي ادارة السجن • وسرعان ما أُرسل السعاة الى كافة القرى المحيطة بالمدينة والى كافة المدن الصغيرة المجاورة لابلاغ نبأ هروب سجينين • وسرعان ما جُرِّدت للملاحقة السجينين أعداد من الجنود القوقازيين • وسرعان ما كُتب في الأمر الى جميع المديرات وجميع الأقاليم المجاورة • الخلاصة أن ذعراً رهيباً قد ألم بالجميع •••

ولم يكن الاضطراب في سجننا أقل من ذلك • فكلما عادت من العمل جماعة من جماعات السجناء علمت بالنبأ العظيم الذي كان يجرى من قم الى قم ، فكان كل سجين من السجناء يستقبله بفرح خبيء عميق ••• ان هذا النبأ ، عدا أنه يقطع رتابة الحياة في السجن ويسلّي السجناء ، هو نبأ هروب ، هروبٍ يرجع صدى مستجبا في جميع النفوس ، ويلقى هوى لدى جميع القلوب ، ويهز أوتارا ظلت غافية وسنى خلال زمن طويل • ان نوعاً من الأمل والجرأة والجسارة قد حرك قلوب السجناء جميعاً ، لأنه يصوّر لهم أن تغيير مصيرهم أمر ممكن وليس مستحيلاً • « نعم ••• لقد هربوا رغم كل شيء ، فلماذا نحن لا ••• » • وكان كل واحد اذا خطرت بباله هذه الفكرة ينهض قائماً ويلقى على رفاقه نظرة تحدٍ وتحريض واستفزاز • اتخذ جميع السجناء هيئة كبر وخيلاء ، ونظروا الى ضباط الصف نظرات تعاضم واستعلاء • وهرع جميع رؤسائنا ، كما يتوقع ذلك ، حتى لقد وصل الكومندان نفسه • فكان السجناء يرشقونهم جميعاً بنظرة جريئة يمازجها شيء من احتقار ، ويشوبها نوع من رصانة قاسية • « هه ؟ نحن نعرف كيف ندبر أمورنا متى شئنا ! » • وتوقع الجميع أن يقوم الرؤساء بجولة تفتيشية عامة • كان السجناء يتوقعون سلفاً أن ادارة السجن ستعتمد الى

اجراء تحقيق وأنها ستقوم بتفتيش • لذلك خبأ السجناء كل شيء ، فهم لا يجهلون أن ادارة السجن لا بد أن تضاعف يقظتها بعد وقوع حادث كهذا الحادث • وقد صدقت نبوءة السجناء • فانقلب السجن عاليه سافله، ولم يُترك مكان فيه دون أن يفتش تفتيشاً دقيقاً ، ولكن لم يعثر على شيء طبعاً •

وحين دقت ساعة الذهاب الى العمل بعد الغداء ، كان عدد الخفراء الذين تولوا حراستنا مضاعفاً • وفي المساء كان الضباط وضباط الصف من الحرس يداهمونا في كل لحظة مفتشين • وقد عدونا اكثر مما كانوا يعدوننا في العادة ، فأخطأوا في عدنا مرتين ، فكان هذا الخطأ يحدث مزيداً من الاضطراب ، فاذا هم يخرجوننا من الثكنة الى الفناء ليعدونا مرة اخرى • حتى اذا أرجعونا الى الثكنة عدونا من جديد •

لم يقلق السجناء كثيراً من هذا الاضطراب ، ولم يكثرثوا له ، بل كانوا يصطنعون هيئة الاستقلال وقلة المبالاة ، ولكن سلوكهم كان سلوكاً حسناً طوال تلك السهرة ، كما يحدث هذا دائماً في احوال كهذه الأحوال • « لن يستطيعوا أن يجرونا الى المشاجرة ، لن نمكنهم من استدراجنا الى خلق المتاعب » • وكانت ادارة السجن تتساءل : ترى أليس بيننا أناس متواطئون مع الفارين ؟ فأمرت بمرافيتنا والتجسس على أحاديثنا ، ولكنها لم تظفر بطائل • « ليسوا من الغباء بحيث يتركون وراءهم شركاء ! » ؟ « ان المرء يخفي سره ويكتم أمره حين يعد ضربة كهذه الضربة ! » ؟ « ان كوليكوف وآ • • ف يملكان من المكر والدهاء ما يؤهلهما لكتمان ما عقدا النية عليه • ألا انهما لمعلمان حاذقان ، فعلا فعلتهما ، دون أن يدعا لأحد أن يشتبه فيهما وأن يخطر على باله مايبستان من أمر • لقد تبخرا تبخراً ! لو شاءا لخرجا من أبواب موصدة ، هذان الشيطانان ! » • ذلك ما كان يردده السجناء • لقد ازداد قدر كوليكوف

و آ • • ف فى أنظارهم ، وعظمت منزلتهما مائة مرة ! ان السجناء  
فخورون الآن بهما • أحس الجميع أن هذه المغامرة ستناقل الأجيال  
نباها الى آخر جيل ، وأن عمر أخبارها سيكون أطول من عمر السجن  
نفسه •

كان بعضهم يقول :

– يا للدماغين الذكيين !

فيضيف آخرون :

– هه ! كان يُظن أن الفرار مستحيل • • • فهاهما يهربان مع

ذلك !

ويعقب ثالث قائلاً وهو يلقي على رفاقه نظرة فيها مسكنة :

– نعم ، ولكن من هم الذين هربوا ؟ أأنتم تستحقون أن تحلوا

لهم أشرطة أحتيتهم !

ما كان لسجين من السجناء يخاطب بمثل هذا الكلام ، أن يسكت  
على هذه الاهانة بحال من الأحوال ، وما كان له الا أن يرد على التحدى  
وأن يدافع عن شرفه وكرامته • ولكن السجناء الآن يلتزمون الصمت  
متواضعين • واذا نطقوا قالوا : « هذا حق ! ليس كل الناس مثل  
كوليكوف و آ • • ف • على المرء أن يبرهن على قيمته أولاً ! • • • » •

قال أحد السجناء ، وكان جالساً قرب نافذة المطبخ ، قال على حين

فجأة مقاطعاً :

– حقاً يا رفاق ! لماذا نبقى هنا ؟ ما ذا نفعل هنا ؟ انا نحيا بلا حياة ،

انا أموات بغير موت !

قال الرجل هذا الكلام بصوت بطيء متراخ متاقل ، بينما راح يفرك خده براحة يده ، ولكن كلامه كان ينطوى على ثقة خفية واقتناع مستسر •

فأجابه أحدهم قائلاً :

- ما تنهدك هذا ؟ ان المرء لا يهرب من السجن كما يخلع حذاء •  
نحن مشدودون الى السجن شداً •••

فانبرى شاب غر متحمس يقول :

- ولكن هذا كوليكوف ! ألم يهرب ؟

فأجاب آخر ، وهو ينظر الى الفتى الغر نظرة شزراء :

- كوليكوف ؟ كوليكوف ؟ ان أمثال كوليكوف ليسوا كثيراً •••

- وما قولكم فى آ••• ف يا شباب ؟ ألا انه لفتى شجاع !

- هه ! انه قادر على أن يلف كوليكوف لفأ متى شاء وما شاء !

انسان داهية !

- أتراهم قد ابتعدوا ؟ ذلك ما أود لو أعرفه ! •••

ويتصل الحديث ويتشعب • « هل هم الآن بعيدون عن المدينة ؟ من أى جهة هربوا ؟ أى طريق سلكوا ؟ ما أضمن السبل لفرارهم ؟ ما أقرب مديرية يلجئون اليها ؟ » • واذ كان بين السجناء رجال يعرفون الأماكن التى تجاور المدينة ، فقد أخذ الآخرون يصفون الى كلامهم باتباه شديد واستطلاع نهم •

وحين وصل الحديث الى الكلام عن سكان القرى المجاورة ، أقرّ الجميع أنهم أشرار لا يعتمد عليهم ؛ فكل من هم قرب المدينة من سكان

أناس" يعرفون ما يجب عليهم أن يفعلوه ، فلن يساعدوا الهاربين بحال  
من الأحوال ، حتى أنهم سيقبضون عليهم ليسلموهم \*

- ليتكم عرفتم مدى ما يتصف به هؤلاء الفلاحون من شر ! ألا انهم  
بهائم خبيثة ، ألا انهم حيوانات لثيمة !  
- فلاحون أنذال !

- السيرى وغد ... انه لا يتورع عن قتل انسان فى سبيل أى  
شئ ...

- ولكن جماعتنا ...

- طبعاً ... سنى من الذى سيتصر ... ان جماعتنا لا يخشون  
شيئاً \*

- على كل حال ، اذا لم نطفس ، فنسسمع عن أنباتهم !

- لعلك تظن أنهم سيقبض عليهم ؟

كذلك سأل سائل ، فاذا بسجين من أشد السجناء احتياجاً يضرب  
المائدة بقبضة يده. ضربة قوية ويقول :

- أنا واثق أنهم لن يقبض عليهم أبداً !

فقال قائل :

- ذلك يتوقف على مجرى الأمور ...

فقال سكوراتوف :

- لو هربت أنا يا رفاق ، فلن يقبض علىَّ يوماً !

- أنت ؟

كذلك سأله أحدهم ، فما كان من الآخرين الا أن انفجروا

يقهقهون ؟ وتظاهر غيرهم بأنهم لا يريدون حتى أن يسمعوا كلامه •  
ولكن سكوراتوف كان متحمساً ، فهاهو ذا يقول بحرارة وحمياً :

- لو هربت ما قبضوا علىّ فى يوم من الأيام ! اننى كثيراً ما أقول  
هذا لنفسى • انى لأوتر أن أمر من ثقب مفتاح على أن أدع لهم أن يقبضوا  
علىّ !

- لا تخف ! سوف تتصور جوعاً فاذا أنت تذهب من تلقاء نفسك  
الى فلاح من الفلاحين تسأله أن يهب لك خبزاً !

وتجددت القهقهات •

قال سكوراتوف :

- خبزاً ؟ أنت تكذب !

- ما هذا الهراء ؟ أنسيت أنك أنت وعمك فاسيا قد قتلتما موت  
البقر\* ، وأن ذلك هو السبب فى مجيئكما الى هذا المكان ؟

تضاعفت القهقهات • وأظهر الوقورون من السجناء استياء  
واستنكاراً •

صاح سكوراتوف يقول :

- أنت تكذب ! ان ميكيثكا هو الذى قصّ عليكم ذلك • لم اكن  
أنا القاتل بل العم فاسيا ، ثم حشرت منونى فى الأمر ظلماً ! أنا موسكوفى  
متشرد منذ نعومة أظفارى • اليكم هذا المثل : حين كان الكاهن يعلمنى  
تلاوة الصلوات ، كان يقرص أذنى قائلاً لى : « ردّد ما أتلوه عليك :  
اشملنى برحمتك يا رب ! » فكت أردد قولى : « أخذونى الى الشرطة  
برحمتك يا رب ! » ، الخ ••• ذلكم ما فعلته منذ نعومة أظفارى •

انفجر جميع السجناء ضاحكين • وكان ذلك كل ما يتمناه  
سكوراتوف ، فلقد كان يحب أن يكون مهرجاً !

ولم يلبث السجناء أن عادوا الى أحاديثهم الجادة ، ولا سيما الشيوخ  
منهم ، والخبراء فى شئون الفرار • أما الشباب والذين يتصفون بطباع  
أقرب الى الهدوء فكانوا يصغون الى الحديث متطاولين بروءوسهم ،  
مبتهجين كل الابتهاج • كان قد تجمع فى المطبخ جمهور كبير • ولم يكن  
هنالك أحد من ضباط الصف ، والا لما تجرا السجناء أن ينطلقوا فى  
الحديث هذا الانطلاق الصريح • ولاحظت بين المبتهجين المعتبين تترياً  
قصير القامة ناتئ الوجنتين ، مضحك الهيئة • ان اسمه مامتكا ، وهو  
لا يكاد يتكلم الروسية ، ولا يفهم كثيراً ما يقوله الآخرون ، ولكنه مع  
ذلك يمدُّ راسه فى الجمهور ويصغى الى الكلام مسروراً محبوراً • قال  
له سكوراتوف الذى نسيه الجميع ، فلم يجد بداً من الاتجاه الى هذا  
التترى يكلمه :

– هيه مامتكا ! « يا كشى » ؟ \*

فقال مامتكا بحرارة وهو يحرك رأسه الضخم :

– « ياكشى » ! أوه ••• يا كشى ! •••

– لن يقبضوا عليهم ؟ « يوك » ؟

فعاد مامتكا يقول وهو يحرك رأسه ، ويلوِّح بذراعيه :

– « يوك » ! « يوك » ! •••

– اذا كنت تكذب فسوف أريك ، هه ؟

– طبعاً ، طبعاً ، يا كشى !

كذلك قال مامتكا وهو ما يزال يهز رأسه •

— طيب ... خذ اذن هذه « الياكشي » ! ...

قال له سكوراتوف ذلك ولطمه على رأسه لطمة أنزلت طاقته حتى غطت عينيه ، ثم بارح المطبخ مسروراً كل السرور ، تاركاً الترى فى دهشة وانبهات ! ...

ظل النظام يُطبَّق فى السجن تطبيقاً صارماً قاسياً خلال أسبوع • واستمرت مطاردة الهارين فى القرى والمدن المجاورة • كان السجناء على علم دائم بالاجراءات التى كانت تتخذها السلطة للقبض على الهارين ، لا أدري كيف ! ... فأما فى الأيام الأولى فقد كانت الأنباء سارة : لقد اختفى الهاربون فلا أثر لهم • أصبح السجناء لا يعملون شيئاً غير أن يسخروا من الرؤساء بينهم وبين أنفسهم ، واطمأنوا على مصير رفاقهم فلا يراودهم شئ من قلق • « لن يعثروا على شئ ! لسوف ترون أنهم لن يستطيعوا القبض عليهم ! » • كذلك كان السجناء يقول بعضهم بعض مبتهجين مغتبطين !

كنا نعلم أن جميع الفلاحين فى القرى المجاورة قد استنفروا ، وأنهم يراقبون الأماكن المشبوهة والغابات والوديان والشعاب • فكان السجناء يقولون ضاحكين :

— حماقات ! لا شك أنهم قد اختبأوا عند أحد !

— حتماً ! هؤلاء أناس عقلاء لا يخاطرون قبل أن يكونوا قد أعدوا

كل شئ سلفاً !

ومضت الافتراضات الى أبعد من ذلك • فقليل فيما قيل : لعلهم قد اختبأوا فى كهف من الكهوف بالضاحية ريثما يهدأ الذعر ويطول شعرهم ، ولعلهم سيمكثون هنالك ستة أشهر ، ثم يخرجون مطمئنين هادئين ليوغلوا فى المسير ...



الخلاصة أن جميع السجناء قد أطلقوا الأعتة لأخيلتهم • وفجأة ،  
 بعد الهروب بثمانية أيام ، انتشرت شائعة تقول ان مكان الهاربين قد  
 عُرف • فهبَّ السجناء يكذبون الشائعة طبعاً باحتقار شديد • ولكن ما ان  
 أتى المساء حتى قويت الشائعة • فاضطرب السجناء اضطراباً كبيراً • وفي  
 صباح الغد كان الناس فى المدينة قد عرفوا أن الهاربين قد تم القبض  
 عليهم ، وانهم مقتادون فى طريق العودة • وعُرفت بعد العشاء تفاصيل  
 جديدة : عُرف أنهم قد اعتقلوا فى قرية صغيرة تبعد مسافة سبعين  
 فرسخاً عن المدينة • ووصل الخبر اليقين أخيراً ، اذ أعلن رئيس العرفاء  
 الذى كان عائداً من عند الميجر أن الهاربين سيقادون الى مركز الحرس  
 فى هذا المساء نفسه • لقد قبض عليهم اذن ، لم يبق ثمة شك فى ذلك •  
 انه ليصعب على أن أصف الشعور الذى ألم بالسجناء حين عرفوا هذه  
 الحقيقة • لقد اضطربوا اضطراباً عنيفاً وازدادت حركتهم وكنر نشاطهم،  
 ولكنهم لم يلبثوا أن هدأوا وسكنوا وخمدوا • ثم سرعان ما لاحظت  
 لديهم ميلاً الى الهزء والسخرية • أصبحوا الآن يضحكون لا من ادارة  
 السجن بل من الفارين الحمقى الذين لم يحسنوا تدبير الأمر • فعل ذلك  
 بعضهم فى البداية ، ثم فعلوه جميعاً بعد ذلك ، باستثناء عددٍ من السجناء  
 حافظوا على وقارهم واستقلالهم ، لأن السخريات لا تهزهم ، فكانوا  
 ينظرون الى الجمهرة الهائجة الطائشة نظرة احتقار ، ويلزمون الصمت  
 فلا يتكلمون •

وعلى قدر المديح والثناء والاطراء الذى كالمه فى أول الأمر  
 لصاحبيهم كوليكونف و آ • ف ، أخذوا الآن يذمونهما ويقدحون فيهما  
 ويشهرون بهما • حتى لقد كانوا يفعلون ذلك مسرورين محبورين ،  
 كأن الرجلين قد أساءا الى رفاقهم وألحقا بهم الاهانة حين أتاحا للسلطة أن  
 تقبض عليهما • وقيل فيما قيل : لعلهما قد عضَّهما الجوع فلم يستطيعا

أن يحتمل آلامه فذهبا الى ضيعة من الضياع يسألان الفلاحين شيئاً من خبز ، وهذا غاية الضعة والحطة والصغار فى متشرد • والحق أن هذه الروايات لم تكن صحيحة ، ذلك أن المطاردين قد اقتفوا أثر الهاربين ، حتى اذا صار الهاربون الى احدى الغابات ، أحاط بها المطاردون فأحكموا محاصرتها ، فلما رأى الهاربون أن لا سبيل لهم الى الفرار ، استسلموا ، وما كان فى وسعهم أن يفعلوا غير ذلك •

أعيد الهاربون فى المساء بحراسة رجال الشرطة ، وقد كبلت أيديهم وارجلهم • أسرع جميع السجناء نحو السياج ليروا ما سيصنع برفاقهم • فلم يروا الا عربتى الميجر والكومندان ترابطان أمام مقر الحرس • لقد أخفى الهاربون بعد أن أعيد تقييدهم بالسلاسل • اقتيدوا فى الغداة الى المحاكمة • وانقطعت سخريات السجناء من رفيقيهم من تلقاء نفسها ، وانقطع احتقارهم لهما ، حين عرف السجناء التفاصيل ، حين علموا أن رفيقيهما قد اضطرا الى الاستسلام اضطراراً ، لأنهما حوصرا من كل جهة فلم يكن لهما الا أن يستسلموا • واهتم جميع السجناء بالقضية اهتماماً فيه كثير من العطف والمودة •

— لا شك أنهم سيجلدون ألف جلدة !

— أوه ! أوه ! بل سيجلدون حتى الموت • قد لا يضرب آ • • • ف الا مائة ضربة بالعصا ، أما الآخر فلا شك أنهم سيميتونه • • • هل نسيت أنه من القسم الخاص ؟

كذب ظن السجناء • لقد حُكم على آ • • • ف بأن يضرب خمسمائة ضربة بالعصا • لقد اعتبر سلوكه الماضى أسباباً مخففة • ثم ان الذنب كان أول ذنب يرتكبه • أما كوليكوف فأظن أنه قد نال ألفاً وخمسمائة ضربة • والعقوبة كما ترون طفيفة • وكان الرجلان عاقلين حكيمين ،

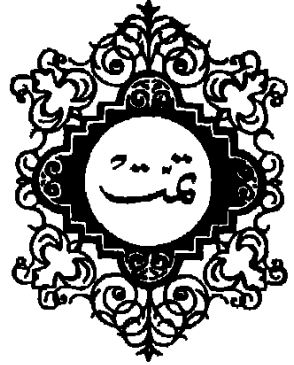
فلم يورثا في القضية أحداً ، وصرّحاً بأنهما فرّا من القلعة دون أن يدخلوا أي مكان من الأمكنة •

أخذتني الشفقة بكوهلر خاصة : لقد فقد بهذا الفعل آخر أمل له ، عدا العقوبة التي أنزلت فيه وهي ألفا ضربة • وقد أرسل بعد ذلك الى سجن آخر •

لم يكذب يعاقب آ • • ف ، فانه قد أعفى من الضرب بفضل الأطباء • ولكنه ما ان صار في المستشفى حتى أخذ يتباهى ويتبجح ، وأعلن أنه لن يتراجع بعد اليوم أمام أية عقبة ، وأنه سيعرف كيف يجعل الناس تتحدث عنه وتتناقل أخباره ! أما كوليكوف فلم يتغير ، بل ظل كما كان رجلاً لبقاً رضيعاً رزيناً • وحين عاد الى السجن بعد انزال العقوبة فيه كان كمن لم يغادر السجن لحظةً من اللحظات • ولكن السجناء أصبحوا لا ينظرون اليه كما كانوا ينظرون اليه من قبل ؛ فهم ، على رغم أنه لم يتغير ، قد أصبحوا في قرارة نفوسهم ، لا يضمرون له ما كانوا يضمرونه له من تقدير و إعجاب ، وأصبحوا يعاملونه معاملة الند للند •

لقد كبا نجم كوليكوف كثيراً بعد حادثة الفرار هذه • ان النجاح يعني كل شيء في هذا العالم •••

## الخلاصة



محاولة الفرار هذه أثناء السنة الأخيرة من اقامتي بالسجن • اننى أتذكر تلك السنة الأخيرة كما أتذكر السنة الأولى وضوحاً• ولكن فيم الافاضة فى سرد التفاصيل ؟ حسبى أن أقول ان هذه

السنة الأخيرة كانت أقل سنى منفاى مشقة وعذابا رغم تحرقى شوقا الى انتهاء مدة سجنى • كنت قد اكتسبت آخر الأمر كثيراً من الأصدقاء والأصحاب بين السجناء الذين استقر رأيهم على أننى رجل طيب • ان عددا كبيرا قد أخلص لى المودة وأحببني حباً صادقا • حتى أن جسدى سلاح الهندسة قد أوشك أن يبكى حين شبعنا أنا ورفيقى الى خارج السجن ؛ وحين أفرج عنا تماما أصبح يزورنا كل يوم تقريبا فى مبنى تابع للدولة حدّدت اقامتنا فيه خلال الشهر الذى قضيناه فى المدينة • غير أن هناك وجوهاً قاسية متجهمة مكفهرة لم أستطع أن أحظى برضاها وأن أكتسب صداقتها ، لا يدرى الا الله لماذا ! لكأن حاجزا سميكاً كان يفصل بيننا وبينها ، لكأن سداً منيعاً كان يحجبنا عنها •••

وقد تمتعت خلال تلك السنة الأخيرة بامتيازات لم أكن أتمتع بها

قبل ذلك • كنت قد وقعت بين الموظفين العسكريين في مدينتنا على اناس  
 اعرفهم بل وعلى رجال كانوا من رفاي في المدرسه ، فاعتقدت بيني  
 وبينهم صلات ، ويفضلهم انما اصبحت اتلقى مالاّ وأكتب الى اسرتي  
 رسائل بل وأملك بعض الكتب • ننت لم املك كتابا واحدا منذ سنين •  
 لذلك يصعب علىّ ان اصف الشعور الغريب الذى شعرت به والانفعال  
 الشديد الذى عانيته حين قرأت في السجن اول كتاب اتيح لى ان اقرأه •  
 لقد أخذت ألتهمه فى المساء حين اغلقت علينا الابواب ، فما زلت أقرأ  
 الليل كله حتى مطلع الفجر • ان ذلك العدد من المجله قد بدا لى كأنه  
 رسول هبط على من العالم الاخر • ارتسمت حياتى الماضيه امام عينى  
 بارزة واضحه حينداك ، وحاولت ان اعرف هل انا تخلفت وهل عاشوا  
 كثيرا بدونى هناك ! تساءلت عما يشغل بالهم ويحرك نفوسهم ، تساءلت  
 عن المسائل التى اصبحت نعيمهم وعن المشكلات التى اصبحت تهمهم •  
 كنت أتلبث على الكلمات قلعا ، واقرا بين السطور ، وأحاول ان افهم من  
 العبارات معناها الحفى ، وان ارى ما فيها من اشارات الى الماضى الذى  
 أعرفه • كنت أقتفى آثار الأشياء التى كانت تهز الانفعال فى زمانى فما  
 كان أشد حزنى حين اضطررت أن اعترف لفسى بأننى اصبحت غريبا  
 عن الحياة الجديدة ، وأنتى الان عضو فى المجتمع منفصل عنه منبوذ  
 منه ! لقد تأخرت وتخلفت • علىّ أن اعرف الجيل الجديد • لقد وقعت  
 على مقالة مذيلة باسم انسان عزيز على نفسى فارتميت على المقالة ألتهمها  
 التهاماً ••• ولكن أصحاب اكثر المقالات الاخرى اناس لا اعرفهم • ان  
 عاملين جدداً قد أصبحوا الآن على المسرح • أسرعرت أتعرف بهؤلاء  
 العاملين الجدد • وأحزنتى أشد الحزن أن لا أملك الا هذا العدد القليل  
 من الكتب ، وأن يكون الحصول على المزيد منها صعباً كل هذه الصعوبة •  
 وقبل ذلك ، فى عهد الميجر السابق ، كان احضار كتب الى السجن

مجازفة كبيرة ومخاطرة عظيمة • فاذا عثرت الادارة على كتاب فى السجن أثناء التفتيش ، قامت مشكلة ضخمة ونشات قصة طويلة ، فانت تُسأل من أين جئت بالكتاب ، وانت تُتهم بأن لك شركاء تواطأت معهم • بماذا كان يمكن أن أجيب لو أُلقيت على أسئلة كهذه الأسئلة ؟ لذلك عشت فى السجن بغير كتب ، منطوياً على نفسى ، طارحاً مشكلات أحاول أن أحلها ، مشكلات تقض مضجعى وتقلبنى أشد القلق فى كثير من الأحيان ••• ولكن حسبى ما قلته ، فليس فى وسعى أن أعبر عن هذه الشجون تعبيراً كافياً فى يوم من الأيام !

كان ينبغى اطلاق سراحى فى الشتاء لاننى دخلت السجن فى الشتاء • سوف يدخل سبيلى فى مثل اليوم الذى وصلت فيه الى السجن منذ سنين • فما كان أشد تحرقى شوقاً الى حلول ذلك الشتاء السعيد ! ما كان أعظم فرحى وابتهاجى حين كنت ألاحظ أن الصيف يشارف على الانتهاء ، فأرى الأوراق تصفرُ على الأشجار وأرى العشب يصوِّح فى المروج ! لقد انقضى الصيف ••• هذه ريح الخريف تُن ، وهذا هو الثلج يهطل عاصفاً أول مرة ••• ان ذلك الشتاء الذى طالما انتظرتة قد حل أخيراً ••• أصبح قلبى يخفق خفقانا سريعاً حين أستشعر اقتراب الحرية • ومع ذلك ، كلما انقضى الوقت واقترب الموعد أصبحت أكثر هدوءاً وأجمل صبراً • شئ غريب • دُهشت أنا نفسى ، حتى لقد اتهمتنى ببرود العاطفة وقلة الاكترات •

وأخذ كثير من السجناء يتحدثون معى ويهتئونى حين ألقاهم فى

الفناء بعد انتهاء الأعمال •

— هيه ألكسندر بتروفشس العزيز ! سوف يطلق سراحك قريباً ،

فتركنا وحيدين نحن الأشقياء ! •••

كذلك قال لى أحدهم ، فسألته :

- وأنت يا مارتينوف ، متى تنتهى مدة سجنك ؟

- أنا ؟ بعد سبع سنين يا عزيزى ••• سبع سنين أسلخها هنا فى

كدي وعناء •••

قال مارتينوف ذلك وتهد ، ثم وقف ونظر الى بعيد شارد اللب

داهلاً كأنه ينظر الى المستقبل •••

نعم ••• كان كثير من رفاقى يهثونى بصدق ومودة • حتى لقد  
بدا لى أنهم أصبحوا أكثر لطفاً وبشاشة فى معاملتى • أنا الآن لا أتمنى  
اليهم ، أنا لست الآن نظيرهم وشيئهم • انهم يودعوننى • وكان  
ك ••• زنسكى ، وهو شاب بولندى من طبقة النبلاء ، حلو الطبع هادىء  
وديع ، كان يحب أن يتجول مثلى فى فناء السجن • انه يأمل أن يحافظ  
على صحته بالتروض واستنشاق الهواء النقى بعد العذاب الذى يلقاه  
اختناقاً فى اللبالي الطويلة داخل الثكنات • قال لى ذات يوم مبتسماً بينما  
كنا نتززه معاً :

- اننى أنتظر خروجك من السجن بصبر فارغ • فمتى خرجت

أنت عرفت أنا أن قد بقى من مدة سجنى عام •

يجب أن أذكر هنا عابراً أن الحرية أصبحت بفضل ما نسبغه عليها  
من خيالنا وفكرنا ، أزخر بالحرية من الحرية كما هى فى الواقع • كان  
السجناء يضحمون معنى الحرية • ذلك أمر يشترك فيه جميع من  
يودعون السجن • رب خادم رث من خدم الضباط يبدو للسجين كأنه  
ملك من الملوك ••• انه مثال الانسان الحر • انه بغير سلاسل تقييد  
ساقيه ، انه لم يُخلق له شعر رأسه ، انه يذهب الى حيث يشاء دون خفير  
يحرسه •

حين هبط الغسق ، عشيةً اطلاق سراحى ، طفت حول السياج  
« آخر طواف ! » ... لقد طفت حول هذا السياج آلاف المرات خلال  
هذه السنين العشرة ! ما أكثر ما تجولت وراء الثكنات أثناء السنة الأولى  
وحيداً حزيناً يائساً ! اننى أتذكر كيف كنت أعدّ الأيام التى كان مايزال  
على أن أفضيها فى السجن • كان عددها عدة آلاف • يا رب ! ما أبعد  
ذلك العهد ! ... فى هذا الركن قبع نسرنا السجين ... فى هذا المكان  
كنت ألقى بتروف فى كثير من الاحيان ... لقد اصبح بتروف لايفارقنى  
الآن • فهو يسرع الىّ ، ويسير الى جانبى صامتاً كأنه يريد أن يحزر  
ما يجول فى ذهنى من خواطر ، ويدهش بينه وبين نفسه لا يدرى الا  
الله من أى شىء ! ... قلت فى ذهنى : وداعاً ... قلتها لعوارض  
الأخشاب المتشققة التى تتألف منها جدران الثكنات ... كم من أعمار  
فتية وقوى معطلة دُفنت وضاعت بين هذه الجدران دون ان يفيد ذلك  
أحداً ! يجب أن نعرف فنقول : ان أولئك الرجال جميعاً كانوا أناساً  
خارقين ... لعل أولئك الرجال جميعاً كانوا خير أبناء شعبنا مواهب  
وقدرة • غير أن هذه القوى الجبارة قد أُهدرت الى غير رجعة ! من  
المنذب فى هذا ؟

نعم من المنذب ؟

وفى ساعة مبكرة من غداة ذلك المساء ، قبل أن يصطف السجناء  
للذهاب الى العمل ، طفت بجميع الثكنات أودّع السجناء • ان كثيراً من  
الأيدي الخشنة القوية قد امتدت تصافحني بمودة ؛ وان بعض السجناء  
قد صافحونى كما يصافح الرفيق رفيقه ، غير أن هؤلاء كانوا هم القلة  
القليلة • أما الآخرون فقد كانوا يشعرون شعوراً قوياً بأننى أصبحت  
الآن شخصاً آخر تماماً ، وبأننى لست الآن واحداً منهم • كانوا يعرفون  
أن لى بالمدينة أناساً أعرفهم ، وأننى ذاهبٌ رأساً الى منزل « سادة » ،



أجلس الى موائدهم نداءً لهم • كان السجناء يدركون ذلك ، لهذا لم تكن مصافحتهم لي مصافحة الند للند ، رغم ما كان فيها من مودة وبشاشة ولطف • وهناك سجناء أشاحوا وجوههم عني ، ولم يردوا لي تحية الوداع • حتى لقد رشقني بعضهم بنظرات فيها كره وبغض •

قُرِعَ الطبل ، ومضى جميع السجناء الى العمل • بقيت وحدي • كان سوشيلوف قد نهض قبل جميع الناس وأخذ يتحرك من أجل أن يعد لي الشاي مرة أخيرة • مسكين سوشيلوف ! لقد بكى حين أعطيته ثيابي وقمصاني وسيور الجلد التي توضع تحت السلاسل وفليلا من المال • وقال لي وهو يعرض علي شفتيه المرتعشتين : « لا •• ليس هذا •• ليس هذا ما أفقده •• انني أفقدك أنت يا ألكسندر بتروفتش •• ما عساي فأغلاّ الآن بدونك ؟ •• » •

وودعت أيضاً آكيم آكيمتش • قلت له :

– قريبا يطلق سراحك أنت أيضاً •

فدمدم يقول وهو يشد على يدي :

– سأبقى هنا زمناً طويلاً ، طويلاً جداً •••

وارتميت عليه وتعانقنا •

وبعد خروج السجناء بعشرة دقائق ، بارحنا السجن أنا ورفيقي

الى الأبد • ذهبنا الى ورشة الحدادة حيث كان يجب أن تحطم أغلالنا • لم يخفنا حرس مسلحون في هذه المرة • وانما ذهبنا الى ورشة الحدادة يصحبنا واحد من ضباط الصف • تولى تحطيم أغلالنا سجناء يعملون في ورشة الهندسة • انتظرت كسر أغلال رفيقي ، ثم اقتربت من السندان • أدار الحدادون ظهري ، وأمسكوا بساقي فمدوها على السندان •••

كانوا يتحركون كثيراً ويضطربون كثيراً • انهم يريدون أن ينفذوا عملهم بسرعة ومهارة •

أمر معلم الحدادة مساعدته قائلاً :

– عليك بمسماز المفصل أولاً ••• أدر مسماز المفصل ••• ضعه هكذا ، ضعه جيداً ••• والآن اضربه بالمطرقة •

سقطت الأغلال • أنهضتها ••• كنت أريد أن أمسكها بيدي ، وأن أنظر اليها مرة أخرى ••• أدهشني أنها كانت منذ لحظة تكبل ساقى • قال لى السجناء الحدادون بأصواتهم التي كانت غليظة متقطعة ولكنها كانت فرحة :

– وداعاً ! •••

نعم ••• وداعاً ! ••• الى الحرية ، الى الحياة الجديدة ! ••• الى الانبعاث من بين الأموات ! •••

كانت تلك لحظة لا سبيل الى وصفها !

## حواش

- الصفحة
- ١٤ \* « الأشغال الشاقة من الفئة الثانية » : هي العمل فى بناء القلاع التى كانت تشاد فى سيبيريا للسيطرة على حركات العصيان والتمرد التى كان يمكن أن يقوم بها أهل سيبيريا دائما . أما الأشغال الشاقة من الفئة الأولى فهى العمل فى المناجم ، وأما الأشغال الشاقة من الفئة الثالثة فهى العمل فى المصانع
- ١٤ \* مدينة كوك . . . لعلها مدينة كوزنتسك من إقليم آلمونسك حيث تزوج دوستويفسكى زوجته الأولى سنة ١٨٥٧ .
- ٣١ \* « الشارع الأخضر » : كلمة مالوفة تعنى عقوبة الجلد : لقد كان على المحكوم عليه بعقوبة الجلد أن يمر بين صفيين من الجنود يحمل كل منهم سوطا ويهوى به على ظهر السجين .
- ٣٢ \* ان اسم هذا الميجر هو كريفتسوف . أما الرئيس فهو الجنرال فون جراف .
- ٣٥ \* ان قاتل أبيه هذا الذى أدهش دوستويفسكى لم يكن هو القاتل ، وإنما القاتل أخوه الأصغر ، وقد اكتشفت الجريمة بعد عشر سنين . وسينذكر دوستويفسكى ذلك فى مطلع الفصل ٧ من الجزء الثانى من « ذكريات منزل الأموات » .
- ٤٢ \* كان الشعب الروسى يطلق على نزلاء سجون الأشغال الشاقة اسم « عاترى الحظ » ، أو « الأشقياء » .
- ٤٩ \* « الفارتيكوتبانبوست » : ليس لهذه الكلمة معنى ، وإنما كان

- السجين يتوهم أنها لفظة فرنسية معناها حسن السلوك ، فهو ما ينفك يستعملها بهذا المعنى تندرا وتفكها .
- ٥٠ ★ « كاجان » : لا وجود لطائر بهذا الاسم . وتعنى كلمة كاجان، فى بعض اللغات الشرقية ، الملك أو الأمير .
- ٥١ ★ « نيفاليد » تحريف للكلمة الفرنسية « أنفاليد » التى تعنى مشوه الحرب .
- ٥٢ ★ « الكفاس » : شراب مخمر يستخرج من نقع الحبز الأسود مع دقيق الشعير .
- ٥٥ ★ سيتحدث دوستويفسكى عن واحد من السجناء الذين كانوا ينتمون الى طبقة النبلاء قبل دخولهم السجن ، وهو آ ٠٠ و ( ارستوف ) ، وذلك فى الصفحة ١٣٩ من هذا الكتاب .
- ٧١ ★ ان م ٠٠ كى هو الثورى البولندى ألكسندر ميرتسكى الذى حكم عليه سنة ١٨٤٦ بسجن الأشغال الشاقة مدة عشرة سنوات ثم صدر عفو عنه قبل انتهاء هذه المدة .
- ٧٢ ★ ان مدينة فباتكا الواقعة فى أراضى لتوانيا قد أصبحت منذ زماية القرن السابع عشر ملجأ هذه الملة الدينية التى تحارب اصلاحات البطريق نيكون .
- ٨٣ ★ ان اسم سيروتكن مشتق من كلمة سيروتا ومعناها اليتيم ويقال « يتيم قازان » عن شخص يمثل دور الفقير .
- ٨٦ ★ « نرتشنسك » مدينة فى ترانسبايكالى كانت مركزا لمنطقة مناجم يرسل اليها السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة من الفئة الأولى . راجع حاشية الصفحة ٢٠
- ١٣١ ★ « برولوف » رسام روسى ( ١٧٩٩ - ١٨٥٢ ) ، يرجع أصله الى أسرة هوجنوتية فرنسية اسمها برولولو .
- ١٣٨ ★ زارت دوستويفسكى فى مدينة توبولسك سنة ١٨٥٠ ثلاث نساء من الديسمبريين هن : مورافيوفا و آنكوكفا و فونفيزينا

- اللواتى أبين الا أن يتبعن سنة ١٨٢٦ أزواجهن المنفيين الى  
سيبيريا .
- ★ ١٣٩ « رفيق من رفاق السجن » : انه سرجى ف دوروف ، عضو  
حلقة بتراشفكى الذى حكم عليه بالسجن حين حكم على  
دوستويفسكى ، وقد ساءت العلاقة بين الرجلين أثناء اقامتهما  
فى السجن .
- ★ ١٤٢ « السائق » صف ضابط من سلاح الهندسة .
- ★ ١٦٨ « ب ٠٠٠ » : هو جوزيف بوجوسلافسكى ، ثورى بولندى .
- ★ ١٧٢ « بونابرت » : المقصود هنا لويس نابوليون بونابرت الذى  
انتخب رئيسا لجمهورية فرنسا فى ١٠ كانون الأول  
( ديسمبر ) ١٨٤٨
- ★ ١٨٥ « فاسيا » : مصغر فاسيلى .
- ★ ١٩٧ « علبة صغيرة » : ان هذه العلبة المكعبة تمثل عند اليهود  
هيكل سليمان ، وقد كتبت فيها الوصايا العشر .
- ★ ٢١٥ « مرآة العدالة » : ان « مرآة العدالة » التى كانت توجد على  
منضدة كل محكمة روسية هى نوع من موشور مثلث قائم على  
نسر مذهب له رأسان . وعلى كل وجه من وجوه الموشور يقرأ  
المرسوم الذى أصدره بطرس الأكبر بشأن اجراءات المحاكمة  
وحق المواطنين . وكانت هذه « المرآة » تمثل السلطة  
الامبراطورية الموجودة فى كل مكان ، وتأمّر بالتزام أقصى  
حدود الأدب .
- ★ ٢٤٤ « الغريمان فيلادكا وميروشكا » : مسرحية هزلية من تأليف  
بج جريجورييف ، مثلت فى بطرسبرج منذ سنة ١٨٣١ ثم  
راجت كثيرا فى الأقاليم .
- ★ ٢٤٥ « كدريل » : لعل اسم كدريل أن يكون تحريفا لاسم  
بدريللو .
- ★ ٢٥٩ « غرفتى الصغيرة » ، أغنية روسية مشهورة جدا .

- ★ ٢٦٤ « الكارامنسكايا » : رقصة روسية شعبية عنيفة جدا  
يصاحبها غناء فى كلماته استهتار .
- ★ ٢٦٦ « براهمى يرتدى مسوح الكاهن » ، لعل المقصود بالبراهمى  
قس من القسس .
- ★ ٣٠٢ « م ٠٠٠ كى » : راجع حاشية الصفحة ٧٩ : لعل  
دوستويفسكى تعمد ان يخطئ حين قال عن م ٠٠٠ كى انه  
لا ينتمى الى طبقة النبلاء ، وذلك حتى لا يلج على عدم  
مشروعية العقاب الجسدى الذى أنزل فى الكسندر ميرتسكى  
الذى ينتمى فى الواقع الى الطبقة النبيلة .
- ★ ٣٠٤ « نوزدريوف » : شخصيه من شخصيات كتاب جوجول  
« النفوس الميتة » . انه نوزدريوف سكير عرييد مقامر .
- ★ ٣٠٤ « ما تزال ذكراه حية ٠٠٠ » : بيت من الشعر يجرى على  
اللسن مجرى المثل ؛ وهو يرد فى مسرحية جريويدوف  
التي عنوانها : « كثير من الفكر ضرر » وذلك على لسان  
تشاتسكى .
- ★ ٣١٤ « تحدثت هنا عن العقوبات » : ان كل ما أرويه عن العقوبات  
الجسدية كان موجودا فى زمانى . ولكننى سمعت أن كل  
شئ قد تغير الآن وما يزال يتغير ( هذه الحاشية كتبها  
دوستويفسكى ) .
- ★ ٣١٨ « المركيزة برنفلييه » : هى المركيزة مارين مادلين دى  
برنفلييه التى قتلت أباهما واخوتها وأقرباء آخرين لتستولى  
على ميراثهم . وقد عذبت سنة ١٦٧٦ .
- ★ ٣٢٦ « م ٠٠ كى و ب ٠٠ » هما ميريكى وبوجوسلافسكى الثوريان  
البولنديان .
- ★ ٣٣٣ « هل عندكما أوراق ؟ » : أى هل عندكما جواز سفر .
- ★ ٣٣٣ « ان معى رفيقين يعملان فى خدمة الجنرال وقوان » : يعنى  
انهما فى الغابة حيث يفرد طائر « الوقواق » ، أى أنهما  
متشردان أيضا ( حاشية كتبها دوستويفسكى ) .

- ★ ٣٤٦ «هلموا نلطح باب أكولكا بالقطران» : ان تلطيخ باب منزل تسكنه فتاة يعنى أن هذه الفتاة قد فقدت بكارتها .
- ★ ٣٩٨ « كان الجدى يعد فالا حسنا فى الاسطبلات الروسية .
- ★ ٤٠٤ « ان القصة المؤثرة التى تروى عن ملازم اسمه ايلنسكى اتهم ظلما بأنه قتل أباه قد استعمل دوستويفسكى بعضها فى موضوع « الاخوة كارامازوف » .
- ★ ٤١١ « تقع تاجا نروج على بحر أزوف ، وتقع بشروپافلوسك فى كامتشاتكا ، فالمسافة بينهما ألفا فرسخ .
- ★ ٤٢٢ « . ت . سكى » هو سيمون توكارفسكى (١٨٢٣ - ١٩٠٠) الثورى البولندى ، مؤلف كتاب بعنوان « سبع سنوات » فى المعتقل :
- ★ ٤٣٤ « ثمانية رفاق آخرين » : هم بولنديون من السجناء السياسيين .
- ★ ٤٣٤ « ب . سكى » ثورى بولندى .
- ★ ٤٣٤ « ز . سكى » : جوزيف زوخوفسكى ثورى بولندى ولد عام ١٨٠٠ ، وحكم عليه سنة ١٩٤٨ بالسجن مع الأشغال الشاقة عشر سنين ، ومات فى السجن سنة ١٨٥١ .
- ★ ٤٣٦ « أو - جورسك » : هى أوست - كامينوجورسك ، مدينة من سيبريا الغربية فى اقليم سيميپالاتنسك .
- ★ ٤٣٩ « هم الديسمبريون » الذين نفوا سنة ١٨٢٦ ( وعددهم يربو على المائة ) .
- ★ ٤٤١ « هم الديسمبريون » فى توبولسك .
- ★ ٤٥٠ « أما أنا فبحمد الله ميجر » : لم يكن هذا الميجر بالضابط الوحيد الذى يستعمل هذا التعبير ، بل كان ثمة ضباط

عسكريون آخرون يفعلون ذلك فى زمانى ، ولا سيما أولئك  
الذين ارتقوا من رتبة ضابط صف • ( هامش كتبه  
دوستويفسكى ) •

★ ٤٦٧ « قتلتما موت البقر » أى قتلا فلاحا أو فلاحا اشتبها فى أنها  
دعت على الماشية بالموت • ولقد كان فى سجننا قاتل من هذا  
النوع ( هامش كتبه دوستويفسكى ) •

★ ٤٦٨ « ياكشى » : كلمة تعنى باللغة التتارية « طيب » ؛ و « يوك »  
تعنى « كلا » •



# فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
	الجزء الأول
	مدخل
١٣	الفصل الأول : منزل الموتى
٢٣	الفصل الثاني : المشاعر الأولى ( تنمة )
٤٤	الفصل الثالث : المشاعر الأولى ( تنمة )
٧١	الفصل الرابع : المشاعر الأولى ( تنمة )
٩٢	الفصل الخامس : الشهر الأول
١١٧	الفصل السادس : الشهر الأول ( تنمة )
١٣٨	الفصل السابع : أصحاب جدد - بتروف
١٦١	الفصل الثامن : أولو العزم - لوقا
١٨١	الفصل التاسع : أشعيا فومتش - الحمام - قصة باكلوشين
٢١٦	الفصل العاشر : عيد الميلاد
٢٤١	الفصل الحادى عشر : التمثيل
	الجزء الثانى
٢٧٣	الفصل الأول : المستشفى
٢٩٣	الفصل الثاني : المستشفى ( تنمة )
٣١٤	الفصل الثالث : المستشفى ( تنمة )
٣٤٠	الفصل الرابع : زوج أكولكا ( قصة )



# دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبانين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتربه ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية "التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سربرنييف